بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية اللغة العربيـة

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أمل محسن بن سالم العميري كلية : اللغة العربية قسم : الدراسات العليا ـ فرع الأدب .

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجســـتير في تخصص : الأدب .

عنوان الأطروحة : (الفقهاء وحركة الأدب في الأندلس عصريْ الطوائف والمرابطين) .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٣٠ / ١٢ / ١٤٢٠هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإنَّ اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
الاسم : أ . د .حسن عبدالكريم الوراكلي	الاسم : أ . د .مصطفى عبدالواحد إبراهيم	الاسم : أ . د .عبدالحميد عبدالعظيم القط
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : ....

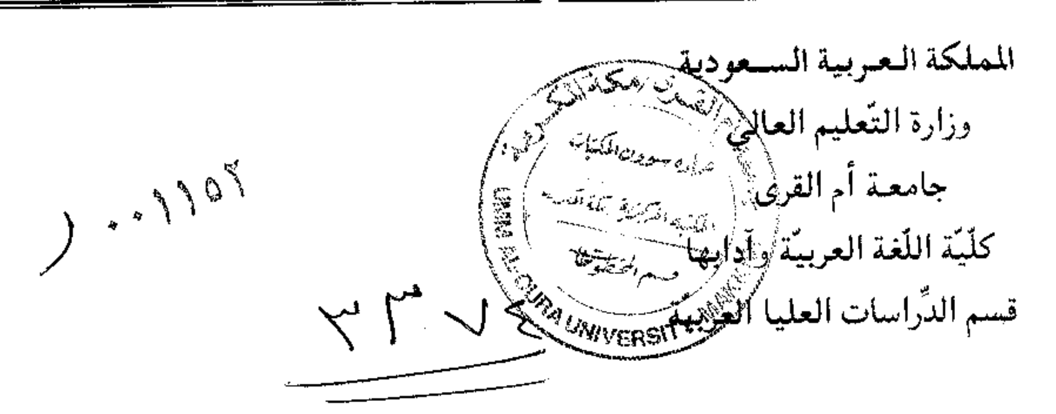
يعتمد :

رئيس قسم الدراسات العليا العربية

أ . د . محسن بن سالم رشيد العميري

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التّعليم العالي
جامعة أم القرى
كلّيّة اللّغة العربيّة وآدابها
قسم الدّراسات العليا العربيّة



فقهاء الأندلس وحركة الأدب
عصري الطوائف والمرابطين

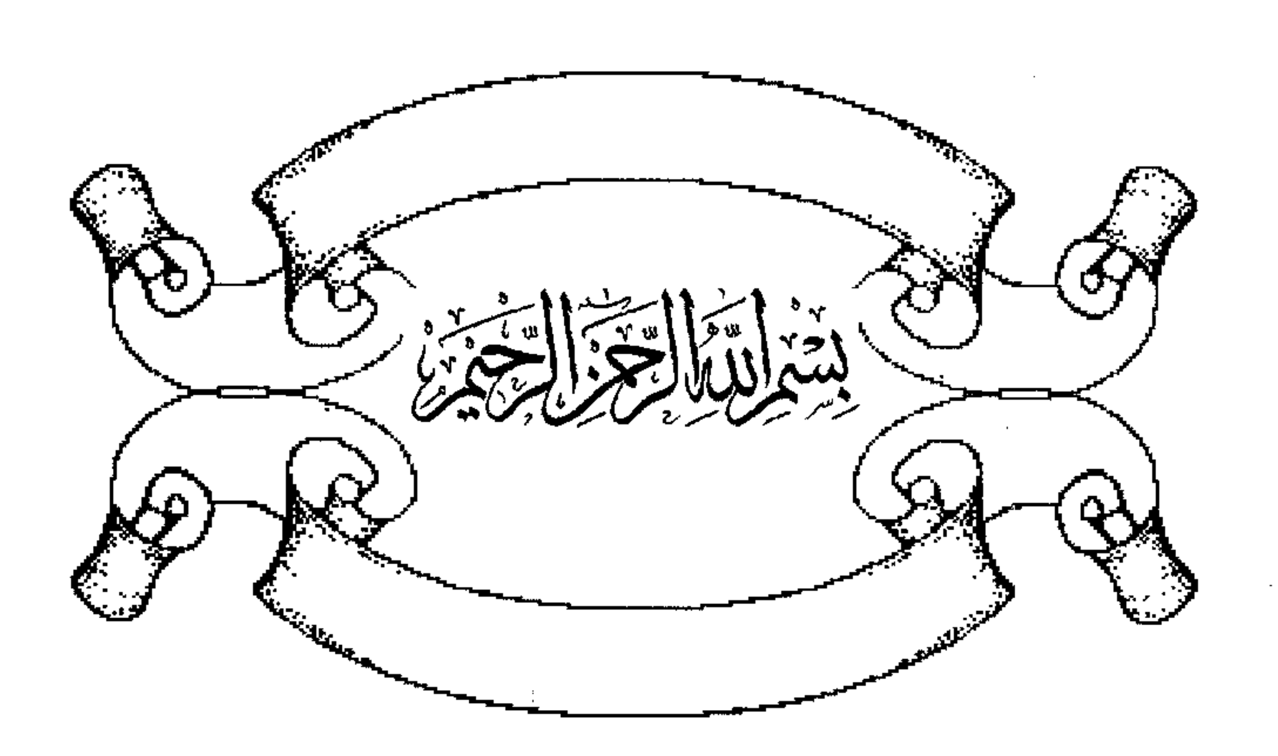
رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها
تخصص الأدب

إعـداد
الطالبة / أمل محسن بن سالم العميري
الرقم الجامعي (٧ـ ٢٠ ٨١ ـ ٤١٥)

إشراف
الأستاذ الدّكتور / حسن عبدالكريم الوراكلي

١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

[ملخص رسالة ماجستير في الأدب]

الحمدلله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيّدنا ونبيّنا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .. أمّا بعد :

فهذا بحث بعنوان (فقهاء الأندلس وحركة الأدب عصري الطوائف والمرابطين) ، يهدف إلى بلورة إسهام فقهاء الأندلس في حركة الأدب عصري الطوائف والمرابطين ، ودراسة أدبهم من خلال منشآتهم الأدبية والإبداعية دراسة شاملة . لذلك كان اعتمادي - في هذا البحث - على المنهج التكاملي ، الذي يجمع بين التأريخ والوصف والتحليل . وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم إلى ثلاثة فصول تسبقها مقدمة ومدخل ، وتلحقها خاتمة .

تحدثت في المقدمة عن تقديم الرسالة ، ودواعي اختياري لهذا الموضوع ، وبيان منهج الدراسة فيه ، أما المدخل فقسمان :

أ - دار الحديث فيه حول الحياة الأدبية في ظل ملوك الطوائف والمرابطين .

ب - أدرت الحديث فيه عن ثقافة الفقيه الأندلسي ، ومكوناتها .

ثم جاء الفصل الأول وكان بعنوان (المنشآت الشعرية في تراث الفقهاء) ، وقد احتوى هذا الفصل على دراسة لأغراض شعر فقهاء الأندلس وظواهره الفنية إبان الفترة المدروسة .

ثم كان الفصل الثاني عن (المنشآت النثرية في تراث الفقهاء) ، وعنيتُ فيه بالتراث النثري لفقهاء الأندلس ، وبعد تفصيل القول في ذلك التراث ، وبيان أثره ومساهمته في حركة الأدب عقبتُ بدارسة موجزة للخصائص الفنية لهذه المنشآت .

وجعلت الفصل الثالث عن (المنشآت النقدية في تراث الفقهاء) ، وتحدثت فيه عن مشاركة الفقهاء في الحركة النقدية إبان الفترة المدروسة ، وقد كانت هذه المشاركة تتمثل في أعمال أمكن تصنيفها إلى :

أ - أعمال كاملة ، مثل ما وصلنا من تراث الفقيه أبي القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي.

ب - أعمال جزئية ، أو مبثوثة في ثنايا كتب غير نقدية لهم .

وبعد تفصيل القول في هذين الصنفين أشرت إلى الخيط الذي انتظم فيه نقد الفقهاء ، فوجدته لايختلف عما ألفناه عند نقاد الأندلس بعامة ، وأهم سماته (الطابع الديني ، والخلقي) .

الخاتمة : وفيها لخصت أهم النتائج والمعطيات التي توصلت إليها من خلال هذا البحث ، والله ولي التوفيق . وصلى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم .

الباحثة	المشرف على الرسالة	عميد كلية اللغة العربية
أمل محسن سالم العميري	أ.د . حسن عبدالكريم الوراكلي	د . صالح جمال بدوي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، والصلاة والسلام على صفوته من خلقه سيّدنا ونبيّنا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد:

فهذه مقدمة تعرِّف - في إيجاز - بموضوع البحث ، ومحتواه ، ونتائجه .

موضوع البحث ودواعي اختياره :

فقهاء الأندلس من الشخصيات التي كان لها إسهامها في حركة الأدب بمستوييها الإبداعي والنقدي في مختلف العصور ، وخاصة عصريْ الطوائف والمرابطين ، ومع ذلك فإن هذا الإسهام لم يلفت انتباه أحد من الباحثين - على حد علمي - فيوليه عنايته بتسليط الضوء على تلك الإسهامات بما يشفي ويكفي . ولذا ورغبة مني في الإسهام في دراسة الأدب الأندلسي واستكمال البحث في ظواهره وقضاياه وبتوجيه من أستاذي المشرف الدكتور/ حسن عبدالكريم الوراكلي وقع اختياري علي هذا الموضوع ، وهو « **فقهاء الأندلس وحركة الأدب** عصريْ الطوائف والمرابطين » للحصول على درجة (الماجستير) في الأدب العربي راجية من الله العون والتوفيق والسداد .

أهداف البحث وأهميته :

- يهدف البحث إلى بلورة إسهام فقهاء الأندلس - عصريْ الطوائف والمرابطين - في حركة الأدب الأندلسي إبان تلك الفترة .

- دراسة شاملة لأدب فقهاء الأندلس - عصريْ االطوائف والمرابطين - من خلال منشآتهم الأدبية والنقدية .

- تقديم إضافة متواضعة لمكتبة الدراسات الأدبية بعامة والأندلسية بخاصة .

منهج البحث :

اعتمدت في إعداد هذا البحث على المنهج التكاملي ، وهو المنهج الذي يجمع بين التاريخ ، والوصف ، والتحليل ، ويأخذ من مناهج مختلفة قديمة وحديثة في آن واحد فالبحث يتطلب :

- الإلتفات إلى الجانب التأريخي في عصري الطوائف والمرابطين ، وتأثر الفقهاء بهذين العصرين .

- وصف مؤثرات البيئة والعصر وأثرها في شخصية الفقهاء ونتاجهم الإبدعي والنقدي .

- تحليل منشآتهم الشعرية والنثرية ، ثم دراسة الظواهر الفنية فيهما .

خطة البحث ومحتواها :

جعلت خطة هذا البحث مبنية على ثلاثة فصول يسبقها مقدمة ومدخل .

المقدمة : تحدثت فيها عن تقديم الرسالة .

المدخل : وقسمته إلى قسمين :

أ - وفيه دار الحديث حول الحياة الأدبية في ظل ملوك الطوائف والمرابطين، فمع انفراط عقد الوحدة السياسية للأندلس إبان عصر ملوك الطوائف ، إلا أنّ ذلك لم ينعكس على الحياة الأدبية بتراجعها ، بل على العكس فقد اشتدت المنافسة بين هؤلاء الملوك الذين عرفنا عن بعضهم حب الأدب ورعايته ، أضف إلى ذلك أنّ منهم من كان أديباً يقدر الأدب مثل المعتمد بن عباد .

كما نفَيْتُ زعم من زعم أن الأدب قد أصيب بالخمول والضعف - إبّان عصر المرابطين - وقد بينت أن هذا زَعْمٌ بعض المستشرقين ، وقد تبعهم في ذلك بعض من الدارسين العرب .

ب ـ وفي هذا القسم تناولت الحديث عن ثقافة الفقيه الأندلسي ومكوناتها، وهي ثقافة ـ كما اتضح لي ـ تغرف من عدة ينابيع فقهية ، وأدبية ، وعلمية . فالفقيه الأندلسي لم يكتف بتخصصه الشرعي ، بل تعداه إلى التأثر بما حوله من ثقافات أخرى ، وقد ظهرت هذه الألوان الثقافية في نتاجه الإبداعي والنقدي .

ـ الفصل الأول : المنشآت الشعرية في تراث الفقهاء :

احتوى هذا الفصل على دراسة لأغراض شعر فقهاء الأندلس إبان الفترة المدروسة ، وقد تبين لنا أن هؤلاء الفقهاء تناولوا كلما تناوله شعراء عصرهم والشعراء من قبلهم ، ولم تحل مكانتهم الاجتماعية والعلمية بينهم وبين تناول كافة موضوعات الشعر وأغراضه ، لكن ذلك كان يتم في إطار رؤيتهم الدينية ونظرتهم الخلقية ، وقد بينت ذلك من خلال عرضي لمنشآتهم الشعرية التي تميزت بالوفرة والغزارة .

ثم ألحقت الفصل بدراسة موجزة عن الظواهر الأدبية والفنية لشعر هؤلاء الفقهاء ، ووجدت أنها لاتختلف عن الظواهر الأدبية والفنية التي شاعت في شعر شعراء عصرهم من صور فنية ، وأساليب تعبيرية ، ومحسنات بديعية ، وموسيقي شعرية ، إلى غير ذلك من الظواهر الفنية .

ـ الفصل الثاني : المنشآت النثرية في تراث الفقهاء :

وعنيت فيه بالتراث النثري لفقهاء الأندلس ، فوجدت أنه وفير لايمكن التقليل من شأنه ، كما أنه ساهم في إعطاء صورة واضحة للمجتمع الأندلسي ـ إبان تلك الفترة ـ من الناحية الاجتماعية ، والسياسية ، والدينية .

ولغزارة هذا التراث قسمته إلى عدة أقسام واكتفيت بإيراد بعض الشواهد على كل قسم ، وهذه الأقسام هي : الرسائل ، وهي كذلك تنقسم

إلى عدة أقسام : دينية ، وإخوانية ، وديوانية، ووصفية ، ورسائل الزرزوريات، ورسائل الإجازة . وبعد الرسائل نأتي إلى القسم الثاني من نثر هؤلاء الفقهاء ، وكان عن الخطب ، فوجدت أن ما وصلنا منها قليل جداً ، على عكس أسماء الخطباء المحفوظة في كتب التراجم فهم كثر، إلا أن المصادرلم تحتفظ لنا بخطبهم كما احتفظت لنا بذكر جوانب من سِيَرهم وتراجمهم .

ثم انتقلت إلى القسم الثالث ، وكان يدور حول المقامات ، وقد بد فيها التأثر الواضح بالمقامات المشرقية من بديعية ، أو حريرية ، غير أن الفقهاء لم يقصدوا من هذه المقامات التي كتبوها معارضة المقامات المشرقية بقدر ما كانوا يرمون إلى مجاراتها وتبيان مقدرتهم اللغوية والأدبية في الخوض في هذا المجال الأدبي .

وكان من أبرز الفقهاء الذين أشرت إليهم في كتابة هذا الفن أبو الطاهر السرقسطي ، فقد ألّف خمسين مقامة جمعها في كتاب سماه بـ (المقامات اللزومية) عُني بتحقيقها ودرسها أستاذي الدكتور / حسن عبدالكريم الوراكلي ، سار فيها ـ السرقسطي ـ على طريقة بديع الزمان ، والحريري، وأبي العلاء المعري في لزوم ما لا يلزم .

ثم تحدثت في القسم الأخير من منشآت الفقهاء النثرية عن مؤلفاتهم النثرية ، وقد تبين لي غزارة نتاجهم التأليفي ، كما تبين لي بوضوح تأثر هؤلاء الفقهاء بالأدب ، فلم يخل كتاب فقهي أو غير فقهي من لمسات يراعهم الأدبي، غير أن هذه اللمسات لم يكن مبالغاً فيها ، أو متكلفاً لها ، إنما جاءت عفوية تعكس ميلهم إلى الروح الأدبية .

وبعد تفصيل القول في منشآتهم النثرية ، وبيان أثرها ومساهمتها في حركة الأدب ـ إبّان عصري الطوائف والمرابطين ـ عقّبت بدراسة موجزة للخصائص الفنية لهذه المنشآت ، وهذه الخصائص في مجملها لم يلحظ عليها

اختلاف عن خصائص أدباء عصرهم ، فكان أبرز ما يميز نثرهم ونثر غيرهم هو السجع الذي كانت له الهيمنة على نثر تلك الفترة ، غير أن سجع الفقهاء جاء في مجمله عفوياً ، وغير مبالغ فيه . هذا بجانب ما اشتمل عليه نثرهم من محسنات بلاغية ، وصور بيانية، واقتباسات وتضمينات ، إلى غير ذلك من الألوان الفنية التي أضفت على نثرهم الجمال وأبعدته عن الجمود والملل .

الفصل الثالث : المشآت النقدية في تراث الفقهاء :

وتحدثت فيه عن مشاركة الفقهاء في الحركة النقدية إبان الفترة المدروسة، فوجدت أنّهم ساهموا في إثراء الحركة النقدية، وهذه المساهمات كانت تتمثل في أعمال أمكن تصنيفها إلى :

أ ـ أعمال كاملة مثل ما وصلنا من تراث الفقيه أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي من خلال كتابه (إحكام صنعة الكلام) .

ب ـ وأعمال جزئية أو مبثوثة في ثنايا كتب غير نقدية لهم .

وهذه كثيرة يلحظ عليها قدرة الفقهاء النقدية .

كما أشرت إلى الخيط الذي انتظم فيه نقد الفقهاء ، فوجدت أنه خيط لايختلف عما ألفناه عند نقاد الأندلس ، وأهم سماته (الطابع الديني والخلقي) فهم عندما يرفضون أمراً أو ينقدونه في ميدان الأدب ، فذلك نابع لما فيه من ضرر أو تجاوز على الدين الإسلامي ، والخلق القويم الذي حث عليه الإسلام .

الخاتمة :

في خاتمة الرسالة لخصت أهم النتائج والمعطيات التي توصلت إليها من خلال هذا البحث عبر هذه الرحلة الطويلة.

فهرس المصادر والمراجع :

رتبت فيه المصادر والمراجع التي اعتمدتها ترتيباً هجائياً حسب أسماء المولفين .

وأخيراً أسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقتُ في بحثي هذا ، فأنصف الفقهاء الأندلسيين في دراستي لميراثهم الإبداعي والنقدي ، لكني أعترف أن هذا العمل عمل بشري لايسلم من الخطأ ، أو النقص ، أو الزلل ، فإن وفقت فيما ذهبت إليه فمن الله تعالى ، وإن جانبني الصواب فحسبي أنني اجتهدت وبذلت ما في وسعي راجية ألا أحرم من أجر المجتهدين .

وعملاً بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .
« سورة إبراهيم آية : ٧ »

وقوله عليه الصلاة والسلام : « من لايشكرُ النَّاسَ لا يشكُرُ اللَّـهَ »

أرى لزاماً عليّ أن أتوجه بالشكر الجزيل لصاحب الفضل - بعد المولى سبحانه وتعالى - والدي الفاضل الأستاذ الدكتور/ محسن بن سالم العميري - أطال الله في عمره - الذي رعاني حق الرعاية ، وشملني بعطفه وحنانه ، وحبب إليّ العلم وطلبه ، فقرب إليّ البعيد ، وذلل الصعاب والعقبات .

والشكر العظيم - كذلك لوالدتي الحبيبة المعطاءة التي تحملت الكثير في سبيل تقدمي العلمي ، ولم تحرمني من خالص دعائها بأن يكون التوفيق والنجاح حليفي في كل خطوة أخطوها ، فجزى الله والديّ الحبيبين خير الجزاء ، وأجزل لهما الأجر والمثوبة .

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر لأخوتي الأحباء الذين قاموا بتشجيعي على مواصلة البحث والدراسة ، وساعدوني في إنجاز هذا البحث .

واعترافاً بفضل ذوي الفضل يطيب لي أن أتقدم بوافر الشكر لمن رعى هذا البحث منذ أن كان فكرة حتى استوى على سوقه ، وشملني برعايته العلمية ولم يتوانَ في إسداء نصيحة أو مشورة تخدم هذا البحث ، ذالكم هو أستاذي ومعلمي الأستاذ الدكتور حسن عبدالكريم الوراكلي ، فجزاه الله عني وعن طلاب العلم خير الجزاء .

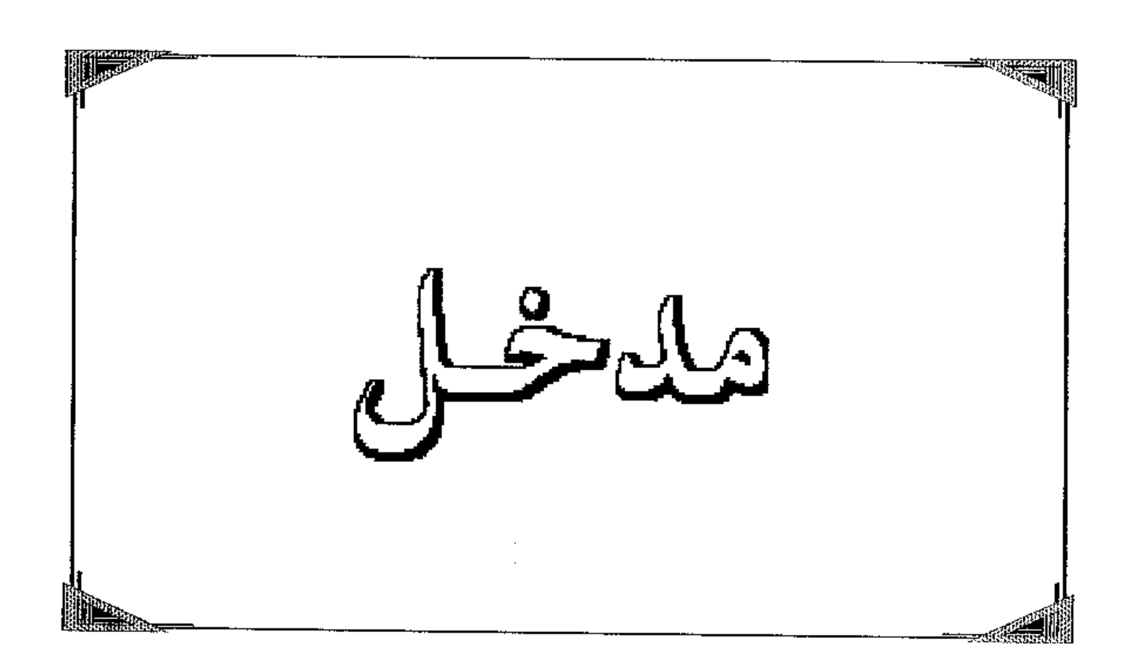
كما يسعدني أن أتقدم بخالص الشكر إلى عضوي لجنة المناقشة على تفضلهما بقبول مناقشتي آملة أن أفيد من ملحوظاتهما وتوجيهاتهما العلمية.

كما أتقدم بالشكر لجامعة أم القرى ، وكلية اللغة العربية ، وقسم الدراسات العليا بها على ما تبذله من رعاية واهتمام بطلاب الدراسات العليا.

وأخيراً أشكرُ كلَّ من ساعدني في إنجاز هذا العمل ، وإخراجه إلى حيز النور ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباحثة

أمل محسن العميري



مدخل

أ - الحياة الأدبية في ظل ملوك الطوائف والمرابطين :

شهدت الأندلس ازدهاراً أدبياً كبيراً في عهد ملوك الطوائف (٤٢٢هـ - ٤٨٤هـ) ، فلا نكاد نجد إمارة من هذه الإمارات إلا وبلاطها يحفل بالعديد من الكتاب والشعراء. وكان لاشتداد المنافسة بين ملوك الطوائف في استقطاب هؤلاء وأولئك أعظم الأثر في نهضة الحركة الأدبية والشعرية - آنذاك - فما فتئ الملوك يستقطبون أكبر عدد ممكن من العلماء والشعراء إلى مجالسهم ليتباهوا بهم . يقول الشقندي في رسالته في الدفاع عن الأندلس : (فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني ...) . (١)

وكان لسخاء هؤلاء الملوك وكرمهم - أيضاً - أثر كبير في وفود الشعراء عليهم ، فمن عُرف بكثرة نواله ، وعظيم عطائه ، وحسن استقباله للشعراء ، فإنه يفوز - لامحالة - بنصيب وافر من مدح أولئك الشعراء وثنائهم عليه .

وكما كان الغناء يستهوي بعض ملوك الطوائف فينفقون على أصحابه بغير حساب ، كذلك كان الشعر يثير إعجابهم فيغدقون على المحظوظين من أصحابه بغير روية . (٢)

فهذا المعتضد أحد ملوك بني عباد في إشبيلية امتدحه ابن عمار بقصيدته المشهورة التي أولها :

أدر الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انبرى
والنجمُ قد صرفَ العِنانَ عن السُّرى

---

(١) أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : د/ إحسان عباس ، (بيروت : دار صادر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) جـ ٣ ، ص ١٩٠ .

(٢) أ. د/ حسن عبدالكريم الوراكلي ، ابن صارة الشنتريني حياته وشعره ، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ص ١٧ .

فاستحسنها المعتضد وأمر للشاعر بمال وثياب ومركب ، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء ، فكان كذلك . (١)

ولما كان الأدب يومئذ سلعة يصدق عليها مبدأ العرض والطلب ، كان نفاقها بمقدار ميل الأمير لها أو حاجته إليها أو قدرته على تقديرها واستساغتها .(٢)

ففي إمارة بطليوس كان الأمير ابن الأفطس الملقب بالمظفر (أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ..)(٣) ، فكان قبلة العلماء والشعراء على حد سواء .

ومن بعده ابنه المتوكل الذي (كان في حضرة بطليوس كالمعتمد بن عباد في إشبيلية ، قد أناخت الآمال بحضرتهما ، وشُدَّت رحال الآداب إلى ساحتهما ، يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواسم بين جنتين ، وينظر الأدب منهما عن مقلتين ..)(٤) .

وإلى المظفر وابنه يعود الفضل فيما شهدت بطليوس من نهضة شعرية وأدبية لافتة للنظر ، فـ « كانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأً لأهل الآداب ، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم)(٥) .

ومن أبرز شعرائهم المقربين لحضرتهم الوزير الكاتب الشاعر عبد المجيد ابن عبدون(ت٥٢٧هـ) الذي اختص المتوكل بمدائحه ؛ فأغدق المتوكل عليه

---

(١) محيي الدين عبدالواحد بن علي المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : محمد سعيد العريان ، (القاهرة : لجنة إحياء التراث الإسلامي) ص ١٧٦ .

(٢) د. إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، الطبعة السادسة (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٨١م) ص ٧١ .

(٣) المعجب / ١٢٨ .

(٤) نفح الطيب ٤/٤٦٧ .

(٥) المعجب / ١٢٨ .

نواله ، ولم يبخل عليه أيضاً بمودته وعلو المنزلة ، ومن مد ائحه فيه قوله : (١)

أنْتَ الذي باهتِ الأرضُ السماءَ به
ولا لها بكَ إن باهَتْكَ من قبلِ

أحومُ حول حياضٍ من رضاك وما
لي بالورودِ إذا حُلِّئتُ من عملِ

وتعد إمارة ألمَريّة من الإمارات التي تردد عليها الكثير من الشعراء، فقد عُرف صاحبها الأمير المعتصم بن صمادح بشاعريته وحسن رعايته للشعراء ، فكان من أبرز الشعراء الوافدين عليه الملازمين مجلسه ابن الحداد (ت٤٨٠هـ) ، والأسعد بن بلِّيطة (ت ٤٤٠هـ) ، وابن شرف القيرواني (ت٤٦٠هـ) .

أما إمارة إشبيلية فقد كانت - بحق - أشهر إمارة في بلاد الأندلس في اهتمامها بالأدب والشعر ، فغلبت بقية الإمارات ، بل أطفئت في عهد آل عباد مراكز الشعر الأخرى(٢)، وذلك لما عرف عن حكامها من إجادتهم لقول الشعر، وتذوقهم لهذا الفن ، وحسن عنايتهم ورعايتهم للشعراء مما أغرى أولئك الشعراء بالإقبال عليه وخلع كثير من مدائحهم وجياد قرائحهم عليهم ، ففترة حكمهم تعدّ - بصدق - من (أخصب فترات تاريخ المسلمين في إسبانية أدباً وإنتاجاً وأرفعها فناً شعرياً ونثراً أيضاً)(٣) .

وقد ساعد استقرارهم السياسي وعشقهم للفن الشعري على إثراء الناحية الأدبية بعامة والشعر بخاصة . كما كان لكرمهم الفياض على الأدباء والشعراء دور كبير في التفات هؤلاء حولهم (وذلك ؛ لأنّ أسرة بني العباد

---

(١) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق . د/إحسان عباس (ليبيا - تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) مج ٢/ ق٢/ ص٦٩٥

(٢) كراتشكوفسكي ، الشعر العربي في الأندلس ، ترجمة وتعليق د. محمد منير مرسي ، تقديم د . أحمد هيكل (القاهرة : عالم الكتب) ص ٤٩ .

(٣) د . صلاح خالص ، إشبيلية في القرن الخامس الهجري، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٥م) ص١١٨.

أسرة متعلقة بالأدب والشعر ، لقد كان جميع أمرائها تقريباً ينظمون الشعر ويعنون بالقريض ، ويجالسون الأدباء والشعراء ، ويتابعون النشاط بشغف واهتمام) (١) .

كل ذلك كان عاملاً مهماً في ازدهار الحياة الأدبية في هذه الإمارة . فالمعتمد بن عباد أحد ملوك بني عباد كان أكثرهم تعلقاً بالشعر ، وأجودهم قريحة ـ بلا جدال ـ وقد عُدّ أكبر شاعر أمير في عصره(٢) . ولا غرابة أن يبلغ الشعر في عهده شأواً كبيراً ؛ فقد عرف عنه قرضه للشعر ، ومجالسته لقائليه، وسخاؤه العظيم في تقدير الجوائز للشعراء والصلات لهم ، فزاره العشرات ، بل المئات من الشعراء والأدباء . (وكاد أن لا ينجم في بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا ويفد عليه ويقدم مدائحه إليه)(٣)، من مثل ابن عمار (ت٤٧٧هـ) ، وابن زيدون (ت٤٦٣هـ) ، وابن وهبون (ت٤٨٤هـ) وغيرهم كثير ممن (كان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص لايدخل فيه على الملك غيرهم ..)(٤) .

هذا بالإضافة إلى عدد من الأدباء والشعراء الذين ظهرت روائعهم في هذه الحقبة من الأدب الأندلسي ، ونمثل على ذلك بالفقيه ابن حزم (ت٤٥٦هـ)(٥) صاحب المؤلفات المتنوعة الدينية منها والأدبية وصاحب أشهر كتاب تحدث فيه عن الحب وعوارضه ، ونقصد به (طوق الحمامة) ، وعبدالله

---

(١) المرجع السابق / ص١٥١ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين / ص٧٦ .

(٣) د. شوقي ضيف / عصر الدول والإمارات : الأندلس ، (القاهر : دار المعارف) ، ص ١٤١ .

(٤) نفح الطيب ٤/ص٢٤٤ .

(٥) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم بن غالب الظاهري ، كان حافظاً ، عالماً بعلوم الحديث واللغة .
ينظر ترجمته في : محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الحميدي الأزدي : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، الطبعة الأولى ، تحقيق . محمد علي شوايكة ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ، ص ٢٧٩ ، وخلف بن عبدالملك بن مسعود بن بشكوال : الصلة ، الطبعة الثانية ، عني بنشره ، وصححه ، وراجع أصله : السيد عزت العطار الحسيني ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) ، ٢/ص٣٩٥ .

ابن يوسف بن عبدالبر(ت ٤٥٨هـ)[١]، ذلك الأديب المشهور الذي سجل بقلمه العديد من الرسائل السلطانية لبعض ملوك الطوائف ، فأعطى بذلك صورة واضحة لما يحدث في البلاد من الناحية السياسية لهؤلاء الملوك ، ومن أبرز الرسائل التي كتبها رسالته عن المعتضد بن عباد إلى ابن أبي عامر يشرح فيها كيفية قتله لابنه إسماعيل الذي خانه وغدر به ، ومن ثم يخبره بتعيين ابنه محمد بدلاً من المقتول إسماعيل [٢] .

والأمر لم يقتصر على الرجال فقط ، بل تعداه إلى النساء الشاعرات ، فقد أسهم في نهضة الشعر في القرن الخامس بالأندلس ظهور كثير من الشاعرات تميزن بوفرة عددهن ، واختلاف بلادهن ، ونفاسة إنشائهن ، وتجديد فنونهن[٣] من أمثال الغسانية البجَّانية ، وأم الكرم بنت المعتصم بن صمادح ، وحمدونة بنت زياد ، ونزهون الغرناطية ، وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، وولادة بنت المستكفي ، وغيرهن كثير ممن ساهمن في بناء صرح الأدب الأندلسي .

ويعود سبب ظهور هذه النهضة النسوية إلى البيئة الأندلسية التي زخرت رحابها بمباهج الحضارة والرقي ، فكان من البديهي أن تغري مظاهر التقدم المختلفة النفوس ، فتنطلق من عقالها تعبٌّ من معينها الثر. [٤]

وإذا انتقلنا من عصر الطوائف إلى عصر المرابطين (٤٨٤هـ - ٥٤١هـ) كان علينا أن نسائل أنفسنا : هل ظل الأدب والشعر كما كانا عليه من التقدم

---

(١) عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري ، ولد الحافظ الفقيه أبي عمر يوسف بن عبدالبر ، من أهل الأدب البارع ، والبلاغة الرائعة ، عمل في بلاط المعتمد بن عباد ، إلاّ أنه غضب عليه فعزله ، روى عن أبيه ، وعن أبي سعيد الجعفري المقرئ .
ينظر ترجمته في : الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي ، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، الطبعة الأولى ، تحقيق : د. حسين يوسف خربوش ، (عمّان : مكتبة المنار ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) ، ٢/ص٥٢٨ ، والذخيرة مج١/ق٣/ص١٢٥، والصلة ١/ص٢٧٠ .

(٢) الذخيرة مج ١/ق٣/ص١٣٦ .

(٣) د. مصطفى محمد الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، الطبعة الثانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٩٥م) ص ١٤١ .

(٤) محمد المنتصر الريسوني ، الشعر النسوي في الأندلس ، (بيروت: دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٨م)، ص ٤٠ .

والازدهار ؟ أم هل تغيرا بتغير النظام السياسي ؟ هل كان هذا التغير إلى تراجع أم إلى إزدهار ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة المطروحة يستلزم أن أستعرض أراء بعض الباحثين والكتاب في ذينك العصرين لتتضح وجوه الحقائق .

يرى بعض الباحثين أن الشعر في العصر المرابطي قد خفت بريقه ، وتراجعت فيه منزلة الشاعر، فلم يعدّ له تلك المكانة الرفيعة كما كان في عصر ملوك الطوائف ، وذلك لعدم اهتمام أمراء المرابطين بهذا الفن ولا بأصحابه ، فكان جلَّ اهتمامهم منصباً على الجهاد وخاصة في ظل حكم يوسف بن تاشفين الذي جمع أشتات الدولة الأندلسية المتفرقة تحت لوائه ، بعد ما استصرخه الفقهاء الأندلسيون لانقاذ بلادهم من الضياع ، وبذلك (ضعفت الرابطة بين الممدوح الذي لايحسن تذوق الشعر البليغ وبين الشعر نفسه)[١]، كما أن المرابطين ، وجدوا في تخصيص وقت لمجالسة الشعراء ترفاً لاتسمح به الظروف ، وكان للفقهاء الذين يسيرون شئون الدولة دور في قلة زيارة الشعراء لبلاط أمير المسلمين [٢] .

ويضرب الدكتور إحسان عباس مثالاً ليوضح فيه تردي الحالة الأدبية في عهد المرابطين ، وذلك بما عبر به الشاعر الأعمى التطيلي (ت ٥٤٢هـ) في بعض لحظات الإحساس بالتعاسة عن سطوة هؤلاء الفقهاء على الدولة المرابطية ، حين قال : (إن « قام مالك » قد طردت « قام زيد » أي أن الفقيه قد أبعد الأدب واللغة ، وأصبحت الكلمة العليا للفقهاء [٣] . وذلك في أبيات من الشعر قال فيها :

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين /٩١ .

(٢) د . عصمت عبد اللطيف دندش ، أضواء جديدة على المرابطين ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩١م) ، ص ١١٤ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين / ٩٠ .

أيا رَحْمتا الشعر أقوت ربُوعه
على أنَّها للمكرماتِ مناسكُ
وللشعراءِ اليوم ثُلّت عروشهم
فلا الفخرُ مختالٌ ولا العز تامكُ
إذا ابتدرَ النَّاس الحظوظَ وأشرفتْ
مطالب قومٍ وهي سودٌ حوالكُ
رأيتُهم لو كان عندك مدفعٌ
كما كسدتْ خلفَ الرئال الترائكُ
فيا دولة الضيم اجْملي أو تَجَاملي
فَقَدْ أصبحت تلك العرى والعرائكُ
ويا « قامَ زيدٌ» أعْرضي أو تَعَارضي
فقد حالَ من دونِ المنى (قامَ مالكٌ)

ويدلي منجد مصطفى بهجت برأيه في حال الشعر إبان عصر المرابطين قائلاً : «إن نشاط الأدب بدأ يخفت شيئاً فشيئاً في عصر المرابطين فأصابه الخمول والضمور لجملة أسباب في مقدمتها طبيعة الحكام الجدد ـ الملثمين ـ الذين عرف عنهم الإخلاد إلى الفقهاء ، وإسنادهم أمور الدولة لهم، وهم من البربر المسلمين الذين أولعوا بالحروب والجهاد في سبيل الله ونشر الدين، فأدبرت دولة الشعر في ظلهم ولم يكن لها ذلك النصيب الذي أحرزته في ظل ملوك الطوائف وجزرت مياه الأدب الذي بلغ أقصى مده في العصر السابق)[١].

---

(١) د. منجد مصطفى بهجت ، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف والمرابطين، الطبعة الأولى ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م) ، ص ٤٣ .

وكثيراً ما يستدل الباحثون في تدعيم آرائهم بقول الشقندي في رسالته التي دافع بها عن الأندلس لائماً وذاماً أمراء المرابطين في عدم تقديرهم للشعراء وتذوقهم لأشعارهم حيث يقول : (وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ، أبسقوت الحاجب ، أم بصالح البرغواطي ؟ أم بيوسف بن تاسفين الذي لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدراً ، وبعدما ذكروا بواساطة المعتمد بن عباد فإن المعتمد قال له وقد أنشدوه : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز ، ولما انصرف عن المعتمد إلي حضره ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها :(١)

بَنْتم وبِنَا فما ابتلّت جَوانحنا شـوقاً إليكم ولا جفتْ مآقينَا

حـالت لِفَقْدكُم أيامُنا فغدتْ سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينَا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ : يطلب جواري سوداً وبيضاً ، قال : لا يا مولانا ، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً ؛ لأن ليالي السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً ؛ لأن أيام الحزن ليالٍ سود، فقال : والله جيد، اكتب له في جوابه : إن دموعنا تجري عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده)(٢) .

ويقول د . حكمت الأوسي : (إن المرابطين لم يقدروا الأدب والثقافة حق قدرها، وأنهم حكّموا الفقهاء في أمور الناس فأساءوا بذلك إلي الحرية الفكرية إساءة بالغة)(٣) .

---

(١) من قصيدة ابن زيدون المعروفة بالنونية ، انظر ديوان أبي الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون ، الطبعة الثالثة ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، (القاهرة : ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م) ، ص ١٦٥ .

(٢) نفخ الطيب ٣/ص١٩١ .

(٣) د . حكمت علي الأوسي ، الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، الناشر (القاهرة : مكتبة الخانجي)، ص ٤٩ .

ويسير على منواله ونهجه د. جودت الركابي فيقول عن هؤلاء المرابطين : إنهم (ألفوا الحرب والخشونة فلم تجد دولة الفكر والأدب في ظلهم مرتعاً خصباً ..)(١) .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك أهل كانت بالفعل هذه هي حال الشعر والشعراء في ظل حكم المرابطين ، أم أن هناك شيئاً من المبالغة والتهويل في تصويرها ؟ .

الإجابة على هذا التساؤل ستكون عبارة عن استعراض لبعض ردود وأقوال بعض الباحثين الذين فندوا الآراء السابقة ووقفوا منها موقف المناقض .

يقول د . إحسان عباس في شأن رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس حال تصويره وذمه لأمراء المرابطين في عدم تذوقهم للشعر ورعايتهم للشعراء : (إن الشقندي يكتب رسالته ليفخر بالأندلس على بر العدوة - موطن المرابطين الأصلي - وفي موقف المفاخرة والمباهاة تهجين وتزيين ، والأمر لايعدو أن يكون نادرة على سبيل الضحك والتسلية)(٢) .

كما علل د . إحسان عباس ما ورد في رسالة الشقندي تجاه المرابطين بأنه نوع من النقمة حملها الأندلسيون علي المرابطين قائلاً : ولكن هذه الأخبار تدل على نقمة الأندلسيين علي المرابطين بأكثر مما تدل على تغيير في حال الأدباء والشعراء يومئذ ، فالشعراء الذين أدركوا عصر المرابطين هم الشعراء الذين كانوا في ظلال أمراء الطوائف)(٣) .

---

(١) د . جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، (القاهرة : دار المعارف) ، ص ٥٥ .

(٢) تاريخ الأندلس عصر الطوائف والمرابطين / ٧٩ .

(٣) المرجع السابق .

أما عن زعم الشقندي في أن يوسف بن تاشفين لم يفهم بيتا ابن زيدون، فقد فند زعمه عبدالله كنون حيث قال : (إن يوسف بن تاشفين عندما جال في بلاد الأندلس وتطوف على أقطارها شبهها بعقاب . رأسه طليطلة، ومنقاره قلعة رباح ، وصدره جيّان ، ومخالبه غرناطة ، وجناحه الأيمن بلاد الغرب ، وجناحه الأيسر بلاد الشرق .

فهل يعدّ صاحب هذا التشبيه البديع لايفهم مثل قول ابن زيدون ؟

حالت لِفَقْدكم أيامُنا فغدتْ   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينَا[(١)]

ويؤكد لنا المستشرق غرسية غومس حقيقة أن الشعر الأندلسي لم يمت في العصر المرابطي كما زُعم (وكل ما حدث أنه كيّف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به)[(٢)] .

ويخرج بتقرير يقول فيه : (بيد أنه من الأنصاف أن نقرر أنّ خلفاء يوسف بن تاشفين لم يلبثوا أن استسلموا لسطان الثقافة الأندلسية القاهر ، وأصبحوا أقرب إلى الأندلسيين منهم إلى الأفارقة ، فحفلت دواوين إنشائهم بالناثرين والكتاب ممن تخلفوا عن عصر الطوائف)[(٣)] .

ويدلي د. محمد مجيد السعيد برأيه فيما قيل عن جمود الأدب في العصر المرابطي قائلاً : (إنّ المرابطين لم يكونوا من الشدة والقسوة والجهل بالدرجة التي صورهم بها بعض الدارسين - لاسيما المستشرقين - فحكام الملثمين حاولوا أن يستفيدوا من العقلية الأندلسية ، وأن ينقحوا أفكارهم وذهنيتهم بما تضمه تلك العقلية من ثقافة ومعرفة ...)[(٤)] .

---

(١) الشيخ عبدالله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، الطبعة الثالثة (بيروت : مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني) ، ص ٨٩ .

(٢) امليو غرسية غومس ، الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه ، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية) ، ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق / ٥٨ .

(٤) د . محمد مجيد السعيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، الطبعة الثانية (بيروت : الدار العربية للموسوعات ١٩٨٥م) ، ص ٦٠ .

ومن خلال ما سبق من آراء مناقضات لما قبلها يتضح لنا أن عصريْ الطوائف والمرابطين يعدان عصراً واحداً لايمكن الفصل بينهما ، فمن عاشوا في عصر ملوك الطائف قد عاشوا وتأثروا بما في العصر المرابطي ، لذا لايحق لنا أن نظلم العصر المرابطي ونتهمه بالجمود الأدبي لكون السلطة أصبحت في يد الفقهاء ، فمع أن العصر اتسم بالصبغة الدينية إلاّ أنّ هذا الأمر لم يمنع من استمرار الحياة الأدبية وازدهارها في ظلهم (فقد اجتمع ليوسف بن تاشفين وابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار)(١) .

وإذا كان الفقهاء قد احتلوا المكانة الكبرى في الدولة المرابطية وكان منهم من لايميل إلى سماع الشعر ومجالسة أصحابه الذي قد يعدّ من أسباب ذلك أنهم لايحبون التملق والتزيف في المشاعر رغبة في الحصول على الأموال والعطايا ، فيرون في ذلك نفاقاً كما يرون أن في استماعهم للشعر نوعاً من الترف واللهو لاينبغي الالتفات إليه خاصة وأنهم مقبلون على الجهاد وتوحيد البلاد في ظل حكم يوسف بن تاشفين ، فإذا كان هذا حال بعضهم ، فإن البعض الآخر منهم على عكس ذلك ؛ فقد كانت هناك أسرة من فقهاء الأندلس في العصر المرابطي تتولى منصب قضاء الجماعة مشهورة مع نفوذها وجاهها وعظم سلطانها بشغفها بمجالسة الأدباء والشعراء وعنايتهم بالأدب والشعر ، مما جعل هذه الأسرة مقصد الشعراء الراغبين في العطايا والنوال .

هذه الأسرة هي أسرة بني حمدين . وكان من أبرز أعلام هذه الأسرة أبو عبدالله محمد بن علي بن حمدين الذي قال عنه ابن بشكوال في كتابه (الصلة) : « كان من أهل التفنن في العلوم والافتنان بها وبمذاكرتها ، وكان حافظاً ذكياً فطناً أديباً شاعراً لغوياً أصولياً..)(٢) .

---

(١) المعجب / ٢٢٧.

(٢) الصلة ٢/ص٥٣٩ .

وقد عرف عنه تذوقه للشعر ورعايته لذوي الكفاءات الأدبية والعلمية ، ومن هنا ندرك السر في إقبال الشعراء عليه وإلتفافهم به ، مادحين أو مستشفعين من أمثال ابن خفاجة ، والأعمى التطيلي ، وابن عبدون ، وابن صارة الشنتريني[١] ، الذي قال فيه في إحدى قصائده المدحية[٢] :

اللَّـهُ أكبرُ قد وافيتُ قـرطبةً
دار العلوم وكرسيِّ السلاطينِ

وقد تهلَّلَ بي وجهُ النجاحِ بها
طَلْقَ الأسرَّةِ من وجه ابن حمدينِ

تزهو العلا بمساعيهِ إذا ذُكرَتْ
زَهْوَ الأنوفِ بأنفاسِ الرَّياحينِ

لم يُرْضِهِ عرضُ الدنيا فجاد به
وضنَّ بالأكرمَيْنِ : العرضِ والدينِ

كما مدحه هلال البياني بقصيدة أولها: [٣]

عرِّجْ على ذاكَ الجنابِ العالي
واحكمْ على الأموالِ بالآمالِ

فيهِ ابنُ حَمْدَين الذي لنَوَالـه
من كُلِّ أرضٍ شدَّ كُلُّ رِحَالِ

وما مدح هذين الشاعرين لهذا الفقيه إلا دلالة أكيدة على إسهام بعض الفقهاء في تنشيط حركة الشعر في عصر المرابطين ، وأنهم لم يكونوا حجر عثرة في طريق الإزدهار الأدبي والشعري على وجه الخصوص .

---

(١) ابن صارة الشنتريني حياته وشعره / ٩٦ .
(٢) الذخيرة / مج ٢ / ق ٢ /ص٨٥٠ .
(٣) نفخ الطيب ٣/ص٥٣٨ .

(فحقاً أن الدولة كانت تصطبغ بالصبغة الدينية ، وحقاً أن الثقافة المسيطرة كانت هي الثقافة الفقهية ، وحقاً أنه بسبب هذا وذاك صارت المكانة المرموقة في الدولة من حظ الفقهاء ؛ ولكن هذا جميعه لم يتسبب في انتكاسه الشعر والأدب على النحو الذي أراد بعض الدارسين أن يصوروه)[١] .

هذا ومن يطالع كتب المصادر الأدبية والتراجم يجد أنها تحفل بالعديد من أسماء كتاب وشعراء برزوا إبان هذه الفترة واحتلوا منها مكانة مرموقة ، فساعدوا على إثراء الساحة الأدبية بقصائدهم المتنوعة الأغراض ، وبنثرهم المتعدد الألوان .

ومن أبرز هؤلاء الأدباء والشعراء الفتح بن خاقان صاحب كتابي (المطمح) و (قلائد العقيان) اللذين ضمنهما العديد من تراجم الأدباء الأندلسيين بأسلوبه الأدبي ، وكتابه (قلائد العقيان) ألفه بناءً على تشجيع من الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين .

وهناك الأديب والشاعر عبدالله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ)[٢] الذي عاش في كنف الأميرين علي بن يوسف بن تاشفين وابنه تاشفين بن علي ، وسجل بقلمه أروع انتصارتهما على الأعداء المتربصين بالأندلس ، فلنقرأ له يمدح تاشفين بن علي بعد انتصاره على العدو في إحدى معاركه قوله :[٣] .

---

(١) ابن صارة الشنتريني حياته وشعره / ص٣٧ .

(٢) محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي ، من الكتاب البلغاء ، عالماً بالأخبار ، ومعاني الحديث والآثار ، والسير .

ينظر ترجمته في الذخيرة مج ١/ ق٢ / ص ٧٨٤ ، والصلة . ٢/ص٥٥٧ ، ولسان الدين ابن الخطيب بن محمد بن عبدالله بن سعيد السليماني ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، الطبعة الثانية ، تحقيق ، محمد عبدالله عنان ، (القاهرة : الشركة المصرية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) ٢/ص٣٨٨ .

(٣) محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي ، رسائل ابن أبي الخصال ، الطبعة الأولى ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، (دمشق : دار الفكر ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) ص ٦٥٤ .

اللَّـهُ أعطاكَ فَتْحاً غـيرَ مُشْـتـركِ
وردّ عَزْمـكَ عن فَوْتٍ إلى دَرَكِ
أرْسِـلْ عِنـانَ جَوادٍ أَنْـتَ راكِبُهُ
واضْمُم يـديكَ ودَعْهُ في يدِ المَلِكِ

كما أن رسائله تربو على الحصر تنوعت ما بين إخوانية وديوانية ووصفية .

وهناك الأديب ابن العربي (ت٥٤٣هـ)[١] ، وابن بشكوال (ت٥٧٨هـ)[٢] صاحب كتاب (الصلة) ، وابن بسام الشنتريني صاحب أكبر موسوعة أدبية أندلسية ونقصد بها (الذخيرة) ، ومحمد بن عبدالغفور الكلاعي (ت٥٣١هـ)[٣] صاحب الكتاب البلاغي النقدي (إحكام صنعة الكلام) ، وغيرهم كثر مما أعطوا إشارة واضحة لنشاط الحركة الأدبية وتفاعلها إبّان العصر المرابطي .

* * *

(١) أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد المعافري ، فقيه أندلسي ، وقاضي إشبيلية ، رحل إلى المشرق بغية طلب العلم ، وبرع في الحديث والفقه الأدب .
ينظر ترجمته في مطمح الأنفس /ص ٢٩٩ ، والصلة ٢/ص٥٥٨ ، ، ونفح الطيب مج٢/ص٢٥ .

(٢) أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن بشكوال ، من علماء الأندلس ، له تصانيف عديدة ، منها : كتاب « الصلة » ، الذي جعله ذيلاً للكتاب « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي ، وكتاب « الغوامض والمبهمات » ذكر فيه من جاء ذكره في الحديث مبهماً فعينه ، وله جزء لطيف ذكر فيه من روى « الموطأ » عن مالك بن أنس .
ينظر ترجمته في : أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق د . إحسان عباس ، (بيروت : دار صادر ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) ٢/ص٢٤٠ .

(٣) أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي ، من أسرة عريقة ، كانت ذات مركز وسياسة ، كان اهتمامه موزعاً بين غرضين هما : الشريعة والأدب ، وقد حدث بذلك في ختام كتابه (إحكام صنعة الكلام)، إذ يقول : (هذه - أعزك الله - بضاعة استخرجَتْها يد النصيحة من صدف الفكر ، وفتقتها يمين الأنفة من كمام الذكر ، وكتبها قلم الاستعجال في صحيفة الارتجال ، إذ الخاطر متقسّمٌ بين تفقه في أدب، وتفقه في شرع محافظة على فرع ...)
ينظر ترجمته في مطمح الأنفس/ص٢١٩ ، و ابن سعيد : علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك بن سعيد : المُغرب في حُلي المغرب ، الطبعة الثالثة ، تحقيق : د . شوقي ضيف ، (القاهرة : دار المعارف) ١/ص٢٤٢ .

ب ـ ثقافة الفقيه الأندلسي ومكوناتها :

من المعروف لدينا أن المسلمين كانوا إذا دخلوا أرضاً وفتحوها ؛ نشروا فيها الإسلام وعلموا أهلها تعاليمه . وهذا ما حدث في بلاد الأندلس إبان فتحها ، فقد أرسل موسى بن نصير (مع الجيوش الغازية طائفة من الفقهاء؛ ليدخلوا البربر في الدين الحنيف ويلقنوهم تعاليمه)(١). فكان من هذه الطائفة عدد من الصحابة والتابعين ، وقد اتفق المؤرخون على (أن الجيوش الإسلامية كانت مصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين ، وخاصة التي فتحت شمال أفريقيا ، أما تلك الجيوش التي دخلت الأندلس ، فمن المشكوك فيه كثيراً جداً أن يكون قد رافقها أحد من الصحابة ، أما التابعون ، فلا شك في عبور بعضهم ، يحددهم لنا المؤرخون بأعداد مختلفة ، ولا يتفقون على رقم معين)(٢). فمن أبرز هؤلاء التابعين :

محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، وحنش بن عبدالله الصنعاني، وعبدالرحمن بن عبدالله الغافقي ، وموسى بن نصير ، ويزيد بن قاسد(٣). وقيل : بن قاصد السكسكي المصري (٤). كل أولئك كانت لهم اليد الأولى في إنماء بذرة الثقافة في بلاد الأندلس .

فحين دخولهم لهذه البلاد نراهم قد اهتموا بتعليم أهلها القرآن الكريم وتعاليم الدين الإسلامي ، وبعض مبادئ اللغة العربية (فقد كانت العناية منصرفة إلى العلوم الدينية واللغوية وما يتفرع عنها)(٥)، لذلك اتسمت حياتهم

---

(١) عصر الدول والإمارات (الأندلس) ، ص ١٦ .

(٢) د . محمد عبدالحميد عيسى ، تاريخ التعليم بالأندلس ، الطبعة الأولى (القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٨٢م) ص ٧١ .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧ .

(٤) جذوة المقتبس ص ٦ .

(٥) إبراهيم علي العكش ، التربية والتعليم في الأندلس ، الطبعة الأولى ، (الأردن ، دار عمار ، دار الفيحاء ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) ص ٤٩ .

العلمية بالتواضع حيث إنّها لاتتجاوز الحلقات في بعض المساجد. هذا ما كانت عليه الحال في عصر الولاة بعد فتح الأندلس ، وعندما دخل عبدالرحمن الداخل (ت ١٧٢هـ) الأندلس أخذ يهتم بتثبيت دعائم حكومته في محاولة القضاء على من يثيرون الفتن والمشاكل ، ومع ذلك فلم ينس العلم وقيمته ، فقد (كان عبدالرحمن بن معاوية من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل)[١] ، فاهتم بإنشاء المساجد ، وابتدأ بنيان مسجد قرطبة (الذي ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء)[٢]. من بني أمية .

ولقد أصبح هذا المسجدفيما بعد من أعظم وأكبر مراكز العلم والدين في الأندلس . وطبعي أن يكون كل مسجد من المساجد المنتشرة في بلاد الأندلس مركز تعليم بحد ذاته يتحلق فيه الطلاب حول شيوخهم ؛ ليتعلموا منهم كتاب الله وتفسير آيه وسنة نبي الله ﷺ، وتعاليمه الدينية ، مما يجعلنا تحكم (على الحركة التعليمية علي عهد الداخل بأنها حركة نشطة حية)[٣]، وإن كانت تتسم بالتواضع والقلة ، إلاّ أنّها مهدت لإظهار حركة تعليمية ثقافية عالية المستوى .

ويتتابع خلفاء بني أمية كل يضع بصمته على الحركة التعليمية بجهود مختلفة وأساليب متنوعة ، وما أن نصل إلي عهد عبدالرحمن الناصر(ت٣٥٠هـ) الذي تلقب بالناصر لدين الله، حتى نجد الأندلس قد بلغت ذروة مجدها، وأخذت الحركة العلمية في النمو والازدهار (وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولي عهده الحكم المستنصر، واستن له الإغداق على العلماء)[٤].

---

(١) جنوة المقتبس / ص٩

(٢) نفح الطيب مج ١/ ص ٥٤٥ .

(٣) تاريخ التعليم بالأندلس / ص٧٣ .

(٤) عصر الدول والإمارات (الأندلس) ص٦٤ .

فقد عرف ابنه الحكم بحبه للعلم ورعايته للعلماء ، فلا غرابة - إذاً - إذا رأيناه ميالاً لجمع العديد من الكتب القيمة النفيسة من مختلف الأقطار والأمصار لخزانته العلمية ، ويروى أنه (جمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من ملوك الأندلس قبله ، وذلك بإرساله فيها إلى الأقطار واشترائه لها بأغلى الأثمان ...)(١).

وكان يحتفظ بهذه الكتب في قصره ، حيث أنشأ مكتبة تعد من أعظم وأكبر مآثر الحكم العلمية ، وكان عماله في عدد من المدن المشرقية كـ : بغداد، ودمشق ، والقاهرة ، يقومون بنسخ الكتب القيمة في مختلف العلوم والمعارف، ومن ثمّ يرسلونها إليه ؛ ليقرأها ويحتفظ بها في خزانته ، وقد قيل عن خزانته : (إن عدد الفهارس التي كانت فيها الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلاّ ذكر أسماء الدواوين فقط) (٢).

كما عرف بقراءاته لهذه الكتب وأبداء الرأي فيها (فقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فنٍّ كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لاتكاد توجد إلا عنده ؛ لعنايته بهذا الشأن)(٣). وإذا كنا نتفق مع علي بن محمد في أن القول فيه شيء من المبالغة وأن (الذي هو أقرب إلى المنطق أنه كان كثير القراءة والعناية بما يقرأ حتى إنه كان يعلق علي ظهور الصفحات بما توحي به إليه مطالعاته)(٤).

والأمر لم يقتصر على عنايته بالكتب واستحضارها من جميع الأقطار ، بل تعداه إلى استقطاب العلماء فقد استقدم الحكم - ووالده من قبله - العديد

---

(١) المغرب ١/ص١٨٦ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الآبار ، الحلة السيراء ، الطبعة الثانية ، تحقيق د . حسين مؤنس ، (القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٥م) ١/ص٢٠٣ .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب /ص٦٢ .

(٤) علي بن محمد ، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله ، الطبعة الأولى ، (بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م) ١/ص٨٣ .

من علماء المشرق ؛ لينشروا علومهم ومؤلفاتهم في أنحاء بلاد الأندلس ، وأغدقوا عليهم الأموال وأكرموهم أيما إكرام ، فكان من أبرز الوافدين عليهما أبو علي القالي صاحب كتاب « الأمالي » والذي نتج عن إقامته بالأندلس نهضة قوية في الدراسات اللغوية والأدبية ، وعنه تلقى الأندلسيون واتخذوه حجة(١) . فتخرج على يده العديد من اللغويين الأندلسيين .

كما « بعث الحكم في كتاب « الأغاني » إلي مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ، وأرسل إليه بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه من قبل أن يخرجه إلى العراق » (٢).

ونشطت في عهده بعض العلوم مثل الرياضيات ، وعلم الفلك ، والطب ، فقد اطلق الحكم لهم الحرية في إذاعة علومهم في الناس(٣) . فكان لهذه الحرية وهذا التسامح أثره الطيب علي الحركة العلمية في عهده .

فحري بدولة يمتلك زمام قيادتها مثل هذه الخليفة أن تزدهر فيها الحركة التعليمية وأن تبلغ كل ما يؤمل لها من ازدهار وتقدم .

ومن بعد الحكم يأتي ابنه هشام ، وكان صغير السن لايقوى على اتخاذ القرارات وفرض السيطرة والسلطة ، فانفرد حاجبه المنصور بن أبي عامر بأمر السلطة ، وكان للفقهاء - ذلك الوقت - مكانتهم الكبرى ، فارتاب من أمرهم وحاول أن يأخذهم في صفه فعمل على كل ما يرضيهم تقرباً إليهم، فمن ذلك مثلاً القيام بإحراق جميع الكتب الفلسفية الموجودة في مكتبة الحكم والبعيدة عن روح الإسلام ومنهجه(٤). وهذا الأمر وإن أثر في سير الحركة

---

(١) د. إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلس عصر سيادة قرطبة ، الطبعة السابعة ، (بيروت : دار الثقافة ١٩٨٥م) ص ٦٥ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب / ص٦٢ .

(٣) آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، الطبعة الأولى ، نقله عن الإسبانية ، د. حسين مؤنس (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م) ص ١١ .

(٤) النثر الأدبي في القرن الخامس الهجري مضامينه وأشكاله ١/ص٨٤ .

العلميـة والثقـافيـة لحـده من حـرية العلمـاء ، إلاّ أنّ هذا لايعني أن الحـيـاة الثقافية قد اضـمحلت فـي عهده ، فإن كان جانب منها قد دفن ، فإن جوانب أخرى قد نشطت وتميزت بالحيوية والحركة ، فنبغ علماء عدة في مختلف المجالات العلمية والثقافية الأخرى .

وعندما انتثر عقد الخلافة وسقطت الدولة إلى دويلات متعددة ، نصل إلى عصر ملوك الطوائف ، فنجد هؤلاء الملوك (قدجدّوا في اعزاز العلم ، وإكرام العلماء ، متنافسين في الفضل)(١). مما جعل كل إمارة تعد مركز اشعاع فكري وثقافي قائماً بذاته ، وقد ساق (بالنثيا) أهم العومل التي ساعدت على هذا الازدهار الثقافي في كتابه « تاريخ الفكر الأندلسي » ، فكان من أهم هذه العوامل : أن عصريْ الأمارة والخلافة كانا بمثابة فترة إعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل فرع من الدراسات واختمرت اختماراً طويلاً .

وثانيها : أن علماء قرطبة غادروها أثناء الفتنة وانتشروا في شتى نواحي الأندلس ، وكذلك تفرقت في كل ناحية مجوعات الكتب التي كانت مختزنة في مكتبات قرطبة .

وثالثها : تلك الحركة التي أباحها ملوك الطوائف في شتى نواحي الحياة الاجتماعية بما فيها الناحية الدينية (٢).

ويمكن أن يضاف إلى ما ذكره (بالنيثا) أثر الكتب المشرقية التي استمرت هجرتها إلى البلاد الأندلسية دون انقطاع ، فقد كان لها أكبر الأثر في تنشيط حلقات العلم في الأندلس فيسّرت على طلاب العلم الاطلاع على

---

(١) محمد عبدالمنعم خفاجي، الأدب الأندلسي التطور والتجديد ، الطبعة الأولى ، (بيروت : دار الجيل ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) ص٢١١ .

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي /ص١٣ .

الثقافة المشرقية دون تحمل مشاق السفر للاطلاع على ما عند المشارقة من علوم وفنون . وفي ظل هذا العصر - عصر ملوك الطوائف - وجد العلماء والأدباء والمفكرون مبتغاهم العلمي ، فاطلقوا عقولهم لعنان العلم ، وأقلامهم لتأليف المؤلفات في مختلف المجالات العلمية برغبة من ذاتهم العلمية وبرعاية من ملوكهم المحبين للعلم الساعين لانتشاره في ربوع ممالكهم . فهذا المعتصم ابن صمادح (ت ٤٨٤هـ) صاحب المرية ، كان (يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً في كل جمعة للفقهاء والخواص ، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث »[١].

وأما في دانية والجزائر الشرقية فيلمع نجم صاحبها مجاهد العامري الذي اشتهر بميله للعلم وللعلماء ، فقد (جمع من دفاتر العلوم خزائن جمة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة ، وأسراها صحابة لانتحاله العلم والفهم ، فأمّه جملة من العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيموا في ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة ، وحلبة ظاهرة)[٢].

وفي بطليوس كان المظفر بن الأفطس يُشارك علماء عصره التأليف فهو كما وصفه ابن حيان (أديب عصره غير مدافع ولامنازع ، وله التصنيف الفائق ، المترجم بـ « التذكرة » والمشتهر اسمه أيضاً بـ « كتاب المظفر » في خمسين مجلدة ، يشتمل على علوم وفنون من مغاز وسير ، ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب ، أبقاه في الناس خالداً)[٣].

مثل هذا الميل العلمي والثقافي لدى هؤلاء الملوك ، حق لدولة يمتلكونها أن تمضي قدماً نحو الازدهار الثقافي والعلمي ، فبفضل التنافس العلمي

---

(١) الحلة السيراء ٢/ص٨٢ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق٣ / ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق مج٢/ق٢/ص٦٤٠ .

والرغبة في منافسة أهل المشرق شهدت الأندلس في عصر ملوك الطوائف حركة علمية نشطة تمخضت عنها العديد من المؤلفات والعديد من العلماء في مختلف المجالات والعلوم .

ومن يتصفح كتب التراجم والسير يجد كمّاً هائلاً من أسماء النابغين في مختلف المجالات العلمية والأدبية إبان هذا العصر ، فمن هؤلاء مثلاً : العالم اللغوي ابن سيده (ت٤٥٨هـ) صاحب كتاب « المخصص » المشهور ، وكتاب «المحكم في اللغة » . والمؤرخ المشهور ابن حيان (ت ٤٧٦هـ) صاحب كتاب «المقتبس في تاريخ الأندلس » .

ومن أئمة الدين أبو محمد علي بن أحمد بن حزم ،والفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت٤٦٣)(١) ، صاحب كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » ، والأعلم الشنتمري (ت ٤٧٦هـ) أبرز علماء الأدب والشراح ، فمن أبرز شروحه المشهورة « شرح كتاب سيبويه » ، و« شرح ديوان زهير » ، و« شرح أشعار الشعراء الستة الجاهليين » ، إلى غير ذلك من علماء ذلك العصر ونوابغه .

وبهذا يتضح أن الأندلس قد خطت خطوات واسعة في حياتها العلمية والثقافية إبان عصر الطوائف ، حيث إنها تعدت حدود عالمها بالنظر والتطلع لأفاق علمية وثقافية رحبة تتمثل في نتاج أهل المشرق ، ومن ثم أخذت في الاستقلالية والحرية الفكرية ؛ لتنافس نظيرتها الدولة العباسية .

---

(١) يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري ، فقيه حافظ مكثر ، عالم بالقراءات وبالخلاف في الفقه وبعلوم الحديث والرجال ، لزم أبا الوليد الفرضي الحافظ وعنه أخذ كثيراً من علم الحديث ، من أشهر مصنفاته : كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم ، وكتاب « الاستيعاب في طبقات الأصحاب » ، وكتاب « جامع بيان العلم وفضله» وغيرها كثير .

ينظر ترجمته في جذوة المقتبس /ص٣٦٧ ، ومطمح الأنفس /٢٩٤ ، والصلة ٢/ص٦٤٠ ، ونفح الطيب ٤/ص٢٩ .

وفي عصر المرابطين التالي لعصر الطوائف نجد ولاة هذا العصر أهل دين وجهاد ، فدعوتهم كانت قائمة على أساس ديني ، والدين يدعو إلى العلم ويحض عليه كما قال تعالى : ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾(١).

وبذلك نشطت الحركة العلمية في عهدهم وإن زعم بعضهم عكس ذلك مدعياً أن هذا العصر عرف بالتخلف العلمي والخمول الفكري ، كأمثال (دوزي)(٢)، الذي صور المرابطين أشنع تصوير ، فزعم أنهم قضوا على الازدهار الحضاري والفكري الذي تمتعت به الأندلس إبان عصر الطوائف(٣). ولقد عارض ـ بالنثيا ـ هذا القول بكلام أستاذه المستشرق الإسباني « ريبيرا » في مقاله الذي كتبه عن ابن قزمان (ت٥٥٥هـ) حين قال : (إنّه من الصعب أن نجد فترة من التاريخ الإسباني تألق فيها مثل هذا العدد من عباقرة عظماء من هذا الطراز ، مفكرين ، وشعراء ، وأهل أدب ورجال علم ..)(٤).

وريبيرا بمقولته السابقة يدحض مزاعم دوزي ؛ لأن وجود مثل هذا الكم المهول من العلماء والفقهاء والشعراء في العصر المرابطي ما هو إلا دليل على الازدهار الثقافي والأدبي إبان تلك الفترة ، وتكشف كتب التراجم والأدب عن أعداد وفيرة من الأسماء التي أغنت المجالات العلمية والأدبية مثل ابن العربي، وابن أبي الخصال ، وابن السيِّد البطليوسي ، وابن بسام ، وابن باجه، وابن رشد ، وبني زهر .. إلخ .

---

(١) سورة الزمر آية ٩ .

(٢) مستشرق هولاندي (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣م) له كتابات عديدة عن تاريخ أسبانيا الأدبي والسياسي ، ويعد من أوائل من اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية تأليفاً ، وتحقيقاً ، ودراسة ، ونقداً ، إلا أنه شديد التعصب على المرابطين .
انظر النبوغ المغربي (الهامش) /ص٧٣ ، ورينهرت دوزي ، المسلمون في الأندلس ، ترجمة وتعليق وتقديم د . حسن حبشي (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م) ج١/ص٦ .

(٣) تاريخ الفكر الأندلسي /ص١٩ .

(٤) المرجع السابق /ص٢١ .

فـ (بدخول المرابطين الأندلس تمتعت نواحيه بتسامح عظيم ، فتكلم أصحاب كل الأراء بما أرادوا من دون أن يخشوا شيئا) (١).

في ظل هذه الأجواء العلمية والثقافية عاش طالب الفقه الأندلسي يرتوي من ينابيع المعرفة المتنوعة ويُكبُّ على الدرس والتحصيل في حلقات الشيوخ والعلماء . وقد عرف عن الطالب الأندلسي أنه يبدأ حياته العلمية بحفظ كتاب الله وضبط حروفه ؛ لأن أصل التعليم عندهم كان في تعلم كتاب الله وحفظه . ولقد أوضح ابن خلدون في « المقدمة » مذهب أهل الأندلس في تعليم أبنائهم ، وكأنه بذلك يوضح لنا النظام التعليمي المتبع عند أهل هذا البلد ، والذي سار عليه كل من طلب العلم فيقول : (وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ..)(٢). ليس هذا فقط ، بل نراهم (يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب)(٣).

وهذه هي أوليات التعليم لطالب العلم في الأندلس ، فالناشئة يبدأون بتلاوة القرآن الكريم وحفظه ، فهو أصل الدين ومنبع العلم ، ثم يتجهون لتعلم رواية الشعر والترسل ، وقوانين العربية مع حفظها ، وتعلم الخط والكتابة واتقانها (إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة)(٤).

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التخصص في العلوم ، فبعد حفظ كتاب الله وضبط أحرفه ومعرفة بعض قوانين العربية ورواية الشعر . وبعد أن يكوّن

---

(١) أضواء جديدة على المرابطين /ص٨٥ .

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، المقدمة ، (بيروت ، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٠م) ص ١٠٣٩ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

الطالب ثقافته العامة والأساسية نجده يبحث ويتعمق فيما تميل إليه نفسه من بعض العلوم . فهذا ابن العربي أحد فقهاء الأندلس يخبرنا بطريقة التعليم التي سلكها في مقتبل حياته العلمية ، وهي نفس طريقة أهل الأندلس التي ذكرها ابن خلدون ، فقد رتب له أبوه معلماً لكتاب الله ، ثم قرنه بثلاثة آخرين أحدهم لتعليمه ضبط القرآن بأحرفه السبعة ، والآخر لتعليمه العربية، والثالث لتدريبه على الحساب ، فيقول في ذلك :

(وكان من حسن قضاء الله أني كنت في عنفوان الشباب وريّان الحداثة ، وعند ريعان النشأة ، رتب لي أبي - رحمه الله - معلماً لكتاب الله حتى حذقت القرآن في العام التاسع ، ثم قرن بي ثلاثة من المعلمين ، أحدهم لضبط القرآن بأحرفه السبعة التي جمعها الله فيه ، ونبّه الصادق ﷺ عليها في قوله : « أُنْزل القرآن على سبعة أحرف» ، في تفصيل فيها .

والثاني لعلم العربية ، والثالث للتدريب في الحُسْبان)(١).

وما أن وصل العام السادس عشر حتى قرأ من أحرف القرآن (نحواً من عشرة ، بما يتبعها من إدغامٍ ، وإظهارٍ ، وقصرٍ ، ومدٍّ ، وتخفيفٍ وشدٍّ، وتحريكٍ ، وتسكينٍ ، وحذفٍ ، وتتميمٍ ، وترقيقٍ ، وتفخيمٍ ..)(٢).

ومع ذلك فقد ذهب ابن العربي بطريقة غريبة في وجه التعليم كما يقول ابن خلدون (٣). وهذا الطريقة تتلخص في قول ابن العربي : (ولكن ربما فات كثير من الناس كيفية الطلب : وأولها المقصد إلى تعلُّم علم العربية والأشعار ، فإنهما ديوان العرب التي دفعت إليها ضروة فساد اللغات) ثم الانتقال إلى (الحساب ، فتتمرّن فيه حتى ترى القوانين ، فإنّه علم عظيم ، له خُلِقت

---

(١) أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي المعافري الإشبيلي، قانون التأويل ، الطبعة الثانية، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م) ، ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المقدمة / ص١٠٣٩ .

السموات والأرض . وقد نبّه الله ـ سبحانه ـ به على حكمة الأرض والسموات من المعاملات إلى منتهي الحركات ، ثم انتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر لك بهذه المقدمات) (١).

وهو بطريقته السابقة يريد أن يتعلم الولد علم العربية والأشعار أولاً ، ثم ينتقل إلى الحساب فيتمرّن فيه ، وبعد ذلك ينتقل إلى درس القرآن وحفظه، فإنّه سيسهل عليه حفظه وفهمه . ولقد استحسن ابن خلدون هذه الطريقة وعدّها مذهباً حسناً (إلاّ أنّ العوائد لاتساعد عليه ، وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد ، من تقديم دراسة القرآن ، إيثاراً للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم؛ فيفوته القرآن ..)(٢).

أما ابن حزم فقد بدأ منهاجه بأن يسلم الطفل بعد مولده بخمس سنين إلى مؤدب يعلمه الخط حتى يكون خطه « قائم الحروف بيِّناً صحيح التأليف »(٣). ثم ينتقل إلي تعلمه القراءة وحدّها « أن يمهر في القراءة لكل كتاب يخرج من يده بلغته التي يخاطب بها صقعه ، وينفذ فيه ، ويحفظ مع ذلك القرآن ، فإنه يجمع بذلك وجوهاً كثيرة عظيمة ، أحدها التدرب في القراءة له وتمرين اللسان علي تلاوته ، فيحصل من ذلك حدًّا إلى ما يحصل عنده من عهوده الفاضلة ووصاياه الكريمة ؛ ليجدها عدةً عنده مدخرةً لديه قبل حاجته إليها يوم حاجته إليها)(٤). وبعد ذلك ينتقل الولد إلى (علم النحو واللغة معاً)(٥). فيذكر ابن حزم حدّاً لتعلم هذا العلم ، (فإذا بلغ

---

(١) قانون التأويل /ص٣٤٦ .

(٢) المقدمة / ص١٠٤٢ .

(٣) ابن حزم / رسائل ابن حزم الأندلسي ، الطبعة الثانية ، تحقيق د. إحسان عباس ، (بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٧) ٤/ص٦٦ .

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق ٤/ص٦٧ .

المرء من النحو واللغة إلى الحدّ الذي ذكرنا فلينتقل إلى علم العدد)[1]. وسائر العلوم الأخرى المتنوعة والمختلفة . (فإذا بلغ المتعلم هذا المبلغ من الثقافة العامة فلا بد عليه أن ينصرف إلى ما يحصل به عيشه من صناعة أو تجارة أو زراعة أو تعليم ..)[2].

وهذا منهج تربوي تعليمي استخلصه ابن حزم بعد تفكر في الطريقة المثلى لتعليم الأولاد . فقد ذكرنا سابقاً أن أهل الأندلس يبدأون تعليم أولادهم أولاً كتاب الله وحسن تلاوته ، ثم ينتقلون بهم لتعلم الخط والكتابة وشيء من قوانين العربية والشعر، وهذا هو منهجهم التربوي الذي اتخذوه لتعليم أولادهم في مرحلتي الصبا والمراهقة . وما أن يبلغ الولد (سن النضج فحسب يتخصص في العلوم الإسلامية ، من تفسير القرآن ، والسنة النبوية ، وغيرها مع الاحتفاظ دائماً بشيء من تكوينه الأول ، ويتمثل في تذوق الشعر والنثر الفني)[3]. وهذه مرحلة التعليم الأولى ، وهي ليست مختصة في أهل الأندلس، بل هي عامة في البلاد الإسلامية ، فمرحلة التعليم الأولى (في التربية الإسلامية مرحلة عامة يتعلم فيها أولاد المسلمين أساسيات الثقافة الإسلامية من قرآن كريم ، وقراءة وكتابة ، وخط ، وشعر عربيٍّ ، ولايتلقى الصبي فيها أي لون من التعليم المتخصص ، فذلك يأتي في مرحلة أخرى تظهر فيها الميول والاتجاهات)[4].

---

(١) المصدر السابق ٤/ص٦٩ .

(٢) سعيد الأفغاني ، من أعلام التربية العربية ، المجلد الثاني ، التربية عند ابن حزم ، (الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م) ص ٢٦٥ .

(٣) هنري بيريس ، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، الطبعة الأولى ، ترجمة د.الطاهر أحمد مكي ، (القاهرة ، دار المعرف ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م) ص ٣٣ .

(٤) د. حسن عبدالعال ، التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٧٨م) ص ١١٦ .

وهذه المرحلة تسمى مرحلة الكتاتيب ، يأخذ فيها الآباء أبناءهم إلى الشيوخ في كتاتيبهم يُقْرِئُونَهم كتاب الله ، وبعض قوانين العربية والحساب، ثم ينتقلون بعدها إلى المرحلة الثانية من التعليم (ومعدل العمر لدى طلاب المرحلة الثانية عند بدايتها خمسة عشرة عاماً ، ويكون أقل من ذلك أو أكثر، حسب نجابة الطلاب وحسب ظروفهم ووعي أسرهم وعنايتها بهم)(١). وأيّ ما كان المعلم يتوجه إليه الطالب ليجلس إليه ويستمع إلى ما عنده من علوم عصره (سواء أكان ذلك في المسجد ، أم في بيت المعلم ، أم في حقله ، أو في أي مكان آخر ، وإذا كان المتعلم من أولاد الأمراء والسراة والأغنياء ، يستدعى له المؤدبون ، وقد يجالس أولاد العامة في المساجد ويتعلم معهم) (٢).

فكان من أشهر المؤدبين لأولاد الحكام والخلفاء أبو الأصبغ عيسى بن عبدالملك بن قزمان المعدود (في علماء الحديث والأدب ، وكان المنصور بن أبي عامر قد جعله يؤدب هشاماً المؤيد)(٣). ومحمد بن يونس الحجّاري استأدبه المظفر بن الأفطس لنفسه ولبنيه(٤). وغيرهما كثير .

أما المواد التي تدرس في هذه المرحلة فهي متنوعة ، وقد ينتقل المتعلم من معلم إلى آخر لـ (ليتزود بالثقافة التي يتطلبها عصره ، وهي الأدب والشعر والفقه والحديث والتاريخ)(٥). وبعد تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة التعليم العالي ، ويقصد بها (مرحلة التخصص) حيث يتجه طالب العلم - إن رغب في إكمال تعليمه - إلى البحث والتعمق في العلم الذي يميل إليه من خلال تحلقه بعلماء وشيوخ برزوا في هذا العلم وَعَلاَ قدرُهم فيه ، ومن

---

(١) التربية والتعليم في الأندلس /ص١٦٧ .
(٢) المرجع السابق / ص١٦٨ .
(٣) المغرب ١/ص٢١٠ .
(٤) الصلة ٢/ص٥١٨ .
(٥) التربية والتعليم في الأندلس /ص١٧٥ .

خلال ـ كذلك ـ قراءاته لما خلفه السلف من أهل المشرق والمغرب حول العلم الذي أخذ به لبّه واستهواه فكره ، فنرى بعضهم يميل إلى الأدب ، وآخر إلى الفقه ، وآخر إلى الحديث ، أو التاريخ ، أو الفلسفة ، أو الطب .. إلى غير ذلك من أنواع المعارف والعلوم المتنوعة . وقد نراه يميل إلى عدة علوم ومعارف في آن واحد، فيتعمق في دراستها ويبرز فيها ، ويؤلف التواليف العديدة حولها . فقد عرف عن المجتمع الأندلسي رجالاً ونساءً وشباناً ميلهم الكبير للعلم والتعلم ، فكان كل منهم (يقرأ ويهتم بالعلم ويتذوقه ويستمتع بقراءته ومدارسته ، وفيه الآلاف من العلماء والمتخصصين الذين يؤلفون في كل ميدان ويكتبون بوفرة غزيرة ، وأصالة باهرة ، وتمكن نادر)(١).

فكثرت بذلك حلقات العلم ، وألتف الطلاب حول الشيوخ والعلماء ، فكانت (حلقات الشيوخ تحفل بالمعارف والعلوم ، وكانت مجالسهم تكتظ بالطلاب والمتعلمين ، ومن ثم فقد كان ميسوراً على هؤلاء وأولئك ، أغنياء أو غير أغنياء أن يتعمقوا فيما أحبوا من ضروب المعرفة ويتوسعوا فيما شاؤوا من ألوانها)(٢).

ومن يمثلون هذه المرحلة كثر، منهم طلاب الفقه والعلوم الشرعية الذين مافتئوا يبحثون في كل ما يتصل بعلمهم الذي مالت إليه نفوسهم ، من علماء وشيوخ وكتب ، فهم في بحث دائم ومستمر للعلم أينما كان. وقد يصل الأمر بهم إلي الهجرة إلى البلاد المشرقية للِقَاء العلماء بغية التوسع في المعارف الشرعية والفقهية وغيرها ، فمن أولئك الذين هاجروا في طلب العلم الفقيه ابن العربي الذي طاف بعدة حواضر مشرقية لَقِيَ فيها عدداً من شيوخها ، وأبرز علمائها ، فأخذ في بغداد من أبي بكر الشاشي (.. فقيه الوقت وإمامه..)(٣).

---

(١) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين /ص٣٣ .

(٢) ابن صارة الشنتريني حياته وشعره /ص٦٩ .

(٣) قانون التأويل /ص١١١ .

ففرح بلقياه - ابن العربي - وكأن شموس المعارف قد طلعت له ، فما كان منه إلا أن قال عندما رآه : (الله أكبر هذا هو المطلوب الذي كنت أصمد، والوقت الذي كنت أرقب وأرصد)(١). فلزم هذا الشيخ فدرس على يده وقيد ، وارتوى، وسمع ووعى (٢).

كما لزم ابن العربي الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي بدمشق، وروى عنه « كتاب البخاري » سمعه منه ، فيقول في ذلك : (.. وانتهينا إلى سماع « كتاب البخاري » بعد تقدّم غيره عليه ، وكان يقرؤه علينا بلفظه لثقل سمعه..)(٣). وفي القدس لقي أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الأندلسي (ت٥٢٠هـ)(٤). وتفقه عنده (٥).

والأمر لم يقتصر على الاستماع فقط ، بل نراه يقرأ في عدد من كتب التفاسير أخبرنا بأسمائها في كتابه « قانون التأويل » من هذه الكتب «تفسير الثعالبي » و « مختصر الطبري » ، وقرأ (من كتب المخالفين كثيراً ، ومن المسانيد جمعاً غفيراً ، وأكثر ما قرأتْ للمخالفين كتاب عبدالجبار الهمذاني الذي سماه بـ « المحيط » مئة مجلدٍ ، وكتاب الرماني عشر مجلدات)(٦).

ومن لم يستطع الهجرة خارج البلاد نراه ينتقل بين ربوعها بحثاً عن العلم والعلماء ، ومن هؤلاء الفقيه يوسف بن عبدالبر ، الذي عرف ببحثه عن

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق /ص١٠٤ .

(٤) محمد بن الوليد بن محمد الفهري الطرطوشي - أصله من طُرطوشه ، أحد بلدان الأندلس - يعرف بأبي وندقه ، وقيل رندقه صحب القاضي أبا الوليد الباجي بسرقسطة ، عرف بالإمامة والعلم والز هد، فقيه مالكي ، له عدة تآليف ، منها : (بدع الأمور ومحدثاتها) ، و (مختصر تفسير الثعالبي) إلى غير ذلك من التآليف .

ينظر ترجمته في : الصلة ٢/ص٥٤٤ ، والمغرب ٢/ص٤٢٤ .

(٥) الصلة ٢/ص٥٥٨ .

(٦) قانون التأويل /ص١١٩ .

الشيوخ الذين رحلوا إلى المشرق ، ومن ثم الهجرة إليهم رغبة الإفادة مما يكنزونه من بضاعة علمية مشرقية كأحمد بن قاسم الأقليشي ، وسلمة الأستجي الذي عرف برحلاته إلي مكّة ومصر ، وسماعه من شيوخها وعلمائها ، وعندما قدم الأندلس أخذ ابن عبدالبر يهتم به ويستمع إليه ، فسمع منه كتاب « التأمين خلف الإمام » و « شرح قصيدة ابن أبي داود » عن أبي بكر الأجُري ، وهما من تأليفه (١). فروى ابن عبدالبر عن هذين الرجلين كل ما سمعه منهما ، كما روى عن شيخه ابن الفرضي الحافظ تاريخه « في العلماء والرواة للعلم بالأندلس » . ورسالة ابن أبي زيد في الفقه ، وكتاب « المنبه لذوي الفطن على غوائل الفتن » لأبي الحسن القابسي (٢).

وقرأ « منصف » أبي محمد قاسم بن أصبغ في السنن على عبدالوارث ابن سفيان ، وقرأ عليه أيضاً « المعارف » لأبي محمد بن قتيبة ، وسمع عليه « شرح غريب الحديث » له - لأبن قتيبة - . يقول في ذلك ابن عبدالبر : (وسمعت عليه « شرح غريب الحديث » له أخبرنا بهما عن قاسم ابن أصبغ عن عبدالله مسلم بن قتيبة)(٣).

وروى ابن عبد البر وابن حزم وأبو الوليد سليمان الباجي (ت٤٧٤هـ)(٤). عن القاضي يونس بن عبدالله بن محمد قاضي الجماعة بقرطبة ، والذي

---

(١) الجذوة /ص٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق /ص٢٥٦ .

(٣) المصدر السابق /ص٢٩٦ .

(٤) سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي ، درس الفقه ، وكتب الحديث وبرع فيه ، تقدم في علم الكلام ، والنظم لقي جلة من الفقهاء في أثناء رحلاته ، رجع إلى الأندلس بعد ثلاثة عشرة سنة بعلوم كثيرة ، وولي قضاء مواضع من الأندلس ، روى عن العديد من الفقهاء والمفسرين .

ينظر ترجمته في الذخيرة مج١/ق٢/٩٤ ، الصلة ١/ص١٩٧ ، وجلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، طبقات المفسرين ، الطبعة الأولى ، (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص ٤١ .

يعرف بابن الصّفار ، صاحب التآليف الصوفية المتعددة نحو : (كتاب المنقطعين إلي الله عز وجل » و« كتاب المتهجدين » و« كتاب النسيب والتقريب » (١).

وروى أبو الوليد الباجي عن أبي محمد مكي بن أبي طالب المقرئ الذي عرف بكثرة التأليف في علوم القرآن وجلوسه للأقراء بجامع قرطبة (فانتفع علي يديه جماعات وجودوا القرآن وعظم اسمه في البلدة وجلّ فيها قدره)(٢).

ولم يكتف هؤلاء الفقهاء بالاستماع والرواية عن شيوخهم ، إنّما نراهم يخوضون بحر التأليف في العلوم الشرعية ، فاتصفت مصنفاتهم بالجودة وبالقدرة المذهلة على الإلمام بكل ما درسوه وتعلموه على شيوخهم ، كما كانت لهم صولات وجولات في هذه العلوم أفادوا بها كل من أتى بعدهم . وعند ما نلقى بنظرة على كتب التراجم والسير ، نجد كماً هائلاً من أسماء الكتب الشرعية والفقهية لأعلام كبار برزوا في مجالي الفقه والأدب .

١ـ فمن أبرز هذه المؤلفات التي تنم عن عقلية مفكرة استبحرت في العلوم الشرعية وأخرجت الدرر النفيسة منها . كتاب « الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام ، وسائر الأحكام ؛ على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع » للفقيه ابن حزم ، الذي تعددت تواليفه وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسنَدات شيئاً كثيراً(٣). والكتاب السابق الذكر كتاب كبير في فقه الحديث ، أورد فيه ابن حزم أقوال الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه ، والحجة لكل طائفة وعليها ، والأحاديث الواردة في ذلك كله وتحقيق

---

(١) الجنوة / ص٣٨٥ .

(٢) الصلة ٢/ص٩٥٧ .

(٣) الجنوة /ص٣٠٨ .

القول فيه (١). وله كتاب « الجامع » في صحيح الحديث باختصار الأسانيد. وكتاب « الإحكام لأصول الأحكام » و « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، و « التقريب لحد المنطق والمدخل إليه » ، و « الناسخ والمنسوخ » (٢). إلي غير ذلك من التواليف المتصلة بعلوم القرآن والفقه والحديث .

٢ـ وابن عبدالبر الذي يُعدّ ـ بحقٍّ ـ من أكبر الفقهاء البارعين في الفقه والحديث قال عنه أبو الوليد الباجي : « لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبدالبر في الحديث»(٣). من أشهر مصنفاته في الفقه والحديث ، كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » وهو موسوعة كبيرة في فقه الحديث رتبه على أسماء شيوخ مالك بن أنس على حروف المعجم ، قال عنه ابن حزم : « وهو كتاب لا أعلم في الكلام علي فقه الحديث مثله ، فكيف أحسن منه ؟ » (٤).

وله كتاب « الكافي » في الفقه علي مذهب أهل المدينة ، و « جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله » وهو في الآداب الشرعية والتاريخ، و « التقصي لما في الموطأ من حديث الرسول ﷺ » (٥).

٣ ـ ومن أكبر أعلام المالكية في الأندلس شأناً أبو الوليد الباجي، ومؤلفاته تكاد تكون كلها في علوم الفقه والقرآن ، وخاصة في أصول الأحكام وشرح الموطأ (٦). فكان من أهمها « شرح الموطأ » ، و « اختلافات الموطأ » و «الجرح والتعديل » ، و « تفسير القرآن » ، و «الإشارة في أصول الفقه »، و « المنتقى » في الفقه ، وغير ذلك .

---

(١) المصدر السابق/ص٣٠٩ .
(٢) الذخيرة مج١/ق١/ص١٧٠ .
(٣) الصلة ٢/ص٦٤١ .
(٤) الجذوة/ص٣٦٨ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) تاريخ الفكر الأندلسي /ص٤٢٥ .

٤ ـ ويعد أبو الوليد بن رشد (ت ٥٢٠هـ)[١] أنبّه فقهاء المالكية ذكراً في عصره ، (عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم ، نافذاً في علم الفرائض والأصول)[٢]. من تواليفه الفقهية كتاب « المقدمات » ، و « البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل » ، و « اختصار مشكل الآثار للطحاوي إلى غير ذلك .

٥ ـ وأبو بكر بن العربي الذي برع في القرآن والحديث والفقه إبان عصريْ الطوائف والمرابطين ، وألف فيهما التآليف الحسان ، فكان من أهمها: « أحكام القرآن» ، و «الناسخ والمنسوخ» ، و « قانون التأويل » ، و «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي » ، و « القبس في شرح موطأ مالك بن أنس » ، و « ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك » .

٦ ـ وابن الخراط (ت ٥٨١هـ)[٣]. من فقهاء المالكية إبان عصر المرابطين له كتاب مشهور متداول القراءة [٤]. اطلق عليه مسمى « الأحكام » ، وهو أحكام كبرى وأحكام صغرى ، وله كتاب « الجامع بين الصحيحين » ، وكتاب في « المعتل من الحديث » ومصنفات أخرى .

---

(١) محمد بن إحمد بن رشد المالكي ، قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع ، كان فقيهاً عالماً حافظاً للفقه ، مقدماً فيه على جميع أهل عصره .
انظر الصلة ٢ /ص٥٤٦ ، و أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، الطبعة الأولى ، تحقيق د. روحية عبدالرحمن السويفي (بيروت : دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ص ٤٣ .

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي /ص٤٢٧ .

(٣) أبو عبد الحق بن عبدالرحمن الأزدي الإشبيلي ، كان خطيباً ببجاية ، فقيها محدثاً مشهوراً حافظاً زاهداً أديباً شاعراً متواضعاً متقللاً من الدنيا .
ينظر ترجمته في بغية الملتمس /ص٣٤١ ، وجلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، طبقات الحفّاظ ، الطبعة الأولى ، تحقيق : علي محمد عمر ، الناشر : (القاهرة ، مكتبة رهبة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م) ، ص ٤٧٩ ، ونفخ الطيب ٤/ص٣٢٨ .

(٤) نفح الطيب ٣/ص١٨٠ .

ولا شك في أن وفرة المادة الشرعية والفقهية في مؤلفات هـؤلاء الشيوخ ، يعد برهاناً ساطعاً ودليلاً ثابتاً علي اتساع معارفهم بكل ماله علاقة بالدرس الشرعي والفقهي ، المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهذه مرتكزات ثقافة الفقيه الأندلسي ، وغير الأندلسي ، فالقرآن الكريم والسنة النبوية أصليْ التشريع والأحكام ، وهما مناطا الفقه اللذين لا يمكن الاستغناء عنهما في فهم الدرس الفقهي .

ولكن هل اكتفى الفقيه الأندلسي بالموروث الشرعي والتأليف حوله ، أم أنّه تخطى ذلك إلى أفاق ثقافية أخرى ؟. الإجابة عن هذا السؤال تكشفه لنا كتب التراجم والأدب ومؤلفات بعض هؤلاء الفقهاء ، فثقافة الفقيه الأندلسي كانت تستوعب ـ فضلاً عن الثقافة الشرعية الفقهية ـ الكثير من العلوم النحوية والأدبية والتاريخية والفلسفية ، وخاصة علوم الأولين من علوم الآلة التي يستقيم بها اللسان ، وبها تفهم مسائل الدين وتتضح الآيات والأحاديث (١). فلعلوم الآلة دور كبير في فهم النصين المقدسين واستنباط الأحكام الشرعية منهما(٢). فقد (نشأت كل العلوم العربية لخدمة هدف محدد ، هو الحفاظ علي القرآن والسنة من التحريف ، أو الفهم السقيم ، أو التأثر باللغات الوافدة، ولما كان الهدف واحداً لهذه العلوم تكاملت وتعاونت في فهم النص الشرعي، وأجمع علماء الشريعة وفقهاؤها أنّ تعلّمهم العربية والتعمق فيها شرط أساسي لكل باحث في أي علم شرعي)(٣). لذلك وجدت اهتماماً من فقهاء الأندلس وما وصل إلينا من تراثهم ؛ ليؤكد لنا صحة ما ذهبنا إليه .

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس /ص٦٨ .

(٢) أ . د . حسن عبدالكريم الوراكلي ، تراث المغاربة في آثار الدارسين السعوديين « دراسة وبيبلوجرافية» تحت الطبع في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض .

(٣) أ . د . محمد المختار المهدي ، مقالة كتبت بعنوان : « أثر الدرس اللغوي في فهم النص الشرعي » جريدة البلاد السعودية ، ملحق التراث ، يوم الخميس ، العدد١٥٣٠٢.

ولا يخفى علينا أثر أبي علي القالي اللغوي المشرقي في الأندلس، فبقدومه - كما ذكرنا سابقاً - نشطت الحركة اللغوية نشاطاً ملحوظاً ، وعلى يده تخرج العديد من لغويِّ الأندلس ، فتفرقوا أنحاء بلادهم ينشرون علومهم اللغوية عبر حلقات الدرس التي كانت تكتظ بطلاب الفقه والعلوم الشرعية ومن غيرهم ، رغبة في الاستزادة من المعارف والعلوم ، ولتفسير وفهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . فكان من أشهر الحلقات التعلمية اللغوية والنحوية - آنذاك - حلقة ابن الأمليلي، الذي تصدر للأقراء بقرطبة، وكان يقرئهم فيما يقرئ كتاب سيبويه[1]. وحلقة ابن سراج ، وابن السيِّد في قرطبة (وفي إشبيلية وجد اثنان من كبار علماء اللغة هما أبو الحجاج الأعلم الشنتمري ، وأبو عبيد البكري (ت٤٨٧)[2]. وكان إقبال الطلبة علي هذه الحلقات وغيرها إقبالاً كبيراً لفت أنظار بعض الفقهاء كأمثال ابن حزم فـ (هاله أن يشتغل العلماء بذلك ، وأن تستنفد طاقات الطلاب في هذا البحر المائج ، وخشي أن يحال بينهم وبين ما ينبغي أن يتهيأوا له من دراسة علوم الدين وأصولها ، فأبدى رأيه في لون الدراسة اللغوية ، وما ينبغي أن تكون عليه ، وقدم منهجاً دعا فيه إلى القصد والاعتدال)[3].

فقال : (وأقل ما يجزئ من النحو « كتاب الواضح » للزبيدي ، أو ما نحا نحوه (كالموجز لابن السرّاج ، وما أشبه هذه الأوضاع الحقيقية ، وأما التعمق في علم النحو ففضول لامنفعة بها ، بل هي مَشْغَلَة عن الأوكد،

---

(١) د . شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، الطبعة الثالثة ، (القاهرة ، دار المعارف) ص ٢٩١ .

(٢) أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز بن محمد البكري ، كان من أهل اللغة والآداب الواسعة ، جمع كتاباً في أعلام نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .
ينظر ترجمته في : الذخيرة مج ١/ ق٢ / ص٢٣٢ ، والصلة ١/ص٢٧٧ ، والمغرب ١/ص٣٤٧ .

(٣) البير حبيب مطلق ، الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، (بيروت ، المكتبة العصرية ١٩٦٧م) ص ٢٦٢ .

(٤) د . محمد إبراهيم البنا ، « أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النحو » ، الطبعة الأولى (تونس : دار أبو سلامة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ص ١١ .

ومَقْطَعَةٌ دون الأوجب والأهم ، وإنّما هي تكاذيب ، فما وجه الشغل بما هذه صفته ؟ ، وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة ، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط . فمن يزيد في هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه فحسن ، إلا أن الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل ؛ لأنه لا منفعة للتزيد علي المقدار الذي ذكرنا لمن أراد أن يجعله معاشاً ، فهذا وجه فاضل ؛ لأنه باب من العلم علي كل حال)(١).

وكذلك يقول في علم اللغة : (والذي يجزئ من علم اللغة كتابان : أحدهما « الغريب المصنف » لأبي عبيد ، والثاني « مختصر العين » للزبيدي ؛ ليقف على المستعمل بهما ، ويكون ما عدا المستعمل منها عُدّةً لحاجة إن عنتْ يوماً ما في لفظ مستغلق فيما يقرأ من الكتب ..)(٢). وقد عرف عن ابن حزم أنه رجل فقه وحديث ، وصاحب أدب وشعر، غير أنه كان يرى ألا يعنى طالب العلم ، ومنه العلم الفقهي بالنحو واللغة ، وهما من علوم الآلة ، إلا بما يقوّم لسانه وقاعه ، فلا منفعة للاشتغال بهذه العلوم إلا لمن أراد أن يجعله معاشاً له .

(وواضح من نص ابن حزم أنه ينتقد إقبال الطلبة عموماً علي التعمق في دراسة النحو متمثلة هذه الدراسة في كتاب سيبويه وما شاكله من الموسوعات، فدعا إلي أن يتفرغ لذلك المتخصصون فيه ، فأما طلاب الحديث والفقه والأصول فيكفيهم القدر الذي قدمه لهم)(٣). فنظرة ابن حزم تتسم بالنظرة الشرعية التي لاتتجاوز التوغل في الدرس اللغوي إلاّ بالقدر الذي يساعد على فهم النص الشرعي .

---

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي ٤/ص٦٦ .

(٢) المصدر السابق الجزء نفسه / ص ٦٧ .

(٣) أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النحو /ص١٢ .

وكذلك ابن عبدالبر كان له موقف شرعي من الاطلاع على فنون الأدب ، فقد ذكر في مقدمة كتابه « بهجة المجالس وأنس المجالس » أهمية هذه الفنون ، وأنه علي طالب العلم بعد وقوفه علي معاني السنن والكتاب ، عليه أن يطّلع علي فنون الآداب وما (اشتملت عليه وجوه الصواب ، من أنواع الحكم التي تحيي النفس والقلب ، وتشحذ الذهن واللبّ ، وتبعث على المكارم وتنهي عن الدنايا والمحارم ..) (١).

وابن عبدالبر هنا يوافق ابن حزم في نظرته فيما ينبغي قراءته ودراسته من الشعر والأدب حينما قال : (وإن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشعر فلا يكن إلاّ من الأشعار التي فيها الحكم والخير، كشعر حسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنهم ، وكشعر صالح بن عبدالقدوس .. ونحو ذلك ، فإنها نعم العون على تنبيه النفس »(٢).

فالأدب والشعر اللذان يحثان على المكارم والأخلاق الحميدة هو ما ينبغي أن يلتفت إليه ، وما عدا ذلك فلا خير فيه . وهذا الموقف اتخذه ابن حزم ، وابن عبدالبر : لأنهما رجلا فقه ، أثر فيهما الاتجاه الشرعي الفقهي ، فطلبا كل ما تحث عليه الشريعة الإسلامية ، ونبذا كل ما أمرت بتركه حيث إن فيه مضيعة للوقت لا فائدة فيه .

وهذا الموقف من الفقيهين لايعني أنهما اكتفيا بالثقافة الشرعية عن الثقافات الأخرى ، بل علي العكس نرى لهما ولغيرهما القراءات المتنوعة والتأليف في علوم الآلة وغيرها . وعندما نطلع علي الكتب اللغوية والنحوية والأدبية التي قرأها هؤلاء الفقهاء نجد أنها كثيرة ومتنوعة استفاد منها هؤلاء

---

(١) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري ، بهجة المجالس ، وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، (بيروت ، دار الكتب العلمية) مج١/ق١/ص ٣٥ .

(٢) رسائل ابن حزم ٤/ص٦٧ .

الفقهاء في تكوين ثقافة تجاوز ثقافتهم الشرعية والفقهية ، فمع روايتهم للكتب الشرعية وقراءتهم لها على شيوخهم ؛ نجدهم كذلك يروون ويستمعون لبعض علوم الآلة وغيرها ، فهذا ابن عبدالبر يلتقي بعبدالعزيز بن أحمد النحوي المعروف بالأخفش ويروي عنه(١).

وابن العربي يحدث بقصيدة كعب بن زهير التي مدح فيها رسول الله ﷺ بعد قراءتها له على الخطيب أبي زكرياء التبريزي (٢). كما حدث أيضاً أخبار سابق البربري وأشعاره (٣).

وكتاب ترسيل أبي العلاء وسائر شعره في لزوم ما لايلزم وغيره وجميع تواليفه حدّث بها القاضي ابن العربي عن أبي زكرياء يحيى بن علي التبريزي عن أبي العلاء المعري(٤). وكذلك المختار من شعر أبي العتاهية وأخباره ، وشرح شعر المتنبي ، وشرح أشعار الحماسة ، كل ذلك أخبر به ابن العربي بعد إجازه التبريزي له ، فيقول ابن العربي : (كنت أحضر ببغداد عنده وهي تقرأ عليه ، وأجازني جميع روايته وتصانيفه(٥). هذا وقد حدث ذو الوزارتين عبدالله ابن أبي الخصال كتاب « خلق الإنسان » لأبي محمد بن ثابت (٦). وشعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وشعر أبي الطيب المتنبي حدث بهما (سماعاً عليه لبعض وإجازة لسائره)(٧).

---

(١) الجنوة / ص٢٨٨ .

(٢) أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي ، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف ، الطبعة الثانية ، منشورات : (بيروت : المكتب التجاري ، بغداد ، مكتبة المثنى ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م) ص ٤٠١ .

(٣) المصدر السابق /ص٤٠٦.

(٤) المصدر السابق / ص٤١٢ .

(٥) المصدر السابق/ص٤١٦ .

(٦) المصدر السابق /ص٣٦٤ .

(٧) المصدر السابق / ص٤٠٢ ـ ٤٠٣ .

وقرأ ابن خيرالأشبيلي على ابن أبي الخصال «الكامل» للمبرِّد بمنزله بقرطبة ، وكذلك كتاب « النوادر » لأبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي(١). كما حدث ابن أبي الخصال : كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ(٢). إلى غير ذلك .

وهناك العديد من الكتب المتصلة بعلوم الآلة والأدب قرأها الفقهاء والأدباء على شيوخهم ، أو استمعوا إليها ، فحدثوا بها لغيرهم من طلبة العلم ، ومن يطلع على فهرسة ابن خير الأشبيلي (ت ٥٧٥هـ) يجد العديد من الكتب الشرعية والفقهية واللغوية والأدبية ، قد نقلها وقرأها الكثير من الفقهاء . هذا ولم تقتصر همة الفقهاء علي النظر لما خلفه الآخرون من نتاج يتصل بالعلوم العربية ، بل نرى يراعهم تمتد للتأليف في هذه العلوم ، فخلفوا لنا مصنفات جياد ، بقي ذكرها خالداً إلى وقتنا الحالي .

فقد تبلوت عناية طالب الفقه بالثقافة الأدبية في مؤلفات بعض الفقهاء ، مثل ابن عبدالبر، صاحب « بهجة المجالس وأنس المجالس » ، فقد سجل في هذا الكتاب خلاصة ثقافاته وقراءاته في الأدب ، فكان ذلك في مجلدين كبيرين ـ شاع في ثناياهما ـ العديد من النماذج الأدبية والشعرية القيمة، وقد أثبت له ابن سعيد الفروسية في الأدب قائلاً : (مع أنه في الأدب فارس، وكفاك دليلاً على ذلك كتاب بهجة المجالس)(٣).

ولابن العربي بعض المصنفات في علوم الآلة والأدب مثل ذلك رسالته المعروفة بـ «لمحة البارق في تقريظ لواحظ السابق»(٤). وهي رسالة عارض بها رسالة «الساجع والغريب» لأبي القاسم الكلاعي، التي حذا فيها مثال أبي

---

(١) المصدر السابق/ص٣٢٠ .

(٢) المصدر السابق / ص٣٢٦ .

(٣) المغرب ٢/ص٤٠٨ .

(٤) أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي ، إحكام صنعة الكلام ، الطبعة الثانية ، تحقيق د . محمد رضوان الداية ، (بيروت ـ عالم الكتب ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ص ١٨٨ .

العلاء المعري في « الصاهل والشاحج » (١). وهي نوع من الموريّ ، وهو أسلوب من أساليب النثر الفني ، يكون ظاهره خلاف باطنه ، وقد خصص له الفقيه أبوالقاسم الكلاعي فصلاً في كتاب « إحكام صنعة الكلام » .

كما اعتمد المؤلف في كتابه السابق على الكثير من المصادر المشرقية والمغربية ، ففي كتابه نُقول من « أدب الكتاب » ، و « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة ، ومن « يتيمة الدهر » للثعالبي ، ومن مقامات ورسائل بديع الزمان الهمذاني ، ومن « البيان والتبيين » للجاحظ . إلى غير ذلك .

ولا غرابة في ذلك إذ ما عرفنا أن أبا القاسم الكلاعي رجل ميّال بطبعه إلي الأدب بالإضافة إلى الفقه ، فقد قال في ختام كتابه «إحكام صنعة الكلام » : (هذه - أعزك الله - بضاعة استخرجتها يد النصيحة من صدف الفكر وفتقتها يمين الأنفة من كمام الذكر وكتبها ، قلم الاستعجال في صحيفة الارتجال ، إذ الخاطر متقسم بين تفقه في أدب ، وتفقه في شرع محافظة على فرع)(٢).

وللفقيه الكاتب ابن أبي الخصال العديد من الرسائل الإخوانية والسلطانية الديوانية ، وبعضاً من الخطب والمقامات ، وبعض المعارضات في الرسائل ، وهذه الرسائل يشع في ثناياها روح الأدب وقدرة المؤلف الأدبية والبلاغية ، وهي كثيرة ومتنوعة ، قد جمعت - رسائله - في كتاب قام بتحقيقه الدكتور/ محمد رضوان الداية تحمل مسمى « رسائل ابن أبي الخصال » ، وكذلك عند ابن حزم نجد الكثير من الرسائل المتنوعة قد جمعت في كتاب قام بتحقيقه الدكتور/ إحسان عباس ويقع في أربعة أجزاء .

---

(١) المطمح / ص٢١٨ .

(٢) إحكام صنعة الكلام / ص٢٥٠ .

والأمر لايتوفق على الحصول على الثقافة العربية ، بل يتعداه إلى العلوم الأخرى كالتاريخ والجغرافيا وعلم الأنساب .. إلي غير ذلك . وعند ما نطالع أشعار هؤلاء الفقهاء نجد إشارات ولمحات لهذه الألوان من الثقافة المتنوعة الفقهية وغير الفقهية . فهذا ابن عبدالبر يتذكر من سيبكي عليه بعد موته فلايجد إلاّ العلم بالدين والخبر ، وعلوم القرآن والحديث هي تندبه وتبكيه(١).

تذكرت من يبكي عليّ مداوماً
فلم أُلْفِ إلا العلم بالدين والخبرِ
علوم كتاب الله والسنن التي
أتت عن رسول الله مع صحة الأثرِ
وعلم الأُولى من ناقديهِ وفهم ما
له اختلفوا في العلمِ بالرأي والنظر

ففي الأبيات السابقة إشارة إلى معرفة الشاعر بعلم الحديث ، فهو يذكر بعض مصطلحاته كـ « الخبر والأثر » .

ويقول الحميدي (ت ٤٨٨هـ)(٢) في ابن معين :(٣)

ولولا رواة الدين ضاع وأصبحت
معالمه في الآخرين تبيدُ
هم حفظوا الآ ثار من كل شبهة
وغيرهم عما اقتنوه رقودُ

---

(١) نفح الطيب ٤/ص٣٢٧ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي الحافظ المشهور ، كان ورعاً ثقةً إماماً في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته ، من تصانيفه : (كتاب جنورة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس)، وكتاب (الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم) ، و (تفسير غريب ما في الصحيحين) .
انظر ترجمته في الصلة ٢/ص٥٣٠ ، بغية الملتمس /ص١١٣ ، نفخ الطيب ٢/ص١١٢ .

(٣) نفخ الطيب ٤/ص٣٢٨ .

وقـولــه :(١)

وقامـوا بتعديل الرواة وجـرحـهم

فـدام صـحيح النـقـل وهو جديـد

فنلمح معرفة الفقيه بالحديث الشريف من خلال استعماله لمصطلحاته، حينما ذكر رواة الدين وحفظهم للآثار من كل شبهة عن طريق تحريهم العدل والصدق فيما يأخذونه من الرواة ، فأورد لنا عدة مسميات تتصل بمصطلح الحديث نحو « التعديل والجرح والصحيح » ، وهذا يفسر لنا إمامة الحُميدي في علم الحديث وعلله .

وهناك إشارات لبعض القصص القرآني في أشعارهم كإشارة ابن أبي الخصال لقصة يعقوب ، ويوسف عليهما السلام في إحدى قصائده الرثائية في ابنه عبدالملك :(٢)

وما مفـزعُ المحـزون إلا إلى البكا

وكل حـزازات الـقـلوب بـه تَـقْـرا

وفي وجد يعقوب بيوسفَ أسوةٌ

فلا تعذلوني اليومَ في عبرةٍ تـذري

فالفقيه يشير إلى حزن وبكاء يعقوب عليه السلام حال فقده لابنه يوسف عليه السلام ، فما وجده سيدنا يعقوب من حزن ومرارة وجده الشاعر عند فقده لابنه عبدالملك ، لذلك حق له أن يسكب العبرات ويذري الدمعات .

ويقول الفقيه عبدالحق بن غالب المحاربي (ت ٥٤٦هـ)(٣) يندب عهد شبابه :(٤)

---

(١) المصدر السابق .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص٦٤٥ .

(٣) عبدالحق بن غالب بن عطية بن عبدالرحمن المحاربي ، كان فقيها علماً بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو والأدب واللغة ، مقيداً حسن التقييد ، ولي القضاء بمدينة ألمرية سنة ٥٩١هـ ، ألف كتاب « الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » .

ينظر ترجمته في القلائد ٣/ص٦٥٥ ، وبغية الملتمس /ص٣٣٩ ، والإحاطة ٣/ص٥٣٩ .

(٤) الإحاطة ٣/ص٥٤٠ .

مضـى وأبقـى مـنه نـار أسىً

كوني سلاماً أو برداً فيه يانارُ

والشطر الثاني من البيت مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً على إبْرَاهِيمَ ﴾(١).

هذا ومن يقرأ ديوان أبي إسحـان الإلبيـري (ت٤٦٠هـ)(٢). يجد كما مـهولاً من الاقتبـاسـات والإشـارات إلى بعض آي الذكر الحكيم والأحـاديث النبوية ، ولا غرابة في ذلك إذْ عرفنا أن هذا الفقيه يعد أكبر الفقهاء والزهاد إبان عصر الطوائف وقد تأثر كثيراً بالمصدرين المقدسين ، فظهر هذا التأثير واضحاً في أشعاره ، فمن ذلك مثلاً قوله :(٣)

أنـي لأشـكره عـلى آلائِـهَ فهـو الوفِـيُّ بعـهده للشـاكر

ففيـه إشـارة إلي قوله تعـالى : ﴿ وسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، وقـوله تعالى : ﴿ وسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾(٤٥). فمن شكر الله علي نعمه تعهده الله بأنه سيجزيه خير الجزاء كما وعدنا في محكم آيه .

وكقوله أيضاً في إحدى قصائده الزهدية :(٥)

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٩ .

(٢) إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي ، من أهل حصن العقاب بالقرب من إلبيرة ، حاز رئاسة الفقه والشورى ببلده ، وبه تفقه أكثر أهله ، اشتهر بشعره الزهدي فغلب على ديوانه .
ينظر ترجمته في بغية الملتمس /ص١٩١ ، والمغرب ٢/ص١٣٢ ، ، ومحمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، الطبعة الثانية ، تحقيق د. إحسان عباس (بيروت : مكتبة لبنان ١٩٨٤م) ص ٢٨ .

(٣) أبو إسحاق الإلبيري ـ ديوانه ، الطبعة الثانية ، تحقيق د . محمد رضوان الداية (دار قتيبة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ، ص ٧٨ .

(٤) سورة آل عمران من الآيتين ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٥) ديوان أبي إسحاق الإلبيري / ص٣٣ .

وإن جهلوا عليك فقل سلاماً

لعلك سوف تسلم إن فعلت

ففيه إشارة إلى صفات الرحمن المذكورة في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْناً وإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ (١).

وإذا ما انتقلنا إلى مؤلفاتهم نجد أن جلّها يدخل ضمن العلوم الشرعية والفقهية ، وفيها تتجلى بوضوح ثقافة هؤلاء الفقهاء الشرعية ، فمثلاً في كتاب « التمهيد » لابن عبدالبر نجد أن هذا الفقيه قد رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم(٢). وفي هذا الكتاب نلمس بوضوح سعة معرفة الفقيه ابن عبدالبر في الحديث والفقه ، وقد رأى بفضل ذلك أنّ كل من (قصد إلى تخريج ما في موطأ مالك بن أنس - رحمه الله - من حديث رسول الله ﷺ قصد بزعمه إلي المسند ، وأضرب عن المنقطع والمرسل)(٣). وعندما تأمل كل ذلك في كل ما انتهى إليه مما جمع في سائر البلدان اتضح له أنه (لم يرَ جامعيه وقفوا عند ما اشترطوه ، ولا سلم لهم في ذلك ما أملوه ، بل أدخلوا من المنقطع شيئاً في باب المتصل ، وأتوا بالمرسل مع المسند)(٤). فبتعمقه في قراءة كل ما جمع من الأحاديث الموجودة في موطأ مالك اكتشف أنهم لم يقفوا على ما اشترطوه ، بل رآهم يدخلون المتصل بالمنقطع ، والمرسل بالمسند، ولا يعرف بهذه الأمور إلاّ من تعمق في فهم الثقافة الشرعية والفقهية ، وقرأ عنها الشيء الكثير .

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٣ .

(٢) الصلة ٢/ص٦٤١ .

(٣) يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، تحقيق : أ . مصطفى أحمد العلوي ، و أ . محمد عبد الكبير البكري (المغرب ، وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م) جـ ١ / ص ١ .

(٤) المصدر السابق .

كما أنه عند تحريه لمدى قبول أهل الفقه والأثر لخبر الواحد العدل ، علم أنهم أجمعوا في الأمصار علي قبول خبر الواحد العدل وإيجاب العمل به ، إذا ثبت ولم ينسخه غير من أثر أو إجماع (على هذا جميع الفقهاء في كل عصر من لدن الصحابة إلى يومنا هذا، إلاّ الخوارج وطوائف من أهل البدع شرذمة لاتعد خلافاً)(١).

فاطلاعه على ما أجمعه الفقهاء ، وفي جميع الأمصار ؛ لدليل مبين على تعقب ابن عبدالبر لكل ما يتصل بعلمه الفقهي .

وفي كتاب ابن العربي (قانون التأويل) نجد أن هذا الفقيه قد استفاد من جميع علوم القرآن ، فأخذ يطبقها في كتابه ، فالكتاب لاينسب إلى علم من العلوم الإسلامية علي وجه العموم ، فهو كتاب فريد في فنه ، جامع لشتيت الفوائد ومنثور المسائل ومتشعب الأغراض (٢).

فمن الأمور التي تناولها في كتابه ، ذكر حقيقة النوم ، وذكر الآيات الواردة في النفس والقلب والجوارح ، وذكر الحروف المذكورة في أوائل السور، وأنها من البواطن في علوم القرآن ، وقد ذكر أنه قيد فيها (أزيّد من عشرين قولاً ، ولم يخلق الله أحداً يحكم عليها بعلم ، ولا يدّعي في المراد منها فهماً)(٣).

وقوله : (أزيّد من عشرين قولاً) إشارة علي سعة اطلاع ابن العربي وقراءاته حول هذا الموضوع .

ومن شواهد الفقهاء الشعرية التي تدل على تخطيهم للثقافة الشرعية إلي حدود ثقافات أخرى ، قول أبي عبيد البكري :(٤)

---

(١) المصدر السابق ١/ص٢ .

(٢) قانون التأويل /ص ٢٧ (مقدمة المحقق) .

(٣) المصدر السابق / ص٢٠٨ .

(٤) الذخيرة مج ١/ ق٢ /ص ٢٣٧ .

كذا في بروج السعد ينتقل البدر
ويحسن حيث احتل آثاره القطرُ
وتقتسم الأرض الحظوظ فبقعةٌ
لها وافر منها وأخرى لها نزرُ

ففي البيتين إشارة إلي علم الجغرافيا ، وإلى معرفة الفقيه بهذا العلم. وهذا أمر مؤكد فالفقيه البكري قد ألّف مؤلفاً في هذا العلم أسماه بـ (المسالك والممالك) ، وله كذلك (معجم ما استعجم من البقاع والأماكن) .

ويشير أبو إسحاق الإلبيري إلى بعض الشخصيات الأدبية والتاريخية التي اشتهرت بصفات حميدة كشهرة القاضي إياس بن معاوية بالذكاء ، والأحنف بن قيس بالحلم ، وحاتم الطائي بالكرم ، والسموأل بن عادياء بالوفاء ، فيقول في ممدوحه الذي فاقت صفاته كل صفات هؤلاء المذكورين سابقاً : (١)

لو إياس يلقاه قال اعترافاً ... غَلط الواصفون لي بالذكاءِ
ولو أنّ الدهاةَ من كل عصرٍ ... خبروه دانوا له بالدهاءِ
أو رأى أحنفٌ، أو أحلم منه ... حِلْمَهُ ما انتحوا إلى الحُكماءِ
لو رأى المنصفون بحر نداه ... جعلوا حاتماً من البخلاءِ
هو أوفى من السموْل عهداً ... ولما زال مغرماً بالوفاءِ

وهناك العديد من الإشارات والاقتباسات من مختلف العلوم والمعارف تكشف لنا عن ثقافة الفقيه الأندلسي ذات الألوان المتنوعة والمختلفة ، وسنعود - بحول الله تعالى - إلى الوقوف عندها في معالجتنا للمنشآت الشعرية والنثرية والنقدية للفقيه الأندلسي .

---

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري /ص٨٣ .

ويخلص لنا مما سبق أن ثقافة الفقيه الأندلسي ، قد تكونت من عدة محاور علمية مختلفة ومتنوعة ، ففيها العلوم الشرعية من تفسير ، وقراءات، وأحاديث ، وفقه . وهذا هو أساس ثقافته ، كما اشتملت ثقافته علي الأدب، والنحو ، واللغة ، أضف إلى ذلك التاريخ والجغرافيا ، ومحاولة الإلمام بهما .. وغير هذا وذاك مما تضمنت الإشارة إليه بعض أشعارهم ومؤلفاتهم من المعارف والعلوم .



الفصل الأول

المنشآت الشعرية في تراث الفقهاء

مقدمــة :

ازدهر الأدب في عصري الطوائف والمرابطين ازدهاراً عظيماً ، لاسيما الشعر الذي اتسع نطاقه وكثر قائلوه ، حتى قيل عن (شِلْب) - وهي إحدى قرى الأندلس - قلَّ أن ترى فيها من لايقول الشعر ، استمع إلى ياقوت الحموي يقول : (سمعت ممن لا أحصي أنه قال : قلَّ أن ترى من أهلها (أي : شِلْب) من لا يقول شعراً ، ولا يعاني الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنًى طلب منه)[١] .

وهذا القول ، وإن كان فيه شيء من المبالغة ، فهو ينمّ عن ولع أهالي الأندلس بالشعر وقرضه، فكان معظمهم يمارس هذا اللون من التعبيرالأدبي.

ولهذا ظهر عدد من الشعراء - إبان عصري الطوائف والمرابطين - أغنوا ديوان الشعر الأندلسي بقصائدهم المتنوعة الفنون والأغراض مماحداً بالمستشرق ، ليفي بروفنسال أن يقول : (إن الأندلس في عصر ملوك الطوائف عرفت أكبر أشراق شعري)[٢] .

ولهذا الإشراق أسبابه ودوافعه ، وقد ذكرت في المدخل السابق بعضاً منها ، وكان في مقدمتها تشجيع ولاة الأمر للأدب واحتضانهم للشعراء وإغداق الأموال الطائلة عليهم ، وتقريبهم إياهم من مجالسهم السلطانية ، مما ساهم في ظهور أسماء عديدة لمعت في سماء الشعر الأندلسي - إبان هذين العصرين - ومن ثم كان ازدهار الشعر وتطوره مما تجاوز به شعراء الأندلس

---

(١) أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي الحموي ، معجم البلدان ، (بيروت : دار صادر) ٣/ص٣٥٧ .

(١) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف والمرابطين ، ص ٣٨ .

طور التقليد ثم المعارضة إلى طور التحدي ، (حتى استقلوا وتفوقوا على شعراء المشرق ، وقد تمّ لهم ذلك في عصر الطوائف في القرن الخامس الهجري)[1].

ومن يستقرئ أشعار الشعراء في عهد ملوك الطوائف والمرابطين سيتضح له مدى التطور والتقدم اللذين أحرزهما الشعر الأندلسي ، فالأمر لم يعد محاكاة لشعراء المشرق ، بل تعداه إلى التجديد والتطوير في الفنون الشعرية المعروفة رغبة الإتيان بما لم يأت به شعراء المشرق ، وبذلك خلفوا لنا ثروة شعرية بالغة الأهمية ، وإذا ما نظرنا في هذه الثروة وجدناها متعددة الأغراض متنوعة ، ولكن يا ترى ما نصيب الفقهاء من هذه الثروة الشعرية في هذا العصر ؟ وما مدى الإسهام الذي أسهموا به في الفنون الشعرية ؟ هل ساعدوا على المضي بها قدماً نحو الازدهار ؟ أم أنّ أشعارهم قد اتسمت بالسخف والسذاجة وضعف الملكة الشعرية ؟ . للإجابة على هذه الأسئلة وما يشابهها لابد من عرض نماذج لأشعار هؤلاء الفقهاء في مختلف الأغراض والفنون الشعرية كي نتمكن من إلقاء الضوء-قَدْرَ الوسع والطاقة - على تجارب هؤلاء الفقهاء الشعرية وتقييمها .

<<< >>>

---

(١) المرجع السابق /ص٣٩ .

أهم الأغراض الشعرية للفقهاء :

إنّ أول ما يلفت النظر عند استعراض ما وصل إلينا من قصائد ومقطعات شعرية لهؤلاء الفقهاء أنها شاملة لجميع الموضوعات التي تطرق لها غيرهم من الشعراء ، فلم يقصروا القول على غرض دون آخر ، أو يخرجوا من نظم قصائد في موضوعات قد يرى بعضهم أنها لا تتناسب مع وضعهم العلمي والاجتماعي كرجال فقه وعلماء شرع ومع أنهم قد طرقوا جميع هذه الفنون الشعرية ، إلا أنهم عند التناول نلحظ في قصائدهم ومقطعاتهم شيئاً من الالتزام والتقيد بالآداب الإسلامية ، مثل عدم المبالغة أو الغلو ، أو الانحطاط اللغوي الفاحش ، وخاصة في غرض المدح ، والغزل ، والهجاء الذي يعد أقل الأغراض الشعرية تناولاً عند هؤلاء الفقهاء ، فلا نكاد نجد لهم أبياتاً تندرج تحت هذا الغرض ، فهي نادرة وإن وجدت فهي سهام قوية توجه إلى نحور أعداء الدين والمارقين عن الإسلام ، ومن ذلك قول أبي إسحاق الإلبيري في الوزير اليهودي ابن النغريلة ينعته بالفسق ، فيقول في ذلك :(١)

وكيف اسْتَنَمْتَ إلى فاسق وقارَنْتَهُ وهو بِيْسَ القَرِينْ

وقد أنـزلَ اللّـهُ في وَحْيِهِ يُحذِّرُ عنْ صُحْبَةِ الفاسِقِينْ

أما عن تراكيبهم الشعرية، فهي ذات مرجعية إسلامية سنلحظها بوضوح عندما نستعرض شواهدهم الشعرية، وهي مادة وفيرة لاتقل روعة وجمالاً عما يصدر عن غيرهم من الشعراء ، أما إذا ما أخفق بعضهم في تصوير ما قد يجول في خاطره بطريقة شعرية جمالية تستحق وقفة تأملية من قبل القراء، فذلك يعود إلى أن الشعراء طبقات، منهم من يعتلي المرتبة الشعرية الأولى فلا يدانيه شاعر، ومنهم من ينزل عن هذه المرتبة بدرجات متفاوتة .

---

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي / ص٩٠ .

وحسبنا أن نلحظ في شعر هؤلاء الفقهاء مدى مقدرتهم علي توظيف لغتهم الشعرية في إخراج قصائد ومقطعات تتحلى بالصور الجمالية والبيانية وفق منطلقات إسلامية ، وسيتضح ذلك جلياً عند إيرادنا لبعض نماذجهم الشعرية .

أولاً : المديح :

إذا ما نظرنا في هذا الغرض عند الفقهاء وجدنا أنه لايختلف كثيراً في تناوله عن بقية الشعراء ، فهم يلجأون إلي الله بالثناء عليه وبحمده على آلائه ونعمه ، وينظمون القصائد في مدح النبي ﷺ بذكر معجزاته ومناقبه ونسبه الطاهر ، ويمدحون ولاة الأمر من المسلمين وكل من اتصف بالخلق الإسلامي الرفيع .

وأول ما أستفتح شواهدي بهذا الفن للفقهاء ، هو ما يتعلق بذروة سنام المديح ، وهو مدحهم وثناؤهم على المولى سبحانه وتعالى بما هو أهل له (فإن للفقهاء في ذلك شعراً بليغاً مصدره حرارة الإيمان وصدق العبودية وقطع اللحظ عما سواه تعالى)(١). ومن قول الفقهاء في هذا الغرض النبيل قول أبي إسحاق الإلبيري في خاتمة إحدى قصائده الزهدية ، وفيها يعظم المولى سبحانه وتعالى ويثني عليه قائلاً : (٢)

وإلا أَكُنْ أهْلاً لِفَضْلٍ ورَحْمَةٍ ... فَربِّيَ أَهْلُ الفَضْلِ والرَّحماتِ

فما زِلْتُ أرْجُو عَفْوَهُ وَجِنانَهُ ... وأَحْمَدُهُ في اليُسْرِ والأَزَماتِ

وأَسْجُدُ تَعْظيماً له وتَذَلُّلاً ... وأَعْبُدُهُ في الْجَهْرِ والخَلَواتِ

ولستُ بِمُمْتَنٍ عليْهِ بِطَاعَتِي ... لهُ المنُّ في التَّيْسِيرِ للحَسَنَاتِ

---

(١) الشيخ عبدالله كنون ، أدب الفقهاء ، (بيروت : دار الكتاب اللبناني) ، ص ٥١٩ .

(٢) ديوان الإلبيري / ص٥٦ .

وكقوله - أيضاً - وقد بلغ من العمر عتيًا، ولا يطلب شيئاً سوى رحمة ربِّه :(١)

فَعَسَى مَنْ لهُ أُعَفِّرُ وجْهي سَيَرَى فَاقَتِي إليه فَيَرْحَمْ
فَشَفيعي إليْهِ : حُسْنُ ظُنُوني ورَجَائي لَهُ ، وأَنِّي مُسْلِمْ
ولَهُ الْحَمْدُ أنْ هَدَاني لهذا عَدَدَ الْقَطْرِ ما الْحَمَامُ تَرَنَّمْ
وإلَيْهِ ضَرَاعَتِي وابْتِهالي في مُعَافاةِ شَيْبَتِي مِنْ جَهَنَّمْ

ولابن حزم قصيدة ميمية مثبت مطلعها في فهرسة ابن خير يثني فيها على المولى سبحانه وتعالى : (٢)

لَكَ الحمدُ يا ربُّ والشُّكرُ تمْ
لَكَ الحمدُ ما باحَ بالشّكرِ فمْ

ولأبي الوليد الباجي في معنى الحمد والشكر قوله : (٣)

الحمدُ للّهِ حَمْدَ مُعْتَرِفٍ بأَنّ نُعماه ليس نُحصيها
وأنّ ما بالعبادِ مِنْ نِعَمٍ فإنّ مَوْلى الأنَامِ مُوليها
وأنّ شكري لبعضِ أنعمُهُ من خير ما نعمةٍ يواليها

وله أيضا : (٤)

الحمدُ للّهِ ذي الآلاءِ والنِّعَمِ ومُبْدِعُ السَّمعِ والأبْصَارِ والكَلِمِ
مَنْ يحمدِ اللّهَ يأتيه المزيدُ ومَنْ يكفُرْ فكم نِعَمٍ آلتْ إلى نِقَمِ

---

(١) المصدر السابق /ص٤٩ .
(٢) فهرسة ابن خير الإشبيلي / ص٤١٧ .
(٣) الذخيرة مج١/ق٢ / ص١٠٤ .
(٤) المصدر السابق .

ولابن أبي الخصال قصيدة في الأمير أبي إسحاق افتتحها بحمد الله الذي هيأ للدين الإسلامي الرفعة والعلو بالانتصار علي الباطل وسحقة :(١)

الحمدُ للّهِ أضْحى الدِّينُ مُعْتَليا
وباتَ سَيْفُ الهدى الظّمآن قد رَويا

- المدائح النبوية :

وفي مقدمة الشخصيات الإسلامية التي نالت التقديم البالغ والإعجاب المتناهي لدي الفقهاء في الأندلس نبينا محمد ﷺ ، ولا عجب في ذلك فهو رسول ربِّ العالمين وصفوته من خلقه أجمعين اختاره الله من بين كل البشر؛ ليبلِّغ رسالته إلي الناس كافة ، وهو قدوة المسلمين ، بل الإنسانية جمعاء في أقواله وأفعاله ، فكانت سيرته العطرة وصفاته الأخلاقية الإسلامية مبعث إلهام ومصدر قول أولئك الفقهاء .

والفقهاء حينما لجأوا لمثل هذه المدائح أحبوا في ذلك أن (يعبروا عن عاطفتهم الدينية وعاطفة كل مؤمن إزاء الواسطة العظمى في كل خير ونُجْحٍ وفلاح أصاب الأمة العربية والإسلامية ، بل الإنسانية جمعاء من رسالته التي كانت رحمة للعالمين)(٢).

غير أن اللافت للنظر أن المدائح النبوية لفقهاء عصريْ الطوائف والمرابطين - التي وقعت عليها - قليلة جداً ، فلم أجد سوى قصيدة للفقيه ابن أبي الخصال يذكر فيها نسب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، ويشير فيها إلى معجزاته ومناقب صحابته الكرام ، أضف إلى ذلك ثلاث مقطعات نظمها أيضاً عبر فيها عن عاطفته الدينية في التشوق لزيارة مسجد النبي المختار - عليه أفضل الصلاة والسلام - وما عدا ذلك ، فأبيات متفرقة

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص٣٩ .

(٢) أدب الفقهاء / ص١٥٣ .

ومبثوثة في ثنايا قصائد أخرى ليست لها صلة بالمديح النبويِّ ، يدعو فيها الشاعر أن يصليَ الله على رسوله عدد النجوم أو عدد الأفلاك إلى غير ذلك .

ولاندري - على وجه اليقين - السبب في قلة هذا النوع من القصائد عند هؤلاء الفقهاء إبّان ذينيك العصرين ، وقد يكون مرده أن هؤلاء الفقهاء عندما اشتغلوا بآثار النبي عليه الصلاة والسلام وقامت مؤلفاتهم عليها وعلى سيرته الطاهرة ؛ قد شعروا أن عملهم هذا ما هو إلاّ نوع من التكريم ، والتمجيد لنبينا محمد ﷺ ، فاستعاضوا بهذه المؤلفات التي تؤكد على محبتهم للرسول عليه السلام عن إنشاء القصائد فيه ، أو لعل هناك أبياتاً أو قصائد لهؤلاء الشعراء مدحوا فيها رسولنا الكريم ، ولكنها فُقدت فلم تصل إلينا ، وهذا أقرب الاحتمالين ، إذ من غير المعقول أن يمدح غيرهم الرسول المصطفى، وهو من كانت سيرته وآثاره مجال بحثهم لايتطرقون لمديحه .

واللافت للنظر أنّ هذا اللون من الشعر قد ازدهر في وقت متأخر في الأندلس ، ففي (بداية القرن السابع الهجري كان مولد هذا اللون من الشعر الديني المتميز بملامح وسمات معينه عما سبقه من شعر يتحرك ضمن هذا الأفق فظهرت القصيدة الطويلة في مدح الرسول ، وتعداد مناقبه ومعجزاته ..) (١).

ونعود إلى ذكر أبرز ما قيل في النبي محمد ﷺ من مدائح ، فهذه قصيدة لابن أبي الخصال سماها بـ (معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب) ، وهي قصيدة طويلة (نظم فيها نسبه ﷺ إلى آدم عليه السلام بطريقة لم يسلكها غيره من الوقوف عند كل فرْدٍ فرْدٍ من عمود النسب الشريف ، وذكر ما له من المناقب ، ثم عطف على ذلك معجزاته الباهرة

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين /ص٢٦٩ .

وفضائل أصحابه الكرام متصرّفاً في ذلك بفنون القول وأساليب البلاغة التي جعلتها تحظي من كبار العلماء وخاصة الأدباء بعظيم التقدير وفائق الإعجاب)[١].

يبدأ الفقيه قصيدته بمقدمة دينية يعبر فيها عن تشوقه لزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ورغبته الملحة في السلام عليه فقال يرحمه الله : [٢]

إِلَيْكَ فَهمِّي والفؤادُ بيَثْربِ
وإنْ عاقَنِي عَنْ مَطْلَعِ الوَحْيِ مَغْرَبِي

أُعلِّلُ بالآمال نَفْساً أَغُرُّها
بِتَقْديم غاياتي وتَأْخِيرِ مَذْهَبِي

ودَيْني على الأيّامِ زَوْرَةُ أَحْمَدٍ
فَهَلْ يَنْقَضي دَيْني ويَقْرُبُ مَطْلَبِي

ويتمنى لو أن ريحاً تحمله إلي تلك البلدة الطاهرة وإلى ذروة البيت الرفيع :[٣]

فَمَنْ لي وأنَّى لي بريح تَحُطُّني ... إلى ذَرْوَةِ الْبَيْتِ الرّفيعِ المُطَنَّبِ
إلى الهاشميِّ الأبْطحِيِّ مُحَمَّدٍ ... إلى خَاتَمِ الرُّسْلِ المكينِ المُقَرَّبِ
إلى صَفْوَةِ اللهِ الأمين لِوَحْيِهِ ... أبي القاسمِ الهادي إلى خير مَشْعَبِ

ويمضي في مدح الرسول الكريم بقولة : [٤]

إلى ابْنِ الذَّبيحَيْنِ الذي صِيغَ مَجْدُهُ
ولمّا تُصَغْ شَمْسٌ ولا بَدْرُ غَيْهَبِ

---

(١) أدب الفقهاء / ص١٥٥ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٢٧ .

(٣) المصدر السابق / ص ٦٢٩

(٤) المصدر السابق .

إلى المُنْتَقَى مِنْ عَهْدِ آدَمَ فـي الذُّرَى
يَردَّدُ في سِـرٍّ الصَّريـح المُهَـذَّبِ
إلى مَـنْ تَـوَلَّـى اللّـهُ تَطْهيـرَ بَيْتِـه
وَعِصْمَتَهُ مِنْ كُلِّ عيصٍ مُـؤَشَّـبِ
فَجَـاءَ بَرِيءَ العِـرضِ مِنْ كُلِّ وَصْـمَةٍ
فَما شِئْتَ مِنْ أمٍّ حَصانٍ ومِـنْ أبِ
كَرَوْضِ الرُّبا كالشَّمْسِ في رَوْنَقِ الضُّحَى
كناشِيءِ مـاءِ المُزْنِ قَبْلَ التَّصَوُّبِ

وبعد مدحه للرسول عليه الصلاة والسلام ينتقل إلي مدح أهله وقبيلته، فهو من أحسن الناس نسباً وأظهرهم بيتاً ، فوالده عبدالله من خيار الناس، ووالدته آمنة من بيت أصل ومنصب ، ثم يعدد أصولهم وأنسابهم وما قاموا به من أفعال تشرفهم مستفيداً بذلك من سيرة النبي ﷺ ، ومن تاريخ العرب قبل الإسلام :(١)

فَمَنْ مِثْلُ عَبدِاللّه خَيْرٍ لِذَاتِـه
وآمِنَةٍ في خَيْرِ ضَنْءٍ وَمَنْصِبِ
إذا اتَّصَلَتْ جاءَ تْـكَ أولادُ زُهْـرَةٍ
كأُسْدِ الشَّرى مِنْ كُلِّ أَشْوَسَ أغْلَبِ
ولا خـالَ إلا دُونَ سَعْـدِ بن مـالكٍ
وَلَـوْ كانَ في عُليا مَعَـدٍّ وَيَعْـرُبِ
ومن ذا لَـهُ جدٌّ كَشَيْبَةَ ذي النَّدى
وساقي الحَجيجِ بَيْنَ شَرْقٍ ومَغْـرَبِ

---

(١) المصدر السابق / ص٦٣٠ .

وحسبنا بهذا القدر من هذه القصيدة، فهي طويلة بحيث يتعذر أن تثبتها كاملة . أما المقطعات التي أومأنا إليها ، فهي مدرجة ضمن رسالة يتشوق فيها ابن أبي الخصال إلى زيارة الحرمين الشريفين مبدياً أسفه ؛ لعدم اللحوق بالركب الميمم صوب الحرمين ، الذي لم ينضم إليه ، معللاً ذلك بقسوة قلبه ، وكثرة ذنوبه التي قيدته عن عزمه على السفر إلى تلك الديار المقدسة ، فيقول في بعض من مقطوعته الأولى :(١)

يا رسولَ المليكِ نفسي تفوقُ ... وذُنوبي مثبّطاتٌ تعوقُ

كم تَعَرّضْتُ للقبُولِ ولكنْ ... ليسَ للزَّائفِ المُبَهْرَجِ سُوقُ!

كلّما قلتُ قد خلصتُ إلى البِرْ ... رِ ادّعاني بشاهدَيْهِ العُقوقُ

وبَعيدٌ أن تستجيبَ إلى الرُّشْـ ... ـدِ قلوبٌ للغيِّ فيها حقوقُ

قَيَّدَتْنِي الذُّنوبُ ، بل أسْكرتني ... فصَبُوحٌ لاينقضي وغَبُوقُ !

ويبدي في مقطوعته الثانية كما أبدى في الأولى من إظهار الولع والشوق لزيارة مسجد رسول الله ، فيقول في بعض منها : (٢)

يا رسول الإله هلْ ... أنا في الرّكب مُغتدِي

ليتَ شعري تلهُّفاً ... من شجٍ عنك مُبْعَدِ

هل أقُولَنْ لُمُقْلَتِي ... وهي بالدّمع ترتدي

والسُّرى قد رمت بها ... في حِمى ذلك النَّدِيّ

اجْزَعِي أو تَجَلَّدِي ... هذه دارُ أحْمَدِ

---

(١) المصدر السابق /ص٣٩٣ .

(٢) المصدر السابق /ص٣٩٤ .

وفي المقطوعة الثالثة نراه يغبط أصحابه على شرف الزيارة والتسليم علي خير الأنام ، فيقول في بعض منها:(١)

يا صاحِبَيَّ رَشَدْتُما وهُديتُما قصْدَ السَّبيلْ
ووقيتما ولَقِيتُما يُمْنَ المُعَرَّسِ والمَقيلْ
وتكفَّلَت بكُما السَّلا مةُ في النّزولِ وفي الرَّحيلْ

ولأبي إسحاق الإلبيري قصيدة زهدية يختمها بالصلاة على النبي ﷺ ، فيقول فيها :(٢)

ومن الإلـه علَى النّبِيِّ صَلاتُهُ عَدَدَ النُّجومِ وعِدَّةَ الأمْلاكِ

<<< >>>

- مدحهم للشخصيات الأخرى :

مدح الفقهاء كما مدح شعراء عصرهم ، كل من نال إعجابهم من الشخصيات السياسية والاجتماعية ، بيد أن المشهور - إبان ذينيك العصرين - أنّ كل من طرق أبواب الأمراء والملوك مادحاً إياهم أنه يريد أن يتكسب بشعره ، مع أن الحقيقة - فيما اعتقد - غير ذلك ، فليس كل الشعراء كان غرضهم من شعر المديح هو التكسب والارتزاق ، وإنما هناك عدد من الشعراء طرقوا أبواب ذوي السلطان وأمطروهم بوابل من مدائحهم ، ومع ذلك فإن نفوسهم كانت زكية لاتطلب بذلك مالاً ولا سلطاناً ؛ إنّما هي تمدح من باب الإعجاب بشخصية الممدوح ، والرغبة في إظهار محاسنه وفضائله للملأ ، حتى يكون قدوة لغيره ، ومن هؤلاء الذين يثنون علي الإنسان بما هو أهله غير ناظرين إلى مكافأة مادية الفقهاء ، فهم إن مدحوا الملوك والأمراء ؛ إنما

---

(١) المصدر السابق / ص٣٩٥ .

(٢) ديوان أبي إسحاق الإلبيري / ص٣٨ .

يمدحون فيهم تحليهم بالأخلاق الفاضلة ، والخلال الحسنة التي حث عليها ديننا الإسلامي ، والشواهد على ذلك كثيرة ومتنوعة ، ومن ذلك قول أبي عمر الباجي يمدح المعتضد بن عباد بقصيدة يذكر فيها خلاله الإسلامية ، التي استحقت أن يشار إليها بالبنان ، ويتغنى بها الشعراء من مثل الشجاعة والجود والأناة، فيقول : (١)

للـــه معــتـمدٌ علــيه مُؤيّـــــدٌ
بالنصر منه عــفا وجــاد وذادَا

لا يصرفُ النصحاءُ عزمَ سماحِهِ
سـبـحانَ مَنْ طَبَعَ الجوادَ جَوادَا

جـودٌ يفـيضُ البحـــرُ منهُ ومنَّــةٌ
في البأسِ يُدْهِشُ ذِكْرُهَا الأنْجَادَا

وأنــاةُ حِـلْمٍ في إبــاءِ حَفِــيظةٍ
كالأرضِ تُطْلِعُ سَوسَــناً وقَــتَادَا

ومن الأمثلة الشعرية التي تؤكد لنا على أن المديح عند الفقهاء قد ارتبط بما يتمتع به الممدوح من خصال حميدة ومعان إسلامية سامية دون أن يكون للعطاء والبذل ؛ أثر في في ذلك قصيدة المدح الموجهة من أبي إسحاق الإلبيري إلي القاضي ابن توبة ، وقد مدحه لما عرف عنه من زهد وورع وتقوى، فيقول فيه مستعرضاً ثقافته التاريخية والأدبية بمقارنة ممدوحه ببعض الشخصيات المشهورة في تاريخنا وأدبنا العربي نحو إياس بن معاوية، وحاتم الطائي ، والأحنف بن قيس ، والسموأل بن عادياء ، فيقول :(٢)

بِعَلِّي بن تَوْبَــةٍ فــازَ قِدْحِي وسَمَتْ هِمَّتي على الجَوْزَاءِ

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص١٩٩ .

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري / ص٨٢ .

فَهَـنيئاً لـنـا وللِّديْنِ قَـاضٍ   مثْـلُهُ عالِـمٌ بِفَصلْ القَـضاء

يَحْسُمُ الأمر بالسِّياسَةِ والعَدْ   لِ كَحَسْمِ الحُسَامِ للأعْـداءِ

لو إيـاسٌ يَلْقاهُ قـالَ اعْتِرافاً   غَلِطَ الواصِـفُونِ لي بالذَّكاءِ

ولو أنَّ الدُّهَــاةَ مِنْ كُلِّ عَصْرٍ   خَبَروهُ دَانُـوا لَـهُ بالدَّهَـاءِ

أو رأى أحْنَـفٌ - أو أحْلَمُ منْهُ -   حِلْمَهُ ما انْتموا إلى الحُلَمَاءِ

أو رأى المُنْصِفُونَ بَحْرَ نَدَاهُ   جَعَـلوا حاتِماً مِنَ الْبُخَـلاءِ

هـوَ أوْفَـى مِنَ السَّمَوْأَلِ عَـهْداً   ولَمَا زالَ مُغْرماً بالوَفَـــاءِ

فكل هذه الشخصيات وما اشتهرت به تقف حانية رأسها أمام ما اشتهر به ابن توبة من خصال وخلال كريمة ، ومع كل ما مدحه به الإلبيري ، فإنه - الفقيه - يرى أنه لم ينصف ممدوحه القاضي فبالغ في المدح ، بل أتى بما لايليق بمكانته كفقيه ، حيث لامانع لديه من أن يضع خده حذاء للقاضي ، وأن يكون عبداً مملوكاً له ، استمع إليه يقول : (١)

ولو أنْصَفْتُهُ - وذاكَ قَـليلٌ -   كانَ خَدِّي لرِجْلِهِ كالحِـذاء

فأنـا عَبْدُهُ - وذاكَ فخَـاري -   وجَمالي بَيْنَ الوَرَى وبَهـائِي

ويعد الدكتور إحسان عباس أبا إسحاق الإلبيري من فريق الشعراء الذين ترفعوا عن اتخاذ الشعر وسيلة للأرتزاق والتجوال به خضوعاً لمذهب ذاتي فلسفي أو ديني أو لعلة خاصة(٢). ولعل هذا هو شأن الفقهاء ومذهبهم الشعري .

ويستهل أبو الوليد الباجي قصيدته المدحية في قاضي القضاة ببغداد ناصح الدين السمناني بمقدمة غزلية على غرار ماكان يفعله بعض شعراء

---

(١) المصدر السابق /ص٨٤ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين /ص ٨٨ .

الجاهلية، فيقول في بعض من هذه المقدمة : (١)

يا بعد صبرك أتْهموا أم أنْجدوا	هيهات منك تصبرٌ وتجلُّدُ
يأبى سُلُوّكَ بارقٌ متألِّقٌ	وشميمُ عَرف عرارةٍ ومغرِّدُ
في كل أفْقٍ لي علاقةُ خولةٍ	تهْدِي الهوى وبكلِّ أرضٍ ثَهْمَدُ(٢)

ويقول ابن بسام عن مناسبة هذه القصيدة : (دخل أبو الوليد الباجي بغداد والحرمان قد كساه سرابيل ورماه بطير أبابيل وقاضي قضاتها السمناني ناصح الدين تاج الإسلام يباري القطر ، ويحلي ديباج الفقر ، فقلّده معهود تحفيه ، وسقاه ماء أمانيه وأهبَّه من نوم فاقته ، وطيّه بجود أسرع في أفاقته واشتمل عليه اشتمالاً مع صون ماء وجهه عن إراقته أناله ما أحسبه والله وأكسبه ، فاقتصر علي نداه ، واهتصر أفنان جناه)(٣).

وقد أوردت هذه النص ، حتى لايخيل لأحد أن أبا الوليد الباجي قد مدّ يده للسؤال أو أنه مدح القاضي رغبة في المال ، فما نفهمه من النص السابق هو أن أبا الوليد عندما دخل بغداد كان في شدة من ضيق ذات اليد، وقد تكفل القاضي السمناني باستضافته ومدّ له يد العون والمساعدة دون أن يريق أبو الوليد ماء وجهه ، ويطلب منه ما يكفي مؤنته ، فالفقيه قد عرف عنه ترفعه التكسب بشعره ، أما ما يهدى إليه فلا يرفضه ؛ لأن الهدية سبب في زيادة المحبة ، مصداقاً لقوله ﷺ : (تهادوا فإن الهدية تذهب وحرَ الصدور ..)(٤).

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٩٩ .

(٢) قوله : (في كل أفق لي علاقة خولة...) يذكرنا بقول طرفة بن العبد في بداية معلقته التي يقول فيها:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

انظر : يوسف بن سليمان بن عيس المعروف بالأعلم الشنتريني ، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الآفاق الجديدة : ١٩٧٩م) ٢/ص٤٠ .

(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٩٨ .

(٤) أبو عيسى محمد بن سوره الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق : عبالرحمن محمد عثمان ، (بيروت، دار الفكر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ٣/ص٢٩٨ .

وما كانت رحلة أبي الوليد إلي بغداد إلا لطلب العلم والمعرفة ، وما نحسبه ذهب ليتكسب بشعره ، ولكن إزاء هذا الموقف النبيل الذي قام به القاضي السمناني ، الذي أخذ الفقيه عنه علم الكلام ودرس عليه نراه يكافؤه بنظم قصيدة يمدحه فيها مبدياً إعجابه بشخصيته الإسلامية ومشيداً بمواقفه النبيلة ، وهذا أقل ما ينبغي أن يقدمه تلميذ لإستاذه ، فيقول الفقيه في القاضي مادحاً إياه : (١)

حيثُ التقتْ ظُبةُ السَّماحة والعلا ورسَتْ قواعدهُ وحُلّ المقْودُ

فجنَابُهُ لايُستباحُ وجارُهُ لايستضام ونبعه لايُقصدُ

حَرَمُ المكارمِ لا [ينال] فناءَه ذامٌ ولا للفضلِ عنه مَبْعَدُ

عالي محلّ النّارِ في كَلَبِ الشتا إذ بالحضيضِ لغيرهِ مستَوقَدُ

هذا الشهابُ المستضاءُ بنورهِ عَلَمُ الهُدى هذا الإمامُ الأوحدُ

هذا الذي قَمَعَ الضَّلالَةَ بَعْدَما كانتْ شياطينُ [الضلال] تمرَّدُ

وللفقيه أبي الفضل بن يوسف الأعلم (ت٥٤٧هـ)(٢) أبيات يخاطب فيها المعتمد بن عباد ، يثني عليه ويصفه بالجود والكرم قائلاً :(٣)

يا منْ تملّكني بالقَولِ والعَملِ
ومُبلِغي في الذي امّلْتُه أَملي

كيف الثناء وقد أعجزتني نعماً
مالي بشكري عليها الدهْرَ منْ قِبَلِ

رفعتَ للجودِ أعلاماً مُشهَّرةً
فبابُكَ الدهْرَ منها عامرُ السبلِ

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص١٠٠ .

(٢) محمد بن يوسف بن سليمان بن جعفر، من أهل شنترية ، ولي لَبْلَة ، والصلاة والخطبة بجامعها ، وكان فقيهاً ، شاعراً ، كاتباً .
ينظر ترجمته في : مطمح الأنفس /ص٣٠٢ ، والمغرب ١/ص٣٩٦ ، ونفح الطيب ٤/ص٧٤ .

(٣) نفح الطيب ٤/ص٧٥ .

ومن المدائح التي صدرت عن إعجاب ناظمها بممدوحه دون أن يشوبها شيء من الطمع أو يحركها منزع من الجشع أو الرغبة في الحصول على الأموال أبيات مديح للفقيه أبي عبيد البكري في المعتمد بن عباد عندما اجتاز البحر مستجيراً بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين يمدحه فيها بطيب كرمه، وكيف أن عباب الماء ، حينما طمي ذكّره بجود المعتمد، فيقول :(١)

يهون علينا مركب الفلكِ أن يرى
محيّاً العلا لما بنا مركب الجُرْدِ

فَجزْنا أُجاجَ البَحْرِ نَبْغِي زُلالَهُ
وذقْنَا جِنَى الشريانِ نَبْغِي جنَى الشَّهْدِ

يُذكرنَا ذاكَ العُبابُ إذا طَمى
ندى كفِّك الهامي على القربِ والبُعْدِ

ومنها كذلك :

محمدُ يا ابن الأكرمينَ أرومةً
ليُهْنكَ تشييدُ المَكَارمِ والمجدِ

فلو خُلّد الإنسانُ بالمجدِ والتقى
وآلائه الحسنى لهُنئت بالخلدِ

ويمدح الحميدي ابن معين وجماعة علم الحديث أرومة بعد أن تعرض لهم من لايبالي بما ارتكب ، قائلاً في حقهم :(٢)

وما هوَ إلاّ واحدٌ من جماعةٍ
وكلّهمُ فيما حكَوْهُ شُهودُ

---

(١) الذخيرة مج١/ق٢/ص٢٣٨ .

(٢) نفح الطيب ٤/ص٣٣٨

فإن صدَّ عن حُكْمِ الشهادةِ جاهلُ
فـإنّ كتـابُ اللّـهِ فيهِ عَـتِـيـدُ
ولولا رُوَاةُ الدين ضاعَ وأصبحتْ
معـالمُـهُ في الآخـرين تَـبِيدُ
هم حفظوا الآثارَ من كلِّ شُـبهَةٍ
وغـيرهـمُ عمَّا اقـتنوه رُقُـودُ
وهم هاجروا في جمعها وتبادروا
إلى كـلِّ أفـقٍ والمـرامُ كـؤودُ
وقامـوا بتعديلِ الرواةِ وجَرْحِـهم
فـدامَ صحيحُ النقـلِ وهو جديـدُ
بتَبْليغهم صحـتْ شرائعُ ديـنـنا
حـدود تحـرّوا حفـظها وعُـهودُ
وصحَّ لأهلِ النقلِ منها احتجاجُهم
فـلم يبـقَ إلاّ عـانـدٌ وحَـقُودُ

وعندما يوجه الأمير المسلم جيوشه لقتال أعداء الدين وينتصر عليهم، فإنه يحوز علي إعجاب من حوله ، ومنهم الشعراء الذين يتسابقون إلى المثول بين يديه لإلقاء قصائدهم مدحساً وإعجاباً بشخصيته الحربية ، وبشجاعته وبساله جيشه في المعركة ، وهذا ما حدث عندما انتصر الأمير تاشفين بن علي بن يوسف اللمتوني المرابطي علي العدو في معركة (كركي) التي يذكرها الفقيه ابن أبي الخصال في قصيدته الموجهة إلى هذا القائد الأمير فيمدحه بقوله :(١).

يا أيُّها الملِكُ السَّامي بِهِمَّتِهِ
إلى رِضي اللّه لاتعدَمْ رضي الملكِ

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٥٦ .

ما زلتَ تُسْـمِعَهُ بُشـرى وتُطْـلِـعهُ
أُخرى كَدُرٍّ على الأجيادِ مُنْسَلِكِ

بَيَّضتْ وَجْـهَ أمـيرِ المؤمـنـين بـها
والأرضُ من ظُلْمَةِ الإلحادِ في حَلَكِ

فاستشْعرَ النَّصرُ واهتزّتْ منـابِرهُ
بـذكـرِ اروَعَ للكُـفَّـارِ مُحْـتَـنِـكِ

فـأخْلَدَتْـك وَمَـنْ والاكَ طـاعَـتهُ
خُلودَ بَـرٍّ بتَقْوى اللّـهِ ممتسِكِ

وافيْتَ والغيثُ زَجْراً قـد بكى طَـرباً
لَمَّا ظَفرتْ وكم بكَّى من الضَّحْـكِ

وتمَّمَ اللّـهُ ما أنْشَـأتَ من حسنٍ
بكُـلِّ منسَكبٍ مِـنـهُ ومُنْسَـبِكِ

وهكذا يتضح مما سبق من نصوص شعرية في غرض المديح لفقهاء الأندلس ـ عصري الطوائف والمرابطين ـ أنها تنزهت وترفعت عن الابتذال والانحطاط الشعري لغرض مكسب مادي ، فقد (احتفظوا للشعر بمكانته العالية ، ولم يغضوا من قالته الذين يُنْمَون إلى طبقتهم ، لاعتزازهم بالعلم وترفعهم عن السؤال)[١].

فهم إن مدحوا فإنما يمدحون إعجاباً بشخصية الممدوح التي ترتكز على التعاليم الإسلامية، وبذلك جاءت مدائحهم تحمل معاني إسلامية رائعة ، وتؤكد علي قيم خلقية رفيعة ، وإن كانت مدائحهم تدور حول معانٍ مألوفة مكرورة ، فهذا أمر لا غرابة فيه إذ اشترك فيه جميع الشعراء منذ القدم، وقد اعترف بهذه الحقيقة الشاعر المخضرم كعب بن زهير ، إذ قال :[٢]

---

(١) أدب الفقهاء/ص ١٤٣ .

(٢) ديوان كعب بن زهير ـ صنعة الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري ، (القاهرة : الدار القومية ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠) ص ١٠٤ .

ما أرنَـا نَقُـولُ إلا رَجِـيعًا ومُعَاداً منْ قَـوْلِـنَا مَكْـرُوْرَا

إلاّ أنه يكفي أن يعتمد الفقهاء في مدائحهم على مرجعيه إسلامية عميقة تمثل عقيدتهم وسلوكياتهم .

ثانياً : الهجاء ونقد المجتمع :

تناول الفقهاء غرض الهجاء ، ولكن بصورة محدودة لاتعادل ما نجده عند غيرهم من الشعراء ، وإذا بحثنا عن غرض الفقهاء من هذا التناول وجدنا أن الهدف منه الإصلاح والتعديل ومحاولة الرقي في بناء المجتمع ، وذلك بتعديل أنماط السلوك عند أبنائه ، ومن الأمثلة على ذلك قصيدة أبي إسحاق الإلبيري الموجهة لصنهاجة البربر عندما استشرى داء اليهودي ابن النغريلة رئيس وزراء باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة ، الذي ركن للملذات وترك ابن النغريلة يوسف بن إسماعيل اليهودي يعبث بأمور الدولة كيف يشاء ، ويفرض الضرائب على الشعب الغرناطي لجمع الأموال منهم(١).

فلما استفحل شره واستعظم أمره أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود ـ الذين جاء بهم الوزير اليهودي السابق الذكر من كل بلد ـ على أمور الدولة وشئونها ، مماحدا بالشعراء أن ينظموا القصائد تلو القصائد يستثيرون فيها همم العامة للثورة على اليهود ، وكان من أبرز هؤلاء الفقيه أبو إسحاق الإلبيري صاحب النونية المشهورة ، التي نظها في هجاء ابن النغريلة ومستنهضاً بها أهل صنهاجة لمقاومة بؤرة الفساد المتمثلة في الوزير اليهودي المعين من قبل أميرهم باديس بن حبوس قائلاً في مطلع تلك القصيدة التي جاءت في ثمانية وأربعين بيتاً ، مخاطباً أهل صنهاجة :(٢).

---

(١) انظر قصة سيطرة اليهودي ابن النغريلة واستفحال أمره علي غرناطة في الذخيرة مج٢/ق١/ص٧٦٦، والإحاطة ١/ص٤٣٧ .

(٢) ديوان الإلبيري /ص٨٩ .

ألا قُـلْ لصنْهاجَـةِ أجْمَعِـينْ ... بُـدُورِ النّـدِيِّ وأُسْـدِ العَـرِينْ

لقـــدْ زلَّ سَـــيِّدُكُـــمْ زَلَّـةً ... تَقرُّ بِهـــا أعْـيُنُ الشَّامِـتِينْ

تَخَــــيَّــر كاتِـبَـهُ كافِــراً ... ولو شــاءَ كانَ من المسـلمـين

فَعزَّ اليَـهـودُ بـهِ وانْتَخَـوا ... وتاهـوا وكانُـوا من الأرْذَلِـينْ

ونـالُـوا مُنـاهُمْ وجازُوا المدَى ... فحانَ الهَـلاكُ وما يَشْعُـرونْ

وهنا يضع الإلبيـري يده على الجـرح الذي اسـتـفـحل خطره وحـان استئصاله ، ثم يخاطب الأمير باديس الذي خانه حذقه بركونه إلى اليهودي كي يدبر أمور دولته وشئونها فيقول له :

أبـاديْسُ أنـتَ امْـرؤٌ حـاذِقٌ ... تُصِـيْبُ بِظَـنِّكَ نَفْـسَ اليَقِـينْ

فَكَيْفَ اخْـتَـفَتْ عَنْكَ أعْـيَانُــهُمْ ... وفي الأرْضِ تُضْرَبُ منها القُرونْ

وكَيْفَ تُحِـبُّ فِــراخَ الـزِّنـا ... وهُمْ بَغَّـضُـوكَ إلى العـالمــينْ

وكَيْـفَ يَتِـمُّ لـــكَ المُرْتَــقَى ... إذا كُنْـتَ تَبْـنِي وهُـم يَهْـدِمُونْ

ثم ينتقل الإلبيري لهجاء اليهودي ابن النغريلة فيصفه بالفسق قائلاً :(١)

وكيف اسْـتَـنَمْتَ إلى فاســقٍ ... وقـارَنْـتَهُ وهو بِـيْسَ القَـرِينْ

ومن شـدة غضب الإلبيـري وكـرهه لهـؤلاء اليـهود ـ وهو علي حق ـ نراه يشبههم بالكلاب ، ويطلب من ابن باديس أن يلحظ ذلك :(٢)

تَـأَمَّـلْ بِـعَـيْـنَـيْكَ أقْـطَارَها ... تَجِـدهُمْ كلاباً بِها خاسِـئِينْ

ولا شك في أن هـجـاء الإلبـيـري لـهـؤلاء الطغـاة كـان بدافع الغـيـرة على حظيرة الإسلام والمسلمين ، وليثير في المسلمين دافع الانتقام والأخذ بالثأر

---

(١) المصدر السابق /ص٩٠ .

(٢) المصدر السابق /ص٩١ .

من هذا اليهودي الذي أسقط حقوق المسلمين من حساباته ، وعاث في أمور دولتهم فساداً وخراباً ، وبالفعل تحقق للإلبيري ما تمنى ورغب ، إذ بعثت قصيدته السابقة روح الإباء ورفض الذل والظلم والهوان في نفوس سكان غرناطة فقامت صنهاجة بالثورة علي اليهود ، وقتلوا منهم العديد ، وفيهم وزيرهم ابن النغريلة (١).

وإذا كان الإلبيري قد وجه سهام هجائه إلى اليهود ـ لعنهم الله ـ في قصيدته السالفة ، فهو في قصيدته التالية يوجه هجاءه إلي شخص يدعى عبدالرحمن بن الحاج الإلبيري ، وسبب هذا الهجاء كما هو مذكور في (الإحاطة) وديوان الشاعر أن عبدالرحمن الإلبيري كان معروفاً بقرض الشعر، وقد هجا القاضي ابن توبة قاضي غرناطة ، ومن ناصره من الفقهاء، فضربه القاضي ضرباً مبرحاً ، وطوف به الأسواق بغرناطة ، ورداً علي هجاء عبدالرحمن نظم أبو إسحاق الإلبيري قصيدة في هجائه منتصراً للقاضي ومن ناصره مشبها صدى هجاء عبدالرحمن للقاضي ابن توبه بنباح السفيه الذي ينبح بقول الأباطيل :(٢)

السَّوطُ أَبْلَغُ من قالٍ ومن قيلِ
ومنْ نُبَاحِ سَفِيْهٍ بالأَبَاطِيلِ

مُرُّ المذَاقِ كَحَرِّ النَّارِ أَبْرَدُهُ
يُعَقِّلُ المُعاطي أيَّ تَعْقِيلِ

رأى من الطِّبِّ ما بُقراطُ لَمْ يَرَهُ
في بُرءِ كلِّ سَخِيفِ العَقْلِ مَخْذولِ

---

(١) انظر مقتل اليهودي ابن النغريلة في الذخيرة مج٢/ق١/ص٧٦٦ ، والإحاطة ١/ص٤٣٩ .

(٢) ديوان الإلبيري / ص١٠٠ .

وهجاء الإلبيري وغيره من الفقهاء يختلف عن هجاء غيرهم ممن عاشوا في عصرهم ، فإنهم لم يشتهروا بهذا الفن ، ولم يشغلوا وقتهم به ، بينما نجد شعراء آخرين على عكس ذلك ، فالسميسر مثلاً مشهور بهذا الفن والتخصص فيه ، حتى قيل : إنه ألّف مجلدات فيه سماها (شفاء الأغراض في أخذ الأعراض)(١)، وهو القائل في ابن بلقين صاحب غرناطة :(٢)

رأيتُ آدمَ في نَوْمي فقُلتُ لهُ
أبا البَريَّةِ إنّ النّاسَ قَدْ حَكَمُوا
أنّ البَرَابِرَ نَسْلٌ منْكَ ، قال : إذنْ
حَوَاء طالقةٌ إنْ كانَ ما زَعَمُوا

فهناك فرق بين هجاء الإلبيري وهذا الهجاء ، فالسميسر قد تجرأ وذكر قولاً على لسان آدم عليه السلام بقصد الإمعان في هجاء البربر ، الشيء الذي تخلو منه قصائد الإلبيري ؛ لأنه حريص علي سلامة أقواله من كل ما يشين ، كحرصه علي سلامة أفعاله ، وهذا هو ديدن الفقهاء الملتزمين خلافاً لغيرهم من الشعراء .

ومن أبيات الفقهاء التي سلمت من الابتذال اللفظي والانحطاط بالكلمة الموجهة للمهجو قول ابن عبد البر فيمن أنكر عليه طعام السلطان وقبول جوائزه ، فردّ عليهم قائلاً : (٣)

قلْ لمنْ يُنْكِرُ أكْلِي ... لِطَعَامِ الأمَرَاءِ
أنْتَ من جَهْلِكَ هذا ... في محلِ السُّفَهَاءِ

---

(١) أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، الطبعة الأولى ، تحقيق : د. حامد عبدالمجيد وإبراهيم الأبياري ، و د. أحمد أحمد بدوي ، مراجعة د . طه حسين ، (القاهرة : وزارة التربية والتعليم - ١٩٥٤) ص ٩٣ .

(٢) نفح الطيب ٣/ص٤١٢ .

(٣) المصدر السابق ٣/ص٢٣٥ .

ولم يزد على وصفهم بالسَفْه دون أن يذكر أسماء هؤلاء الأشخاص الذين أنكروا عليه أكل طعام ذوي السلطان وقبول جوائزهم .

كما أن له بيتاً آخر يذم فيه الخمر وشاربها قائلاً : (١)

واصلتَ في شربِ الشّمَول سَفاهةً
حتى غَدَوتَ كأَنَ أَنْفَكَ دُمَّلُ

وهذه صورة ساخرة مضحكة ، لاتحط من قدر الفقيه أو قيمته بقدر ما يجعلنا نهتز إعجاباً بهذه الصورة التي يحاول بها التنفير من شرب الخمرة التي كانت منتشرة في بيئته . وللفقيه ابن عبدالبر قصائد ينتقد فيها بعض المظاهر والسلوكيات غير المقبولة التي مُني بها عصره ، فمن ذلك قوله في مرض حب الرئاسة الذي أصاب الحياة السياسة ، وأدى إلى الصراع علي السلطة وتمزيق الأندلس إرباً إرباً وتعذر معه توحيدها مرة أخرى بسبب هذا الداء(٢) ، فيقول :(٣)

حب الرِّياسَةِ داءٌ يَخْلقُ الدُّنيا
ويَجْعلُ الحبَّ حرباً للمُحبِينا
يُفْري الحَلاقمَ والأرحامَ يَقْطعُها
فلا مروءة يُبْقَى ولا دِينا
من سادَ بالجَهْلِ أو قبل الرسوخ فلا
تراهُ إلا عدواً للمُحقِينا
يَبْغي ويَحْسد قوماً وهو دونهم
ضاهى بذلكَ أعداء النبيينا

---

(١) بهجة المجالس مج ٢ / ق١ / ص٥٢٧ .

(٢) د. ليث سعود جاسم/ الموسوعي الأديب ابن عبد البر الأندلسي / مجلة الحكمة ، المدينة المنورة العدد ١٦ (جماد الثانية ، عام ١٤١٩هـ) ص ٤٣٠.

(٣) ابن عبد البر ، جامع البيان وفضله ، الطبعة الثانية ، قدم له الأستاذ عبدالكريم الخطيب (القاهرة : دار الكتب الإسلامية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ص ٢٢٧ .

كما رصد لنا ظاهرة التقليد عند الفقهاء تلك التي نجم عنها تعطيل الفكر فأصبح الفرق بين المقلد والبهيمة ، التي لا عقل لها ، معدوماً ، فلا خير عنده في قاضٍ أو مفت لا يعمل فكره لاستخلاص العلل والمعاني ، لنسمع له قوله : (١)

يا سَائلي عن موضعِ التقليد خذ
عني الجوابَ بفهم لبٍ حَاضرِ

وأصخْ إلى قَوْلي ودنْ بنَصيحتي
واحْفظْ عليّ بَوادريَ ونوادري

لا فرقَ بين مُقلّدٍ وبَهيمةٍ
تَنْقادُ بين جَنَادلٍ ودعاثرِ

تبًا لقاضٍ أو لمفتٍ لايرى
عللاً ومعنًى للمقالِ السائرِ

فإذا اقتديت فبالكتابِ وسُنّة
المبعُوثِ بالدين الحنيفِ الطّاهرِ

ثمّ الصحابةِ عند عدمك سنةً
فأولاك أهلُ نهى وأهلُ بصائر

وكذاكَ اجماعُ الذين يلُونهم
من تابعيهمْ كابراً عن كابرِ

اجماعُ أمّتنا وقول نبيّنا
مثل النصوصِ لدى الكتاب الزاهرِ

---

(١) المصدر السابق /ص٤٤٦ .

وهناك ظاهرة أخرى نقدها ابن عبدالبر بعد أن استفحل أمرها في عهده ، وهذه الظاهرة هي ظاهرة (الرياء الثقافي) كما يسميها الدكتور ليث سعود جاسم(١). وهي ظاهرة ظهرت بعد الفتنة في الأندلس ، والمقصود بها أن كثيراً من الناس تجمع الكتب لا للثقافة والاطلاع ، وإنما للمباهاة والافتخار، وليقول الناس عنهم ، إنهم مثقفون ، فيقول ابن عبدالبر في ذلك :(٢)

يا مَنْ يَرى جَمْعَ المالِ والكُتبِ
خُدعْتَ واللّهِ ليسَ الجدُّ كاللَّعبِ

العلمُ ويحكَ ما في الصدرِ تَجْمعهُ
حِفْظاً وفهماً واتقاناً فِداكَ أَبي

لا ما توهمه العَندي من سَفةٍ
إذ قالَ : ماتَبْتغَي عِنْدى وفي كُتبي

ولابن أبي الخصال بعض الأشعار في هذا الغرض استطاع من خلالها أن يصور لنا بعض أنماط السلوك المنحرفة التي ارتكبها بعض الناس في وقته ، فوضعها تحت المجهر الشعري ؛ ليرى الناس قبحها ، ومن ثمّ يتحقق للشاعر ما كان يصبو إليه ، وهو تنفير المجتمع من هذه السلوكيات الخاطئة ، ومعرفة حقيقة هذه التصرفات التي لابد من الابتعاد عنها ، ومن أبرز أنماط السلوك المنحرفة الذي تحدث عنها ابن أبي الخصال سلوك أحد المتكبرين الذي أخذ يتبختر بنفسه ويثني عطفه ، مصعرا خده كأنه الجمل الأصيد الذي به داء في عنقه ، ونظراته في البدع أو الباطل حادة وقوية جداً ، كأنه زرقاء

---

(١) الموسوعي الأديب ابن عبد البر الأندلسي / ص٤٣٢ .

(٢) جامع البيان وفضله / ص١٤٩ .

اليمامة ، ولكنه للأسف عن مسلك الحق أرمد لايبصر :(١)

وذِي نَخْوةٍ يَخْتَالُ ثَانِيَ عِطْفِهِ　　فَلَوْلا تَناهي لُؤمِه قُلْتُ أَصْيَدُ

له نُظرةُ الزّرقاءِ في كُلِّ بِدْعَةٍ　　وَلكِنّهُ عَنْ مَسْلَكِ الحَقِّ أَرْمَدُ

وله أيضا في منافق يبدي التبسم ، ويخفى وراء ذلك ضميرًا متجهماً ، فالمنافق لاخير في صداقته ، ولا يؤمن جانبه ، فهو مجبول على هذه الخصلة كالحاكم الجائر لايرجى منه عدل ، أو كالأسود أو الحية التي لايرجى منها عسل :(٢)

ومُنافقٌ يُبدي انْفِعالَ مُنافِقٍ　　مُتَبسِّماً وضَمِيرُهُ مُتَجَهِّمُ

حاجَاكَ مُكْتَتِماً بما في نَفْسِهِ　　ولَطِيفُ ذِهنكَ مُخْرِجٌ ما يكْتُمُ

وتُرِيدُ عَدْلاً من سَجِيَّةِ جَائرٍ　　ومَتى أفَادَ الشّهدَ يوماً أرقَمٌ ؟

ولأبي بكر الطرطوشي صورة أخرى مستوحاه ومنتزعة مما انتشر في مجتمعه لفتت نظره ، فأبى إلا أن يصورها بصورة ساخرة مؤملاً أن ينفر الناس منها ، فيقول في الرشوة : (٣)

وأكرم منْ يَدُق الباب شَخْصٌ　　ثَقِيلُ الحِمْلِ مَشْغُولَ اليدينِ

يَنُوءُ إذا مَشَى نفساً ونفخاً　　ويَنْطحُ بابَه بالركبتينِ

وأكرم شافعٌ يَمْشي عَليها　　أبو المنقوشِ فَوقَ الصَّفحتَينِ

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٣٩ .

(٢) المصدر السابق / ص٦٦٠ .

(٣) أبو بكر محمد بن محمد الوليد الفهري الطرطوشي ، سراج الملوك ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : دار الكتب الإسلامي ١٤١٢هـ) ص ١٢٥ .

ويقول كذلك في سلطة الدرهم وريادته : (١)

إذا كُنتَ في حاجةٍ مرسِلاً　　وأنـت بانجـازهَا مغـرمْ

فأرْسل بأكْمَه خـلا بـهِ　　بـه صَمم أغْـطَش أبكمْ

ودعْ عنك كل رسُولٍ سوى　　رسـول يُقـال لـه الدرهـمْ

ومما سبق ذكره يتضح لنا أن أشعار الهجاء التي صدرت عن هؤلاء الفقهاء - عصري الطوائف والمرابطين - قد تميزت بالقلة وببعدها عن بذئ القول وفاحشه ، وترفعها عن كل ما يشين ، فلا نرى سباباً ولاشتائم أو عبارت نابية أو اتهامات شخصية رغبة في الطعن في شخص المهجو بقصد إساءته وتحطيمه ، إنما نجد مقاصدهم متسمة بالنبل وبرفعة المستوى ، وهي في أغلبها موجهة ؛ لتصحيح سلوك خاطئ أو دميم انتشر في عصرهم ، فحاولوا نقده عن طريق تصويرهم لهذا السلوك الخاطئ ، ونقد فاعله ، علّه يرتدع ويصوب سلوكه ، ولا شك أن موقف هؤلاء الفقهاء من هذا الغرض وعدم الإكثار منه أو الغلو فيه ، حين تناولوه ، إنما هو تطبيق لقوله تعالى : ﴿ يآ أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ منْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً منْهُمْ وَلاَ نسَآءٌ منْ نسَآءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً منْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُون ﴾(٢).

ومن تشبعت نفسه بحب الدين وتعاليمه السمحة ، فإن نفسه تأبى هذا الغرض ، فضلاً عن أن تغلو فيه ، فهذا ابن حزم الظاهري قد تعرض لرسالة من ابن عمه أبي المغيرة كدرت صفوه ، وضيقت صدره ، ومع ذلك لم يجاره الشتائم والسباب ، ولم يحاول الهجوم عليه وهو القادر عليه ، إنّما نراه يتحلى

---

(١) المصدر السابق / ص١٢٥ .

(٢) سورة الحجرات ، آية ١١ .

بالخلق الإسلامي ، ويدافع السيئة بالحسنة انصياعاً لأوامر الله سبحانه وتعالى القائل في محكم كتابه الكريم :﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(١). ولنقرأ ما كتبه ابنُ حزم رداً على رسالة ابن عمه : (سمعت وأطعت لقوله تعالى : ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾، وسلّمت وانقدت لحديثه عليه السلام : « صِلْ من قطعك واعفُ عمن ظلمك » ، ورضيت بقول الحكماء : كفاك انتصاراً ممن تعرض لأذاك إعراضك عنه ، وأقول :

تَبَغَّ سوايَ امرءًا يَبْتَغي سِبابَكَ إنّ هَواكَ السِّبابُ

فإنِّي أبَيْتُ طِلابَ السَّفاه وصُنْتُ مَحَلّي عمّا يُعابُ

وقُلْ ما بَدا لكَ منْ بَعْد ذا وأكْثِرْ فإنّ سُكُوتي جَوابُ

وأقول :

كَفَاني ذكْرُ النّاسِ لي ومآثِري
ومالكَ فيهمْ يا ابن عَمّي ذاكرُ

عَدَويٌ وأشْياعي كثيرٌ كذلك من
غَدا وهو نفّاعُ المسَاعي وضائرُ

ومالكَ فيهم من عدوٍ فيُتْقى
ومالك فيهم من صديقٍ يُكاثِرُ

وقولِيَ مَسْموعٌ لهُ ومُصَدَّقٌ
وقولُكَ مُنْبتٌّ مع الرّيح طائِرُ

وإنّي وإنْ آذَيْتَني وعَقَقْتَني
لَمُحْتَمِلٌ ما جَاءَني منك صابِرُ)(٢)

<<< >>>

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص١٦٤ .

ثالثا : الجهاد :

تعد قصيدة الجهاد من أنبل القصائد الشعرية وأصدقها في أدبنا العربي ، ففيها نشعر بالروح الإسلامية التي تكتنف سطورها ؛ لأنها قصيدة (تستمد رؤيتها من تعاليم الإسلام وقيمه ، وهي التي يتألف من مجموعها تصور متميز ، لا شرقي ولا غربي ، للكون والوجود ، والإنسان والمجتمع والتاريخ) (١). كما أنها قصيدة تجسم هوية الأمة في بعدها العقدي والثقافي والحضاري ، وجميع جوانب الحياة (ويكسبها - أي قصيدة الجهاد - إلى جانب حفاظها على مقاومات هوية الأمة ومرتكزاتها فاعلية وتأثيراً في تعميق الوعي بها لدى المتلقين ، لايزالان بهم حتى قد ينقلب إلى مواقف وممارسات تترجم الإيمان بالهوية في أبعادها المشار إليها مقروناً بالتضحية في سبيل حمايتها مما قد يتهددها من أخطار ويحدق بها من مؤامرات)(٢).

والشاعر الأندلسي كغيره من الشعراء الملتزمين بعقيدتهم الإسلامية، فمن غير شك عندما يهاجم وطنه المسلم جماعة من أعداء الدين الإسلامي، فإنه يقف مدافعاً وذائداً عن وطنه . والأندلس بعد انفراط عقدها وانقسامها إلى دويلات متفرقة ضعفت من الناحية السياسية ، فآل الضعف بملوكها الطوائف لقبول شروط ملوك النصارى في دفع الضرائب الباهضة لهم مما شجع هؤلاء النصارى فطمعوا أكثر فأكثر ؛ ليحصلوا على ما في أيدي المسلمين ، ومن ثم الاستيلاء على مدنهم وقلاعهم وحصونهم ، فشنت الغارات وأقيمت الحروب والمعارك بينهم وبين المسلمين ، مما أدى إلى سقوط بعض مدن الأندلس الإسلامية ، فنهض المسلمون من سباتهم ، وحاولوا استرجاعها من النصارى .

---

(١) أ. د. حسن عبدالكريم الوراكلي، مقالات في الشعر الحديث (الكويت : عالم الفكر ١٩٩١م) ص٩.

(٢) المرجع السابق .

وكان الشعراء من بين هؤلاء المناهضين المدافعين ، فكثرت قصائد الجهاد وتنوعت بين صراخ واستغاثة وبين بكاء ورثاء على مدن ضائعة، وكان من هؤلاء المدافعين فقهاؤنا الذين تأثروا أيما تأثير لحال بلادهم الأندلسية، وما آلت إليه بعضها من الخراب والدمار على أيدي هؤلاء الأعداء .

ونبدأ شواهدنا مما قاله الفقهاء في ذلك بنص لأبي إسحاق الإلبيري صاحب النونية المشهورة ، التي تحدثنا عنها في معرض حديثنا عن غرض الهجاء ، وهذه القصيدة تعدّ من غرر القصائد في الأدب الأندلسي ، فقد نهضت بدور سياسي خطير ، غيّر حال مدينة غرناطة ، فبعد أن كان اليهود يتحكمون فيها ويعبثون فيها بالفساد ، أصبح للمسلمين كلمتهم وسلطتهم التي فقدوها ، وقد صار هذا الأمر بعد سماعهم لهذه القصيدة . (والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً في التاريخ السياسي لأمه من الأمم ، فكهربت العزائم ، ودفعت في سرعة خاطفة إلى اشعال الحرائق ، وشحذت السيوف للقتل كالدور الذي لعبته هذه القصيدة)(١).

لقد حرك الإلبيري روح الإباء والأنفة عند الصنهاجيين البرابرة ، فكيف يرضون بالذل والهوان ، ولماذا لايثأرون من هؤلاء اليهود الذين لايحملون المعروف لأحد مع أن الأمير باديس بن حبوس قد أكرمهم وأعلى من منزلتهم فأصبحوا أمناء على السر ، وصاروا أغنياء يأكلون أطايب الأكل ويلبسون أفخر الثياب ، وزاد الإلبيري حدة في الأمر عندما أخذ يصور الحالة التي آلت إليها غرناطة بعد استهتار ابن النغريلة وجماعته بالمسلمين وقيمهم ، فقال : (٢)

---

(١) اميليو غرسية غومث ، مع شعراء الأندلس والمتنبي ، الطبعة الخامسة ، تعريب د. الطاهر أحمد مكي ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م) ص ٩٧ .

(٢) ديوان الإلبيري / ص٩١ .

وإنّي احْـتَـلَلْتُ بِغَرْناطَةٍ ... فكنتُ أراهُـمْ بها عـابِثِـينْ

وقَـدْ قَسَّمُوها وأعْمالَها ... فَمِـنْـهُمْ بكـلِّ مكانٍ لَعِـينْ

وهُـمْ يَقْبِضُونَ جِباياتِـها ... وهُمْ يَخْضِمُون وهُمْ يَقْضِمُونْ

وهُمْ يَلْبِسُونَ رَفيعَ الكُسَا ... وأنْتُـمْ لأوْضَعِـها لا بِسُـونْ

وهُـمْ أمَنَـاكُمْ على سِـرِّكُمْ ... وكيفَ يكـونُ خَـؤونٌ أمِـينْ ؟

إلى أن يقول :

وهُمْ يَذْبَحُـونَ بأسْـواقِـها ... وأنتـمْ لأَطْـرافِهَا آكِـلُـونْ

ورَخَّـمَ قِـرْدَهُـمْ دارَهُ ... وأَجْرى إليـها نميرَ العُيونْ

فصارتْ حـوائِجُنَا عِـنْدَهُ ... ونَحْـنُ على بابِـهِ قـائِمُونْ

وبعـد استـعراض هـذه الصـور المؤلمـة التـي أثارت روح الجهـاد في النفـوس يوجـه الشـاعـر خطابه إلى ابن باديس يحضـه على الفتـك بهـذا اليهـودي ورهطه :(١)

فبـادِرْ إلى ذَبْحِـهِ قُـرْبَـةً ... وضَحِّ بهِ فهـو كَبْشٌ سَمِينْ!

ولا تَرْفَعِ الضَّغْطَ عن رَهْطِهِ ... فَقدْ كَنِـزُوا كلَّ عِـلْقٍ ثَمِـينْ

وَفَرِّقْ عُـراهُم وخُـذْ مالَـهُمْ ... فأنـتَ أحـقُّ بمـا يَجْمَـعونْ

ولاتَحْسبَـن قَـتْـلَهُمْ غَـدْرَةً ... بَلِ الغدْرُ في تَرْكِهِمْ يَعْبَثُونْ

فيالها من قصيدة محكمة أثرت في النفوس المسلمة أيما تأثير ، و (لعل الشعر الأندلسي لم يعرف أبداً البساطة عارية كما عرفها في هذه القصيدة، وفي الوقت نفسه لم ير قصيدة مثلها ، يلفها مثل هذا الإعصار من المشاعر،

---

(١) المصدر السابق / ص٩٢ .

لقد اجتاحت أنغامها ، حية متوهجة ، أعماق المدينة ، مع زفير النيران، وحشرجة الموتي) [١].

وحينما وقعت نكبة (بربشتر) القريبة من سرقسطة سنة (٤٥٦هـ) على أيدي النورمانديين عمّ الخراب البلاد إثر حصار الأعداء لها أربعين يوماً، ثم غزوها بنحو أربعين ألفا فارس ، فقتلوا عامة رجالها ، وسبوا من ذراري المسلمين ونسائهم مالايحصى كثرةً ، وأصابوا فيها من الأموال ما يعجز عن الوصف [٢].

(ولقد دوت هذه النكبة في أرجاء الأندلس ، وانتشر خبرها بين المسلمين انتشار النار في الهشيم ، فارتفعت الأصوات عالية تدعو ملوك الأندلس لاستعادتها ، وأخذ الثأر من النورمانيين)[٣].

فكان من أبرز هذه الأصوات وأقواها صوت الفقيه الزاهد أبو حفص الهوزني (ت ٤٦٠هـ)[٤]، الذي استولت النكبة على قلبه وعقله ، فلم يعد يشغله شيء سوى إذكاء نار الحرقة على فقدان المسلمين لهذه البلدة ، والحض علي الجهاد ؛ لاسترجاع ما سلب منهم ، ويعد أبو حفص الهوزني من (أشد الناس عارضة بالإلحاح على مادهم تلك المدينة)[٥]. لذلك جاءت أبياته ملتهبة قوية تتسم بالاستصراخ والجرأة في وجه المعتضد بن عباد ، فدوت قصائده أرجاء البلاد ، وقاموا بهجوم يروع الأعداء ويريهم شكيمة الأقوياء ، ومن

---

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبي / ص٩٨ .

(٢) انظر تفاصيل الحادثة في نفح الطيب ٤/ص٤٤٩ ، والروض المعطار /ص٩٠ .

(٣) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين /ص٣٢٤ .

(٤) عمر بن الحسن بن عبدالرحمن الهوزني ، عالم محدث ، سمع صحيح البخاري ، وعنه أخذه أهل الأندلس ، كان متفنناً في العلوم ، أخذ من كل فن منها بحظ وافر مع ثقوب منهجه وصحة ضبطه . ينظر ترجمته في الذخيرة مج ١ / ق٢/ص٨١ ، والصلة ١ /ص٣٨١ ، والمغرب ١/ص٢٣٩، ونفح الطيب ٢/ص٩٣ .

(٥) تاريخ الأدب الأندلسي عصري الصوائف والمرابطين /ص١٧٩ .

الأبيات التي قالها الهوزني في هذا الشأن قوله يخاطب المعتضد بن عباد في ثنايا رقعة نثرية وجهها إليه من مرسيه :(١)

أعـبّادُ جـلّ الـرزءُ والقـومُ هُجَّعُ
على حالـةٍ من مِثْـلها يُتَـوقَّـعُ

فَلق كتَابي من فراغِكَ سـاعـةً
وإنْ طالَ فالموصوفُ للطولِ موضـعُ

إذا لم أبـثَّ الـداءَ ربَّ دوائـه
أضَـعْـتُ وأهـلُ للمَلامِ المضيّـعُ

ويخاطبه بكل جُرأة في أبيات أخرى من الرقعة نفسها : (٢)

أعبّادُ ضَاقَ الذّرعُ واتّسعَ الخَرْقُ
ولاغَرْبَ للدّنيا إذا لم يكنْ شَـرْقُ

ودونَـك قـولاً طَـالَ وهو مُقصّـرُ
فللعـين معـنًـى لايُعَـبِّرُهُ النّـطـقُ

إليكَ انْتَـهتْ آمَالنا فارم مادهَـى
بعـزمكَ ، يَدْفَع هامةَ البَاطِلِ الحقُ

فالفقيه عقد الآمال على المعتضد علّه يبادر وينقذ ٠(بربشتر) من الخراب الذي حلّ بها ، فبقوة العزيمة ينتصر الحق على الباطل ، فيصبح هامداً لايقوى على الحراك ، وكثيراً ما يصاحب قصائد الاستصراخ وطلب النجدة مديح يوجهه الشاعر إلى من يتوسم فيه النخوة والعون والنجدة، وهذا مافعله الهوزني في خطابه الذي وجهه للمعتضد حيث مدحه بأبيات، قال فيها :(٣) ٠

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٨٣ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص٨٥ .

(٣) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ /ص٨٦ .

كأنّ المَقَـاديـرَ حــزب لـــه فَـيمضِي على رأيِـه ما حَكَمْ
سَـقَـتْهُ الحـميّةُ[1] جـريالَها وصحّـتْ مـنـاقبُهُ في الكَـرمْ
فَصـابٌ لأعدائِـه مُـمْـقِــرٌ[2] وغيـثٌ لراجِـيه حُلْوُ الـدِّيـمْ

فلغة المديح التي يستعملها الفقيه قد تبعث في الشخص المؤمل نصرته وإغاثته الشعور بأنه أهل لهذه الأوصاف التي خلعها عليه ، فنراه يهب كالأسد ملبياً الدعوة . وأبيات الهوزني في غرض الجهاد توقع على ما يشبه بإيقاع الأنغام العسكرية ، فها هو ذا يستنفر كواف البلاد ويحض علي الجهاد واسترجاع ما ضاع من أيدي المسلمين بأبيات تشبه الخطوات العسكرية ، فيقول : [3]

بـيْتِ الشّــر فـلا يُسـتـزلّ طـرقَ النَّـوَّامَ سِمْعُ[4] أزلٌّ[5]
فَثبتُوا واخْشَوشِنُوا واخرئلوا كُلُّ ما رزءٍ سوى الدين قلُّ
بدء صعق الأرض نشءٌ وطَل وريــاحٌ ثــمّ غــيـمٌ أبــلُّ
قَدْ رَجَتْ عـادُ سَحاباً يُهِلُّ فــإذا ريـــحُ دبُـورٍ مِحَــلُّ

وفيها يتعجب من حال المسلمين وهم الأقوياء كيف يخافون ويذعرون من هؤلاء النعاج :

يَدُنَـا العُليا وهمْ وَيْـكَ شُـلُّ فَلِمَ اسْـتَرعى الأعـزّ الأذلُّ
عَجــبُ الأيـامِ ليثٌ صمل[6] ذَعَــرتْـه نَعْـجَـةٌ إذ تصــلُّ[7]

---

(١) الحمية : الأنفة .
(٢) ممقر : المقر هو كسر العظم .
(٣) الذخيرة مج ١/ق٢ /ص٨٩ .
(٤) سِمْعٌ : الولد بين الذئب والضبع .
(٥) أزل : خفة العجز .
(٦) صمل : صلب وقوي .
(٧) تصلُّ : تصدر صوتاً ذا زنين .

وتحل نكبة طليطلة علم (٤٧٨هـ) فنرى القلوب واجفة والأبصار خاشعة من هول الحدث الجليل ، فطليطلة قصبة البلاد ، وهي كالقلب النابض للقطر، وسقوطها يعني الأنذار بسقوط جميع مدن الأندلس ، وقد أدرك الفقهاء هذا الأمر واشاروا على المعتمد بن عباد بأن يستنجد بيوسف بن تاشفين الذي كون دولته الإسلامية العظمى في المغرب ، وبالفعل لما ضاقت الحال بالمعتمد ابن عباد ، وشَعَرَ بدنو أجل مملكته وبقية الممالك الأندلسية الأخرى ، لجأ إلي يوسف بن تاشفين ، وقال قولته المشهورة : (رعى الجمال ولا رعي الخنازير)(١).

وكلمة المعتمد السابقة التي سارت في الناس مسير المثل ، كان يقصد بها أن كونه مأكولاً لابن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير له من كونه ممزقاً لابن فرذلند أسيراً يرعى خنازيره في قشتاله (٢).

وهكذا تقدم المعتمد وجاوز البحر طالباً العون من يوسف بن تاشفين ، ولأبي عبيد البكري أبيات في ذلك (٣)، يقول فيها :

يَهُـون علينا مَرْكب الفُـلْكِ أنْ يـرى
محيّاً العلا لما نـبا مركـب الجُـرْدِ

فَجُزْنا أُجَاجِ البَحْـرِ نَبْغِـي زُلالَـهُ
وذُقْنَا جنَى الشّريانِ نَبْغي جَنَى الشّهْدِ

يُـذَكِّـرُنـا ذاكَ العُـبَـابُ إذا طَـمَـى
نَـدَى كَفِّكَ الهامي على القُربِ والبُعْدِ

---

(١) الروض المعطار / ص٢٨٨ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٢٣٨ .

(٣) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي عهدي الطوائف والمرابطين /ص٢٨٤ .

ويجد الفقيه في عبور المعتمد البحر موقفاً يستحق التخليد عليه ويهنئه بذلك :[١]

فلولا خُلد الإنسانُ بالمجدِ والتُّقى وآلائـهِ الحسنى لهُنئتَ بالخُلدِ

ولا شك أن الحماسة وإذكاء روح الانتقام من الأعداء من أهم موضوعات قصيدة الجهاد ، وهذا ما لمحناه عند ابن أبي الخصال في قصيدته الموجهة إلى الأمير أبي إسحاق إبراهيم أحد أبناء يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين، شحنها بالحماسة انتقاماً من ابن رذمير الذي عاث في مدينتي (قورية)[٢]، و(سمورة)[٣] فساداً وخراباً ، فقتل وسبى حرق ، واختار ابن أبي الخصال قصيدة أبي تمام البائية[٤]؛ ليحذوا حذوها ، فمن قوله في حثه للأمير إبراهيم علي الجهاد ونصرة المسلمين نسجل الأبيات التالية :[٥]

اغضَبْ لعَيْثِ ابن رُذْميرٍ فَقَدْ مَرَدا واجْرُرْ عَلَيه لريح النَّصرِ ذَيْلَ رَدى

بوقعةٍ تَرْتَـمي أمـواجُـها زَبَــدا بكلِّ أَدْهَــم تُعْـطيه البُـروق يَـدا

بالليلِ مُشتملٍ بالفجرِ مُنْتَقِبِ

وانْهَضْ نُهوضَ أَبيِّ النَّفْس معتزمٍ واسلكْ سبيلَ أبي إسحاق معتصمِ

وخُـذْ بثـأرِكَ في البَيْضَاءِ واحتكمِ ياغـيرةَ اللّـهِ قـد عانيتِ فانتقمِي

بغـزوِ مُحتَسِبٍ لاغـزوِ مُكْـتَسِبِ

---

(١) المصدر السابق /ص٢٨٤ .

(٢) (قورية) مدينة أندلسية قريبة من ماردة ، لها سور منيع ، تعد من أحصن المعاقل ، وأحسن المنازل ، اشتهرت بالضياع الطيبة والفواكه الكثيرة المتنوعة / انظر الروض المعطار / ص٤٨٥ .

(٣) (سمورة) مدينة جليلة عليها سبعة من عجيب البنيان / انظر المصدر السابق / ص٣٢٤ .

(٤) يقصد بها القصيدة التي نظمها أبو تمام واصفاً بها فتح عمورية حين استنجدت امرأة بالمعتصم ، فاستجاب لها ، يقول في مطلعها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

انظر ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق : محمد عبده عزام ، (دار المعارف ١٩٦٤م)، مج ١، ص ٤٠ .

(٥) رسائل ابن أبي الخصال / ص٤٧ .

وارْمِ العَدُوَّ بسـهمٍ منكَ لم يطـشِ   وانعشْ بحزمِكَ ذاكَ الثَّغْرَ يَنْتَعِشِ
وارغَبْ بتابعِ أصحابِ الهدَى حَنشٍ   عن كُلِّ رجْسٍ لحرِّ الجمرِ مفترِشِ
وارْبَـأ بأعظُمِه عن ذلك اللّهَـبِ

ثم يمضي الفقيه مستنهضاً الهمم ، ومستثيراً العزائم ، بما يصوره من سيطرة العدو بأرض المسلمين والتخريب الذي قاموا بفعله في مساجدها، بغية إثارة الحماس في نفس الأمير إبراهيم حتى يأخذ بالثأر، ويسترد ما سلبه العدو :

واهاً لِوَحْشةِ مَبْداها وَمَحْضَرِها   واهاً لِرَفْضِ مُصَلاّها وَمَنْحَرِها
واهاً لِمَسْجِدِها الأعْلَى ومِنْبَرِها   لِشَدَّ ما سُلِبَتْ إشراقَ مَنْظَرِها
وغُودرت وحْشَةَ السَّاحاتِ والرّحبِ

معَاهد تعرفُ التَّوحيدَ والسُّـوَرا   وسُنَّة المصطفى المُختار والأثَـرا
وجَنَّة أصبحتْ روضاتُها سَقَـرا   وبُدّلتْ بِذَوي الإيمان مَنْ كفرا
فأَيُّ طِفْلٍ لهذا الهَوْلِ لم يَشِبِ ؟!

ويعد وصف المعارك التي دارت رحاها بين المسلمين والأعداء من أبرز موضوعات الجهاد ، وقد تناول هذا لموضوع ابن أبي الخصال ، ففي قصيدته التي يهنئ فيها الأمير المرابطي تاشفين بن علي ؛ لانتصاره علي النصارى في موقعة (كركي) التي وقعت سنة (٥٣١هـ) ، أخذ يصور بطولة الأمير تاشفين وبسالة جيشه ، فقال :(١)

فصَبَّحَتْهُم جُنودُ اللّه باطشةً
والصُّبْحُ من عَبَراتِ الفَجْرِ في مُسَكِ

---

(١) المصدر السابق / ص٦٥٤ .

من كُلِّ مُبتَـدرٍ كالنّجـم مُنكَـدرٍ
تَفيضُ أنفسُهم غَيْظاً من المُسكِ

تعجّل النّحْرُ فيـهمْ قبلَ مُوسِـمه
وقدّم الهَدْي منهم كُلُّ ذي نُسُكِ

ثم يمضي يصور منظر الوحش والطير وهي واقفة على لحوم الأعداء تنهش فيها ، مقدمة الشكر للملك الذي هيأ لها هذه الوجبة الدسمة :

فالطَّـيْر عاكفةٌ والوحشُ واقفةٌ
قد أثقَلَتْها لُحومُ القَومِ عن حَرَكِ

عَـدَتْ علي كُلِّ عادٍ منـهمُ أشـرٍ
يَعِثْنَ في حَنْجرٍ رَحْبٍ وفـي حَنَكِ

كُلي هَنيئاً مَرِيئاً واشكري مَلِكاً
قَرتْكِ أسْيافُهُ فـي كُلِّ مُعتَرِكِ

ونجد مثل هذا اللون من القصيدة التي مزجت التهنئة بوصف المعركة التي انتصر فيها الممدوح قول الفقيه عبدالحق بن غالب المحاربي في الأمير عبدالله بن مزدلي أحد الأمراء المرابطين ، وقد عاد منتصراً من إحدى غزواته :[١]

ضـاءتْ بنُـورِ إيابِـكَ الأيَّـامُ
واعْـتَزَّ تَحْـتَ لِوَائِكَ الإسْـلامُ

أمّا الجَميعُ ففـي أعَمِّ مَسـرَّةٍ
لمَّا انجلَى بظُهـورِكَ الإظْلامُ

---

(١) قلائد العقيان ٣/ص ٦٥٨ .

ثم يصف شجاعة الأمير في المعارك ، قائلاً :

كَمْ صَدْمَةٍ لكَ فيهمُ مَشْهُورةٍ   غَصَّ العراقُ بذِكْرِها والشَّامُ

في مَأزَقٍ فيه الأسِنَّةُ والظُّبَى   بَرْقٌ ، ونَقْعُ العادياتِ غَمَامُ

والضَّرْبُ قَدْ صَبَغَ النُّصُولَ كأنَّها   تَجْري علي مَاءِ الحَديدِ ضِرَامُ

ويشبه دماء القتلى بزهر الشقيق عندما ينشق عنه كمامه ، وهو تشبيه - في نظري - غير موفق ، بما رسم من جوانب الصورة التي تثير التقزز ، فكيف له أن يشبه دماء القتلى التي تثير الغثيان لمن رآها بمنظر زهر الشقيق التي تثير البهجة والجمال في النفس الإنسانية ! ولعل قصده ترغيب الجهاد للمسلمين حين قال :

والطَّعْنُ يَبْتَعِثُ النَّجيعَ كأنّما

يَنْشقُّ عَنْ زَهْرِ الشّقيقِ كِمَامُ

هذه أبرز أشعار الفقهاء في عصري الطوائف والمرابطين في غرض الجهاد والحض عليه ، وهي بالموازنة مع نثرهم - الواقع في رسائلهم الموجهة للأمراء ولكافة الناس ؛ ليسارعوا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بلاد المسلمين - قليلة إذ أن رسائلهم قد فاقت شعرهم ومنه من مزج بين الشعر والنثر في الرسائل ، وهو ما سنقف عنده في فصل آخر إن شاء الله تعالي .

<<< >>>

رابعاً : الرثـاء :

يعـد هذا الفن من أصـدق الفنون الشـعرية وأقربـها إلي نفس الشـاعر العربي ، فـهو غـرض ينفس من خـلاله الشـاعر كل مـا يـختلج في صـدره من لواعج الألم والحسـرة على مـوت من يعـز عليـه ، فـالموت سنة الله في عـباده والشـعراء المرزء ون بهذه المصيبة يصـورون أحزانهـم ومصـائبـهم في قصـائد حـارة ملتـهبة وأكبـادهم تتقطـع من الحـزن والمرارة والحسـرة خاصـة إذا كـان المرثيّ أباً ، أو أماً ، أو زوجاً ، أو ابناً ، أو صديقاً .

والفقيه في الأندلس كغيره من الشعراء تأثر بفقدانه من يعز عليه ، كما تأثر بفقدانه موطنه الذي دمره العدو ، وأخذه عنوة من بين أيدي أهله، فأخذت دموعه تهطل أسًى ولوعة علّها تنفس عما يجد من ألم وحزن لما أصابه ، غير أن شعرهم لم يأخذ لون الندب الذي يوجب الإكثار من الحزن مما يصل إلى حد الجزع أو السخط حال نزول المصائب عليهم ، فقد هذبهم فقههم ، فآمنوا بقضاء الله وقدره ، ورضوا به ، لذا كثر عندهم لونا التأبين والعزاء أكثر من لون الندب الذي نجـده مـبـثـوثاً أحـيـاناً في ثنايا تـأبينـهم ، فـذرف الدمـوع وانهمـارها أمر ليس بالمسـتـغـرب عند نزول المصـيـبـة لكل من كان يمتـلك في جوفه قطرة من العاطـفة الإنسانية ، فما بالنا بالشعراء الذين ما سموا بذلك ، إلاّ لأنهم يشـعـرون بما لا يشـعـر به غـيرهـم ، فـتـتـدفق القصـائد من ألسنتـهم كشـلال سحـري ، يتخلله انهمار للدموع وزفرات حرى تطلق (وسبيل الفقهاء في الرثاء هو سـبـيلـهم في المدح ، إنمـا يرثون من يـحظي بحـبـهم وتقـديرهـم كذوي قرباهم ومشـيختهم من أهل العلم والدين ، أو من يحـقق مـراد الشـرع من القـادة والملوك المصلحين ، فـرثاؤهم ينبـعث عن عـاطفـة صـادقـة ولايكون مجاملةً ولاتكلفاً)(١).

---

(١) أدب الفقهاء /ص ١٧٥ .

والشواهد على ذلك كثيرة ومتنوعة ، ومن ذلك قول ابن برد الأصغر(١) في ابن شهيد الأديب البارع والشاعر المجيد صاحب رسالة (التوابع والزوابع) المشهورة في الأدب الأندلسي ، فالشاعر ابن برد عندما حمل إليه الناعي نبأ وفاة ابن شهيد أخذه هول المصاب وخيل إليه أن الناعي ينعي خبر وفاته ، وليس خبر وفات ابن شهيد ، فأحس بعبراته وهي تترقرق من عينيه، ولكن لأي شيء يبكيه ياترى ؟ ولأي خصلة يذرف دموعه عليها ؟ ففضائله كثيرة لا مثيل لها ، وهي من كثرتها تفوق عدد حساب اليدين ، فهل يبكي فيه طموحه العالي ، أم خلقه المهذبة ، أم كرمه الذي يسابق الأنواء ويتعداه :(٢)

بفيكَ التُّربُ من ناعٍ نَعاني   نعى غَيْري إليَّ وما عَدَاني

وكَيْفَ ولم يَسِلِ طَرْفي بدمعٍ   عليه ، ولم يُجَنَّ له جَنَاني

لآيةِ خصلةٍ تَبْكيك عَيْني   ومالي بالحسابِ لها يَدَانِ

أللهمم المنوطةِ بالثريًّا   أم الشّيم المُهَذبة الحسَانِ

أم الكرم الذي ما زالَ يَجْري   مع الأنْواء في طَلَقِ الرهانِ

أم القلمِ الذي قد كانَ يجني   من القرطاسِ نُوَّارَ البيانِ

أم الرأي الذي مازال يُغني   عن السيفِ المهنّد والسّنانِ

شهدتُ لقد أُصيبَ بنو شهيدٍ   بقاطعةِ السّواعدِ والبَنَانِ

به دَرجوا من الدُّنيا فبانُوا   وكُلُّ ما خلا الرّحمَن فَاني

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد بن بُرْد الأندلسي ، من أهل بيت أدب ورياسة ، له كتب في علم القرآن ، منها : كتاب « التحصيل في تفسير القرآن » ، وكتاب « التفصيل » في تفسيره أيضاً ، وله « رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم » رآه الحميدي بعد الأربعين وأربعمائة بالمريّة .

ينظر ترجمته في الجنوة / ص١١٥ ، والذخيرة مج١/ ق ١/ص٤٨٦ ، وطبقات المفسرين للسيوطي/ص٢١ .

(٢١) الذخيرة مج ١/ق١/ص٣٣٥ .

ويتوفي المقتدر بن هود ملك سرقسطة فيرثيه أحد المقربين إليه بقصيدة مؤثرة يستعرض فيها الفقيه مناقب المتوفي ويعدد فضائله ومحاسنه التي بكت لفراقها من كانت تحمله ، فيقول الفقيه أبو عمر الباجي(١) في بعض منها:(٢)

تعالى اللّـهُ كيفَ هـوى ثبيرٌ ووفّـى البحـرُ مَسْـقَطَهُ مغـارا

أسـرَّ الدهرُ مُقْتَـدِرَ المعالي فَلِمْ يا بـدرُ فـارقتْ السـرارا؟!

أبـاحَ لهاجـمِ الحدثَانِ مـنه زعيماً لم يَـزَلْ يَحـمي الذِّمـارا

وطال به الزمان وكان قـدماً يجيرُ على الزمانِ من استجارا

ربيـبُ وقـائعٍ بَلِيَتْ عليه حمـائِلُهُ ومـا حَمل العِـذارا

لتَبْكِ الخيلُ مُرْسلِها رياحاً تلوثُ بمفرق الشـمس الغـبارا

وللمـرأة الأندلسيـة مكانتهـا الخـاصـة عند الرجل الأندلسي ، فـهي الأم الرؤوم والابنة العزيزة والأخت والزوجة والحبيبة ، وهي النصف الآخر المكمل لـه ، فما أن يفتقدها حتى نراه يثور ويهيج لفراقها ، ونرى سحابة دموعه تنهمل دون انكفاف تعبيراً عن الحزن الذي ألَـمّ به ، وإن كان شاعراً فقدرته على التعبير عن فقدانها يكون رائعاً ومثيراً ، فهو ينسج من مدامعه وحرقته قصيدة موشاه بمحاسنها وفضائلها إبان حياتها ، وللفقيه أبي إسحاق الإلبيري قصيدة تمثل هذا النوع ، فعندما اختطفت يد المنية زوجه أخذ يبكيها بقصيدة ملتهبة وينادي فيها صاحبه بأن يقف على قبرها ، وينظر إلى ما يتضمنه هذا القبر بين جوانبه ، فما أن يقف علي هذا القبر إلا وستنبعث منه رائحه ذات أريج طيب ، فما فيه سوى زوجة صالحة ، تقية ، عفيفة ، ذات

---

(١) يوسف بن جعفر الباجي ، يعد من الفقهاء الأجلاء ، رحل إلى المشرق ، وولي قضاء حلب ، وعاد إلى الأندلس فجل قدره عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة .

ينظر ترجمته في القلائد ٢/ص٢٠٠ ، والذخيرة مج ١/ق٢/ص١٨٦ ، والمغرب ١/ص٤٠٥ .

(٢) الذخيرة مج١/ق٢/ص٢٠٠ .

أصل كريم ، وعرض عرف بالطهر والنقاء ، فابلغها السلام من صاحبها المحزون لفقدها والذي صدعته اللوعة صدعاً ماله من التئام :(١)

عُـج بالمَطِـيِّ على اليَبَابِ الغَامِـرِ
واربَـعْ على قَبْرٍ تَضَمَّنَ ناظِـرى
فَسَتَسْتَبِينُ مَكَانَـهُ بِضَجِـيْعِه
وَيَنمُّ منـهُ إلـيكَ عَرْفُ العـاطِرِ
فلكَمْ تضـمّنَ من تُقًى وتعَفّـفٍ
وكَرِيم أعْـراقٍ وعِــرْضٍ طَاهِــرِ
واقْـرَ السّــلامَ عَلَيْهِ من ذي لَوْعَــةٍ
صَدعَتْهُ صَدْعاً مَـالَـهُ من جـابـرِ
فَعَساهُ يَسْمَحُ لي بِوصْلٍ في الكـرى
متـعـاهِـداً لي بالخَـيَالِ الزَّائِــرِ

والفقيه هنا لم يتعرض بالوصف لمفاتن زوجه الجسدية ، كما كان يفعل كثير غيره من شعراء عصره الذين يتغزلون بمفاتن زوجاتهم التي زالت وفنيت بمجرد وفاتهن ، فيبكون هذا الجمال الفاني ، ويذرفون الدموع عليه ، ومن هؤلاء الشاعر ابن حمديس الصقلي ، فعندما فقد جارية له ماتت غريقة في المركب أخذ يرثيها ويبكي جمالها الغض ، قائلا :(٢)

لاصبرَ عنكِ وكيف الصبر عنكِ وقد
طواكِ عن عيني الموجُ الذي نَشَـرَكْ

---

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري / ص٧٤ .

(٢) ديـوان ابـن حمـديس الصقلي / صححه وقدم له د. إحسان عباس ، (بيروت - دار صادر) ، ص ٢١٢ .

هلاً ، وروضةُ ذاك الحسنِ ناضرةٌ
لاتلحظُ العينُ فيها ذابلاً زَهـرَكْ
أماتكِ البحرُ ذو التيارِ من حَسَدٍ
لمّا دَرَى الدرُّ منه حاسداً ثَغْركْ

وقد أخذ بعضهم على أبي إسحاق الإلبيري في قصيدته السالفة استطراده في القصيدة ، وبعده عن ذكر زوجه بذكره لحور العين وإبداء رغبته في الحصول عليهن ، كما ذكر ما يجده في القرآن من حلاوة وأنس ، متغافلاً عن ذكر زوجه ، مما أخل هذا الاستطراد بقصيدته من الناحية الفنية(١). ونحن نعذر الشاعر في ذلك الاستطراد ، فالقصيدة صدرت من قلب رجل فقيه عالم بآداب الإسلام وتعاليم الدين عند حدوث الملمات والفجائع ، فلم يجزع أو يسخط من أمر الله ، وقد أخذت مرارته وقتها ، وكان عليه أن يتصبر ويحتسب ؛ ليكسب الأجر والثواب من الله الذي وعد به الصابرين حين قال في محكم كتابه : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾(٢). وعلى لسان رسوله ﷺ قوله : (إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : أقبضتم ولد عبدي ، فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ، فيقولون : نعم ، فيقول : فماذا قال عبدي ، فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد)(٣).

والنفس الإنسانية لايهدها الألم ولايمزقها الحزن ، ويجعلها تتلوى ألماً وتتوجع مرارة وحسرة إلاّ حالة فقدها فلذة كبدها، وعصارة جوفها، فما

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين / ص١٢٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١٥٦ .

(٣) سنن الترمذي ٢/ص٣٤٣ .

المصاب بالأمر الهين على الوالدين حال فقدهما لابنهما ، وقد يصل بالنفس حد الجزع من غير إرادتها ، لكن الأمر يختلف مع الفقهاء فالبكاء أمر وارد لامحالة بيد أن العويل والنواح هما أبعد ما يكون عن أشعارهم ، فهذا أبو الوليد الباجي أصابه الدهر أولاً في ولده محمد فأثر فيه المصاب كثيراً ، فأخذ يرثيه ويعزى نفسه الولهي ويصبرها بمصابه في النبي محمد ﷺ الذي يعدّ مصابة أدهى وأعظم ، فيقول بعاطفة أبوية صادقة حارة:(١)

أمحمدُ إن كنتُ بعدَك صابراً صَبْرَ السَّليمِ لما بهِ لايسلمُ

ورُزِئْتُ قبلَك بالنّبيّ محمدٍ ولرزؤه أدهي لديّ وأعظمُ

فلقد علمتُ بأنّني بكِ لاحِقٌ من بعد ظني أنني متقدِّمُ

للّهِ ذكرٌ لايَزالُ بخَاطِري متصرِّفٌ في صفْوهِ متحكِّمُ

ويعود الموت على أهله مجدداً ، فيخطف منه فلذة كبده الثاني ، فما الذي تراه يفعل ؟ لقد أخذ يبكيهما بكاءً حاراً بعاطفة أبوية جياشة ، ويستمطر الدموع على قَبرِيهما ، وهي ليست بدموع الجازع أو الساخط لأمر الله ، إنما بدموع أب فجع بفقد ابنيه وقد غابا عن ناظريه ، ولم يجد من يواسيه أو يقف بجانبه ، سوى شعره الذي يبوح به أحزانه ، فيقول فيهما :(٢)

رعَى اللّهُ قَلْبين اسْتكانا ببَلدةٍ

هما أُسْكِناها في السوادِ من القَلبِ

لئنْ غُيِّبا عن ناظري وتبوءا

فُؤادي لقدْ زَادَ التَباعُد في القُربِ

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق٢/ص١٠١ .

(٢) المصدر السابق .

وأبكي وأبكي سَاكنيها لعلّني
سأُنْجَدُ من صحبٍ وأسْعَد من سحبِ
فما ساعَدتْ ورق الحمام أخا أسىً
ولا رَوَحَتْ ريحُ الصّبا عن أخي كَرْبِ
ولا استعذَبَتْ عيناي بعدهما كرًى
ولا ظمئَتْ نَفْسي إلى البارِدِ العَذبِ
أحنُّ ويثْني اليأسُ نفسي على الأسى
كما اضطُّرَّ محمولٌ على المركبِ الصَّعبِ

ولابن أبي الخصال قصيدة في مثل هذا النوع من رثاء الأبناء قالها بعد مقتل ابنه عبد الملك ، وتبدو في القصيدة اللوعة والحسرة والفجيعة المؤلمة بشكل واضح وجلي ، فابن الفقيه لم يكن بالابن العادي ، إنه شاعر وفقيه قضى حق ربِّه في إتمام فرائضه، ومما زاد حسرة الشاعر وألمه أن ابنه قد مات وهو في ريعان شبابه مقتولاً ، ومع ذلك نلمس روح الإيمان في الوالد واحتساب أمره للمولى سبحانه وتعالى :(١)

رُزِئت بمنْ لا أملكُ العينَ بعدَهُ
ففي كُلِّ ما حين لها عَبْرَةٌ تَتْرَى
وإنّي لأنْساهُ ذُهولاً وحَيْرةً
وما ذلك النّسيان إلاّ من الذّكرَى
عدمتُ أبا مروانَ حينَ وجدْتُهُ
ولم تَبْقَ في يُسْرى خلائقِهُ عُسراَ

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٤٥ .

وحــينَ أقــرَّ العينَ شَــرخُ شَبــابِــهِ

وتَمّتْ به النّعمى وحَفّتْ به البُشـرَى

وكنــتُ إذا أيْـقَـظْــتُــه لمــلـمةٍ

أخذْتُ الكرى عن مُقْلةٍ منه لاتَكْرَى

ويشير إلى تأدية ابنه لفريضة الحج وزيارته لمسجد الرسول ﷺ ، فيقول :

ومــن قـبلُ ما خـاضَ البحـارَ مُصـمّماً

إلي البيت حتى استَلأم الرّكْنَ والحِجْرا

وقـفّى إلــى قـبــرِ الرّسُــولِ بـــــزورةٍ

فَقَضّى ووفّى الحقّ والفَرْضَ والنَّــذْرَا

وعَــفّــر في تـلــكَ المعــالــمِ وجْـــهَـــهُ

سُجوداً لِمَوْلَى يملكُ الْخَلْقَ والأمــرَا

وقد أضمر الوالد في رحلة ابنه السابقة بعض اليأس والخوف من عدم اللقـيا بابنه مـرة ثانيـة ، ولكن رغم الخطوب فـقـد عـاد الابن سـالماً مـعـافى، فازدادت فرحة الوالد به :

وقد كنتُ في تلكَ السَّبيلِ احتَسَبْتُهُ

وأضْمَـرتُ يأســاً عن لِقائي لهُ صَبْرا

فـرُدَّ علـى رغــم الخُـطـوبِ مُسَـلَّماً

وقد حـازَ من آثـارِه في التُّـقـى فَخْـرا

وزِدْتُ به وجْـداً كـما ازدادَ غِبْـطَـةً

وحُـزْتُ إلى عُـمْري بِرَيْعـانِه عُـمْرا

بيد أن الموت لم يمهله ليكمل فرحته به ، فقد حلت المنية ، وحان للعبد أن يلتقي بربه ، وما على الأب إلاّ الصبر والسلوان علّه يلتقي به في جنات النعيم :

سأصبر إلاّ عن سَوابقِ عَبْرةٍ
أرَى أبداً جَفْني بتصريفها يُغرى
وما عذَّبَ الرّحمنُ بالدَّمْع باكياً
يُداري بِدمْع العَيْنِ في قَلبهِ حَمْرا

وكان له في وجد يعقوب عليه السلام أسوة حين فقد ابنه يوسف عليه السلام :

وما مَفْزَع المحزون إلاّ إلى البُكا
وكُلُّ حزازاتِ القُلوب به تُقْرا
وفي وجْد يعقوبٍ بيوسفَ أُسوةٌ
فلا تَعذِلُوني اليومَ في عَبْرةٍ تُذْرى

إن القارئ ليحس في هذه القصيدة بعد الانتهاء من قراءتها بصدق المعاناة واكتواء الجنان وحرقة الفقدان التي أصابت قلب شاعرنا ابن أبي الخصال فما المصاب بالأمر الهين ، لذلك جاء التعبير عن عمق الحسرة والحزن صادقاً مشبوباً بوهج العاطفة الحانية المفجوعة ، مع ذلك لم تتوار النبرة الإسلامية في قصيدته ، وذلك في اقتباساته لبعض آي الذكر الحكيم وفي إيمانه بحقيقة الموت .

وكان للحزن موعد آخر مع ابن أبي الخصال، فبعد وفاة ابنه بتسع سنين اختطف الموت أخاه عبدالملك (ت٥٣٩هـ) الذي يحمل نفس مسمى ابنه المقتول،

فيعمّ المصاب قلب فقيهنا ، وتسود غيمة الحزن أرجاء البلاد ولا يبق سوى الصبر هو الملاذ والسلوان له ، فلنسمع له قوله :(١)

الصّبْرُ أجْمَلُ لو أطَقْتُ الأجْمَلا
وأخفُّ لو صَدق التجمُّلُ مَحْمَلا

يا وجداً عَمَّ الجميعَ مُصَابُهُ
ما كنتَ إلا عارضاً مُتَهلّلا

ويمضي الفقيه يصور محاسن ومناقب فقيده وجميعها محاسن وفضائل حث عليها ديننا الإسلامي ، فيقول في بعضها :

يا منْ تواضعَ قَدْرُهُ عن رِفْعَةٍ
ما فَوْقَ ما أصْبَحْتَ فيه مُعْتَلى

فاستَوْفِ حَظَّكَ عند ربِّكَ كُلَّه
واحْطُطْ لَدَيْهِ فقدْ بَلَغتَ المَنْزلا

فلهُ تَرَكْتَ الغانيَات ولم تزلْ
بالبَاقِياتِ الصَّالحاتِ مُوَكّلا

ما مَرّ يومٌ من حياتِك عاطِلاً
بل كانَ بالتَّقْوى مُملّيً مُخْملا

واللّيلُ يعرفُ منكَ نِضْواً خاشعاً
للّه يَسْكُبُ فيه دَمْعاً مُسْبَلا

ما ذاقَ طعمَ النّومِ إلا خِلْسَةً
بِخلتْ على أجْفانِه أن يُكْحَلا

فطواه بين رُكوعِه وسُجودِه
بدموعِ تَقْواهُ مُنَدّى مُخْضَلا

(١) المصدر السابق / ص٦٥٧ .

ويتذكر الفقيه مصيبته في ابنه من قبل ، فتتكالب عليه الارزاء ولايستطيع حملها :

ولقَدْ فقدتُ سَميّهُ من قَبْله   مُتَضرِّجاً بدمِ الفُؤاد مُقّتلا

رُزْءُ على رُزْءٍ تتابَع ثُكْلُهُ   وكَما ثكلتُ فَغَايتي أنْ أُثْكَلا

عزَيْتُ نفسِي عَنْهُما ولرُبَّما   غلبَ البُكاءُ تَجلّدي فاسْترْسَلا

ومما ساعد على إضفاء جو الكآبة والحزن على القصيدة استخدام الفقيه لقافية الألف المطلقة ، التي أتاحت له ارسال صرخات لاهبة وآهات مشبوبة تخترق الآفاق فيصل صداها لكافة الأسماع والأفئدة ، فيشاركه أصحابه أحزانه ويرددون معه آهاته وأناته .

ويفكر الفقيه في الموت ، وفي وحشة القبر ، فإذا به يصور لنا ألم الوحدة التي يعاني منها المرثي ، ومن ذلك ما يقوله أبو بكر الطرطوشي في سكان الثرى ورهائن البلى ، وما ذاعساهم يقولون للأحياء : (١)

مقيمٌ بالحجونِ رهينُ رَمْسٍ   وأهْلي رائحُونَ بكُلِّ وادِ

كأنّي لم أكنْ لهم حبيباً   ولا كانوا الأحبةَ في السوادِ

فعوجوا للسلامِ فإنّ أبَيْتُمْ   فَأوحُوا بالسلامِ على بعادِ

فإن طالَ المدى وصفا خليلٌ   سِوانَا فاذكروا صَفْو الوداد

ويبلغ الألم ذروته لدى الشاعر حال شعوره بدنو أجله ، وبقرب مفارقته لأحبته ، فيستَوْلى عليه التفكير العميق في الموت إلى أن ينتهي به الأمر إلى رثاء ذاته ، فيصور يد المنية ، وهي تمتد لتختطفه من بين أهله وهو عاجز لايستطيع مقاومتها ، أو الفكاك منها ، وما أن تقبض عليه فتنزع عنه روحه ، نراه ينتقل ليصور حال حزن أهله بعد وفاته وبكاءهم لفراقة ، وكيف حال قومه وقد اجتمعوا عليه ؛ لغسله ثم تكفينه استعداداً لدفنه وإهالة التراب عليه ،

---

(١) سراج الملوك /ص ٧ .

ومايعانيه من الوحدة والوحشة ، حيث لا ونيس ولا جليس معه إلا عمله ، وقد اشتهر بهذا اللون الرثائي شعراء كثر من شعراء أدبنا العربي ، فكان مالك ابن الريب من أشهر هؤلاء ، إذ قصيدته التي رثى به نفسة أشهر من نار علي علم كما يقولون . (١)

ومثل هذه القصائد الحزينة الباكية نجدها عند فقهائنا في الفترة التي أعنى بها في دراستي ، فمن ذلك قول ابن حزم يرثي نفسه متخيلاً منظر القوم حين يصل مسمعهم نبأ وفاته ، بيد أن هذا الأمر لايهم فقيهنا بقدر ما يهمه حاله بعد وفاته ، أ للجنة مصيره أم إلى النار ؟ أتراه قدم من الأعمال الصالحة ما يهيء له السعادة في الآخرة ، أم أن الحياة أخذته بغرورها وزخرفها ، فنسي أن يتزود لهذا اليوم ؟ لنقرأ ما قاله ابن حزم في ذلك :(٢)

كأنّكَ بالزّوارِ لي قد تَبَادروا

وقيل لهم أُودي عَليٌّ بن أحْمدِ

فيا رُبَّ محزونٍ هناك وضاحكٍ

وكم أدْمعٍ تَذْرَى وخَدٍ مُخَدَّدِ

عفا اللّهُ عنّي يومَ أرحلُ ظاعناً

عن الأهْلِ مَحْمُولاً إلى بطنِ مَلْحد

وأتركُ ما قد كنتُ مغتَبطاً بِهِ

وألقِى الذي آنستُ دهْراً بِمَرْصَدِ

---

(١) ومرثيته التي نعنيها يبدأ مطلعها بقوله :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بجنب الغضى أُزجي القلاص النَّواجيا

انظر : محمد بن أبي الخطاب القرشي ، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، تحقيق : د. محمد علي الهاشمي (لجنة البحوث والتأليف) جـ ٢ ص ٧٥٩ .

(٢) الذخيرة مج ١/ق١/ص١٧٢ .

فوا راحتي إنْ كان زادي مقَـدَّمـاً
ويـا نَصـبي إنْ كنـتُ لم أَتَـزَوَّدِ

وهذا هو مـا يشـغل الفقيـه ابن حزم فـمـا الذي يشـغل فكر فـقيـهنا أبي إسحاق الإلبيري عندما رثى نفسه ؟ إن أبا إسحاق عندما طرأت فكرة الموت عليه أخذ يذكّر نفسه بالمصير المحتوم كي تتزود بالعبادات والطاعات ، لتقابل ربها بقلب سليم ، فذكر سكرات الموت ، وهي تنازعه ، وذكر حاله في القبر، فإما يكون منزله منزل الرحمة والسعادة ، وإما أن يكون العكس ، فيقول : (١)

كأنِّي بِنَفْسِي وهِيَ في السَّكَرات
تُعـالِجُ أنْ تَـرْقَـى إلى اللَّهَـواتِ
وقـد زُمَّ رَحْلِي واستَـقَلَّتْ ركائبي
وقـد آذَنَـتْـنـى بالرَّحِـيلِ حُداتِـي
إلـى منـزلٍ فـيـهِ عـذابٌ ورَحْـمَةٌ
وكَمْ فـيـه مِـنْ زَجْـر لـنـا وَعِظَـاتِ
ومِنْ أعْيُنٍ سَـالَتْ على وَجَنَاتِـها
ومِنْ أوْجُـهٍ في التُّرابِ مُنْعَـفِراتِ
ومِـنْ واردٍ فيـهِ عَلَى ما يَسُـرُّهُ
ومِنْ واردٍ فـيــهِ على الحَسَـرَاتِ
ومِنْ عَاثِـرٍ ما إنْ يُقَـالُ لـه : لعاً
على ما عَـهِـدْنَا قَبْلُ في العَـثَرَاتِ
ومِـنْ مَلِكٍ كانَ السُّـرورُ مهَــادَهُ
مع الآنِـسَاتِ الخُـرَّدِ الخَـفَـراتِ
غَـداً لا يَذُودُ الدُّودَ عن حُرِّ وجْـهِـهِ
وكانَ يَـذُودُ الأسْـدَ في الأجَمَاتِ

(١) ديوان الإلبيري /ص ٥١ .

وهذه المرثية تربو على أربعين بيتاً ، اتكأ فيها الفقيه علي ضرب الأمثلة بالأمم السابقة ، فضلاً عن شواهده الدينية من اقتباسات قرآنية وأحاديث نبوية ، وذلك كقوله من القصيدة :

وكُلّ صَغيرٍ كانَ للّـهِ خَالِصاً

يُربِّي على ما جاءَ في الصَّدقَاتِ

وكقوله أيضاً :

وما يَعْرِفُ الإنسانُ أيْنَ وَفَاتُهُ

أفي البَرِّ أمْ في البَحْرِ أمْ بِفَلاةِ

فالبيت الأول اقتبسه من قوله تعالى:﴿ يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبا ويُربِي الصَّدقَاتِ واللّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثيمٍ ﴾(١).

والثاني من قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (٢).

وهذه من أهم المرتكزات الإسلامية التي ارتكز عليها الفقيه في شعره .

وإذا كان الشاعر مالك بن الريب حينما تذكر من سيبكي عليه بعد وفاته، لم يجد سوى سيفه ورمحه الرديني ، وحصانه الأشقر الخنذيذ ، فإن ابن عبدالبر العالم الفقيه صاحب المؤلفات الشرعية ، وعندما تذكر من سيبكي عليه وجد غير ما وجده مالك بن الريب ، فلنسمع قوله : (٣)

تذكرتُ من يبْكي عليّ مَداوماً — فَلَمْ أُلفِ إلاّ العَلْمَ بالدين والخبر

عُلوم كتابِ اللّهِ والسُّنن التي — أتتْ عن رسولِ اللّه مع صحةِ الأثرِ

وعلم الأُلى من ناقديهِ وفهم ما — له اختلفوا في العلمِ بالرأي والنظَرِ

---

(١) سورة البقرة /آية ٢٧٦

(٢) سورة لقمان/ آية ٣٤ .

(٣) نفح الطيب ٤/ص٣٢٧ .

ولعلنا من خلال هذين النصين السابقين نتبين الفرق بين الفقيه وبين غيره من الشعراء ، وإذا كان الشعراء تحدثوا في مراثيهم عن الأمم السابقة، فضربوا الأمثال والحكم للوعظ والتذكير بأن الموت سنة الله في عباده ، فقد فعل الفقهاء مثل ذلك ، فهذا أبو إسحاق الإلبيري يتساءل عن الملوك السابقين وعن كنوزهم التي جمعوها ، وعن أسلحتهم التي خاضوا بها المعارك ، هل كان لها من بقاء ، أم أنها فنيت وكساها التراب ؟ :(١)

أينَ الملوكُ وأيْنَ ما جَمَعُوا وما ... ذَخَرُوه مِنْ ذَهْبِ المتَاعِ الذَّاهبِ

ومنَ السَّوابِغِ والصَّوارِمِ والقَنَا ... ومِنَ الصَّواهِلِ بُدَّنٍ وشَوازِبِ

كانت سوابِقُها تحمّل منهُمُ ... أقْمارَ أنْديَةٍ وأُسْدَ كتَائِبِ

كانُوا لُيُوثَ خَفِيَّة لكنَّهُمْ ... سَكَنُوا غِياضَ أَسِنّةٍ وقَواضِبِ

قَصَفَتْهُمْ ريحُ الرَّدَى وَرَمَتْهُمْ ... كَفُّ المَنُونِ بكُلِّ سَهْمٍ صَائِبِ

ويدعونا ابن أبي الخصال إلي التأمل في حال الأمم السابقة ، وما الذي جنوه من حياتهم الزائفة الفانية ، فيقول : (٢)

إنّ السَّلاطينَ الذينَ اعتَلَوْا
فـي حُفْرٍ هاويَةٍ قَدْ هَوَوْا
نادهم : ما لَهُمُ بَعْدَما
قدْ طَبَّقُوا الأرضَ مَضَوْا وانْزَوَوْا ؟
ما بالُ أغْصَانِهِمُ ذبَّلٌ
وما لَهُمْ تحتَ الثَّرى قد ثَوَوْا ؟
لم يُلْوَ حقُّ اللّهِ إذْ جاءهمْ
وكَمْ غريمٍ قبلَهُ قد لَوَوْا

---

(١) ديوان الإلبيري / ص١٠٦ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص٣٨٧ .

انظر إلى دارهم بعدهُمْ
خاليةً خاويةً إذ خَوَوْا !
وادخُلْ بلا إذنٍ ولا رقْبَةٍ
واعْلُ ذُرى كُلِّ منيعٍ أوَوْا !
إنْ لم تُفِدْ من حالِهِمْ عِبْرةً
فاهْوَ هَوَاهُمْ واجْتَوِ ما اجْتَوَوْا

هذه أهم خصائص الرثاء عند فقهاء الأندلس ، وهي في مجملها لم تبتعد كثيراً عن خصائص شعر الرثاء عند غيرهم من شعراء عصرهم ومن سبقوهم ، فالمعاني مكرورة تقليدية من حيث الشكل والمضمون ، فالتذكير بأن الموت سنة الله في عباده بضرب الأمثلة بالأمم السابقة مشتركة فيها الشعراء، أما ما يترتب على ذلك من شدة الحزن والجزع والندب فأمر نسبي ، فالفقيه قلما نجد عنده شيئاً من ذلك ، فهو يحاول دائماً أن يتحلى بالصبر أمام هذا الخطب الجلل ، ولهذا جاءت أشعاره مكتسية بالرداء الإسلامي الذي يمنعه من الخروج عن الحدود المتاحة له فعلها أمام هذا الموقف العصيب ، فهو يحزن وعينه تدمع ، ولكنه لايقول إلا ما يرضى ربَّه تعالى .

«« »»

ب ـ رثاء المدن :

واجهت الأندلس العديد من الظروف العصيبة التي أحاطت بها ، وكادت أن تفتك بها ، ابتداءً من حدوث الفتنة القرطبية وانحلال عقد الخلافة الأموية ، ثم انقسام الأندلس إلى مدن وممالك مما أدى إلى ضعفها ، ومن ثم محاولة الأعداء المحيطين بها للنيل منها والاستيلاء عليها .

أما بشأن الفتنة القرطبية (١)، أول الكوارث على البلاد الأندلسية ، وعلى تاريخها السياسي الذي تغير وانتقل بها من عصر إلي عصر آخر ، فإن هذه الفتنة قد أثرت علي قطب العلم آنذاك . وأقصد به قرطبة ، حيث فتكت بها وبأهلها مما أدى إلي نزوح عديد من الأهالي إلى المدن الأندلسية الأخرى، فلم يعد أحد يستطيع العيش بها والدمار يحيط بها من كل جانب ، فلنسمع من ابن حيان وهو يصف تلك الأيام بقوله : (شداد نكدات ، صعاباً مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تمَّ سرور، ولا فُقد محذور، مع تغيُّر السيرة، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن ، وحلول المخافة ، دولة كفاها ذمّاً أن أنشأها شانجه ، فقشعها أرْمَقُنْد ، وثبتتها الجلالقةُ ، ومزقتها الإفرنجة ، ودبرها فاجر شقيٌّ ، ووزر لها خبّ دنيّ ، فتمخّضت عن الفاقرة الكبرى ، وآلت بمن أتى بعدها إلي ما كان أعضل وأدهى ، مما طوى بساط الدنيا ، وعفّى رسمها، وأهلك أهلها)(٢).

وإزاء هذا الجلل والمصاب نظم الشعراء أشعارهم في رثاء مدينة العلم قرطبة ، وقد تأثر عدد كبير منهم بما حل بهذه المدينة ، وخاصة من كان يقطنها . فكان من الفقهاء الذين تأثروا كثيراً بما حل بهذه المدينة ابن حزم ، فما أن عاد إليها وعاين الخراب الذي بها وبقصورها وبدورها حتى ذرفت عيناه يصف مدينته بقصيدة مؤثرة مؤلمة يصف ما آل إليها الحال ، فيقول في بعض منها : (٣)

---

(١) انظر تفاصيل الفتنة البربرية في قرطبة في الذخيرة مج ١/ق١/ص٣٦ فمابعدها ، ونفح الطيب ١/ص٤٢٧ ، وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة / ص ١٣٣ .

(٢) الذخيرة مج١/ق١/ص٣٦ .

(٣) رسائل ابن حزم الأندلسي ١/ص٣١٢ .

سـلامٌ على دارٍ رَحَلْنا وغُـودرتْ
خـلاءً من الأهـلين موحشةً قَفْرا
تراها كأن لم تغن بالأمْسِ بَلْقعاً
ولا عمرت من أهلها قبلنا دَهْرا
فيا دارُ لم يقفـرك منّا اختيارُنا
ولو أنّنا نسطيعُ كُنْتَ لنا قَـبْرا
ولكنّ أقـداراً مـن اللّـه أُنْفِـذَتْ
تُدَمِّـرُنا طـوعاً لما حَلَّ أو قَـهْرا
ويا خـيرَ دارٍ قـد تُركْـتِ حميدةً
سَقَتْكِ الغوادي ما أجلَّ وما أسرى
ويا مُجْـتلى تـلك البسـاتين حَفَّها
رياضُ قوارير غَـدَتْ بَعْدَنا غبرا
ويـا دهـرُ بَلِّغْ سـاكنيها تَحِيَّتِي
ولو سكنوا المروين أو جاوزوا النَّهرا
فصبراً لسطوْ الدَّهْرِ فيهم وحُكْمِهِ
وإن كانَ طَعْمُ الصبرِ مستثقلاً مُرَّا

ولحق الخرابُ مدينةَ (إلبيرة) سنة ٤٠٠هـ مدينة الفقيه أبي إسحاق الإلبيري ، فأخذ يندبها بحرقة ؛ لأنها عنده شمس البلاد وأنسها ، وموطن العلماء النجب، وحري به أن يتعجب من موقف الشعراء إزاء هذه المدينة ، إذ لم يقم أحد بندبها عندما دمرت ، فيقول :(١)

يُضَـيَّعُ مَفْـروضٌ ويُغْـفَلُ واجِـبُ
وإنّـي علي أهل الزّمـانِ لِعَـاتِـبُ

(١) ديوان الإلبيري / ص٧١ .

أَتُنْـدَبُ أَطْـلالُ البِـــلادِ ولايُـرَى
لإلْبِيرةٍ مِنْـهُمْ على الأرضِ نَـادِبُ
علي أنّها شَـمْسُ البِـلادِ وأنْسُـهَا
وكُلٌّ سِـواها وَحْـشَـةٌ وغَـيَاهِـبُ
وكم من مُجِيبٍ كانَ فِيهَا لِصَارِخٍ
تُجَـابُ إلى جَدْوَى يَدَيْـهِ السَّباسِبِ
وكم من نجـيبٍ انجـبته وعــالمٍ
بأبــوابهِمْ كانـتْ تُـناخُ الركائـــبُ
وكم بَلَغتْ فيها الأمـاني وَقُضِّيَـتْ
لِصَـبٍّ لُبـانـاتٌ بهَـا ومـآرِبُ
وكم طَلَعَتْ منها الشّمُوسُ وكَمْ مَشـتْ
علي الأرضِ أقـمارٌ بهـا وكـواكـبُ

هذا هو عهد الفقيه بمدينته قبل خرابها، فما حالها بعد الدمار والخراب الذي ألم بها :

لعَهْدي بها مُبَيَضَّةَ اللّيْلِ فاغْتَدَتْ
وأَيّـامُها قد سَوَّدَتْـهَا النَّوائِبُ
وما كانَ فيها غيرُ بُشْرَى وأنْعُـمٍ
فلمْ يبقَ فيـها الآنَ إلاّ المصائِـبُ
غَدَتْ بعد ربَّاتِ الحِجَالِ قُصُـورُها
يَباباً تُغادِيها الصَّبا والجَنائِبُ

فيـا له من منظر أحرق فؤاد الشـاعر وجعله يطلق الآهات على مـا حلّ ببلـدته العزيزة :

فــآهٍ ألوفاً تَقْـتَـضِي عـدد الحَصَا
على عَهْدِها ما عاهَدَتْها السَّحائِبُ

ويمضي الفـقـيـه في اسـتـعـراضـه المبكي لما حلّ ببلدته إلى أن يصل إلى قول قد يأخـذه أحدهم على هذا الفقيـه لما عرف عن أشعاره أنها بعيدة كل البـعد عن مـا قـد يخرجـه من الأطر الإسلامـيـة ، وهذا القـول هو مـا قـاله في البيت التالي :

شَقَقْنا على من ماتَ منهم جُيُوبَنا
وكـان قَـليلاً أنْ تَشُـقَّ التَّـرائِـبُ

فمن عمق حزن الفقيه وتأثره بما حدث لبلدته أخذ يفعل كما فعل أهل الجاهلية من عـادات حرمـهـا الإسلام ، مـثل شق الجـيـوب ، فـعن أبي هريرة رضـي الله عنه قـال : قال رسـول الله ﷺ : (ليس منـا من لطـم الخـدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)(١).

إلاّ أننا نتصـور أن أبا إسـحـاق لم يغـفل ذلك إنما صـدر عنه هذا القـول ليبين مدى أسفه وحزنه العميق على من مات من أهالي هذه البلدة .

وننتقل من الفتنة القرطبية إلى الطامة الكبرى التي حلت بالأندلس ، فبعد أن انفـرط عـقـد الخـلافـة الأمـوية ، لتـصـبـح أشـلاء ممزقـة على شكل ممالك ودويلات صـغيـرة يسـيطر عليها ملوك سـموا بملوك الطوائف ، وهؤلاء لم يكونوا من القوة أو الإهتمـام بأمور الدولة ورعاية شئونها علي حد سـواء . (وبينمـا كانت الأندلس تعاني من هذا الضعف السياسي والاجتماعي تحت حكم ملوك الطوائف ، إذا بدول أسبانيـا المسيـحـيـة في الشـمـال تعمل على توحيـد قواها بمساندة فرنسا والبابوية)(٢). فوجـهوا مكائدهـم وأهدافـهم إليـها ؛ ليـسـتولوا

---

(١) الإمـام أحـمـد بن حنبل ، مـسند الإمـام أحـمـد بن حنبل ، (بيـروت : المكتب الإسـلامي ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م) مج ٦/ص٢٦٢ .

(٢) د. أحـمـد مختـار العبـادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي ، (بيروت : دار النهضـة العربيـة) ، ص ٤٧٠ .

عليها ، وهذا ما دفع الأندلسيين إلى خوض حومة الجهاد ورفع لوائه ضد هؤلاء الأعداء النصارى وشنت المعارك الحربية بينهما ، فما أن تهدأ معركة إلا وتلحقها معركة ، وما أن تسترد مملكة إلا وتسقط أخرى . وإزاء هذه الاضطرابات والقلاقل التي عمت أرجاء البلاد الأندلسية شعر الأهالي بالخطر وبضرورة التصدى لهذا الزحف العدواني ، فأخذ الشعراء منهم وهم ألسنة الأهالي ، ينظمون القصائد يستصرخون فيها الملوك والمسلمين لصدّ هذا الزحف الغاشم ، و (برزت المشاعر الوطنية التي تدعو إلى النصرة والجهاد من أجل استرجاع البلاد والوقوف في وجه الأطماع والتوسع الأجنبي، ونما ذلك الشعر الوطني في أحضان النوازل والكوارث والمحن)(١). وقد نظم بعض الشعراء قصائد أسفوا فيها على حال المسلمين وحال الدين الذي نهبه العدو من أبنائه ، وهم لايقدرون على شيء لما أصابهم من الضعف والخور ، يقول الفقيه أبو حفص الهوزني في هذه الحال التي صار عليها المسلمون :(٢)

أيا أسفاً للدين إذ ظلَّ نُهْبةً ... بأعْيُنِنا والمسلمُون شُهودُ

أفي حرمِ الرحمن يُلْحَدُ جَهْرةً ... ويجعل أشراكَ الإله يهودُ

ويُثْلَبُ بيتُ اللّهِ بين بيوتِكم ... وقادِرُهُ عن ردّ ذاك قعيدُ

وفي حادثة (بربشتر) المنكوبة انطلق صوت الفقيه ابن العسال (ت٤٨٧هـ)(٣). يصور ما فعله الأعداء بهذه المدينة وبأهلها من قتل وسبي وانتهاك للعرض والحرمات ونشر للرعب في أوساط المسلمين أبناء البلدة

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس /ص ٣٠٨ .

(٢) الذخيرة مج١/ق٢/ص٩٢ .

(٣) أبو محمد عبدالله بن فرج بن غزلون اليحصبي ، من أهل طليطلة ، شاعرمغلق له مجلس حفلٍ يقرأ عليه في التفسير غلب عليه حفظ الحديث والإنحاء واللغة والأدب ، عارفاً بالتفسير ، وأكثر ما وصل من أشعاره في موضوع الزهد .
انظر الصلة ١/ص٢٧٦ ، والمغرب ٢/ص٢١ .

دون أن يتصدى أحد للدفاع عنها ، فيقول عن حال البلدة بعد دخول العدو عليها:(١)

ولقد رمَانَا الْمُشْرِكونَ بأسهمٍ	لم تخط لكن شأنها الإصماءُ
هَتكُوا بخيلهم قصورَ حريمها	لم يبق لا جبلٌ ولا بطحاءُ
جاسوا خِلاَلَ ديارِهم فلهم بها	في كلِّ يومٍ غَارةٌ شعواءُ
ماتتْ قُلوبُ المسلمينَ برعبهمْ	فَحُماتُناَ في حربهم جُبناءُ
كم موضعٍ غنموهُ لم يرحمْ بهِ	طفلٌ ولا شيخٌ ولا عَذْراءُ
ولكَمْ رضيعٍ فرَّقوا من أُمّهِ	فَلَهُ إليها ضجةٌ وبغاءُ
ولرُبَّ مولودٍ أبوه مجدّل	فوق الترابِ وفرشه البيداءُ
ومصونة في خدرهَا محجوبةٌ	قد أبرزوها مالها استخفاءُ
وعزيزُ قومٍ صار في أيديهم	فعليه بعد العزة اسْتَخْذاءُ

ولكن ما سبب هذه المصيبة التي حلت بالمسلمين ، من وجهة نظر الفقيه؟

لقد علل الفقيه وقوع هذه النكبة بقوله :

لولا ذُنوب المسلمينَ وأنّهم	رَكبُوا الكبائرَ ما لهنَّ خفاءُ
ما كان ينصر للنّصارى فارسٌ	أبداً عَلَيْهم فالذنوبُ الداءُ
فَشرَارها لايختفون بِشَرِّهم	وصلاح مُنْتحلى الصَّلاح رياءُ

لقد أعلنها الفقيه صراحة فذنوب المسلمين وانهماكهم مع ملوكهم في الملذات واللهو ، هو السبب في هذه النكبة ، ومع ذلك فقد أثرت هذه القصيدة في النفوس الإسلامية تأثيراً كبيراً ، ونجم عن ذلك أن قام الملك أحمد بن هود

---

(١) الروض المعطار / ص٩١ .

صاحب سرقسطة بجمع حشد كبير (فجالدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان ، وحمى الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه ، وخذل أعداءه ، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوهم أجمعين)(١).

وكان ذلك سنة ٤٥٧هـ، ومنذ ذلك تسمى أحمد بن هود بالمقتدر بالله(٢). وما أن تخرج الأندلس من نكبة (بربشتر) حتى نراها تقع في نكبة أخرى، وهي نكبة (طليطلة) التي وقعت أحداثها سنة ٤٧٨هـ ، وقد وصف ابن بسام ما حل بهذه المدينة بعد أن دخلها أذفونش العدو بقوله : (وانكدر أذفونش علي طليطلة ينتسف مرافقها ، ويعقد لجالية أهلها ثناياها ومضايقها ، يأسر ويقتل ويحرق ويمثّل ، وسما السّعر ، وتفاقم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر، وبلغت القلوب الحناجر)(٣).

وفي إثر النكبة التي منيت بها طليطلة نسمع صوت الفقيه ابن العسال مرة أخرى ولاغرابة في ذلك ، فهي بلدته ومسقط رأسه ، وطبعي أن يتأثر بهذه الوقيعة التي فتكت ببلدته وبأهله .

وكان من المتوقع أن نسمع صوتاً يطفح بالمرارة والحزن ، لما خلفته هذه النكبة من خراب ودمار، بل على العكس سمعنا صوتاً يؤثر الرحيل على المواجهة ، فكأنه أحس بقوة العدو ، وبعدم قدرة المسلمين الأندلسيين على مجابهته ، لذلك أخذ يخاطبهم بقوله :(٤)

يا أهلَ أندلسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ
فما المُقامُ بها إلاّ من الغَلطِ

(١) نفح الطيب ٤/ص٤٥٤ .
(٢) الروض المعطار / ص٩١ .
(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٤ / ص١٦٤ .
(٤) نفح الطيب ٤ / ص٣٥٢ .

الثوبُ يُنْسلُ من أطـرافـه وأرى
ثوبَ الجزيرةِ منسـولاً من الوسـطِ
ونحـنُ بـين عـدوٍ لا يُفَـا رقُـنَا
كيفَ الحياةُ مع الحيّاتِ في سفطِ

على أن الدكتور إحسان عباس علله موقف ابن العسال من هذه النكبة تعليلاً وجيهاً ، فيقول : (ولو كنا نحاسب ابن العسال حسب ظاهر كلامه لقلنا: إنه قد آثر موقفاً انهزامياً، ودعا فيه قومه إلى الجلاء عن أوطانهم ؛ لأنَ طليطلة وهي وسط البلاد والثوب إذا انسل من وسطه فقد انتهى أمره، ولكن هذا اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة كان يومئذ مبالغاً في التنبيه والتذكير)[١].

فابن العسال حسب تعليل الدكتور إحسان عباس ، قال أبياته السابقة مبالغة في التنبيه والتذكير بما حلّ بالبلدة من الشرّ حتى ينهض المسلمون للدفاع عن حياضها، وهذا يكفي من الشاعر؛ لأنه شعر بما لم يشعر به غيره، فالشر قد استشرى ووصل إلى وسط الجزيرة (طليطلة) والوسط يعد أمنع وأحصن جزء فيها ، فإذا أصاب الخراب والضمور الوسط ، فلا شك أن الجزيرة برمتها يصيبها الهلاك والسقوط .

<<< >>>

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين / ص١٨٣ .

خامساً : الوصف :

لاشك في أن كل من يسمع بكلمة (أندلس) تتمثل في مخيلته صورة تلك الجنة الخضراء بأنهارها وحدائقها وأزهارها وجبالها ووديانها وسهولها ، فهي بيئة (تنعم بجمال ثر ، وروعة آسرة ، وتصطبغ بظلال وارفة وألوان ساحرة ، وتتنفس في جو عبق عطر يضاعف من روعته وبهائه ما يتخلل جنباتها من مواطن السحر ومظاهر الفتنة التي تبعث الانبهار الدهشة في النفوس)(١). وقد أوجز لنا أبو عبيد البكري مناخ الأندلس ومزاياها في قوله الأدبي : (الأندلس شامية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في مناخ سواحلها)(٢).

وقال الرازي في أرضها : (كريمة البقعة ، بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة القاعة ، منبجسة العيون الثِّرار ، منفجرة بالأنهار الغزار ، قليلة الهوام ذوات السموم ، معتدلة الهواء ، أكثر الأزمان ، لايزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبدان ، وكذا سائرفصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسُّط الحال ، وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم)(٣).

فلذلك الجمال ولتلك الجنة الأرضية الخضراء غنى الشعراء وأنشدوا قصائدهم ، فأظهروا مفاتنها وعطروا بأريج أورادها قصائدهم ، وصوروا جمال سحرها .

ومن الطبعي أن تشد هذه الطبيعة الفاتنة الساحرة أنظار الفقهاء ، فقد وهبهم المولى عز وجل عقولاً يستكشفون بها ، عبر التأمل الواعي في مخلوقات الله في الطبيعة الناطقة والصامتة . فوقفوا كغيرهم من الشعراء أما طبيعتهم

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس / ص١١٦.

(٢) نفح الطيب ١/ص١٢٦ .

(٣) المصدر السابق ١/ص١٤٠ .

اللافتة للأنظار ، فصوروها حتى ليخيل لمن يقرأ قصائدهم في هذه الطبيعة أنه يقف أمام لوحة فنية رسم خطوطها رسام بارع يعرف ما لتداخل الألوان من أهمية في إبراز جمال لوحته . ومن شواهد الفقهاء على مثل هذا النوع من الوصف ما قاله ابن برد الأصغر في بيتين يدعونا فيهما للتأمل في خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ البديع ، فيقول :(١)

تأمّلْ فقد شَقَّ البَهارُ مُغلّساً ... كَمَائمه عن زهرِهِ الخَضلِ النّدِي

مَدَاهِـن تبـرٍ في أَنَامِلِ فضَّـةٍ ... على أَذْرُعٍ مخروطـةٍ من زَبَرْجَدِ

وتشبيهات ابن برد في البيتين السابقين نجدها (مستمدة من الأحجار الكريمة والجواهر ، والصناعات الفنية)(٢) التي كان لانتشارها ووفرتها في بلاد الأندلس أثره علي الشعراء ، وذلك في ربط الشبه بينها وبين ما يصادفونه من ألوان الطبيعة التي تشابه ألوانها بعض ألوان هذه الأحجار الكريمة .

ومثل هذه التشبيهات نجدها كذلك عند الفقيه عبدالحق بن عطية يصف بكير نرجس ، فيشبه صفرته بالذهب ، ويصف ما عليه من نقط الندى بالفضة ، فيقول : (٣)

نَرْجِسُ باكَرْتُ منْهُ رَوْضَـةً ... لَـذَّ قَطْعُ الدَّهْـرِ فيها وعَذُبْ

حَثَّتِ الرِّيـحُ بها خَمْرَ حَياً ... رَقَصَ النّبْتُ لَها ثُمَّ شَرِبْ

فَغَـدا يسْفِـرُ عـنْ وَجْنَـتهِ ... نَـوْرُهُ الغَـضُّ ويَهْـتَزُّ طَرِبْ

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ١/ص٥١٩ .

(٢) الشعر في عهد الطوائف/ص ١٥٢ .

(٣) قلائد العقيان ٣/ص٦٦٠ .

خلْتُ لَمْعَ الشَّمْسِ في مَشْرِقِهِ   لَهَـباً يَحْمِلُهُ مِنْـهُ لَهَـبْ
وبَيَاضَ الطَّـلِّ في صُـفْرَتِـهِ   نُقَطُ الفضَّةِ في خَطِّ الذَّهَبْ

ويصف ابن حزم النرجس مشبهاً إياه بالعاشق الصب الذي ذبلت عيناه، وأصابه الشحوب والأصفرار من شدة العشق ، فيقول :(١)

وبـدا النرجسُ البديعُ كصبٍّ   حائرُ الطرفِ مائلاً كالمدارِ
لونُـه لـونُ عاشـقٍ مُستهامٍ   وهـو لاشـكَّ هائـمٌ بالبَـهَارِ

وتطل صورة الربيع المتكاملة الساحرة عند ابن برد الأصغر في أبياتٍ بديعة وجهها إلى الوزير أبي أيوب بن عباد ، يقول فيها :(٢)

هـــذا الربـيعُ وكـنت ترقُّـبُه   فانـظرْ بعَيْشك كيف تصحبُهُ
قـد نَـشَّـرتْ حُلل النـباتِ بـه   فبـدا مفـضَّضُـه ومـذهبُه
والورد قـد سمتِ الغصونُ بـهِ   تجلوهُ والأبصـارُ تخـطُـبُه
والشمس قد ضربَ الضحاءُ بها   في صـبغـهِ فـذكا تـلهـبه
فكأنَّ من يهـــواهُ يُخْـجِـلُه   وكـأنّ ريـــاه تطـيِّـــبُه

ويرتبط موضوع الربيع بموضوع الحدائق ووصفها، فما أن يقدم الربيع إلاّ ونرى الحدائق قد أورقت أشجارها وتفتحت أزهارها، وغردت فوق غصون أشجارها العصافير، وكأنها تتغنى بجمال الخضرة النضرة ، وبالجداول الجارية ، وهذا المنظر شدّ نظر الفقيه مثلما شدّ نظر غيره من الأدباء ، فيصف ابن حزم إحدى الروضات وقد تهدل ثمارها وذللت للأيدي ، وتدلت

---

(١) علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم ، طوق الحمامة في الإلفة والآلاف ، الطبعة الرابعة ، ضبط نصه وحرر هوامشه : د . الطاهر أحمد مكي ، (القاهرة : دار المعارف ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ، ص ١٤٩.

(٢) إسماعيل بن محمد الحميدي الإشبيلي الحميري ، البديع في وصف الربيع ، الطبعة الأولى ، تحقيق: عبدالله عبد الرحمن عسيلان ، (جدة : دار المدني للطباعة والنشر ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ، ص ١٣٠ .

للمتناول ، وكان اليوم ربيعياً ذا شمس ظليلة تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف ، وتارة تنجلي فهي كالعذراء الخفيرة والخريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة ، فيقول في ذلك كله: (١)

ولمَّا تروَّحْنَا بأكناف روْضةٍ
مهدّلةِ الأفنانِ في تُرْبها النَّدى
وقد ضَحكتْ أنوارُها وتضوَّعتْ
أساورُها في ظلّ فَيْءٍ ممدَّدِ
وأبدتْ لنا الأطيارُ حُسْنَ صَرِيفها
فمن بين شاكٍ شَجْوَهُ ومغرِّدٍ
وللماءِ فيما بَيْننا مُتصرِّفُ
وللعينِ مُرتادٌ هناك ولليدِ

ويقول أبو الفضل بن الأعلم في حديقة خضرة تنزه بها يوماً وقد اطرد نهرها، وتوقد زهرها، والريح يسقطه فينظم بلبّة الماء ، ويبتسم به فتخاله كصفح خضرة السماء :(٢)

انظرْ إلى الأزهارِ كيفَ تطلعتْ
بسماوَة الروضِ المجُودِ نُجوما
وتساقَطتْ فكأنَّ مسترقاً دنَا
للسّمعِ فانقضَّتْ عليه رُجوما
وإلى مَسيلِ الماء قد رَقمتْ به
صَنعُ الرّياح من الحبابِ رُقُوما
ترمي الرياحُ لها نَثِيراً زهرَهُ
فتمدّه في شاطئيهِ رُقِيما

(١) طوق الحمامة /ص ١٣٤ .

(٢) نفخ الطيب ٤ / ص٣٣ .

- وصف السماء بظواهرها المختلفة :

كما استرعت السماء وما يتصل بها من ظواهر مختلفة اهتمام الفقهاء وأثرت في نفوسهم كوامن الدهشة والاستغراب ، من بديع خلق الرحمن سبحانه وتعالى ، فملأت قلوبهم بالروعة والإجلال ، فما كان منهم إلا أن وقفوا مشدوهي الأنظار متأملين في خلق الله وإبداعه ، فوصفوا السماء وماتزدان به من كواكب وأنجم براقة ، وما يعتريها من ظواهر مختلفة وتقلبات جوية متنوعة كتلبد الغيوم والسحب عليها وما يصاحبهما من تساقط للأمطار التي تنشر البهجة على الحدائق الغناء والرياض الفيحاء ، فتعشوشب الأرض ، وينبت الزرع ، وتتدلى الثمار ، وتزهر الأوراد والأزهار ، التي تفوح بشذاها العطرة أرجاء المكان ، كل هذه المناظر التفت إليها الفقيه الأندلسي في شعره وكبر الله وسبحه عندما رأها وتأمل فيها ، فقد عرف قدرة الله في كونه وشاهد بعينه بدائع المولى سبحانه وأثارها في أرضه ، وقد صوروا من ذلك غير ما جانب في أشعارهم . ومن ذلك قول ابن برد الأصغر في سماء غطت بالسحب ذات يوم وبدأ وميض البرق في خفق جوانبه النارية ، مما أدهش ابن برد فوقف أمام هذه المعجزة الربانية محاولاً أن ينقلها لنا عبر لوحة فنية شعرية، فشبه ومضات البرق الخاطفة بسياط من الذهب قرعت على الإبل الخراسانية، لتجدّ في سيرها ، لنقرأ له ذلك :(١)

ويومٍ تَفنّنَ في طِيبِهِ	وجاءَتْ مَواقيتُهُ بالعَجَبْ
تَجَلى الصباحُ به عن حَيًّا	قد اسْقى وعن زهرٍ قد شَرِبْ
وما زلتُ أُحسبُ فيه السّحا	بَ ونارُ بوارقِها تلتهبْ
بَخَاتِيّ تُوضِعُ في سيرها	وقد قُرِعتْ بسياطِ الذّهبِ

(١) الذخيرة مج ١/ق١ / ص٥١٦ .

ويثيره كذلك السحب تدفعها الرياح ، فتلمع البروق ، فيقول في أبيات تتابعت فيها الصور والتشبيهات بشكل أعطى للوحته جمالاً ومعنى :(١)

عارضٌ أقبلَ في جُنح الدُّجى ... يتهادَى كتهادى ذِي الوَجَى

أتْلَفَتْ ريحُ الصَّبا لُؤلُؤهُ ... فانحنَى يُوقِدُ عنه السُرجا

وكأنَّ الرَّعْدَ حادى مُصْعَبٍ ... كلّما صالَ عليه وَسَجا

وكأنَّ البرقَ كاسٌ سُكِبتْ ... في لَهَاةِ المزْنِ حتى لَهِجا

وكأنّ الجوَّ ميدانُ وغيً ... رَفَعتْ فيه المذاكي رَهَجا

وفي تشبيه رائع وجميل يشبه عبدالحق المحاربي البرق في وسط الظلام بالعلم ، قائلا :(٢)

والنّجم حيرانُ في بحر الدّجى غَرِقُ

والبرق في طيلسان الليل كالعلم

وعندما تنجلي السحابة ، ويكف المطر عن الهطول ، نرى أسماء وقد عادت إلى صفائها من جديد ، ولكن بملامح وردية جذابة ، تختلف عما كانت عليه قبل سقوط المطر ، فيظهر قوس الله للعيان يرسم خطوطه الملونة على صفحة السماء ، فيثير منظرها الفقيه ابن حزم ، فيشبهه بمن يرتدي حلة متعددة الألوان كأذناب الطواويس ، فيقول :(٣)

ولاحَ في الأفقِ قوسُ اللّهِ مكتسياً

من كُلِّ لونٍ كَأذْنَابِ الطواويس

ويشد منظر الجداول والأنهار والخلجان نظر الفقهاء بعد سقوط الأمطار فيصفونها ، بيد أن وصفهم لها لم يكن مستقلاً ، فغالباً ما يؤلف هذا الوصف

---

(١) المصدر السابق مج ١/ق١/ص٥١٧ .

(٢) نفح الطيب ٢/ص٥٢٨ .

(٣) طوق الحمامة /ص١٧٣ .

(جزءًا من مجموعة أو عنصراً من عدة عناصر تتعاون جميعها وتتكاتف لتأليف الصورة الأم التي اعتنى بها الشاعر وبذل شاعريته ومواهبه في معالجتها واخراجها)(١).

ووصف الجداول والأنهار والخلجان يأتي ـ عادة ـ ضمن وصف الرياض والحدائق ، لتأخذ موقعها من صورة المنظر الطبيعي ، ومن الفقهاء الذين وصفوا الأنهار والجداول ابن برد الأصغر ، ومن ذلك قوله في نهر وصف صفاءه مشبها إياه بصفاء الفضة المذاب عليها زرق اليواقيت :(٢)

يا نِعمةً من عَشيٍّ غاب حاسدُه
وصحَّ فيه اجتماعٌ دونَ تَشتيتِ

رحنا إلي النّهرِ والأدواحُ لاعبةٌ
بِمَوجِهِ بين إحياءٍ وتَمَوْيتِ

ولاح في الماءِ منهُ منْظرٌ حَسَنٌ
حبستُ منّي عليه طَرْفَ مبهوتِ

كأنّما هو من صافي اللجَيْنِ وقد
ذابتْ على متنِهِ زُرْقُ اليواقيتِ

ويشبه جدول الماء وهو يجري بين الأشجار وسط الرصافة ، وقد هزته الريح ، بالسيف المصقول ، قائلاً :(٣)

كأنّ الجدولَ المُنسابَ نَصْلٌ صقيلُ المَتنِ هُزَّ إلى كِفاحِ
كأنّ رِياضَهُ أبرادُ وشيٍ تَعَطّفُ فوق أعطافٍ مِلاحِ

---

(١) الشعر في عصر المرابطين والموحدين بالأندلس / ص١٣٠.

(٢) الذخيرة مج ١/ق١/ص٥١٩ .

(٣) المصدر السابق .

ويشبه أبو الفضل بن الأعلم أحد الخلجان بالسيف حين ركود صفحه وبالدرع حين هبوب الريح على أمواجه ، فيقول :(١)

هذا الخـليجُ وهـذه أدواحـهُ   جسمٌ نسيمُ رياضـهِ أرواحُـهُ
سيفٌ إذا ركدَ الهوءُ بصَفْحِه   دِرْعٌ إذا هَـبَّتْ عليهِ ريـاحهُ

وكان للبحر وهو يحدق بالأندلس من جهات ثلاث أثر في نفوس شعرائها بعامة ، وقد وقف عنده الفقهاء في كثير من أشعارهم ، ولاغرابة في ذلك ، فالبحر آية عظيمة من آيات الله في أرضه سخره الله لبني الإنسان ؛ ليستفيد منه ، يقول الله تعالى في محكم تنزيله الكريم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢).

ومع هذه الفوائد العظيمة للبحر، إلاّ أنّ الخطر يحدو بمن يركبه ويسير على أمواجه دائماً ، فهو ـ أي البحر ـ لايعرف القرار أو الأمان ، يعيش في تقلبات ، فكم من سفن ضلت طريقها ، وكم من أناس ماتوا في جوفه ، وقد أشار المولى سبحانه وتعالى إلى هذه الأخطار بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ﴾ (٣).

وفي ذلك يقول الفقيه أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي واصفاً البحر ومستفيداً من الآيتين الكريمتين السابقتين :(٤)

والبحـرُ شـيءٌ عجـبٌ كـلُّه   والفـوزُ من لُجّتهِ أعـجـبُ
يرضى إذا السحابُ احتجبْ   ويسخطُ إذا بدا ويكثر اللجبُ
كأنّمـا يحـسـدُه فَضْـلَه   لأنّـهُ الأرفــعُ والأعـذبُ

---

(١) المغرب ١/ص٣٩٦ .
(٢) سورة النحل آية /١٤
(٣) سورة الإسراء آية /٦٧ .
(٤) إحكام صنعة الكلام / ص١٥٣ .

ويشبه أبو عمر الباجي جيوش المعتمد بن عباد بالبحر في هيجانها وقوتها في الفتك بالأعداء ، فيقول :(١)

أَزَرْتُهُما بحـرَ الكتائِب مُزْبِداً
فالقتْ عنانَ الطّوْعِ رَضْوى وصنبرُ

ويذكر عباب البحر إذا طمى أبا عبيد البكري جود ممدوحه المعتمد بن عباد ، فيقول :(٢)

يُذكـرنـا ذاك العـبابُ إذا طَـمى
ندى كَفّك الهامي علي القُربِ والبُعدِ

ويشبه أبو القاسم الفهري شعر أبي عامر بالبحر الذي يستخرج منه الدر:(٣)

أمِثْلُك يبغي في سمائيَ كَوْكَباً
وفي جوّك الشمسُ المنيرةُ والبدرُ
ويلتمسُ الحصباءَ في ثَغَبِ الحصى
ومن بحرك الفيّاضِ يُسْتَخرجُ الدّرُ

<<< >>>

- وصف الليل ونجومه البراقة :

وإذا مضينا إلى مظهر آخر من قدرة الله في كونه الواسع استرعي أنظار هؤلاء الفقهاء ، وجدنا الليل بهالته السوداء ، وقد تحلى بنجومه المتلألئة ، فكسا الكون مهابة وجلالا .

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص١٩٧ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق٢ / ص٢٣٨ .

(٣) المصدر السابق مج ١ / ق٢ / ص٣٢١ .

ومن الفقهاء الذين وصفوا الليل ابن أبي الخصال ، فله في بيت صورة رائعة لليل يفسر فيها ارتداد الليل للتوب الأسود بخيال شاعري ، بأنه يلبس بذلك ثوب الحزن أو الحداد ، لفقدانه لكوكب المشتري :(١)

واللّيل قد لبسَ الحِدادَ كأنّما

دَهَمتهُ حَادثةٌ بفَقْدِ المشْتَرى

ويطالعنا الليل بهالته السوداء عند عبدالحق بن غالب المحاربي كأنه زنجي ، فيقول : (٢)

كأنّما اللّيل زنجيٌّ بكاهلِهِ

جرحٌ فَيَثْغَبُ أحياناً له بدمِ

وإذا كان بعض الشعراء يرون في الليل الملاذ والمهرب من مشاق الحياة بتواجدهم في الحوانيت ، ووصفهم لدنان الخمر والسقاة ، أو يرون فيه الوقت المناسب للتسلل فيه إلى صاحباتهم ، فإن الفقيه أبا الوليد الباجي وجد في ليلة ما يقربه من ربه بالصلاة والتلاوة والدعاء في خشوع وتذلل إلى ربِّه، يرجو رحمته ويخاف عذابه بحنين وشهيق وبكاء يخضب ترب الثرى ، فلنستمع له وهو يقول : (٣)

قد أفلحَ القانتُ في جُنْحِ الدُّجى — يَتْلو الكتابَ العربيَّ النيِّرا

فقائماً وراكعاً وساجداً — مُبْتهِلاً مُسْتعبراً مُسْتَغْفِرا

لـه حنينٌ وشهيقٌ وبُكا — يبلُّ من أدمعه تُربَ الثرى

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٤٨١ .

(٢) بغية الملتمس / ص٣٤٠ .

(٣) الذخيرة مج ١/ق٢/ص١٠٤ .

ويجد أبو الطاهر السرقسطي (ت٥٣٨هـ)(١) اللذة ذاتها في الليل، فيقول :(٢)

فَرُبّما مزقتُ ثوبَ الدُّجى وقمتُ فيه راكعاً سَاجِدَا

وهذا ما وجده الليل من عبدالملك بن أبي الخصال ، فرثاه أخوه الفقيه عبدالله بن أبي الخصال ، قائلاً فيه :(٣)

واللّيلُ يَعرِفُ منكَ نِضْواً خاشعاً
لله يَسْكبُ فيه دمعاً مُسْبلاً
ما ذاقَ طَعْمَ النَّوم إلا خِلْسَةً
بَخِلتْ على أجْفانِه أنْ يُكْحَلا
فطَواه بين رُكوعِه وسُجودِه
بدموعِ تَقْواهُ مُنَدِّى مُخْضَلا
أحْشَاؤه مَوْقُوذةٌ ولِسَانُه
يُهْدِى إلى الله الكِتَابَ مُرَتَّلا

وللبدر موقعه من الليل عند هؤلاء الفقهاء (فنادراً ما يصف الشعراء الليل دون أن يعرضوا للقمر بدراً ، ونادراً ما يتحدثون عن البدر دون أن يشبهوه بالحبيبة أو يشبهوها به)(٤) ، فيصف ابن برد البدر في إحدى لياليه المقمرة بالمرآة ، قائلاً :(٥)

---

(١) محمد بن يوسف بن عبدالله التميمي من أهل سرقسطة ، كان مقدماً في اللغة والعربية ، شاعراً محسناً ، له مقامات من تأليفه .
انظر الصلة ٢/ص٥٥٦ ، وينظر في كتاب أبي الطاهر السرقسطي حياته وآثاره للأستاذ الدكتور حسن عبدالكريم الوراكلي .

(٢) أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله السرقسطي ، المقامات اللزومية ، تحقيق : أ . د . حسن عبدالكريم الوراكلي ، (الرباط ، منشورات عكاظ) ، ص ٢٧٨ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٥٨ .

(٤) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف / ص٢٠٢ .

(٥) الذخيرة مج ١ / ق١ / ص٥٢٠ .

والبدُر كالمرآةِ غـير صَقلَها   عَـبَثُ العذارى فيه بالأنْـفاسِ

والليلُ مُلتبسٌ بضوءِ صباحِهِ   مثلَ التباسِ النّقْسِ بالقِرطاسِ

ويؤخذ من البدر هلاله، فيصوره ابن حزم بحاجب الشيخ في بياضه وإخمص الرجل في تقويسه :(١)

أتيـتني وهـلال الجـو مطّلع   قبيل قرع النصارى للنواقيس

كحاجب الشيخ عمَّ الشيب أكثره   وإخمص الرِّجل في لطف وتقويس

ويشبه أبو الطاهر السرقسطي الهلال في تقويسه بالأسوارة :(٢)

وهـلالٍ كما تَـثَـنّـى سِـوارُ

أحَـنى من حـنّـيةٍ إسـوارُ

وينتظر ابن حزم زيارة محبوبته وهو مسامر للبدر ، فخيل إليه من نور القمر أن نورها قد بدا ، وأنها تخطو بخطواتها متجهة صوبه ، فقال :(٣)

أسـامرُ البـدرَ لما أبْطـأَتْ وأرى

في نورهِ من سَنا إشراقِها عَرضا

<<< >>>

---

(١) طوق الحمامة / ص١٧٣ .

(٢) المقامات اللزومية /ص ٢٩٥ .

(٣) طوق الحمامة / ص٩١ .

- وصف الكواكب السيارة في السماء :

وجه الفقهاء نظرهم إلي هذه الكواكب فوجدوا فيها حكمة إلهية يجب أن يلتفت إليها ، ففيها تتجلى قدرة الله ، حيث أنها تسير في الفضاء وفي مجراها دون أن تصتطدم ببعضها يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١).

ومن خلال هذه الآية يدعونا أبو إسحاق الإلبيري إلى التأمل في آية الله في هذه الكواكب والأفلاك ، وهي تسير في مجراها خاشعة لخالقها ما وقفت عن سيرها خوفاً من المولى سبحانه وتعالى ، فيقول :(٢)

والحظْ بِعَيْنِكَ أديمَ السّما ... ومابها من حِكْمةٍ اللّهِ
ترى بِها الأفْلاكَ دوَّارَةً ... شاهِدةً بالمُلْكِ للّه
ما وقَفَتْ مُذْ أُجْرِيَتْ لَمْحَةً ... - أو دُونَها - خَوفاً من اللّهِ
وما عليها من حَسَابٍ ولا ... تَخْشى الذي يُخْشَى مِنَ اللّهِ
وهي وما غابَ وما قَدْ بدا ... مِنْ آيةٍ في قَبْضَةِ اللّهِ

ويقول كذلك :(٣)

وانظر إلى الطّاعَةِ مَشْهُورةً ... في الفَلَكِ الصَّاعِدِ والنّازِلِ

ويدعونا ابن حزم للتأمل وإعمال الفكر في كوكب الشمس وفي إشعاعاته الوضاءة المتمثلة في خيوطه الذهبية ، لنعلم مدى قدرة المولى سبحانه وتعالى التي لاتضاهيها قدرة أخرى ، فهاهي ذي الشمس تتحرك في فلكها بأمر الله تعالى لاتحيد عنه ، تشرق في الصباح بحركة مقدرة ، وتغيب

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٣٣ .

(٢) دواين الإلبيري / ص٦٤ .

(٣) المصدر السابق /ص ٥٨ .

في المساء لتشرق على الجزء الثاني من كوكب الأرض ، كل ذلك بحركة إلهية متقنة، فيقول ابن حزم :(١)

ومن رتَّبَ الشمسَ المنيرَ ابيضاضُها
غُدُوًّا ويبدو بالعشيِّ اصفرارُها

ومن خَلَق الأفلاكَ فامتدَّ جريُها
وأحْكمها حتى استقام مَدارُها

ويقول في الأجرام السماوية :(٢)

ومن يُمْسكُ الأجرام والأرضَ أمرُهُ
بلا عمدٍ يبْني عليه قرارها

ومن قدَّرَ التدبيرَ فيها بحكمة
فصحَّ لديْها ليلُها ونهارُها

وللسرقسطي أبيات يدعونا فيها إلى التأمل في النجوم وعجائب قدرة الله فيها، فيقول :(٣)

هل تأملْت والعجائبُ شَتَّى
أنْجُماً في مطلعِ الأفْقِ زُهْراً

هَاجمَتْها ذُكَاءُ صُبْحاً فَولَّتْ
تَتَشَكَّى الكَلالَ ضُعْفاً وبُهْرا

ثُمّ سالَ الضِّياءُ في الأرضِ حَتَّى
خِلْتَ بالشَّرْقِ من سَنَا الشّمْس نَهْرا

عَجَبٌ لايَزالُ منهُ مُعَاداً
يَمْلأُ الخَافِقَيْنِ وَعْظاً وبَهْرَا

---

(١) طوق الحمامة / ص١٩٤ .

(١) المصدر السابق / ص١٩٣ .

(١) المقامات اللزومية /ص ٧٩ .

ويصف ابن أبي الخصال النجوم بقوله :(١)

من لِلَيـلٍ يَتَـألّى أَنَّـهُ لايَـتَـجَـلّى

ولِنَـومٍ بالـثُّرَيّـا لـجَّ ألاّ يَـتَـدلّـى

بِـتُّ أرْعـاها نُجوماً كَوُجوهِ الغيد تُجْـلى

كُـلّما عُطِّـلَ نَجـمٌ لاح لـي نجـمٌ محلّى

ومن هذا التأمل تنبعث صورهم وتشبيهاتهم في الأشعار التي قالوها في مختلف الموضوعات ، فهذا أبو الوليد الباجي نظر إلى الشهب ، فرأها لامعة وضاءةً وسط السماء ، فشبه ممدوحه بها ، قائلاً : (٢)

هذا الشّهابُ المستضاءُ بنـورهِ

علمَ الهُدى هذا الإمامُ الأوحـدُ

ويتذكر الإلبيري الشهب من خلال مدحه للقاضي ابن توبة فشبهه بها قائلاً :(٣)

يَشْهَدُ العـالمـون فـي كلّ فـنٍ

أنّـهُ كالشِّـهَـابِ في العـلماءِ

<<< >>>

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٢٦٨ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص١٠٠ .

(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري /ص ٨٣

ـ موضوعات وصفية أخرى :

لم يقتصر وصف الفقهاء في أشعارهم على الطبيعة ومفاتنها ، بل نراهم اتجهوا إلى بعض جوانب الحياة الأخرى استرعت أنظارهم ، فقاموا بوصفها . ومن ذلك مثلاً وصف أبي الوليد الباجي للقلم :(١)

وأَسْمَرُ يَنْطِقُ في مَشْيِه ... ويَسْكُتُ مَهْمَا مرّ القَدَمْ

على ساحةٍ لَيْلُهاَ مُشْرقٌ ... مُنيرُ وأبيضُها مُدْلَهِمْ

وشَبَّهْتُها ببياضِ المَشيبِ ... يُخَالِطُ نورَ سَوادِ اللِّمَمْ

وفي الغرض نفسه يقول أبو الفضل بن الأعلم :(٢)

ومُهَفْهَفٍ ذَلقٍ صَلِيبِ المَكْسَرِ ... سَبَبٌ لنَيْلِ المَطْلَبِ المُتَعَذِّرِ

مُتَأَلِّقٌ تُنْبِيكَ صُفْرَةُ لَوْنِهِ ... بقديمِ صُحْبَتِهِ لآلِ الأصْفَرِ

ما ضَرَّهُ إنْ كانَ كَعْبُ يراعِهِ ... وبِحُكْمِهِ اطَّرَدَتْ كُعوبُ السَّمْهَري

ويصور ابن عبدالبر البعوض بطريقة (تمثيلية ساخرة)(٣). فيقول فيه وقد كثر ضُره على سكان مناطق (قبتور ، وقبطيل ، والشرف) :(٤)

بعوضُ قَبْتُورَ والقَبْطِيلِ والشَّرَفِ
قد آذَنَتْ بذهابِ النَّفْسِ والتَّلَفِ

فمن مشيرِ دُخَانٍ يستجيرُ به
وآخرٌ مُخْتَفٍ في الثَّوبِ مُلْتَحِفِ

قد غيَّبَ الرأسَ والرِّجْلَيْنِ مستتراً
بالبيتِ من طَرَفٍ فيه إلى طَرَفِ

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٩٨ .
(٢) مطمح الأنفس / ص٣٠٥ .
(٣) الموسوعي الأديب ابن عبدالبر الأندلسي / ص٤٣٦ .
(٤) ابن عبدالبر ، بهجة المجالس ق٢/ص١٠٤ .

ويَلي من الجرْجَسِ(١) المُثْنِيَّ عقْرَبُهُ
ينصبُّ مثلَ عُقَابٍ جَاعَ مُختَطِفِ
يَـؤُمُّ أذنـيَّ هجـماً كالمهـدّدِ لـي
وكالمنادي بأخـذِ الهَاربِ النّـطـفِ
خَرْطُومُـه كَسِـنَانٍ لايقـومُ لَـهُ
ثوبٌ مُثَنَّى ولو قـد كانَ من خَزَفِ

ويعد مـثل هذا الوصف ـ وصف الحشرات والحيوانات ـ (إلى شعر الطرافة والفكاهة أقرب منه إلى الجد والصرامة) (٢).

ومثل هذا الوصف يدلنا على أن الفقهاء لم يكونوا أهل صرامة وجدية في كل شئون حياتهم ، إنما نجدهم يتطرقون لبعض الموضوعات على سبيل الإحماض والترويح عن النفس ، ومثل هذا الوصف لاينتقص من مكانة الفقيه أو منزلته العلمية .

ويشد منظر النار ولهيبها المتطاير ابن أبي الخصال ، فيراها كالصبية الطروب التي ترقص وتنفض لهيبها من الطرب ، فيقول فيها :(٣)

أما تَرى النّـارَ وهي راقِصةٌ   تَـنْفُضُ أرْدَانَـها من الطّـربِ
تَضْحكُ من آبنُوسِـها عَجَـباً   إذ حَوَّلـتْ عَيْنَهُ إلى الذَّهَـبِ

ويصف عبدالحق بن عطية الفحم فيشبهه بالليل ولهيب النار تأكله بالفجر ، فيقول :(٤)

جَعَلُوا القِـرَى للْـقَرِّ فَحْماً كَالحاً
قَـدَحَ الزّنَـادُ بـهِ فَـأورى نَـارًا

---

(١) الجرجس : البعوض الصغير .

(٢) د . حازم عبدالله خضر ، ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه (بغداد : دار الحرية) ، ص ٨٣ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٣٧ .

(٤) قلائد العقيان ٣/ص٦٦٩ .

فبدا دبيبُ السَّقْطِ في جَنَبَاتِـهِ
كالبَرْقِ في جُـنْحِ الظّلامِ أنَـارَا
ثُـمَّ انْبَـرَى لَهَباً ، وثَـــار كأنَّـهُ
في الحَرْقِ ذو حُرَقٍ يُطَالبُ ثَـارَا
فكـأنّـهُ لـيـلٌ تَـفـجَّـرَ فَـجْـرُهُ
نَـهْـراً فكـانَ على الْمُقـامِ نَهَـارَا

ويطلب من ابن أبي عبد الحق الإشبيلي المعروف بابن الخراط أن يصف الموت ، فأخذ يصفه بقوله :(١)

قالوا صفِ الموتَ يا هذا وشـدَّتـهُ
فَقُلْتُ وامتَدَّ منّي عندها الصوتُ
يكْفِيكُمُ مِنْهُ أنّ النَّاسَ إنْ وَصَـفُوا
أمـراً يُرْوِعُـهـم قـالوا هـوَ المـوتُ

على هذا النحـو كـانت عـناية فـقـهـاء عـصــري الطوائف والمرابطين بموضـوع الوصـف ، والذي تراءى لنا فيه اشتماله على بعض جوانب الحياة المحيطة بهم .

<<< >>>

---

(١) نفح الطيب.٤/ص٣١٥ .

سادساً : الغزل :

يعد الغزل من الموضوعات الشعرية التي استولت على اهتمام الشعراء في جميع العصور الأدبية العربية ، فقلما نجد شاعراً لايتطرق لهذا الموضوع، حتى الفقهاء خاضوا غمار هذا الفن ، وكان لهم إسهاماته فيه ، ففي هذا الفن يعيش الشاعر جواً عاطفياً إنسانياً ، يختلي بنفسه وبذكرياته المؤلمة منها والمفرحة وفيه يستعرض شريط ذكرياته وبلاد الأندلس بلاد جميلة (كل شيء في تلك البيئة يغرى بالحب ويدعو إلى الإعجاب بالجمال ، ومن هنا لم يكون أمام النفوس الشاعرة إلا أن تنقاد لعواطفها ، فأحبت وتغزلت ، وتركت الكثير من شعر الغزل الرائع الجميل)(١).

والشعراء اتجهوا إزاء هذا الغرض اتجاهين هما :

أ - الغزل العفيف .

ب - الغزل المادي .

ومنهم من خاض الاتجاهين معاً ، فنراهم يتغنون بجمال المرأة الحسى وبصفاتها النفسية على السواء(٢). والسؤال الذي يطرح نفسه الآن أي الاتجاهين سلك فقهاؤنا - عصري الطوائف والمرابطين - في أشعارهم الغزلية ؟ أ إلى الاتجاه الأول ، أم إلى الاتجاه الثاني ؟ أم خاضوا الاتجاهين معاً كما عرف عن شعراء ذينيك العصرين ؟

الجواب سيتضح من خلال استعراضنا لشهواهدهم الشعرية التي لاتعدوا أن تكون مقطّعات مستقلة أو مقدمات الأغراض أخرى .

---

(١) د . السيد أحمد عمارة ، شعر بيني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، الطبعة الأولى ، (القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ، ص ٣٨ .

(٢) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف /ص٣٥٠.

فهذا ابن برد الأصغر نستهل بشعره شواهدنا ، نظم بيتين عبّر فيهما عن توحد قلبه مع قلب محبوبته دونما فحش أو تَرَدٍ في الألفاظ، فيقول :(١)

قَلْبِي وقَلْبك لامحالةَ واحدٌ
شَهِدَتْ بذلك بَيْنَنَا الألحاظُ

فتعالَ فَلْنَغِظِ الحسودَ بوصلنا
إنَّ الحسودَ بمثل ذاك يُغظُ

وعند ما عزم البين أن يحول بينه وبين محبوبه لم يطمح ابن برد بأكثْرمن نظرة تجود بها عليه المحبوبة علّها تشفي غلة شوقه:(٢)

يا من حُرِمتُ لَذَاذتي بِمَسيره
هذى النّزى قد صَعّرتْ لي خَدْهَا

زودْ جفُوني من جمالك بنظرَةٍ
واللّهُ يَعْلَمُ إنْ رَأيْتكَ بَعْدها

وقد علق المستشرق الفرنسي هنري بيريس على هذين البيتين بقوله : (إنّ أحداً لم يعبر عن خيبة الأمل بأفضل.مما عبر عنها أبو حفص بن برد)(٣).

ولفقيه قرطبة الظاهعي ابن حزم أبيات عديدة متنوعة في الحب والغزل نجدهامبثوثة في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والالآف) وهو كتاب صنفه في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله علي سبيل الحقيقة(٤). مع تدعيم ذلك كله بالشواهد المسموعة التي حدثه بها الثقات من أهل زمانه ، وما أدركه ابن حزم مشاهدةً بعينه ، وما عرض له من قصص خاض تجاربها بشخصه ، يضاف إلي ذلك الشواهدالشعرية التي نظمها ابن

---

(١) نفح الطيب ٣/ص٥٤٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف /ص ٣٥٩ .

(٤) طوق الحمامة / ص١٦ .

حزم في موضوعات أبواب كتابه المتفرقة ، وشواهد ابن حزم الغزلية يتضح لقارئها عفة صاحبها وحرصه على ألا يخرج بها عن حدود الغزل العفيف ، فله مثلاً أبيات فيها الكثير من علامات الحب التي تفضح كل عاشق ومحب ، وهي علامات جربها ابن حزم عند ما أحب جارية لهم نشأت بدارهم ، حيث كان يقبل عليها ، وهي تأبى نفوراً من أن تتحدث معه[١]، فلنسمع له قوله في بعض هذه العلامات :[٢]

أهْوَى الحديثَ إذا ما كانَ يُذكرُلي
فيه ويعبُق لي عن عنبرٍ أرجِ

إنْ قالَ لم أستمع ممن يُجالسني
إلى سوى لَفْظهِ المستطرفِ الغُنَجِ

ولو يكونُ أميرُ المؤمنين معي
ما كنتُ من أجله عنه بمُنعرجِ

فإنْ أقمْ عنه مضطرًا فإنِّي لا
أزالُ مُلْتفتا والمشْيُ مشيُ وَجِي[٣]

عَيْنَاي فيه وجسمي عنه مُرتحلٌ
مثلُ ارتقاب الغريق البرَّ في اللجج

أغَصٌ بالماء إنْ أذكُرْ تباعُدَهُ
كمنْ تثَاءب وسط النّقْعِ[٤] والوهَجِ

وله يصف جمال جارية رآها تفجرت عليها ينابيع الملاحة ، حتى كاد أن يصبوا قلبه ، لولا أن رأى برهان ربِّه ، فامتنع من دخول تلك الدار التي تسكن بها الجارية ، خوفاً على نفسه ، فيقول في جمالها :[٥]

---

(١) انظر قصة ابن حزم مع جاريته (نعم) في المصدر السابق / ص١٤٤ .

(٢) المصدر السابق / ص٢٨ .

(٣) وجي : الوجي من رقت قدماه من كثرة المشي .

(٤) النقع : الماء المجتمع في الغدير .

(٥) طوق الحمامة / ص١٦٦ .

خَريدةٌ (١) صاغَها الرحمنُ من نُورٍ
جلّتْ ملاحتُها عن كُلِّ تَقْديرِ

لو جاءني عملي في حُسْنِ صورتِهَا
يومَ الحسابِ ويومَ النَّفْخِ في الصُّورِ

لكنتُ أحظَى عبادِ اللّهِ كُلِّهِمُ
بالجنَّتَيْنِ وقُربِ الخُرَّدِ(٢) الحُورِ

ووصف ابن حزم (وصف عاشق رقيق ، فيه حس وروح ، وله مشاعر وعواطف ، وليس دلّالاً في سوق الرقيق يصف ، ويفيض في أوصافه عن الشعر المرسل ، والخصر النحيل ، والقامة الهيفاء) (٣).

ولاريب في أن طبيعة ابن حزم الدينية قد أثرت في شعره كثيراً ، فمع أنه أحب جارية كانت تسكن معه في دار واحدة إلا أنه لم يطلب منها حراماً قط ، ولم يحاول أن يصفها في شعره وصفاً يخدش الحياء خوفاً علي نفسه من أن تقع في الحرام ، والجارية ممن عرفت بالصلاح والخير والحزم ، لكن الشيطان كما يقول ابن حزم غير مأمون الغوائل، وفي ذلك يقول ابن حزم:(٤)

لاتُتْبَعُ النَّفْسَ الهَوى ودع التعرُّضَ للمحنْ
إبليسُ حيٌّ لم يَمُتْ والعَينُ بابٌ للفِتَنْ

ويقول :(٥)

وقائلٍ لي هذا ظنٌّ يزيدك غَيًّا
فقلتُ دعْ عنك لومي أليس إبليسُ حيًّا

(١) الخريدة : اللؤلؤة التي لم تثقب .
(٢) الخُرد : الخرد من النساء : العذراء .
(٣) د . الطاهر أحمد مكي ، دراسات عن ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة) ، الطبعة الرابعة ، (القاهرة : دار المعارف ١٩٩٣م) ، ص ٣٠٢ .
(٤) طوق الحمامة / ص١٦٧ .
(٥) المصدر السابق .

ومن الفقهاء من جرى مجرى شعراء الجاهلية في استهلالهم قصائدهم بالغزل تمهيداً للولوج في غرضهم الرئيسي ، ومن هؤلاء الفقيه أبو الوليد الباجي ، فله قصيدة مدحية يستهلها بمقدمة غزلية تتسم بعذوبة اللفظ وسحر الكلمة التي تترفع عن الاسفاف والتهاوي في المهلكات ، يقول في بعضها:(١)

يا بعد صبرك أتّهموا أم أنْجدوا
هيهاتَ منك تصبرُ وتجلُّدُ

يأبى سُلوكَ بارقٌ متألّقٌ
وشميمُ عرف عرارةٍ ومغرِّدُ

في كل أفْقٍ لي علاقةُ خولةٍ
تهدي الهوى وبكلّ أرضٍ ثهْمدُ

ما طالَ عهدي بالديارِ وإنّما
أنسي معاهدُها أسًى وتبلُّدُ

ولقد مررتُ على المعاهدِ بعدما
أنسى البداوةَ رسْمها المتأبِّدُ

فاستنجدتُ ماء الدموع لبينهم
فتتابعتْ حتى توارى المُنْجدُ

طِفقَتْ تسابقُني إلى أمد الصبا
تلك الرُّبى ومنالُ شأوى يبعدُ

لو كنتُ أنبأتُ الديارَ صَبَابتي
نَحِلَ الصّفاء بفِنائها والجَلْمَدُ

---

(١) الذخيرة مج ١/ ق٢ / ص٩٩ .

ومن شعرهم الذي ينم عن شعور مرهف رقيق ، ولغة سلسة خالية من التعقيد قول الفقيه ابن القبّري (ت ٤٥٦هـ)(١) في لحظ محبوبته الفتاك :(٢)

ومنَّعمٍ وسـنانَ يجني لحـظُـه قَـتْلَ المحـبِّ وتـارةً يحـييهِ

جار الصَّدَى يوماً عليه فجاء ني يشكو إليّ بـه لكَـيْ أشـكيهِ

فسقـيتُه مـاءً ولو رُوحـي غـدا مـاءً لكنت جميعه أسـقـيهِ

وللفقيه ابن العسال بيتان يصور فيهما مشاعره تجاه من أحب ، وهي مشاعر رقيقة تنطوي على العفة ونقاء السريرة :(٣)

أعِنْدَكم علـمٌ بـأني متـيـمٌ وإلا فما بَالَ المدامعِ تَسْتَجِمُ

وما بالُ عَيْنِي لاتُغْمِضُ ساعةً كأنِّي في رَعْى الدَّراري منجِّمُ

ومن لطيف غزلهم المنعث منه أشذاء العفة والنقاء ، ويتضح فيه احتفاظ صاحبه بوقار مكانته العلمية والفقهية وحذره من أن ينخرط في الفحش والبذاءة ؛ قول محمد بن الوليد الطرطوشي في انتظار أي إشارة تنبئ بقرب وصول محبوبته:(٤)

أُقـلّبُ طَـرْفي في السّماء تَـرَدُّداً

لَعلّي أرى النَّجْمَ الذي أنْتَ تَـنْظُرُ

وأستعرضُ الرُّكبَان في كُلِّ وَجْهَةٍ

لعلّي بمن قَـدْ شمَّ عَرْفَكَ أظْـفَرُ

---

(١) عبدالواحد بن محمد بن موهب البجيبي ، يعرف بابن القبّري ، فقيه محدث أديب خطيب شاعر ، سكن شاطبة ، وولي الأحكام بها .
ينظر ترجمته في الجنوة /ص ٢٩٠ ، بغية الملتمس / ص٣٤٢ .

(٢) الجنوة / ص٢٩١ .

(٣) نفح الطيب ٤/ص١٣٥ .

(٤) المصدر السابق ٢/ص٨٥ .

واستقبلُ الأرواحَ عند هُبُوبِها
لعَلَّ نَسيمَ الريح عنك يُخْبِرُ
وأمْشي ومالي في الطَّريقِ مآربٌ
عَسَى نَغْمةٌ باسم الحَبيبِ سَتُذْكَرُ
وألمح من ألقاه من غيرِ حَاجةٍ
عسى لمحةٌ من نور وجْهِكَ تُسْفِرُ

وله أيضاً معارضاً للوأواء الدمشقي ، وقد قال بعد ما سمع عنه هذه الأبيات : (١)

قمرٌ أتى من غيرِ وعدِ ... في لَيْلةٍ طَرَقَتْ بسَعْدِ
باتَ الصَّباحُ إلى الصبا ... ح مُعانقي خَدًّا بِخَدٍّ
يَمْتاز فيّ وناظِري ... ما شئتَ من خَمْرٍ وشَهْدِ

فقال الطرطوشي - رحمه الله - أو يظن هذا الدمشقي أن أحداً لايحسن بنظم الكذب غيره ؟ لو شئنا لكذبنا مثل هذا ، ثم أنشد لنفسه يعارضه :(٢)

قمر بَدا من غيرِ وعدِ ... حُفّت شمائلُه بسعْدِ
قَبّلْتُهُ ورَشَفْتُ ما ... في فيه من خمر وشَهْدِ
فرشَفْتُ مُزْنَ السلسبيـ ... ـلِ بزَنْجَبِيل مُسْتَعِدٍّ
ولثمتُ فاه منَ الغُرُو ... بِ إلى الصّباحِ المُسْتَجِدِّ
وسكِرْتُ من رَشْفي العقيـ ... ـقَ على أقاحٍ تحت رَنْدِ

فالفقيه الطرطوشي يعترف أن ما نظمه لايعد سوى بعض من الخيال الأدبي ولا علاقة له بحياته الخاصة . وهذا ما يمكن أن يقال عن أبيات الفقهاء مما لا علاقة لأشعارهم الغزلية بحياتهم الخاصة .

---

(١) نفح الطيب ٢/ص٨٩ .
(٢) المصدر السبق .

وللفقيه القاضي أبي الحسن بن أضحى (ت٥٤٠هـ)[١] أبيات ينفي فيها أن تتصل الفاحشة بحبه ، إذ يقول :[٢]

يا ساكِنَ القلْبِ رِفْقاً كَمْ تُقطِّعُهُ
اللّهَ في منْزِلٍ قَدْ ظَلَّ مَثْواكَا

يُشيِّدُ النّاسُ للتَّحصينِ مَنْزِلَهُمْ
وأنتَ تَهْدِمُهُ بالعُنْفِ عَيْناكَا

واللّهِ واللّهِ ما حُبِّي لِفَاحِشَةٍ
أعَاذَني اللّهُ مِنْ هذا وَكَافاكَا

وتظهر العفة واضحة في أبيات الفقيه ابن العربي ، فعندما جاءت إليه المحبوبة تؤنبه وتعاتبه ، رحب بها وبعتابها ، وهذا شأن المحب الصادق ، لنسمعه يقول :[٣]

أتَتْني تُؤنِبُني بالبُكَا — فأهلاً بها وبتَأنيبِهَا
تقولُ وفي نَفْسِها حَسْرَةٌ — أتبكي بعين ترانى بها
فقلتُ إذا استَحْسَنَتْ غيركمْ — أمرتُ جُفوني بتَعْذِيبهَا

ويخرج بعض الفقهاء في أشعارهم الغزلية عن تصورهم العام الذي ألفناه من تناولهم للغزل العفيف ، فنراهم اجتازوا ذلك القول إلى الغزل الحسي ، وذلك نحو قول ابن برد الأصغر يصف فيه محبوبته قائلا :[٤]

---

(١) علي بن عمر بن محمد بن مشرف بن أضحى ، ولد بالمرية ، وولي قضاءها ، كان فقيها يناظر عليه، وأديباً ، صاحب بديهة .
ينظر ترجمته في قلائد العقيان ٣/ص٦٤٦ ، الحلة السيراء ٢/ص٢١١ ، نفح الطيب ٤/ص١٦٣ .

(٢) قلائد العقيان ٣/ص٦٥١ .

(٣) أحمد بن محمد المقريء التلمساني المقريء ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، (الرباط ، إحياء التراث الإسلامي ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م) جـ٣ / ص ٨٨ .

(٤) الذخيرة مج١/ق١/ص٥١٠ .

أعـنــبرٌ فـي فـمه فُـتْــتـا ... أم صارمٌ منْ لَحْظه أصْلتا ؟

يا شـاربـاً أَلْثَمـني شَـاربًا ... قد هَـمَّ فيه الآسُ أنْ يَنْـبُـتَا

انظر إلى الذَّاهبِ من لَيْلنَا ... وامـزجْ بماءِ الذَّهْبِ المُنْبِتَا

وكقول أبي جعفر بن الأعلم : (١)

قـالـتْ وقــدْ أقْـبَـلْتُ ألـثُمُها

والخُـرْصُ لايُلْـوِي على الدَّهَـشِ

أفضحتَ نَفْـسَـكَ ؟ قلت : واحَربا

أأمــوتُ في غـرقٍ من العَـطَـشِ ؟

وكقول ابن العربي في غلام رومي رآه وضيئ الوجه جاء يخترق المصلين ويحمل شمعة في يده وكتاب مُعتّق ، فقال يصفه :(٢)

وشَـمْعةٍ تَحْـمِلُها شَـمَـعْـةٌ ... يكادُ يُخْـفِي نورُها نـارَها

لولا نُهى نفسٍ نَهَـتْ غَـيَّها ... لَقـبّـلتْهُ وأتَــتْ عَــارَها

ولما سـمـعهـا أبو عـمران الزاهد ؛ قال : إنه لم يكن يفـعل ، ولكنه هزته أريحيه الأدب ولو كنت أنا لقلت : (٣)

لولا الحياءُ وخـوفُ اللّهِ يَمْنعُـني

وأن يُقالَ صبا موسى على كِبرِهْ

إذاً لمتّـعْـتُ لحـظـي في نواظـرِهِ

حتى أوفّى جفوني الحقَّ من نظرهْ

ولعل سائلاً يسأل : كيف لهؤلاء الفقهاء أن يخوضوا في مثل هذا النوع من الغزل ؟ والرأي في ذلك أن غرض الغزل بنوعيه قد انتشر بشكل واسع

---

(١) المغرب ١/ص٣٩٦ .

(٢) نفح الطيب ٢/ص٢٧.

(٣) المصدر السابق .

وكبير في البيئة الأندلسية ، وإن سمح هؤلاء الفقهاء لأنفسهم أن يسلكوا هذا المسلك في نظم مثل هذا النوع من الغزل ، فذلك من باب أن هناك بعضاً من الشعراء قد أباحوا (لأنفسهم الخوض في الموضوعات المارقة عن الاتجاه الخلقي الملتزم ، وفق منظور جمالي وفني محض ، ولذلك استبرأ من أن تكون تلك الأشعار لها صلة حياتهم ، وقصد منها « التخييل »)(١).

وهكذا يتبين لنا مما سبق أن الفقهاء الأندلسيين - عصري الطوائف والمرابطين - عالجوا الاتجاهين معاً في الغزل ، وإن كانت الغلبة والأكثرية للاتجاه الروحي العفيف ، وما عداه جاء مقطعات وبصورة عابرة استباح فيها الفقهاء بالنظم فيها رغبة مواكبة وتقليد غيرهم من الشعراء ، فلا علاقة لها بحياتهم الخاصة ، فقد عرفت حياتهم من خلال تراجمهم أنها عفيفة سليمة الأزار خالية من الشوائب التي تنقص من قدرهم العلمي والفقهي ، وما عرف عن ابن حزم من خوضه لتجربة عاطفية وافعية صورها بقلمه ، فقد اعترف بها ، واعترف أنه حب عفيف لاغبار عليه ، وقد قال في كتابه (طوق الحمامة) بعد عرضه لقصته مع الجارية (نعم) : (ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعاً ، ولكن حسبنا قول الله تعالى، ومن أصدق الله قيلاً في الشعراء : ﴿ ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ، ولكن شذوذ القائل للشعرعن مرتبة الشعر خطأ)(٢).

---

(١) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عصري ملوك الطوائف والمرابطين /ص ٤٥٤ .

(٢) طوق الحمامة / ص١٥٠ .

وهكذا ما يمكن أن نقوله عن أبيات بعض هؤلاء الفقهاء التي نظموها في الغزل الحسي ، فما قالوه لايعد سوى من قبيل الإحماض ، وهو الترفيه عن النفس في مجالسهم مع الأدباء فضلاً عن رغبتهم في إظهار مقدرتهم الشعرية أمامهم ومعارضتهم لغيرهم كما فعل الطرطوشي ، وما عدا ذلك فقد (كان الشعراء مثالاً للالتزام بمفهوم الحرية في الأدب ، تلك الحرية التي لاتلتبس بالإباحية والتهتك والانفلات)[١].

⟪⟪⟪ ⟫⟫⟫

(١) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي عهدي الطوائف والمرابطين / ص٤٥٣ .

سابعاً : الوصايا والوعظ والإرشاد :

لاشك في أن هذا الموضوع يعد من المواضيع القريبة إلى الفقهاء ، فهو شعر يدعو إلى السمو بالأخلاق الإنسانية ، ويحثها على التحلى بالسلوك القويم عن طريق إسداء النصائح والوصايا التي تعد عصارة تجربة متمرسة ومتفحصة في أمور الحياة (وشعر الأخلاق والأدب أو الوصايا والحكم في أدب الفقهاء ينبوع ثرّ ، ومعدن غني بالأعلاق النفسية والجواهر الكريمة)(١).

ومن أبرز الفقهاء ممن كان لهم قصب السبق في هذا الميدان أبو إسحاق الإلبيري ، فما يفتأ في كل قصيدة من قصائده يغتنم الفرصة ويفرغ كل ما في جعبته للوعظ والإرشاد بغية التذكير والتنبيه ، ومن ذلك قوله في قصيدة وجهها لشخص يدعى بأبي بكر جمع فيها جملة من النصائح ، يقول في بعض منها :(٢)

ولا تحـزَنْ على مافـاتَ منْـها
إذا ما أنْتَ في أُخْـراك فُزْتا

فلـيسَ بنافـعٍ مـانـلْتَ فيـها
منَ الفـاني ، إذ الباقي حُرِمْـتَا

ولا تَضْحَك مع السُّفهاءِ لَهواً
فإنَّكَ سوف تبكي إن ضَحِكْتَا

وكيفَ لـك السُّرورُ وأنتَ رَهْنٌ
ولاتَـدْري أَتُفْـدى أم غَـلِقْتَا

وسلْ منْ ربِّـك التَّوفـيقَ فـيها
وأخْلِصْ في السُّؤال إذا سَأَلْتَا

---

(١) أدب الفقهاء / ص١٢٠ .

(٢) ديوان الإلبيري / ص٢٩ .

وناد إذا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرافاً
بما نَاداهُ ذو النُّونِ بنُ مَتَّى

والإلبيري في أبياته السابقة يتكئ على الاقتباسات من القرآن الكريم، فالبيت الأول فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرُ. لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١).

والبيت الأخير فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وله يوصي المفتر بالله بأن يفر إلى الله، ويدعوه آناء الليل وأطراف النهار يرجو رحمته ويخاف عذابه ، وقد ختم الشاعر قافيته بكلمة الله في كل بيت ، وكأنه يريد بذلك أن يربط علاقته بالمولى سبحانه وتعالى بعدم الانفصال عنه، فلنقرأ له بعضاً من هذه القصيدة : (٣)

يا أيُّها المُغْتَرُّ باللّهِ — فِرَّ مِنَ اللّهِ إلى اللّهِ
ولُذْ بِهِ واسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِه — فَقَدْ نَجَا من لاذَ باللّهِ
وقُمْ لَهُ واللّيلُ في جِنْحِه — فَحَبَّذَا مَنْ قامَ للّهِ
واتْلُ من الوَحْيِ ولوْ آيَةً — تُكْسَى بها نُوراً من اللّهِ
وعفِّرِ الوَجْهَ لَهُ ساجِداً — فَعَزَّ وَجْهٌ ذَلَّ للّهِ

(١) سورة الحديد آية (٢٢ ـ ٢٣)
(٢) سورة الأنبياء آية (٨٧ ، ٨٨) .
(٣) ديوان الإلبيري / ص٦٣ .

ونصائح الإلبيري تنبعث من نورالزهد الذي عرف به ، فهو في تنفير دائم من الدنيا أو التهافت عليها وعلى ملذاتها .

وما وجدناه عند الإلبيري وجدناه كذلك عند الفقيه أبي حفص الهوزني ، فنسمع له يوصي الحريص على الدنيا بأبيات تنطوي على الحكمة ، وتدل على عقلية حكيمة ذات تجربة في الدنيا ، يبين له بأن حرصة هذا لن يجد منه سوى العناء والتعب : (١)

ومن يَجـهدْ لدنـياهُ حريصاً   فليسَ بحائـزٍ غـيرَ العَـنَاء

ومن يتقِ الزّمَانَ يجدهِ خِباًّ   ويَصْـرَعْهُ على حين الرجاءِ

إذا كانَ الدواءُ بـه اعتـلالـي   فأي الخَـلْـقِ أرجـو الشِّفَاءِ

وفي المعنى ذاته يوصي أبو الوليد الباجي الإنسان المتهافت على الدنيا بعدم الالتفات إليها أو الانغماس في ملذاتها ، فيقول : (٢)

تبـلَّـغْ إلى الدنـيا بأيْسـرِ زادِ   فإنّـكَ عـنـها راحـلُ لمعـادِ

وغُضَّ عن الدنيا وزخرُفِ أهْلها   جفونكَ واكحلْها بطولِ سُـهَادِ

وجاهدْ عن اللّذاتِ نفسكَ جاهداً   فإنّ جهادَ النفس خير جهادِ

فما هــذه الدنيا بـدارِ إقـامـةٍ   فـيُعْـتَـدَّ من أغراضها بعتادِ

ومـا هي إلاّ دارُ لهـوٍ وفَـتْـنَـةٍ   وإنّ قُصَـارى أهـلها لـنفـادِ

فهذه محاولة تنفير من الفقيه لكل من تأخذه الدنيا بزخرفها وهو يعتمد في ذلك علي آيات كثيرة في القرآن الكريم تحذر المسلم من الالتفات إلى الدنيا ونسيان ما في الآخرة ، وتذكره بأن ما في الآخرة خير وأبقى ، ومن

---

(١) الذخيرة مج ١/ق٢/ص٩٤ .

(٢) المصدر السابق مج١/ق٢/ص١٠٣ .

ذلك قول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلاَتُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (١).

ويقول تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ (٢).

ولأبي بكر الطرطوشي بيتان ينصح فيهما المسلم الغافل بأن يتزود للأخرة ؛ لأن هناك من رحل عنها بل زاد فيقول :(٣)

فاعْمَلْ لمعادك يا رَجُلُ ... فالقومُ لدُنْياهُمُ عَملُوا

واذخرْ لَسيركَ من زادٍ ... فالقَوْمُ بلا زادٍ رَحَلُوا

وأبي بكر غالب بن عطية المحاربي أبيات ينصح فيها اللاهي بدنياه ، وقد أمضي سنين صباه في المعصية ، بأن يعود إلى ربِّه ويندم على كل ما فعله سابقاً بالتوبة النصوح :(٤)

أيُّها المَطْرودُ عن باب الرِّضَ ... كَمْ يراكَ اللّهُ تَلْهُو مُعرضا

كم إلى كم أنْتَ في جَهْلِ الصبِّا ... قَدْ مَضَى عمْرُ الصبِّا وانْقَرضَا

قُمْ إذا اللّيلُ دَجتْ ظُلْمَتُهُ ... واستَلَذَّ الجَفْنُ أنْ يَغْتَمضا

فضَعِ الخَدَّ على الأرْضِ وَنحْ ... واقْرَعِ السِّنَّ على ما قَدْ مضَى

ويحذر السرقسطي الناس من الزمان وخداعه ، فيقول : (٥)

لايخدعنك الزّمنُ الخادعُ ... فإنه الشاعبُ والصّادعُ

وأقْدعْ فُديت النَّفسَ ياجامحَا ... لم يثنه عن غيِّه قادعُ

في إثركَ الليلُ جرى والضُّحَى ... وأنت في ظل المُنى وادعُ

يارَبَّ سامي العزَّ عالي الذُّرَى ... قد جدع الأنفَ له جادعُ

يا رحِمَ اللّهِ أمراً لم يزل ... يردعُهُ من رُشْده رادعُ

---

(١) سورة النساء آية ٧٧ .

(٢) سورة النساء آية ٩٤ .

(٣) نفح الطيب ٢/ص٩٤ .

(٤) قلائد العقيان ٣/ص٦٣٧ .

(٥) المقامات اللزومية / ص٤٢ .

وفي وصية الأبناء من قبل الآباء نجد مقصورة لابن عبدالبر يوصي فيها ابنه ويحثه على الابتعاد عن الدنيا ، والتهوين من قدرها والمسارعة إلى فعل كل ما يرضي الله ويقرب إليه ، فيقول : (١)

تَجافَ عن الدنـيا وهـوّنْ لقـدرها
ووفِّ سبيلَ الدين بالعروة الوثقَى

وسارعْ بتقوى اللّـهِ سراًوجـهـرةً
فلا ذمة أقوى هُـدِيتَ من التـقـوى

ولا تـنْس شكرَ اللّه في كلِّ نعـمةٍ
يَمُنُّ بها فالشكرُ مستجلب النُّعْمَى

فَدَعْ عـنك ما لاحَـظَّ فيه لعـاقـلٍ
فإنَّ طـريقَ الحَـقِّ أبلـجُ لايخْـفَى

والمتأمل في وصايا ابن عبدالبر لابنه يلحظ أنها تكتظ بالنصائح الطيبة التي توصل من اتبعها إلى الدرجات العُلا بإذن الله ، كما أن النور يشع من جنباتها وتوحي بأن صاحبها قداستمسك بذيول الفقه والشريعة الإسلامية وأراد أن يطبقها ابنه حتى ينجو ، فهي نصائح أبٍ يخاف على ابنه ، ويرجو له النجاة من حبائل الدنيا الدّنية .

وإذا كان ابن عبدالبر قد نصح ابنه في الأبيات السابقة بالبعد عن الدنيا وزخرفها ، فإنا نراه في مقطوعة أخرى ينصحه بالتقرب من العلم والافتخار بالنسب إليه ، فهو الفخر الحقيقي للإنسان الموصل إلي المجد :(٢)

إذا فاخَرْتَ فافخـرْ بالعـلومِ ودعْ ما كانَ من عَـظْمٍ رمـيمِ
فكم أمسيتُ مُطَّـرحاً بجـهلٍ وعلمي حلَّ بي بـين النّجـومِ

---

(١) نفح الطيب ٤/ص٢٨ .

(٢) المغرب ٢/ص٤٠٨ .

وكائنٍ من وزيرٍ سارَ نحـوي ... فـلا زمـني ملازمَـةِ الغـريمِ

وكم أقـبلتُ متـئداً مهـاباً ... فقـامَ إليّ مِـنْ مَلَكٍ عَظيمِ

وركبٌ سارَ في شرقٍ وغـربٍ ... بذكري مثل عَرْفٍ في نَسيمِ

وله كذلك ينصح طلابه بوجوب اتباع سنة النبي المصطفى محمد ﷺ لأنها من أفضل السنن ومن اتبعها فلن يضل طريقه أبداً:(١)

ومقالـةٍ ذي نصـحٍ وذات فـوائـد

إذا من ذوي الألبابِ كان استْماعُها

علـيْكم بآثـارِ النّبِـيِّ فـإنّـهُ

من أفْضَلِ أعمالِ الرشادِ اتْبَـاعُهـا

وعلى ذلك النحو كانت عناية الفقهاء بموضوع الوصية والوعظ وما يتصل بهما في أشعارهم ، وكأنهم اتخذوا من قول الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢)، شعاراً لهم فاستخدموا أسلحة ألسنتهم في صوغ الأبيات ونظمها لخدمة هذا الشعار .

<<< >>>

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٣٢٨ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٥ .

ثامناً : الزهـد :

وفي هذا الغرض يعطي الفقهاء صورة لأحوالهم المعيشية والنفسية ، فهم في بُعد عن الدنيا وملذاتها ؛ لأيقانهم أنّها دارٌ للفناء والزوال ، لذلك لايعطوها الاهتمام إلاّ بقدر يسير يساعدهم علي العيش فيها ؛ ليقوموا بما أمرهم الله من عبادات .

ويعد هذا الغرض ردّةُ فعلٍ معاكسة لما يشيع في المجتمع من ترف وثراء ومجون ولعب ولهو ، وهو منزع ديني أخلاقي بلورته أشعار الفقهاء تحملهم على ذلك رغبة ذاتية خالصة لوجه الله ، فلم يكونوا كغيرهم من الشعراء الذين انتحوا هذا المنزع لشعورهم بالنقمة على حظهم من الدنيا وثورتهم على الناس من حولهم كالسمسير الذي لم يكن عاملاً بمبادئه الزهدية (١)، التي تحدث عنها في شعره ، فمن شعره الذي يدللنا على نقمته علي الناس وسوء ظنه بهم قوله : (٢)

تَحفَظْ من ثيابكِ ثُمَّ صُنْها ... وإلاّ سوفَ تُلْبِسُها حِدَادا

وميّزْ عن زَمَانِكِ كُلَّ حينٍ ... ونافرْ أهلَهُ تَسُدِ العِباداَ

وظُنَّ بسائرِ الأجناسِ خيراً ... وأمّا جِنْسُ آدَمَ فالبعادا

ومن غير شك أن الفقهاء لم يصوروا الزهد ويدعوا إليه ؛ لشعور وقتي سرعان ما يتلاشى بتلاشي المؤثرات التي دفعتهم لنسج مثل هذا النوع من الشعراء ، إنما نراهم قد عبروا عن حقيقة إيمانية صادقة رغبة في التقرب إلى الله .

ويعد أبو إسحاق الإلبيري وابن العسال الطليطلي (فارسي ميدان الزهد اللذين جريا فيه إلى نهايته وجعلا منه فناً) (٣).

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين /ص١٣٠ .

(٢) الذخيرة مج٢/ق٢/ص٨٩٥ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين / ص١٣٥ .

وزهديات الإلبيري وافرة ، ومن ينظر في ديوانه يلحظ أن غرض الزهد هو الغرض المسيطر عليه وقصائده من القصائد الطوال فيه ، فتندر عنده المقطعات ، ومن أبرز قصائده الزهدية قوله ، وقد دخل عليه ابن أبي رجاء وهو في علته التي توفي فيها فعذلة على رداءة مسكنه ، فقال وهو آخر شعر قاله :(١)

قالوا ألا تَسْتَجِدُّ بَيْتاً ... تَعْجَبُ من حُسْنِهِ البُيوتْ

فَقُلتُ ما ذلِكُمْ صَوابٌ ... حَفَشٌ كَثِيرٌ لمن يَمُوتْ

لولا شتاءٌ ولَفْحُ قَيْظٍ ... وخوفُ لصٍّ وحفْظُ قُوتْ

ونسوَةٌ يبتغينَ سِتْراً ... بَنَيْتُ بُنْيانَ عَنْكَبُوتْ

وأيُّ معنًى لِحُسْنِ مغْنًى ... لَيْسَ لأرْبابِه ثُبُوتْ

ما أوعظَ القَبْرَ لو قَبِلْنَا ... مَوعِظَةَ النَّاطِقِ الصَّمُوتْ

ويعلم أبو الوليد الباجي أن حياته ستمر سريعة كمرّ الساعة ، فيحث نفسه على فعل الطاعات وترك المنكرات ، فيقول : (٢)

إذا كُنْتُ أعلمُ علماً يقيناً ... بأنّ جميعَ حَياتي كَسَاعهْ

فلِمَ لا أكُون ضَنِيناً بها ... وأجْعَلُها في صَلاحٍ وطَاعهْ

وله قوله أيضاً يخاطب قلبه مصدر التقلب : (٣)

يا قلب إمَّا تُلْهني كاذباً ... أو صَادقاً عن الهدى جَائِرَا

تَشْغلُني عن عملٍ نافعٍ ... في موقفٍ ألقاكَ لي ضائِرا

أحْرِ بأنْ تُسْلمني نادماً ... إنْ لم ألقّ اللّه لي عاذِرَا

وحاقَ بي ما جاءَ عن ربِّنا ... (ووجدوا ما عملوا حاضِرًا)

---

(١) ديوان الإلبيري/ص٦٠ .

(٢) الذخيرة مج ١/ق٢/ص٩٨ .

(٣) المصدر السابق مج١/ق٢/ص١٠٤ .

ومما قاله ابن حزم في أبيات يصور زهده في الدنيا قوله : (١)

ولما رأيتُ الشّيْبَ حلَّ مفارقي
نذيراً بتَرْحالِ الشّبابِ المُفارقِ
رجعتُ إلى نفسي فقلتُ لها: انظري
إلى ما أتى ، هذا ابْتَداءُ الحقائقِ
دعي دَعَواتِ اللّهو قد فاتَ وقْتها
كما قد أفاتَ اللّيلَ نورُ المشارقِ
دعي منزلَ اللّذّاتِ ينزلُ أهله
وجِدّي لما نُدْعى إليه وسابقي

وله من أخرى يوضح أن غاية منعه في هذه الدنيا هي بث العلوم الدينية ونشرها إلى الملأ ، قائلاً :(٢)

مناي من الدنيا علوم أبثُّها
وأنشرها في كل بادٍ وحاضر
دعاء إلي القرآن والسنن التي
تنسى رجال ذكرها في المحاضر

ويدعو ابن العسال - زاهد طليطلة - الناس إلى التأمل في الدنيا وأحوالها بقوله : (٣)

انْظُرْ الدّنيا فإنّ أبْـ ... صَرْتَها شيئاً يَدُومُ
فاغدُ منها في أمانٍ ... إنْ يُساعدكَ النّعيمُ
وإذا أبْصَرتها فيـ ... ـك على كُرهٍ تَهِيمُ
فاسلُ عنها واطّرحها ... وارتحلْ حيثُ تُقيمُ

---

(١) نفح الطيب ٣/ص٦٧ .
(٢) بغية الملتمس / ص٣٦٦ .
(٣) نفح الطيب ٣/ص٢٢٨ .

ويدلنا الحميدي علي طريق الزهد، ويخبرنا بأنه أفضل الطرق : (١)

طَرِيقُ الزهدِ أفضلُ ما طريقٍ　　وتَقْوَى اللّـهِ باديةُ الحقُوقِ

فثِقْ باللّـهِ يكْفِكَ واسْتعِنْهُ　　يُعِنْكَ وذرْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ

ويترك أبو القاسم الكلاعي التصابي والحوانيت والمدام والحروب منشغلاً عن كل ذلك بما يعود عليه بالنفع والفائدة ، يشغل نفسه بالكتابة والتأليف ، فيقول :(٢)

تركتُ التَّصابي للصّوابِ وأهْلِه

وبيضَ الطُّلي للبيض والسُّمْرَ للسُّمْرِ

مُدَامي مِدَادي والكؤوسُ محابري

ونَدْماي أقلامي ومنْقَلتي سِفْري

وفي هذا رسم خاص لمنهج سلكه الكلاعي في حياته ليشغله عن ملهيات الحياة وينقله إلى محاريب العلم.(٣)

وله أيضاً يذكرنا بأن حياتنا في هذه الدنيا ما هي إلا رحلة نقتطفها ثم نرحل عنها :(٤)

لا تنكروا أنّنا في رِحْلَةٍ أبداً

نحثُّ في نَفْنَفٍ طوراً وفي هَدَفِ

فَدَهْرُنا سُدْفَةٌ ونحنُ أنْجُمها

وليس يُنْكر مَجْري النّجْمِ في السُّدَفِ

لو أسْفَرَ الدَّهْرُ لي أقصرتُ عن سفرٍ

ومِلْتُ عن كَلَفي بِهَذِهِ الكُلَفِ

---

(١) المصدر السابق ٤/ص٣٤٨ .

(٢) مطمح الأنفس / ص٢٢٠ .

(٣) أحكام صنعة الكلام / مقدمة المحقق د . محمد رضوان الداية ، ص ١٥ .

(٤) مطمح الأنفس / ص٢٢٠

ويصف أبو بكر الطرطوشي عباد الله الأتقياء بأنهم عبادٌ زهدوا في دنياهم فابتعدوا عن زخرفها وملذاتها ، فقد عرفوا أنها دار للزوال ، فاغتنموا عيشهم فيها بفعل الخيرات وصالح الأعمال ، يقول عنهم الفقيه : (١)

إنّ للّـه عـبـاداً فُطَـنا ... طَلّقُوا الدّنيا وخافُوا الفتَنَا

فكّـروا فيـها فلما عَلِمُوا ... أنّـهـا ليـستْ لحـيّ وَطَـنَا

جعـلوها لجـةً واتخـذوا ... صالحَ الأعمالِ فيها سُفنَا

ويذكرنا أبو الطاهر السرقسطي بيوم الحساب لنستعد له ونتزود لآخرتنا ، فيقول :(٢)

إذا دعَا بالحِساب داعٍ ... فيا سَعِـيدٌ ويـا شَـقِـيٌّ

كيف تُـرى رَجِياً رِضَـاهُ ... وغـيـرُكَ البـرُّ والتُّـقِـيٌّ

لا عملٌ صـالحٌ فَيُرضـى ... عـنـك ، ولا جَيْبُكَ النَّـقِـيٌّ

شـتانَ ما مُعْشِبٌ غـداةً ... وسَمْـلَقٌ(٣) كالمِجَنِّ(٤) قـيٌّ (٥)

هـانَ على المرءِ ما يُلاقِـي ... إنْ كانَ من ذي العُلَى لُقِـيٌّ

طُوبى لسَـامي الهُمُومِ هادٍ ... لـهُ إلـى ربِّـهِ رُقِـيٌّ

ولأبي الحسن بن أضحى أبيات في الزهد يقول فيها : (٦)

عليُّ ، قـد آنَ أنْ تَـتُـوبا ... ما أقـبحَ الشـيبَ والعيـوبَا

شـبتَ ، وما تُبتَ من بعيدٍ ... سـوفَ تـرى نـادماً قَـريـبَا

تركـبُ للهـو والمعَـاصِي ... صعباً وتَسْتَسهل الذنُوبَا

---

(١) الصلة ٢/ص٥٤٥ .

(٢) المقامات اللزومية /ص٥١ .

(٣) سملق : السملق : القفر الذي لا نبات فيه .

(٤) المجن " الصلبة .

(٥) قيٌّ : أرض مستوية ملساء .

(٦) الحلة السيراء ٢/ص٢١٧ .

ولأبي العباس أحمد الأنصاري (ت٥٥٩هـ)(١) أبيات رائعة في الزهد، يقول فيها : (٢)

إلهي لكَ المُلك العظيمُ حقيقةً
وما لِلْورَى مَهْمَا مَنَعْتَ نَقيرُ

تجافى بنو الدنيا مكاني فَسرّني
وما قدرُ مخْلوق جَداه حقيرُ

وقالوا: فقيرٌ وهم عندي جلالةٌ
نعم صَدَقوا إنّي إليك فقيرُ

وهكذا فمن خلال هذه الأمثلة من أشعار الفقهاء - إبان عصري الطوائف والمرابطين - في الزهد يمكننا القول أن من أهم بواعث الزهد وأسبابه عندهم كان الوازع الديني وتربيتهم الإسلامية التي نشأوا عليها ، فلم تكن لديهم أيّ ضغوطات تجعلهم يلجأون لهذا الطريق مكرهين ، لذلك جاءت أشعارهم تعبر بصدق عن نظر هؤلاء الفقهاء في الدنيا وموقفهم منها .

<<< >>>

---

(١) أحمد بن عبدالرحمن محمد الأنصارى الخزرجي من سرقسطة ، كان محدثاً ، مكثراً ، ثقة ، ضابطاً، مقرئاً ، مجوداً حافظاً للفقه ، ذاكراً للمسائل ، عارفاً بأصولها ، له تصانيف مفيدة منها : (أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار) .

ينظر ترجمته في إحاطة ١/ص١٨٢ ، ونفح الطيب ٣/ص٣٣٣ .

(٢) الإحاطة ١/ص١٨٥ .

تاسعاً : الإخوانيـــات :

حث ديننا الإسلامي علي التربط والتواصل بين المسلمين ، فهو في دعوة مستمرة بأن يكون المسلمون إخوة يقول الله تعالى : ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾، وانطلاقاً من هذه الآية الكريمة وجدنا الفقهاء وقد صوروا علاقاتهم مع إخوانهم عبر أشعارهم وهي علاقات في مجملها يحيط بها الودّ والحبّ الخالصين لوجه الله ، وفي مثل هذا النوع الشعري تناول الفقهاء الحديث عن مشاعرهم وأشواقهم تجاه إخوانهم المبعدون عنهم ، أو عن لحظات الفراق والوداع ، كما تناولوا اللحظات الحرجة ، التي قد تحدث بين الأصدقاء وما ينجم عنها من البعد ، ومن ثم العتاب أو الاعتذار عما بدر من أحد الطرفين ، وهناك التهاني التي تبين مشاركة الفقهاء لمن حولهم من الإخوان في المناسبات السعيدة التي تستوجب التهنئة عليها .

ونبدأ الشواهد في هذا الغرض بنموذج لأبي عمر الباجي يخاطب بعض إخوانه ، وقد أبدى الشوق والحنين للقياهم ، فما أطيبها من ساعات أنس قضاها في رحابهم تمنى لو أنها تعود فتعاوده السعادة مجدداً ، فلهم يرسل سلامه ، قائلاً :(١)

سـلامٌ على صـفـحـاتِ الكَـرَمْ ... على الغُرَر الفارجات الغُـمَـمْ
فلا أَنْـسَ لا أَنْـسَ ذاكَ الحَـيا ... وتلك المعالي وتيـك الشِّـيَـمْ
ودُنْـيَا بكم طَـلْـقَـة المُجْـتَـلَى ... ودَهْـراً واضـحَ المُبْـتَـسَـمْ
وساعاتِ أُنْسٍ تجول النفوسُ ... لديها مَجَـالَ حـمام الحَـرَمْ
أحـنُّ إليـكـم ومَـنْ شـاقـه ... تـذكّـرُ عـهـدكُم لم يُـلَـمْ

ويعود ابن العربي إلى وطنه الأندلس بعد رحلته العلمية الطويلة التي

---

(١) المغرب ١/ص٤٠٥ .

قضاها في حواضر العلم المشرقية وخاصة بغداد ، فتأخذه رياح الشوق إلى تلك المدينة ، فينظم قصيدة يخاطب فيها أهل الوداد هناك ، فيقول : (١)

أمِنْكَ سَرَى والليلُ يَخْدعُ بالفَجْرِ
خيالُ حَبيب قد حَوَى قَصَبَ الفَخْرِ

جلا ظُلَم الظَّلْماء مشرقُ نوره
ولم يخبط الظَّلْماء بالأنْجم الزُّهْرِ

ولم يرضَ بالأرض البسيطةَ مَسْحَبا
فصار على الجوزاءِ إلى فلك يَسْرِي

وحثَّ مَطَايا قد مَطَاها بعِزَّةٍ
فأوطأها قسراً على قُنَّةِ النَّسْرِ

فصارت ثِقَالاً بالجلالة فوْقَها
وسارت عِجَالاً تتقي أَلَمَ الزَّجْرِ

وينهي الفقيه قصيدته ببيتٍ يدعو فيه لأهالي البلدان التي حط برحله عليها ـ وقد وجد من أهلها الكرم والود ـ بأن يسقيهم الله من منهمل القطر، فيقول :

سَقَى اللّهُ مصراً والعراقَ وأهْلَها
وبغداد والشامين مُنْهَمِلَ الْقَطْرِ

وتعد لحظات الوداع من أصعب اللحظات التي تمر على الأحباب ، فهذا أبو الفضل بن الأعلم يودع صديقة الفتح بن خاقان بأبيات يستعرض فيها ذكرياته الجميلة في تلك الأيام التي قضاها معه ، فيقول في بعض منها :(٢)

إيهٍ أبا نَصْرٍ وكم زَمَنٍ   قصراد كارك عندي الأملا
هلَ تَذْكُرنْ والعَهْدُ يُخْجِلُني   هل تَذْكُرَنْ أيّامَنَا الأُولى

(١) مطمح الأنفس /ص٢٩٩ .

(٢) المصدر السابق / ص٣٠٤ .

أيّـام نَـعْـثُـرُ فـي أعِنَّتِنَا ... ونجـرٌ من أبْـرادنا حُـلَلا

ونَحُـلُّ روض الأنـسِ مؤتنقاً ... وتحلّ شـمـس مُرادنا الحَـمَلا

ونَــرى لَيَـاليـنَا مُـساعِـفَةً ... تدعو إلينا رِفْقَـنَا الجَفَلَى

زَمَـنٌ نـقـول على تَــذَكُّـرِهِ ... ما تـمّ حتّى قيلَ قـد رَحَـلا

ويشارك الفقهاء إخوانهم في الأحداث السعيدة التي تمر بهم ، فيقدمون لهم آيات التهاني عبر بطاقة شعرية ، ومن ذلك ما كتبه ابن أبي الخصال إلى الوزير أبي بكر بن رحيم يهنئه بولاية خطة الإشراف بحضرة إشبيلية وذواتها، وكانت هذه التهنئة عبارة عن رسالة بدأت بالأبيات التالية : (١)

إذا ما شَرَّفُ الإشْرافُ قَوماً ... فــإنّ بنـي رَحيمٍ شَـرَّفُـوهُ

ومن يعــرف بــه لهمُ قَـديماً ... وإن رَغِـمتْ أُنـوفُ عَرَّفُـوهُ

كُفَــاةٌ للمُـلوكِ على سَـبـيلٍ ... ودينٌ نصيـحَةٍ ما حَرّفُــوهُ

أبـو بكرٍ لــهُ ولَهُـمْ كَـفـيلٌ ... بكـلِّ كِـفَايةٍ إذ صـرَّفُــوهُ

وما الإشْــرَافَ إلا عبـدُ قـنٍّ ... لَهُمْ فمتى تولّى استَصْرَفُوهُ

وقد يحدث بين الفقهاء ، وإخوانهم توتر في العلاقات ينجم عنه عتاب أحد الطرفين للآخر بغية معرفة سبب هذا التوتر أو هذا التغير الذي صدع حبل المودة بينهم ، فيتعجب الفقيه أبو بكر غالب المحاربي من هذه الحالة التي حدثت بينه وبين بعض إخوانه ، فيقول معاتباً لهم : (٢)

وكُنْتُ أظُنُّ أنّ جِبالَ رَضْوى ... تَــزولُ وأنّ وُدَّكَ لايَــزُولُ

ولكنَّ الأمـورَ لها اضْـطِرابٌ ... وأحوالُ ابن آدمَ تَسْتَحِيلُ

فإنْ يكُ بَيْـنَنَا وصلٌ جـميلٌ ... وإلاّ فَلْيَكُنْ هَـجْـرٌ جـمِيلُ

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص ٦١٤ .

(٢) قلائد العقيان ٣/ص٦٣٨ .

وعندما يتضح سبب التغير وتعود المودة لسابق عهدها نجدهم يتبادلون القصائد سروراً بهذه العودة ، ومن ذلك ما كتبه ابن أبي الخصال للفتح بن خاقان بعد انفصال ، كان سببه وشاية واشٍ غصَّ أن يراهما يزوران بعضهما ، وعندما تكشفت الأمور كتب ابن خاقان لابن أبي الخصال أبياتاً يعلمه ببقاء المودّة[١] ، فيراجعه ابن أبي الخصال بقطعة منها : [٢]

وما أنا إلاّ مـنْ عَـرَفْـتَ وإنّـما
بَطِـرْتَ وِدَادي والمـودَّةُ تُبْـطِـرُ

نظرتَ بعـــينٍ لو نَظَرْتَ بغـــيرها
أَصَبْتَ وجَفْنُ الرَّأي وسْنانُ أشْـتَـرُ

وقِـدْماً بذلْـتَ الودَّ والحُبَّ فطرةً
ومـا الحُـــبُّ إلاّ ما يَخُـصُّ ويفطُرُ

وهكذا يتبين لنا من النظر في أشعار هؤلاء الفقهاء الأندلسيين ـ إبان عصري الطوائف والمرابطين ـ وما جادت به قرائحهم في هذا الموضوع ـ الإخوانيات ـ المكانة التي كان يحتلها الفقهاء في ذينيك العصرين ، أضف إلى ما كشفته النماذج السابقة من الخلق الطيب الذي تمتع به هؤلاء الفقهاء في علاقاتهم مع من حولهم من الإخوان والأصدقاء .

««« »»»

---

(١) انظر أبيات الفتح بن خاقان في رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٤٣ .

(٢) المصدر السابق .

عاشراً : الفخر :

من أقل الفنون حظاً في أشعار الفقهاء فن الفخر ، فعند معالجتهم لهذا الفن نجد أنهم لايعتمدون فيه أسلوب التباهي أو التعالي بالنسب ، أو انتمائهم لقبيلة من القبائل ، أو فخرهم بالشجاعة والبسالة الحربية كما يفعل غيرهم ، إنما فخرهم يدور حول انتمائهم للدين الإسلامي والاشتغال بعلومه الشرعية أو انتسابهم لأسرة شغل العلم اهتمامها ، فأنجبت كوكبة من العلماء احتلت بعلمها المكانة العالية في الكتابة والأدب والسياسة ، ومن ذلك قول ابن برد الأصغر في أسرته التي عرفت بحبها للعلوم وبمكانتها المرموقة في الكتابة والأدب والسياسة فهم (جمهور كتابة ، ومحور خطابة) (١)، لذلك استحقت أن يفتخر بها أحد أبنائها البررة ، فلنسمع له قوله فيهم : (٢)

من شاءَ خُبري فأنا ابنُ بُــرْدِ ... حَدُّ حُسامي قطْعَةٌ من حدي

وأرفــعُ النَّـــاسِ بنـاءٍ جَـــدّى ... من نَظَمَ الألفـاظَ نَظْمَ العقدِ

ونَقَـــدَ الكـلامَ حَـقَّ الـنَّـقْـدِ ... وكفَّ بالأقلامِ أيـدي الأسـدِ

بهِ استضاءَ في الخُطُوبِ الربْدِ ... كُـلُّ إمـــامٍ ووَلَـــيّ عـهـدِ

وإذا كان ابن برد يفخر بأسرته بأنّ لها الشأن العظيم في مجالي السياسية والأدب ، فإنّ ابن حزم يفخر هنا بنفسه ، وبأنّ له مكانته العلمية المشرفة ، فهو كالشمس في جو العلوم يشع إنارةً وضياءً ، فيقول : (٣)

أنـا الشّـمْسُ في جـو العلـومِ مُنيـرةً

ولكـنّ عَـيْـبـي أنَّ مَـطْـلَعِـي الغـــربُ

ولو أنّني من جانبِ الشّـرْقِ طـالـعٌ

لَجَدَّ على ما ضاع من ذكري النّهبُ

---

(١) الذخيرة مج ١/ق١/ص٤٨٦ .

(٢) المصدر السابق مج١/ق١/ص٤٨٧ .

(٣) المصدر السابق مج١/ق١/ص١٧٣ .

وحينما حدثت الفجوة بينه وبين ابن عمه نراه يفتخر بنفسه بأنّ له من الذكر والصيت ما يفوق ذكر وصيت ابن عمه :(١)

كَفَانِي بذكر النَّاسِ لي ومآثري   ومالكَ فيهم يا ابنَ عَمِّيَ ذَاكِرُ

ويتحدث الحميدي عن سلوكه ومنهجه الذي يتبعه في دنياه فيذكر في شيء من التباهي والافتخار ، أنه يتخذ من علام الله قوله ، وما صحت به الآثار النبوية دينه ، فنعم ما يفتخر به الحميدي :(٢)

كلامُ اللّهِ عز وجل قَـوْلي   وما صحَّتْ به الآثارُ ديني

ولأبي إسحاق الإلبيري بيت يفتخر فيه بقريحته الشعرية التي تجيبه متى ما دعاها : (٣)

لو أنّني أدعـو الكلامَ أجَابني   كإجابةِ المأْسُورِ دَعْوة آسرِ

ويفتخر ابن عبد البر من خلال نصحه لابنه بما منحه الله من العلم وحبه والوصول فيه إلى أعلى الدرجات ، فيقول : (٣)

إذا فاخَرْتَ فافخـرْ بالعلومِ   ودعْ ما كانَ من عَظْمٍ رمِيمِ

فكم أمسيتُ مُطَّرحاً بجهلٍ   وعلمي حلَّ بي بين النّجومِ

وكائنٍ من وزيرٍ سارَ نحوي   فلا زمني ملازمَةِ الغريمِ

وكم أقبلتُ م متئدًا مهاباً   فقامَ إليّ منْ مَلَكٍ عَظيمِ

وركبٌ سارَ في شرقٍ وغربٍ   بذكرى مثل عَرْفٍ في نَسيمِ

ويدخل أبو الحسن بن أضحى مجلساً فيه الأمير علي بن يوسف في مراكش ، فلم يهتبل به أحد ، فحضره بيتان قالهما في هذا المجلس ، وفي

---

(١) نفح الطيب ٢/ص٨٠ .

(٢) المصدر السابق ٢/ص١١٥ .

(٣) المغرب ٢/ص٤٠٨ .

البيتين يفتخر فيها بمنزلته ، فيقول :(١)

نحنُ الأهـلـةُ في ظـلامِ الحِـنْدِسِ
حيثُ احْـتَلَلْنا ثمَّ صَدْرَ المجـلسِ
إنْ يَـبْخَـل الزمـنُ الخـؤُون بعـزِّنا
ظُلماً فلـم يذهـب بعـزِّ الأنْـفُـسِ

فأمر بترفيعه في المجلس (٢).

وهكذا يتبين لنا من النظر في شعر هؤلاء الفقهاء الأندلسيين ـ إبّان عصري الطوائف والمرابطين ـ أنها كانت مساهمة في مختلف الأغراض الشعرية المعروفة في عصرهم ، فلم يقصروا شعرهم على غرض دون آخر ، خوفاً على مكانتهم العلمية أو الاجتماعية ، وإنما نجد أنهم عنوا بالقول في كل المواضيع ، غير أن طريقة تناولهم وما طرقوه من معانٍ تختلف عما ألفناه عن غيرهم من الشعراء حين يعالجون القول في تلك الأغراض ، فعندما عالج الفقهاء شعر المديح وجدنا ظاهرة التعفف والترفع عن التكسب بالشعر ، والامتناع عن إراقة ماء الوجه في الابتذال والسؤال . كما كان شعرهم ينصب علي المعاني الإسلامية وإبرازها في ممدوحيهم نحو التحلي بالخلق الإسلامي ، وقيادته للجيوش بكل شجاعة رغبة قتال أعداء الإسلام ، وإغاثة المسلمين ، إلى غير ذلك من المعاني الإسلامية التي تحلت بها شخصيات المدح للفقهاء .

وفي غرض الجهاد وجدنا المعاني الإسلامية تتضح وبجلاء في ثناياه ، فالفقهاء يدعون فيه وبجرأة الحكام وعامة المسلمين إلي الجهاد في سبيل الله ضد الأعداء الذين أحاطوا بهم من كل الجهات ورموا بسهامهم المسمومة إلى

(١) الحلة السيراء ٢/ص٢١٦ .

(٢) المصدر السابق .

صدر وطنهم الأندلس ، وهذا الحض والاستحثاث على النفير ؛ قادهم إلى وصف ما آلت إليه أحوال بعض المدن الإسلامية الأندلسية القابعة تحت أيدي العدو ، من قتل وسبي وتعذيب وتشريد ، وكانوا يرمون من هذا الوصف إلى التأثير في نفوس ولاة الأمر خاصة والشعب المسلم بعامة ؛ ليستحثوا في خطاهم ويسارعوا لنجدة المسلمين وإغاثتهم في تلك المدن المسلوبة .

وبذلك ساهموا في إعطاء صورة لحال ملوك الطوائف وما آلوا إليه من الضعف والتفكك حتى كادت أن تسقط الأندلس في عهدهم ، إلا أنّ المولى سبحانه وتعالى قيض لهم زعيم المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين فانقض بقوته على الأعداء ففتك بهم ، ومن ثم ضم بلاد الأندلس إلي ملكة وعادت الأندلس بعدها إلي سابق عهدها من القوة والتمسك بالدين وتعاليمه السمحة، وهنا يترجم الفقهاء سعادتهم بهذا النصر المؤزر على أعداء الدين الإسلامي ، فأخذوا يصورون فرحة الإسلام والمسلمين بهذا الفوز والظفر .

أما في غرض الرثاء فيظهر لنا قوة احتمال الفقهاء وصبرهم على فقدانهم كل حبيب إلى قلبهم ، وذلك رغبة في نيل الأجر والثواب من الله، فندر في قصائدهم الندب أو العويل ، أو النواح على موتاهم ، وكثر عندهم لوني لعزاء والتأبين في ذكر محاسن وفضائل الموتى التى أخذت تبكي عليهم بعد فقدانها إيّاهم .

كما أنهم بكوا مدنهم الساقطة في أيدي الأعداء مشاركين بذلك شعراء عصرهم ، فطفحت قصائدهم بالدموع الغزار، والعواطف الصادقة على ما سلب من بلادهم .

وعند التأمل في غرض الوصف نجد أنّ الفقهاء كان لهم دور فيه لايمكن انكاره ، فقد شملت أشعارهم الوصفية جوانب عديدة من الحياة وبالأخص جانب الطبيعة منها . ولا غرابة في ذلك فقد أثرت فيهم طبيعة الأندلس

الساحرة كما أثرت في غيرهم من الشعراء ، فنجدهم في دعوة مستمرة إلي التأمل وإعمال الفكر في مخلوقات الله الفاتنة ، وهذه الدعوة نابعة من اشتغالهم في العلوم الشرعية والفقهية ، حيث إنّ مصدري الشريعة الإسلامية يحثان دائماً على التفكير في مخلوقات الله في كونه ؛ ليتكشف لنا مقدره المولي عزّ وجلّ . وتفوح أشذاء العفة والنقاء في أشعار الفقهاء الغزلية ، فعندما مارس الفقهاء هذا الغرض نجدهم مارسوا فيه اللون المعنوي أكثر من المادي، فكشفوا بذلك لنا عن أحاسيسهم الرقيقة ، وما يحملونه من حب طاهر وعفيف لايخدش من مكانتهم الفقهية ، وإن كان منهم من مارس اللون الثاني منه ونقصد به الغزل المادي أو الحسي ، فهو قليل نادر وقلما نجد لهم شواهد فيه . وعموماً هذا اللون يمكن أن نقول إنه لايمثل حياتهم الخاصة في شيء وقد اعترف منهم بذلك ، وكان هذا من قبيل الإحماض والترفية عن النفس ومحاولة مواكبة وتقليد غيرهم من الشعراء .

وفي غرضي الزهد والوعظ والنصح نجد إشارات واضحة لأنماط السلوك التي ألتزم بها الفقهاء ، فهم في نفور دائم من الدنيا ومفاتنها، لإيقانهم أنها دار زوال وفناء ، فأحبوا من خلال نماذجهم في هذين الغرضين أن ينبهوا ويذكروا المسلمين بحقيقة هذه الدنيا ؛ ليبتعدوا عنها وعن زخرفها، ويأخذوا بحذرهم منها ، حيث إن من يجري وراءها لايجد سوى الخسران، فعليهم إذن أن يتزودوا للآخرة باتباع أوامر المولي سبحانه وتعالى واجتناب نواهيه .

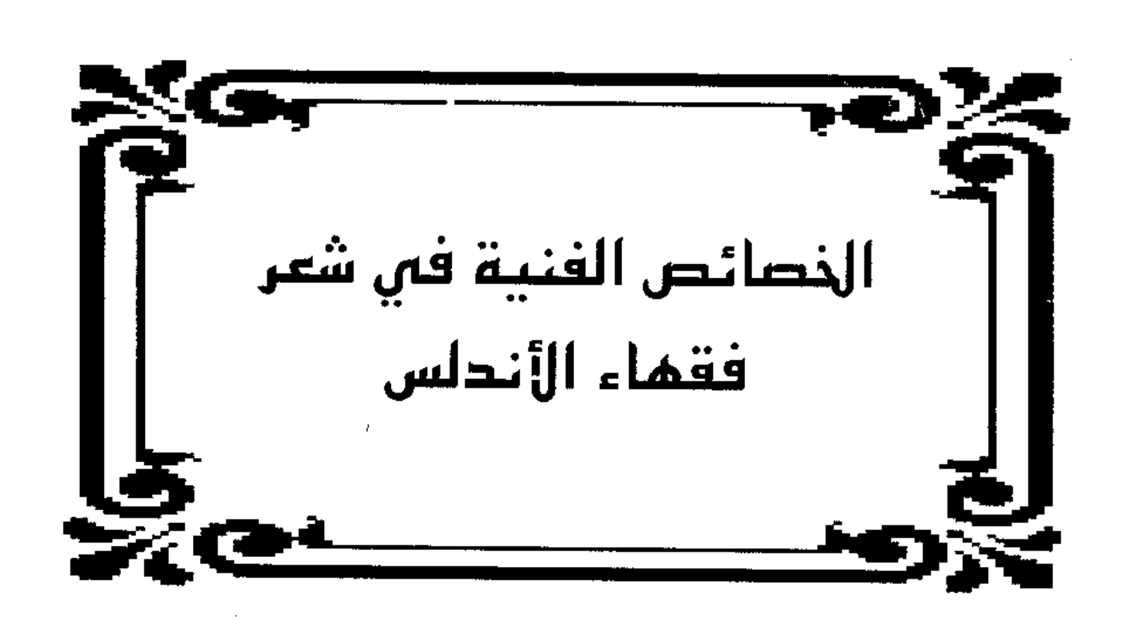
وفي الإخوانيات تكشف لنا أشعارهم عن أخلاقيات هؤلاء الفقهاء ، وحسن علاقتهم بمن حولهم من الإخوان والأصدقاء ، مما ينم عن روح تشبعت بتعاليم الشريعة الإسلامية في حثها علي الترابط والتواصل بين الإخوة المسلمين .

أمّا غرضي الهجاء والفخر فهما من أقل الموضوعات الشعرية تناولاً عندهم ، لما فيهما من خروج عما ألفناه منهم في تمسكهم بالشريعة الإسلامية، لذلك عندما تناولوه اختلفوا فيه عما صدر من غيرهم و، فالهجاء عندهم كان الهدف منه هو نقد بعض انحرافات المجتمع من حولهم بإبراز عيوبه لتتم المعالجة بتصحيح سلوكيات هذا المجتمع وفق الشريعة الإسلامية الغراء ، لذلك لم نجد فيه تعرضاً لحرمات المسلمين أو محاولة الانتقاص من إخوانهم في الدين .

وأما الفخر فما وجدنا فيه غير الفخر بانتسابهم للعلم والتفوق فيما اعتنوا به من العلوم الشرعية والإسلامية .

فحري إذاً أن لا نظلم الفقهاء ونعد شعرهم بأقل من شعر غيرهم من الشعراء ، فإن أخفقوا في بعض أشعارهم ، فغيرهم من الشعراء وقعوا في ذلك ، وإن أبدعوا فهم كغيرهم ممن عاشوا في عصرهم .





الخصائص الفنية في شعر فقهاء الأندلس

• بعد الدراسة المفصلة السابقة لأغراض شعر فقهاء الأندلس - عصري الطوائف والمرابطين - يجدر بنا أن نلقي الضوء علي خصائص هذا الشعر من الناحية الفنية وسماته التي تميز بها ؛ لنعرف إذا ما كان يتشابه مع سمات وخصائص شعراء عصرهم ، أم أنه اتخذ منحًى آخر .

أولاً - اللغة والأسلوب :

اللغة هي الأداة التي يستطيع الشاعر بها التعبير عما يحول في خاطره، وهي وسيلته في تصوير انفعالاته وعواطفه، بوضعها في قالب شعري يخدم فكرته ، لذلك تعد اللغة وسيلة الأديب للتعبير والخلق ، وهي المادة الخام التي يجعل منه كائناً ذا ملامح وسمات ، وذا نبض وحركة وحياة يحمل صورة ، كما يحمل الحجر صورة نابضة لمثال بارع ، فكذلك اللغة في يد الشاعر أو الكاتب قادرة على أن تحمل صورة نابضة حية(١).

فالأدب الجيد هو الذي يكشف لنا عن اهتمام صاحبه بألفاظه وحسن استخدام هذه الألفاظ في مواقعها الصحيحة التي تتلاءم فيما بينها وبين المعنى المراد التحدث عنه بحيث يصل إلى أذهان القراء والسامعين ، ومن ثم يؤثرعلى نفوسهم .

وحين نتتبع شعر فقهاء الأندلس نجد أنه - بصفة عامة - يتسم بسهولة ألفاظه ، ووضوح معانيه ، فالألفاظ سلسة تبعد كل البعد عن الإغراب أو الوحشية ، والتراكيب بسيطة لاتعقيد فيها ولا قلق ، وذلك عائد إلى طبيعة بيئتهم الأندلسية ذات الحضارة والرفاهية ، لذلك غدت ألفاظهم وتراكيبهم مع

---

(١) محمد زكي العشماوي / قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، (بيروت - دار النهضة العربية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) ص ٤١ .

شعراء عصرهم تعكس تلك الحضارة وتلك الرفاهية في أشعارهم ، ومن أمثلة شعر الفقهاء التي نتلمس فيها رقة الألفاظ وسلامتها قول أبي الوليد الطرطوشي :(١)

أُقَلِّبُ طَرْفي في السّماء تَردُّداً
لَعلِّي أرى النَّجْمَ الذي أنْتَ تَنْظُرُ

وأستعرضُ الرُّكْبان من كلِّ وجْهَةٍ
لَعَلِّي بمن قدْ شمَّ عَرْفَك أظْفَرُ

وأستقبِلُ الأرواحُ عند هُبُوبِها
لعَلَّ نيسمَ الريح عنك يُخَبِّرُ

وأمْشي ومَالي في الطريقِ مأربٌ
عَسَى نَغْمةٌ باسم الحبيبِ ستُذْكرُ

وألمحُ من ألقاهُ من غير حَاجَةٍ
عَسَى لمحةٌ من نور وجْهكَ تُسْفِرُ

فمن يتأمل هذه الأبيات يلحظ فيها بساطة التعبير وتدفقه ، فالألفاظ عذبة ، سهلة ، سلسة ، تعبر عن رغبة الشاعر في الالتقاء بمن يحب ، لذلك نراه يستخدم ألفاظاً وأساليب تشير إلى هذه الرغبة من مثل قوله : (لعلي أرى النجم الذي أنت تنظر) ، و (عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر) ، و (لعل نسيم الريح عنك يخبر) ، إلى غير ذلك من الأساليب والألفاظ التي كشفت عن شفافية مشاعر هذا الفقيه .

وتظهر أساليب الفقهاء الحزينة في أشعارهم الرثائية ، حيث استخدموا في مثل هذا النوع من الأغراض الشعرية ألفاظاً حزينة تنم عن

---

(١) نفح الطيب ٢/ص٨٥ .

أحاسيس ملتاعة ، ونمثل على ذلك بقول أبي الوليد الباجي في مرثيته التي رثى فيها ابنيه :(١)

رعَى اللّهُ قَلْبين اسْتكانا ببَلدةٍ
هما أُسْكِناها في السوادِ من القَلبِ

لئنْ غُيِّبا عن ناظري وتبوءا
فُؤادي لقدْ زادَ التَباعُد في القُربِ

وأبكي وأبكي سَاكنيها لعلّني
سأُنْجَدُ من صحبٍ وأسْعَد من سحبِ

فما ساعَدتْ ورق الحمام أخا أسًى
ولا رَوَحَتْ ريحُ الصّبا عن أخي كرْبِ

ولا استعذَبَتْ عيناي بعدهما كرًى
ولا ظمئتْ نَفْسي إلى الباردِ العَذبِ

لقد صاغ الشاعر بلغته الشعرية ألفاظاً وتراكيب تتلاءم مع النغمة الحزينة التي تئن بها نبضات قلبه المكلومة نحو (لقد زاد التباعد في القرب)، و (أبكي وأبكي ساكنيها) ، و (فما ساعدت ورق الحمام أخا أسى)، و (لا أستعذبت عيناي بعدهما كرىً) .

كما أن فتنتهم بالطبيعة جعلتهم يستخدمون ألفاظاً دالة عليها في أشعارهم مما يجعل النفس تهفو وتتطلع إليها ، ومن ذلك قول ابن حزم يصف إحدى الروضات :(٢)

ولمّا تروحنَا بأكنافِ رَوْضةٍ
مهدَّلةِ الأفنانِ في تُرْبِها النّدى

---

(١) الذخيرة مج١/ق٢/ص١٠١ .

(٢) طوق الحمامة / ص١٣٤ .

وقد ضَحكتْ أنوارُها وتضـوَّعتْ
أسـاورِها في ظـلٍّ فَـيْءٍ ممـدَّدِ
وأبدتْ لنا الأطيارُ حُسْنَ صَريفها
فمن بين شاكٍ شَجْـوَهُ ومغـرِّدِ
وللمـاءِ فيما بيـننا متـصـرفٌ
وللعـينِ مرتـادٌ هنـاك ولليـدِ

فأبيات الفقيه كما يلحظ تزخر بالألفاظ والأساليب الدالة علي سحر الطبيعة وحسنها ، وعلى تأثرهم بما شاهدوه من جمال من حولهم ، ومن الألفاظ والأساليب الدالة علي ذلك قول : (مهدلة الأفنان) ، و (ضحكت أنوارها وتضوعت) ، و (ظل فيء) ، و (أبدت لنا الأطيار) ، و (للماء فيما بيننا متصرف) .

وقد تؤدي السهولة أحياناً بأن تفقد اللغة شاعريتها فتقرب من لغة النثر، أو من لغة التخاطب اليومي ، ومن نماذج شعر الفقهاء التي وجدنا اللغة فيها وقد افتقدت شاعريتها ، قول ابن برد: [١]

يا كثيرَ الجفاءِ لـي ... ومُضـيعاً وسـائلي
طال حُبِّي ولـم تَفُزْ ... منكِ نفسي بِطَائلِ
أنتَ لي هاجرٌ وإن ... كنتَ في ثوبِ واصلِ

فلم نشعر من هذه الأبيات إلا بوزنها وقافيتها ، وما عدا ذلك فلا نشعر بشيء يتصل بالشعر ، فقد أفقدت لغة الشاعر شاعريتها ، ومن ثم لم نستطيع التواصل معها أو التفاعل ، ومن مثل هذا النوع قول أبي حفص الهوزني :[٢]

---

(١) الذخيرة مج١/ق١/ص٥٠٩ .
(٢) المصدر السابق مج١/ق٢/ص٨٩ .

صرّحَ الشرُّ فلا يستقلُّ ... إنْ نهلتُم جاء كم بعد علُّ

بدء صعقِ الأرضِ نشئَ وطل ... وريــاحٌ ثم غيمٌ أبلُّ

ومن الظواهر الأسلوبية التي لحظناها في شعر الفقهاء تأثرهم بالعلوم الشرعية التي تلقوها ، فوجدنا الاقتباسات من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، فهم لايفتأون يطعمون أشعارهم ببعض من هذين المصدرين الأساسيين للعقيدة الإسلامية ، ومن الأمثلة على ذلك قول أبي الوليد الباجي : (١)

وحاقَ بي ما جاءَ عن ربِّنا ... (ووجدوا ما عملوا حاضروا)

فالشطر الثاني فيه اقتباس من قوله تعالي : ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُوا حَاضِرا وَلاَ يَظْلِمُ رَبَّكَ أَحْدًا ﴾ (٢).

وكفوله أبي إسحاق الإلبيري :(٣).

وكُلّ صغيرٍ كان للّهِ خالصاً ... يربّى على ما جاءَ في الصدقاتِ

ففي البيت اقتباس من قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَيُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾.(٤)

وكقول ابن أبي الخصال :(٥)

قضاء من الرحمنِ ليسَ لـه ردٌّ ... وسكرةُ موتٍ ليس من وردِها بدٌّ

ففي البيت إشارة إلى قوله تعال : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ ﴾ (٦).

---

(١) المصدر السابق مج١/ق٢/ص١٠٤ .

(٢) سورة الكهف آية / ص٤٩ .

(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري /ص ٥١ .

(٤) سورة البقرة آية / ص٢٧٦ .

(٥) رسائل ابن أبي الخصال /ص ٢٤٦ .

(٦) سورة ق ، آية ١٩ .

ومن اقـتبـاسـاتهم من الأحـاديث النبـوية الشـريفـة قـول أبي حـفـض الهـوزني : (١)

يقـودُ امرءاً طَبْعٌ إلى علم شكله
كما انحـازت الأرواح وهي جنود

ففيه إشارة إلي قوله ﷺ : (الأرواحُ جنودٌ مـجندةٌ ، فـما تـعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف).(٢)

وكقول أبي الوليد الباجي في التحذير من التصوير : (٣)

تجـنَبْ بجهدِك ما صـوروا   وإنْ كانَ في سترٍ أو مُيثره
فإنّ الرسولَ عليه السّـلام   أحـقٌ العـذابَ لمن صـوره

فالبـيت فيه إشـارة إليحكم التصوير الذي قـال في شـأنه عليـه الصـلاة والسلام : (إن من أشد أهل الناس يوم القيامة عذاباً المصورون)(٤).

كما نجدهم يلتفتون إلى التراث الشعري ينهلون من ينابيعه ، فضمنوا شعرهم أشعار الشعراء من قبلهم من شعراء المشرق ، ونمثل على ذلك بقول أبي إسحاق الإلبيري :(٥)

لساء لتُ عنهم رَسْمَها فأجـابنِي
«ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللّـهَ ذَاهِبُ »

فيه إشارة إلي قول لبيد بن ربيعة :(٦)

ألا كُلّ شيءٍ ما خلا اللّـهَ باطِلُ   وكُلٌّ نعـيـمٍ لا محالـةَ زَائِـلُ

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق٢ /ص ٩٣ .
(٢) صحيح مسلم ٢/ص٤٩١ .
(٣) الذخيرة مج١/ق٢/ص١٠٣ .
(٤) صحيح مسلم ٤/ص٨٢٢ .
(٥) ديوان أبي إسحاق الإلبيري / ص٧٣ .
(٦) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ـ الطبعة الثانية ـ تحقيق د. إحسان عباس ، (حكومة الكويت ١٩٨٤م) ص ٢٥٦ .

وكقول أبي حفص الهوزني :[١]

خبرٌ ما جـاء نَا مُصْمئل[٢]   جـلّ حتى دقّ فيه الأجـلُّ[٣]

مأخوذ من قول تأبط شرّ :[٤]

خبـرٌ من نابـنَا مُصْمئل   جلَّ حتى دقّ فيه الأجـ ّ

وكقول ابن أبي الخصال :[٥]

فصـانَ الـذي شـادتــهُ آبـاؤه

وأغْنَى الذي أغنُوا وسدَّ الذي سدُّوا

فيه تضمين لقول الحطيئة :[٦]

أقْلـوا عـليـهم لا أبـا لأبيـكمْ

من اللّومِ أو سُدُّوا المكان الذي سَدُّوا

ومثل هذا الاستلهام من الموروث الشعري القديم وتضمينه أشعارهم يعطي إشارة على سعة اطلاع الفقهاء من الناحية الأدبية ، وعلى التصاقهم وإعجابهم بما تفتقت به قرائح الشعراء من قبلهم .

كما يدل تضمينهم للأمثال العربية على ارتباطهم بالتراث القديم ، وعلى حسن استخدامه في مواضعه ، ونمثل على ذلك بقول أبي الوليد الباجي :[٧]

من ينصبِ اللّيلَ ينـلْ راحـته   عند الصباحِ يَحْمد القومَ السُّرى

---

(١) الذخيرة مج١/ق٢/ص٩٠ .

(٢) مصمئل : شديد .

(٣) الأجلُّ : تأنيث الجُلّى ، وهو الأمر الجليل .

(٤) أبو تمام : ديوان الحماسة ، شرح أحمد بن محمد الحسن المرزوقي ـ الطبعة الثانية ـ نشره : أحمد أمين ، عبدالسلام هارون (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م)٢/ص٨٢٨ .

(٥) رسائل ابن أبي الخصال /ص ٢٥٤ .

(٦) ديوان الحطيئة : رواية وشرح ابن السكيت ـ الطبعة الأولى ـ تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) ص ٦٥ .

(٧) الذخيرة مج ١/ق٢/ص١٠٥ .

ففي الشطر الثاني ضمن الشاعر المثل العربي المعروف (عند الصباح يحمد القوى السرى)(١) بيته .

وكقول ابن أبي الخصال :(٢)

وشَبَّ عن الطوقِ المُعارِ فردَّهُ　　　وما اعتاضَ منه من شَبِيبته ردُّ

فالشطر الأول فيه تضمين من المثل القائل (شب عمرو عن الطوق)(٣).

وكقول السرقسطي : (٤)

وقد أتمت رجباً ، لم تَقْضِ حقًّا وجبا ، فهل رأيت عجباً

مثـل الحِـمَامِ الأسـرع ؟

فيه تضمين للمثل المعروف (عشْ رجباً تَـر عجبًا)(٥).

كما نجدهم يستخدمون بعضاً من المصطلحات الدينية والعلمية في أشعارهم، غير أن هذه المصطلحات لم تكن كثيرة بحيث تطغى على أشعارهم، كما قد يتوقع ، بل نجدها قليلة وتخدم الأبيات ، ونمثل على ذلك بقول الحميدي في ابن معين : (٦)

فإن صدَّ عن حكم الشهادة جاهلُ

فإنّ كتابَ اللّهِ فيه عتيدُ

ولولا رواة الدين ضاعَ وأصبحتْ

مَعَالِمُهُ في الآخرين تبيدُ

---

(١) عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري / فضل المقال في شرح كتاب الأمثال / تحقيق د. إحسان عباس ، ود. عبدالمجيد عابدين (بيروت : دار الأمانة ، مؤسسة الرسالة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م) ص٢٥٤.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص١٤٧ .

(٣) فصل المقال / ص١٢٥ .

(٤) المقامات اللزومية / ص٤٦٤ .

(٥) فصل المقال /ص٤٦٤ .

(٦) نفح الطيب ٤/ص٣٣٨ .

وكقول أبي الوليد الباجي :(١)

متى نزلوا ثاوينَ في الخيفِ من منًى
بدتْ للهوى بالمـأزمـينِ مخايـلُ

فللّهِ ما ضمـت منًى وشِـعَـابُها
ومـا ضمنتْ تلك الـرّبى والمنازلُ

ولمـا التـقـينا للجـمارِ وأبـرزتْ
أكفٌّ لتقـليب الحـصي وأنـاملُ

أسـرتْ إلينا بالغـرامِ محـاجـرٌ
وباحتْ بـه منـا جـسومٌ نـواحلُ

وقول السرقسطي : (٢)

كيـف تـرومُ ، ويحـكَ ائتـلافـا
وقـد نقضتَ العـهدَ والحلافَـا

فالعهد والحلف من المصطلحات الدينية ، ويستخدم ابن أبي الخصال بعضاً من مصطلحات فريضة الحج كما استخدمها من قبله الفقيه أبو الوليد الباجي، فيقول : (٣)

تَعجَّلْ النَّحْـرَ فيهمْ قَبْلَ موسمِه
وقدَّم الهَـدْيَ منهم كل ذي نُسُكِ

ويستخدم أبو عبيد البكري بعضاً من مفردات النحو ، فيقول : (٤)

وما زالَ هذا الدهرُ يلحقُ في الورى
فيـرفـعُ مجـروراً ويخـفضُ مبـتدا

(١) الذخيرة مج١/ق٢/ص١٠٢ .

(٢) المقامات اللزومية / ص٣٣٣ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٥٤ .

(٤) الذخيرة مج ١/ق٢/ص٢٣٨ .

كما استخدم الفقهاء بعضاً من المفردات الفلكية في أبياتهم الشعرية ، ونمثل على ذلك بقول ابن حزم :[١]

لــو عــاش بطليموسُ أيقـن أنّني
أقوى الورى في رَصْدِ جَرْيِ الكُنَّسِ

وكقول أبي الوليد الباجي :[٢]

اسْـتقرِبُ الهـدفَ البعـيدَ بهمةٍ
أدنَى منــازِلـها السُّها والفـرقـد

ويقول ابن العربي : [٣]

ولم يرض بالأرض البسيطة مَسْحباً
فصارَ على الجوزاءِ إلى فَلَكٍ يَسْرى

ويقول السرقسطي : [٤]

يفوق الغـفرُ والسِّماكان منـه
ولثــور البـــروجِ مــنــه خُــوارُ

<<< >>>

(١) ر سائل ابن حزم ١/ص١٠٩ .
(٢) الذخيرة مج١/ق٢/ص١٠٠ .
(٣) مطمح الأنفس / ص٢٩٩ .
(٤) المقامات اللزومية /ص ٢٩٥ .

ثانياً ـ المعجم الشعري :

المعجم الشعري عبارة عن (مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها)(١) ، وهو (قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبرة)(٢).

لا شك أن لكل شاعر من الشعراء معجمه الشعري الخاص به ، والذي يلحظ في أغراضه الشعرية يتبلور وفقاً لخياله وتصوراته .

وإذا تأملنا المعجم الخاص للفقهاء في شعرهم وجدناه متنوعاً يسترفد من ثقافاتهم ومعارفهم المتنوعة ، وإن غلبت في معجمهم الألفاظ الشرعية ، والألفاظ المستمدة من طبيعتهم .

ففي غرض المدح نجد معجمهم ينحصر في المفردات الدالة على القيم والأخلاق التي حث عليها ديننا الإسلامي من مثل : السماحة ، الندي ، الحلم العرفان ، الثناء ، قمع الضلالة ، المكارم ، المجد ، الغيث ، السحاب ، إمام الدين ، الشهاب .

وفي غرض الجهاد شاع فيه بعض المفرات من مثل : آمال ، الثواب ، الداء ، الجيوش ، جنود ، الله ، البطش ، السيف ، الرماح ، النصر، الدماء ، العيث .

وفي الرثاء نجد :النعى ، الخطب ، الدموع ، البكاء ، القبر ، الصبر الجزاء ، الأحباب ، الرزء ، المصاب ، الردى ، العزاء ، الرحمة ، الدهر، الأيام ، البشرى .

وفي الغزل نجد : الجمال ، الحسن ، الهجر ، نضرة ، الجفاء ، النوى ، الحب ، الهوى ، القلب ، الصبر ، الصبابة ، قمر ، الحسرة .

---

(١) أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ـ الطبعة الثالثة ـ (القاهرة : عالم الكتب ١٩٩٢م) ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق .

وفي الوصف : التبر ، الفضة ، الماء ، الجداول ، الشمس ، السحاب ، الغمامة ، الورد ، الأزهار ، النشر ، الغصون ، النسيم ، الرياح ، النجوم ، النهر ، البحر ، النرجس .

وفي الزهد : الموعظة ، الدنيا ، القرآن ، الغرور ، الموت ، الفتن ، ترك الملذات ، الفناء .

وفي الوعظ والإرشاد : اغتنم ، اتبع ، اتعظ ، الفناء ، المفتر بالله ، اتل، اعمل ، تجاف ، تقوى الله ، الغفلة ، النصح ، الدنيا ، الخداع .

وفي الفخر : افخر ، العلوم ، كتاب الله .

وفي الإخوانيات : سلام ، الحنين ، الشوق ، الشيم ، الثناء ، روضة الأنس ، المودة ، الوداد ، إخوان .

وفي الهجاء : فاسق ، سخيف ، سفيه ، الجهل .

وهكذا يلحظ شيوع المفردات الدينية ، والمستمدة من البيئة الطبيعة من حولهم في أشعار فقهاء الأندلس ، كما يلحظ قلة شيوع بعض الألفاظ ووفرة بعضها تبعاً لغرض شعري دون آخر .

<<< >>>

ثالثاً - الصورة الشعرية :

تعد الصورة من الوسائل المهمة للتعبير عن التجربة الشعرية ، فهي حياة القصيدة ونبضها ، وبدونها تصبح القصيدة جامدة لاروح فيها ولا معنى. ذلك أن التصوير هو التعبير (بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية). (١)

وبما أنّ الصورة تعد هيكل العمل الفني ، فلا شك إذاً أن فقهاء الأندلس قد اهتموا بها وأولوها عنايتهم ، فأكثروا من التشبيهات والاستعارات والكنايات ، وهذا ما يدخل في نطاق الصور البيانية .

وتصوير الفقهاء عندما ننظر فيه نجد أنه ينبع من عدة ينابيع ، فهي إما صور مستقاة من الموروث القديم ، أو من البيئة المحيطة بهم ، أو من خيالهم الخصب ، فمن صورهم التي أخذوها من التراث الأدبي القديم ، ولم نجد فيها جديدا، قول أبي الوليد الباجي في مدح القاضي السمناني :(٢)

هـذا الشهابُ المسْتَضاءُ بنورِه
عَلَمُ الهدى هذا الإمامُ الأوحدُ

وكقول أبي عبيد البكري : (٣)

يُذَكــرنا ذاك العُـبابُ إذا طـمى
ندى كَفِّك الهامي على القُربِ والبعْدِ

وكقول ابن برد في الغزل : (٤)

---

(١) سيد قطب التصوير الفني في القرآن ، الطبعة التاسعة (القاهرة : دار المعارف) ص ٣٤ .
(٢) الذخيرة مج ١/ق٢/ص٩٨ .
(٣) المصدر السابق مج ١/ق١/ص٢٣٨ .
(٤) المصدر السابق مج١/ق١/ص٥١٠ .

قَدْ صادَ قلبي قمرٌ يُسْحَرُ منه النظرُ
بوجنةٍ كأنّما يقدحُ منها الشررُ

وكقول ابن أبي الخصال في رثاء أخيه يشبهه بالعارض المتهلل : (١)

يا واحداً عمَّ الجميعَ مصابُهُ ما كنتَ إلاّ عارضاً متهللاً

وهناك الكثير من الصور التي استقاها الفقهاء من تراث الشعر العربي القديم ، وذلك راجع إلى قراءات الفقهاء وسعة إطلاعهم على الموروث الأدبي العربي ، وهذا أمر طبعي إذ لايمكن للشاعر أن ينفصل عن جذوره القديمة ولا بد له أن يتأثر بها .

ويتأثر الفقهاء بما حولهم من البيئة الطبيعية الخلابة ، فجاءت صورة تنطق بما يدور في هذه البيئة ، حيث أجال الفقهاء فكرهم فيما حولهم ، فأخذوا صورهم من طبيعتهم الساحرة والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة ، نذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر قول ابن حزم في تشبيه خطو محبوبته بقضيب نرجسة يتمايل بهدوء : (٢)

كأنّها حين تخْطو في تأودها
قضيبُ نرجسةٍ في الروضِ ميّاسُ

ويقول الحميدي في تصنيفه للناس : (٣)

النّاسُ نَبْتٌ ، وأربابُ القلوبِ لهم
روضٌ وأهلُ الحديثِ الماءَ والزهرُ

ويشبه أبو عمر الباجي أناة وحلم ممدوحه بالأرض التي تطلع سوسناً وقتاداً :(٤)

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٥٧ .
(٢) طوق الحمامة / ص٩٢ .
(٣) نفح الطيب ٤/ص٣٣٧ .
(٤) الذخيرة مج١/ق٢/ص١٩٩ .

وأنـاة حـلمٍ في إبـاء حفـيظـةٍ
كالأرضِ تُطْلع سَوسناً وقَتَادَا

ويصف ابن أبي الخصال يداً مدت إليه المدامة بزهر السوسن الأبيض الذي يحمل وردة حمراء ، فيقول : (١)

مـدّ بحـمراءَ من مدامـته بيضاءَ كفًّا، مسْكيَّة العبقِ
فَـخِـلْتها وردةً منعـمـةً تُحْمل من سوسنٍ على طبقِ

ومن صور الفقهاء المستمدة من الأحجار الكريمة المنتشرة في البلاد الأندلسية ، ما نراه في قول ابن برد :(٢)

تأمّـل فـقـد شَـقَّ البـهارُ مغـلّساً
كمائمه عـن زهرهِ الخَضِلِ النّدى
مـداهـنُ تـبـرٍ في أنـامـلَ فـضـةٍ
على أذرعٍ مخـروطـةٍ من زبـرجـدِ

وكقول ابن حزم في شعر محبوبته :(٣)

يعيبُونها عندي بشقرةِ شَعْرِها
فقلتُ لهم هذا الذي زانَها عـندي
يعيـبُون لونَ النـورِ والتبرُ ضَـلَّـةً
لرأى جـهـول في الغـواية ممتـدِ

ومن صورهم المستمدة من معارفهم الشرعية قول أبي إسحاق الإلبيري يحذر من مخالطة الناس ومزايلتهم ؛ بأن يكونوا كالسامري لايماس الناس ولا يمسوه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى قصة السامري إذ يقول المولي سبحانه وتعالى في عقابه له : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص ٦٥١ .

(٢) الذخيرة مج ١/ق١/ص٥١٩ .

(٣) طوق الحمامة / ص٥٠ .

لَامِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفاً ﴾[١].

فلنسمع من أبي إسحاق يقول في ذلك محذراً من مخالطة الناس :[٢]

وخالطـهمُ وزايلهمْ حـذاراً   وكن كالسامري إذا لَمَسْتَا

ويتـأثر ابن أبي الخـصـال بقـوله تعـالى : ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرتْ﴾[٣]. فيشبه انقضاض جنود المسلمين علي الأعداء بالنجوم المتناثرة من السماء علي الأرض ، وذلك من خلال مدحه لتاشفين بن علي :[٤]

من كلّ مبتدرٍ كالنّجـمِ مُنْـكدرٍ
تفيضُ أنفسهم غيظاً من المُسكِ

وكقوله من القصيدة نفسها مستحضراً صورة من صور الحج في النحر وتقديم الهدي : [٥]

تعجّلْ النحرَ فيهم قبل موسـمه
وقدّم الهَدْيُ منهم كل ذي نُسُكِ

ومن صورهم المستمدة من خيالهم الخصب الصورة التي وجدناها في إحدى قصائد ابن الجد يصف فيها قصيدة وصلته من أحد الأدباء فمدحها وأُضفي عليها محاسن العروس ، إذ يقول في بعض منها : [٦]

لئـن راقَ مرأى للحسانِ ومسـمعُ
لحسنْاؤكَ الغـرّاءُ أبهـى وأمتعُ

---

(١) سورة طه آية ٩٧ .
(٢) ديوان أبي إسحاق الإلبيري/ ص٣٢ .
(٣) سورة التكوير آية / ٢ .
(٤) رسائل ابن أبي الخصال /ص٦٥٤ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) الذخيرة مج١ /ق٢/ص٣١٨ .

عروسٌ جلاها مطلعُ الفكرِ فانثنتْ
إليهـــا النجــومُ الزهــراتُ تَطَلَّعُ
زففتَ بهـا بكـراً تــأرَّحَ طيـبها
وما طـيـبها إلاّ الثـناء المضـوّعُ
لها من طراز الحُسْنِ وشي مهلهل
ومن صيغة الإحسان تاج مرصّعُ

ويصف عبد الحق المحاربي فحماً اشتعلت فيه النار ، فيقول : (١)

فكأنّه ليلُ تفجَّــرُ فجــرُهُ   نهــراً فكانَ على المقام نَهارا

وكقول ابن أبي الخصال يصف نار فحم : (٢)

أما ترى النـارَ وهــي راقـصةٌ   تَنْفُضُ أردانَها من الطّــربِ
تَضْحك من آبنُوسِـها عَـجَـباً   إذْ حَـوَّلـتْ عَيْنَهُ إلى الذّهــبِ

ويلحظ أن صور الفـقـهاء المسـتمدة من خيـالهم قليلة ، وذلك عـائد إلى انشغالهم بالعلوم الشرعية والتأليف فيها .

- الكــنــايــة :

ومن الآليات البيانية التي وجدناها في شعـر الفقهاء (الكناية) ، وهي : (أن يكني عن الشيء ويعرض به ولا يصرح) (٣).

ومن أمثلة الكنايات التي وجدناها منثورة في شعر الفقهاء قول ابن حزم في حركة النجم البطيئة : (٤)

تخالهُ مخطِئاً أو خائِفاً وَجِلاً   أو راقباً مَوعداً أو عاشقاً دَنِفا

---

(١) قلائد العقيان ٣/ص٦٦٩ .
(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص٦٣٧ .
(٣) أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سـهل العـسكري، كتاب الصـناعتين - الطبعة الأولى - تحـقيق : د. مفيد قميحة (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م) ص ٤٠٧ .
(٤) طوق الحمامة / ص١٢٨ .

وكقول أبي إسحاق الإلبيري في مدح ممدوحه بالكرم : [١]

وما كنتَ إلاّ الغيث طبّق نَقْعه

وسدّ خَصاص الأرضِ من وبلِه سدُّ

وكقول أبي الوليد الباجي في مدح ممدوحه - أيضاً - بالكرم : [٢]

عالي محلّ النارِ في كلبِ الشّتا

إذ بالحضيضِ لغيره مُسّتوقدُ

وكقول أبي عمر الباجي في مدح ممدوحه بالشجاعة والبسالة الحربية :[٣]

أزرتُهما بحرَ الكتائبِ مُزبداً

فألقت عنانَ الطوعِ رَضْوى وصنبرُ

<<< >>>

---

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري / ص٧٠ .

(٢) الذخيرة مج١/ق٢/ص٩٩ .

(٣) المصدر السابق مج١/ق٢/ص١٩٧ .

رابعاً - الموسيقي الشعرية :

من العناصر المهمة والأساسية في بناء القصيدة الشعرية (الموسيقي)، فهي (ذلك التوقيع المنتظم الذي نحسه في كلمات البيت ، أي نظام الكلمات مراعي فيها التماثل والتكرار ، فالوزن والإيقاع الشعري يحصل نتيجة تلاقي مجموعة من أصوات الحروف وتناسقها علي اختلاف درجاتها الصوتية ، فتحدث وحدات تتكرر ، فيحدث منها الوزن في البيت ، ثم في القصيدة ، وأي إخلال في الإيقاع هو إخلال بموسيقي الشعر . [١]

فالقصيدة بدون ذلك الإيقاع لاتعد قصيدة ، فهو جوهر الشعر وأساسه ، والشاعر البارع هو الذي يمتلك الوسائل والطرق للوصول إلى طريق الإبداع النغمي مما يؤثر في نفوس السامعين فيما بعد ، إذ أن (الموسيقي تجعلنا نحس بجمال الشعر وروعته ، إذ تمنحه مظهراً من العظمة والجلال فتصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعها ، ولذلك لم تكن حلية طارئة أو زينة مستجلبة، بل هي عنصر هام ولازمة في إقامة البناء الشعري)[٢].

ومن الوسائل والطرق التي استخدمها فقهاء الأندلس في شعرهم لإثارة حركة النغم الموسيقي في أبياتهم الشعرية استخدامهم للترصيع ، والجناس ، والتصريع ، والتكرار . وهذا ما يمكن أن نسميه بـ (الموسيقي الداخلية) ، أي التي تحدث داخل الأبيات الشعرية .

- الترصيع :

وهو (أن يكون حشو البيت مسجوعاً)[٣]. ومن نماذج شعر الفقهاء في ذلك قول ابن حزم : [٤]

---

(١) بسيم عبدالعظيم عبدالقادر إبراهيم/ شعر الأسر والسجن في الأندلس ، جمع وتحقيق ودراسة ، الناشر (القاهرة : مكتبة الخانجي ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ، ص ١٩١ .

(٢) شعر بني أمية في الأندلس / ص٢١٣ .

(٣) الصناعتين / ص٤١٦ .

(٤) طوق الحمامة / ص٩١ .

فبـتُ مُشْـترطاً والود مخـتلطاً
والوصلُ مُنْبسطاً والهجرُ مُنْقَبِضَا

وكقول أبي عمر الباجي : (١)

وبيضُ الطبعِ مَصْلتها بـروقَـا
وصُفـر النّبعِ مُقْدِحَـها شَـرارَا

وكقول ابن أبي الخصال :(٢)

فَطاعِنُوكم بأرماحٍ وما طـعنتْ
وضاربوكم بأسيافٍ ولم تحكِ

ـ الجـناس :

كـمـا اسـتـخـدم الفـقـهـاء في شـعـرهم (الجناس) ممـا أعطى شـعـرهم مـوسـيـقي داخليـة انبـعثت من تـآلف الألفـاظ وتقاربهـا ، فـجعلت تهز نفـوس السامعين ، ومن أمثلتهم على ذلك قول أبي الوليد الباجي :(٣)

حتى علاني الشيبُ قبل تحلّمٍ　　وأبرّ ما سبق المشيبَ المولِدُ

وكقول أبي عمر الباجي :(٤)

أنارتْ لـك الدنيا ووجهك أنورُ　　وجلتْ عطايَاها وقَدْرُكَ أكبرُ

وكقول أبي القاسم بن الجد :(٥)

لئن راقَ مرأى للحسانِ ومسـمعُ
لحسَنْاؤكَ الغـرّاءُ أبـهـى وأمـتعُ

---

(١) المصدر السابق مج ١/ق٢/ص٢٠٠ .
(٢) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٥٤ .
(٤) المصدر السابق مج١/ق٢/ص١٠٠ .
(٤) المصدر السابق مج١/ق٢/ص١٩٧ .
(٥) الذخيرة مج١/ق٢/ص٣١٨ .

وكقول أبي عمر بن عبد البر :[١]

كم ذا الوقفُ ولم تقفْ في منسك
كم ذا الطواف ولم تَطِفْ بحريم

وكقول ابن العربي :[٢]

وحثّ مطايَا قد مطاهَا بعزَّة
فأوطأها قسراً على قنة النّسْرِ

ـ التصريع :

وهو (تصيير مقطع آخر المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها).[٣]

فقد أدرك الفقهاء كما أدرك من قبلهم الشعراء ما لابتداءات القصائد من أهمية في إثراء الحركة الموسيقية ، فاعتنوا بمطالع قصائدهم ومقطعاتهم وحرصوا على فتحها بما يطرب أذن السامع حتى يستجيب للقصيدة ، ومن الأمثلة على ذلك من شعر فقهاء الأندلس قول أبي الوليد الباجي :[٤]

الحمدُ للّــهِ ذي الآلاء والنعـمْ   ومبدعِ السّمع والأبصارِ والكلمْ

وكقول أبي إسحاق الإلبيري : [٥]

تفتُ فؤادَكِ الأيامُ فتاً
وتَنْحتُ جَسْمَكَ الساعاتُ نَحْتا

---

(١) نفح الطيب ١/ص٥٠٥ .
(٢) مطمح الأنفس / ص٢٩٩ .
(٣) قدامة بن جعفر / نقد الشعر ـ الطبعة الثالثة ـ تحقيق كامل مصطفى ، الناشر (القاهرة : مكتبة الخانجي) ، ص ٥١ .
(٤) الذخيرة مج١/ق٢/ص١٠٤ .
(٥) ديوان أبي إسحاق الإلبيري / ص٢٥ .

وكقول ابن عبد البر:[١]

بعوضٌ قبتور والقبطيل والشرفِ

قد آذنتْ بذهاب النّفسِ والتلفِ

وكقول ابن أبي الخصال : [٢]

هب النسيمُ هبوبَ ذي إشفاقِ

يُزْهى الهوى بجناحِهِ الخفَّاقِ

ـ التكرار :

ومن الوسائل الفنية التي تساهم في تحقيق النغمة الموسيقية في الشعر (التكرار) ، وهو ترديد بعض الألفاظ في البيت ، أو في لقصيدة ينتج عنه إيقاع موسيقي رنان ، ومن نماذج التكرار عند الفقهاء قو أبي إسحاق الإلبيري في إحدى قصائده الزهدية ، حيت ختم كل بيت من أبيات قصيدته بلفظه (النّار) بغية الترهيب والتوعيد : [٣]

ويلٌ لأهلِ النّارِ في النارِ ماذا يقاسُون من النّارِ

تنقدُّ من غَيْظٍ فتعتلي بهم كمرجلٍ يُغلي على النّارِ

وكقول أبي عبيد البكري : [٤]

فَجُرْنا أجاجَ البحرِ نَبْغي زُلالَه

وذُقْنا جنَى الشريانِ نَبْغِي جنَى الشّهْدِ

وقع التكرار في الفصل (نبغي) في شطر البيت .

---

(١) بهجة المجالس ٢/ص١٠٥ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٥٤ .

(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري / ص٨٥ .

(٤) الذخيرة مج ١/ق٢/ص٢٣٧ .

وكقول ابن عبدالبر : [١]

عَفتِ المنازلُ غير أرسم دِمْنة
حييتُها من دمنةٍ ورسوم

فالتكرار واقع في (دمنة) في الشطرين .

وقد يقع التكرار في ترديد بعض الحروف في البيت نفسه مما يزيد في موسيقي البيت ، ومن ذلك قول الفقيه ابن العربي : [٢]

ولم يرضَ بالأرضِ البسيطةِ مُسْحبا
فصارَ على الجوزاءِ إلى فَلكٍ يَسْري

فقد كرر الفقيه حرف السين ثلاث مرات ، والسين كما هو معروف حرف موسيقي يحدث إيقاعاً موسيقياً بعينه .

وكقول أبي القاسم بن الجد : [٣]

سَرى الكبرُ في نفسي بها ولَرُبَّما
تجانفَ عن حَسْرى ضرائبي الكبرُ

فقد ردد الفقيه حرف السين كذلك وذلك في الكلمات التالية (سرى ، نفسي ، مسرى) .

وكتكرار ابن عبدالبر لحرف الهاء في قوله : [٤]

تَعَفُّفُ المرءُ عن سُؤَالِهِ وكسْبُهُ الحِلَّ باحْتِيَالِهِ

فتكرار الهاء أكثر من مرة مع ما في البيت من تصريع ، أحدث في البيت إيقاعاً موسيقياً ملحوظاً .

---

(١) نفح الطيب ١/ص٥٠٥ .

(٢) مطمح الأنفس / ص٢٩٩ .

(٣) الذخيرة مج١/ق٢/ص٣٢٠ .

(٤) بهجة المجالس١/ص١٦٥ .

ـ البحور والأوزان :

إن أهم ما يميز الشعر عن الكلام المنثور وجود الأوزان فيه وإقامته على البحور العروضية المعروفة ، فبدون هذه الأوزان لايمكن أن نطلق عليه شعراً، ولايمكن أن نفرقه عن النثر ، لذلك يعد الوزن من أهم أركان الشعر ودعائمه التي يقوم عليها ، ومبعث التأثير في نفوس السامعين ، لما ينطوي عليه من الجرس والإيقاعيات الترنيمية .

وفقهاء الأندلس كغيرهم من الشعراء نظموا قصائدهم ومقطعاتهم على أوزان وبحور عروضية معروفة في أدبنا العربي ، فنظموا فيها ما نظمه شعراء عصرهم ، والشعراء من قبلهم سواء في الأوزان الطويلة أو القصيرة منها. غير أن البحر الذي تصدر قصائد الفقهاء وأخذ بلبهم كان البحر (الطويل)، فقد جاءت أغلب قصائدهم علي هذا البحر ، وقد نظم في هذا البحر ما يقرب من ثلث الشعر العربي ، فهو الوزن الذي كان يؤثره القدماء على غيره ، ويتخذونه ميزاناً لأشعارهم ، ولاسيما في الأغراض الجدية الجليلة الشأن[١]. ومن أمثلة شعر الفقهاء مما جاء على وزن هذا البحر قول الفقيه ابن حزم:[٢]

يعيبُونها عندي بشقرةِ شَعْرِها
فقلتُ لهم هذا الذي زانَها عندي

يعيبُون لونَ النورِ والتبرِ ضِلةً
لرأى جهول في الغواية ممتدِ

وهل عاب لون النرجس الغضِّ عائب
ولون النجوم الزاهرات على البُعد

---

(١) د. إبراهيم أنيس ، موسيقي الشعر ـ الطبعة السادسة ـ ، الناشر (مكتبة الأنجلوا المصرية ١٩٨٨م)، ص ١٩١ .

(٢) رسائل ابن حزم ١/ص١٣٢ .

وكقول ابن أبي الخصال يرثي ابنه عبدالملك : (١)

رُزئت بِمَنْ لا أملكُ العينَ بعدَهُ
ففي كُلِّ ما حين لها عَبْرةٌ تَتْرى

وإنّي لأنساه ذُهولاً وحَيْرةً
وما ذلك النسيان إلا من الذكرى

عدمتُ أبا مروان حين وجدتُهُ
ولم تبقَ في يُسْرى خلائقهِ عسرا

ثم يلي البحر الطويل في نسبة شيوعه عند الفقهاء البحر (البسيط)، وهو يعد مع البحر الطويل من أطول بحور الشعر العربي ، وأعظمها أبهة وجلالة ، وإليهما يعمد أصحاب الرصانة ، وفيهما يفتضح أهل الركاكة والهجنة ، غير أن الطويل أفضلهما وأجلهما ، وهو أرحب صدراً من البسيط وأطلق عناناً ، وألطف نغماً.(٢)

ومن أمثلة شعرهم علي وزن البسيط قول أبي محمد عبدالحق بن عطية المحاربي :(٣)

ولَيْلَةٍ جُبْتُ فيها الجَزْعُ مُرْتَديا
بالسَّيْفِ أسْحَبُ أذْيالاً من الظُّلَمِ

والنَّجْمُ حَيْرانُ في بَحْرِ الدّجَى غَرِقٌ
والْبَرْقُ في طَيْلَسَانِ اللّيلِ كالعَلَمِ

كأنّما اللّيْلُ زنجيٌّ بكاهله
جُرْحٌ فَيَثْعَبُ أحياناً له بدَمِ

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص٦٤٥ .

(٢) عبدالله الطيب ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ـ الطبعة الثانية ـ (بيروت : دار الفكر ١٩٧٠م) ، ١/ص٣٦٢ .

(٣) قلائد العقيان ٣/ص٦٥٦ .

وكقول أبي الفضل بن الأعلم : (١)

أصِخْ لواعظِ شَيْبٍ لاح مُرْشِدُهُ
في الغيِّ كالصُّبْحِ في إدْبار غَيْهبِهِ

هَبْكَ اغْتَرَرتَ بَجِثْلٍ ناعمٍ رَجِلٍ
يَلْهو بحالكِهِ حيناً ومَذْهَبِهِ

تَنَازَعَ الرَّأْيَ في تفضيله أُمَمٌ
فَكُلُّهُمْ عاضِدٌ فيه لِمذْهَبِهِ

ثم يلي هذين البحرين في الشيوع عند فقهاء الأندلس بحر (الكامل) ،. وهو (أكثر بحور الشعر جَلْجَلةً وحركات ، وفيه لون خاص من الموسيقا يجعله - إن أريد به الجدُّ - فخماً جليلاً مع عنصر ترنميّ ظاهر ، ويجعله إن أريد به إلى الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة ، حلواً مع صلصلة كصلصلة الأجراس ، ونوعٍ من الأبهة يمنعه أن يكون نزقاً أو خفيفاً شهوانياً)(٢).

ومن شواهدهم الشعرية على هذا البحر والتي أريد بها الجد؛ قول أبي الوليد الباجي يرثي ابنه محمد : (٣)

أمحمدُ إن كنتُ بعدَك صابراً صَبْرَ السَّليمِ لما بهِ لايسلمُ
ورُزِئْتُ قبلَك بالنّبيّ محمدٍ ولرزؤه أدهي لديّ وأعظمُ
فلقد علمتُ بأنّني بكِ لاحقٌ منْ بَعْد ظنِّي أنّني مُتقدِّمُ

ومن أبياتهم التي أريد بها الغزل نمثل بقول الفقيه أبي بكر غالب بن عطيه المحاربي :(٤)

---

(١) المصدر السابق ٣/ص٨٤٧ .

(٢) المرشد إلي فهم أشعار العربي وصناعتها ١/ص٢٤٦ .

(٣) الذخيرة مج١/ق٢/ص١٠١ .

(٤) قلائد العقيان ٣/ص٦٤٠ .

كَيْفَ السُّلوُّ ولي حبيبٌ هاجرٌ
قاسي الفُؤادِ يَسُومني تَعْذيبا
لمّا درى أن الخيالَ مُواصِلي
جَعَلَ السُّهادَ على الجُفون رقيبا

أضف إلى هذه البحور التي أحتلت الصدارة في شعر فقهاء الأندلس، نجد أنهم عالجوا أشعارهم في البحور العروضية الأخرى نحو : المتقارب، والسريع ، والخفيف ، والمنسرح والوافر ، ومخلع البسيط ، والرمل ، والمديد، والهزج ، والمتدارك ، والمجتث ، والرجز . أضف إلى مجزوءات البحور مثل : مجزوء الكامل ، ومجزوء الرجز ، ومجزوء الخفيف ، ومجزوء المديد .

وهكذا يلحظ أن الفقهاء قد شعروا بأهمية الموسيقي في إثراء النغمة في أشعارهم فأهتموا بها ، فجاءت أشعارهم وقد حققت الموسيقي الخارجية ويمثلها البحر الشعري ، كما حققت الموسيقي الداخلية متمثلة فيما وفروه من اختيارهم للألفاظ وتجانسها وما تحدثه من رنات تشدّ انتباه السامعين .

ويتبين لنا مما عرض سابقاً عن الظواهر الفنية التي اشتمل عليها شعر فقهاء الأندلس - عصري الطوائف والمرابطين - أنها لاتختلف عن الظواهر الفنية التي عرفت في شعر شعراء عصرهم ، والشعراء الذين من قبلهم ، مما يدفعنا إلى الاعتراف بإسهامهم في حركة الشعر الأندلسي خلال هذه الفترة .

* * *

الفصل الثاني

المنشآت النثرية في تراث الفقهاء

تمهيد :

لا شك أن الباحث في الأدب الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين لايخفى عليه مدى عناية حكام هذين العصرين بالأدب والأدباء الكتاب ، وهي عناية فاقت عنايتهم بأقرانهم من الشعراء ، ولاغرابة في ذلك ، فالكتّاب هم الطبقة المهيأة لكتابة خطابات الدولة ، وهم المتحدثون رسمياً باسم حاكم البلاد ، فطبعي أن ينالوا الحظوة والاهتمام أكثر من غيرهم ، ومن يستقرئ كتب التراجم الأدبية يجد عدداً كبيراً من أدباء هذين العصرين قد اشتهروا بالفصاحة والبيان والبلاغة ، ثبتت أسماؤهم وحفظ بعض من فصول ترسلاتهم . وكان أكثر هؤلاء الأدباء متصلين ببلاط الحكام ، فعنوا بهم أيما عناية ، وأغدقوا عليهم العطايا والجوائز رغبة في الإغراء واستقطاب أكبر عدد منهم ليزينوا بلاطهم السلطاني ويطرزوا رسائلهم الديوانية بما يتناسب مع مكانة الحكام ، فكان لهذا التنافس بين الطوائف أثره في بلاطهم الملكي وإحاطته بكوكبة من الأدباء الكتاب ، أضف إلى ذلك أن بعض هؤلاء الملوك كانوا محبين ، بل عاشقين للأدب مما زاد في العناية وإحاطة الرعاية بمن يقدم عليهم من الأدباء .

فهذا المعتمد بن عباد أحد ملوك إشبيلية - من حبه للأدب والأدباء ، نجد أنه (طلع في سمائه كل نجم متقد ، وكل ذي فهم متقد ، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان ، وغاية لرمي هدف البيان ، ومضماراً لإحراز خصْل في كل معنى وفصل .(١)

ومن هذه النجوم المتقدة التي طلعت في سمائه ثلة من الأدباء الكتاب منهم الوزير أبو عامر بن مسلمة ، وأبو بكر بن القصيرة ، وعبدالله بن عبدالبر، وأبو حفص عمر الهوزني ، وغيرهم كثير .

---

(١) قلائد العقيان ١/ص٥٢ .

وفي بلاط الأمير مجاهد صاحب دانية والجزائر عرف الكاتب أبو الأصبع ابن الأرقم ، وفي سرقسطة عند المقتدر بن هود أشتهر أبو عمر الباجي ، وفي بطليوس عند المتوكل بن الأفطس نجد الوزير عبدالمجيد بن عبدون ، وأبا بكر عبدالعزيز البطليوسي ، والوزير ابن قزمان .

وعندما ننتقل إلى العصر المرابطي نجد أن الاهتمام بالكتاب لم يقل أبداً عن العصر الذي قبله - عصر ملوك الطوائف - إن لم يكن ازداد ، فقد عرف الأمير يوسف بن تاشفين بحبه للفقهاء ورجال العلم والأدب ، فـ (اجتمع لـه ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار ، فممن كتب لأمير المسلمين يوسف ، كاتبُ المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة ، أحد رجال الفصاحة ، والحائز قصب السبق في البلاغة)[١] .

كما أن ابنه علياً قد حذا حذوه في رعايته الأدباء والكتاب ، فلم يزل (من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ؛ حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك ، كأبي القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب (ت٥١٥هـ)[٢]، أحد رجال البلاغة ، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطُرْنه ، وعبدالله بن أبي الخصال ، وأخيه مروان ، وأبي محمد عبدالمجيد ابن عبدون)[٣] .

وهناك عدد آخر من الكتاب انتشر صيتهم وذاع في العصر المرابطي كابن العربي ، وابن صارة الشنتريني ، وعبدالحق بن عطية ، وغيرهم كثير ممن وجدوا المنزلة العلية والحرية الأدبية إبان عصر المرابطين .

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب / ص٢٢٧ .

(٢) محمد بن عبدالله بن الجد الفهري ، من أهل التفنن في المعارف ، والتقدم ي الآداب ، والبلاغة ، له حظ من الفقه والتكلم في الحديث، وكان يُفتي ببلده لَبْله ، وكان فاضلاً حسن العشرة .

ينظر ترجمته في : القلائد ٢/ص٣٢٢ ، والذخيرة مج١/ق٢/ص٢٨٥، والصلة ٢/ص٥٤٤ ، والمغرب ١/ص٣٤١ .

(٣) المعجب /ص ٢٣٧ .

ولا شك أن كثرة هؤلاء الكتّاب من الأدباء - إبان ذينيك العصرين - قد نتج عنه تنوع في ميراثهم النثري فحصل لدينا - بأقلامهم الأدبية - فنون شتى تحمل مضامين وأغراضاً متعددة متباينة . ومن هذه الفنون النثرية التي أبدع فيها هؤلاء الكتاب (الرسائل) بأنواعها المختلفة ديوانية ، أو إخوانية ، أو وصفية ، أو دينية ، و (المقامات ، والخطب) ، وهذه الأنواع هي ما يسمى بالنثر الفني الخالص .

وهناك الكتب ذات التأليف الأدبي ساهمت - أيضاً - في نهضة وتطور النثر الفني في ذينيك العصرين . وهي ما يسمى بالنثر الفني التأليفي .

وإذا بحثنا عن مساهمة الفقهاء في حركة النثر الأدبي في هذه الفترة ؛ لوجدناها ظاهرة بارزة ، وفيما يلي الشواهد على ذلك :

أولاً : النثر الفني الخالص :

وهو (لون من التعبير الأدبي المنثور الذي يلتزم فيه الكاتب بالتعبير عن قضايا معينة بشكل أدبي متميز ، يثير فينا إحساسات جمالية ، وانفعالات عاطفية، كالمقامات والرسائل والخطب)(١)، وهو نثر قائم على السجع وعلى المحسنات البلاغية .

وعند الحديث عن تراث فقهائنا في هذا اللون من النثر نبدأ بالرسائل ، فهي أكثر أنواع الفنون النثرية حظاً من اهتمامهم ، فقد خلف لنا هؤلاء الفقهاء ميرثاً كبيراً من الرسائل الأدبية المتنوعة ، فكان منها الرسائل الإخوانية ، والديوانية ، والدينية ، والوصفية. وسوف نتناول - بمشيئة الله - كل نوع على حدة مع إيراد الشواهد عليه ؛ لنتبين مساهمة فقهائنا في كل نوع ، ومن خلال مساهمتهم في حركة الأدب بعامة في الفترة المدروسة .

---

(١) د/ مصطفى الزباخ ، فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين ، الطبعة الأولى، (بيروت : الدار العالمية ، ١٩٨٧م) ، ص ٢٥٣

١) ـ الرسائل الإخوانية :

وهي أوفر أنواع رسائلهم التي وصلت إلينا ، صور فيها الفقهاء علاقاتهم الأخوية بمن يودون وعبروا من خلالها عن مشاعر الحب والمودة تجاه إخوانهم وأصدقائهم ، فأعطوا بذلك صورة واضحة للعلاقات الاجتماعية إبان عصري الطوائف والمرابطين .

ومن يستقرئ رسائل هؤلاء الفقهاء في هذا الموضوع يجد أنها تشمل عدة أغراض من أهمها :

تقديم التهنئة ، والتعزية لمن حولهم من الإخوان ، وابداء العتاب والاعتذار لمن يستحق ذلك ، وهناك رسائل الشفاعات والوسائط والوصايا، وأخرى في المدح والثناء والشكر .

أ ـ التهاني

ارتبط فقهاء الأندلس بعلاقات اجتماعية أخوية طيبة الذكر ، ومن هذا المنطلق نراهم يشاركون إخوانهم وأصدقائهم مسراتهم وأفراحهم مقدمين لهم التهاني والتبريكات كلما حلت بهم مناسبة استحقت التهنئة .

ومن يمعن النظر في مثل هذا النوع من الرسائل يجد أنها تعطى ترجمة حقيقية لمعاني الأخوة الصادقة لما تحمله مشاعرهم الإنسانية من حب المشاركة للانفعالات الوجدانية التي تطرأ على حياة من حولهم من الإخوان والأصدقاء ، كما أنها تنطق بمشاعر الود والحب التي أوصى بها ديننا الإسلامي وفق توجيهه عليه الصلاة والسلام : (لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) .

فمن المناسبات التي شارك فيها الفقهاء سعادة إخوانهم ، وهنأوهم عليها : ولادة طفل جديد أضفى على حياة والديه السعادة والبشر ، وتقليد

أحدهم لمركز مهم في الدولة كالوزارة أو خطة الإشراف ، وانكشاف غمة إثر نكبة ألمت بأحد الإخوان ، وقدوم صديق لهم من الأراضي الحجازية بعد أن أدى فريضة الحج .

ومن نماذج التهنئة بالمواليد رسالة لأبي القاسم بن الجديهنئ فيها أحد أصدقائه بقدوم مولوده الجديد بعد طول التمني والرجاء ، مما أضفى على حياة والديه رونق البهجة والسعادة ، واستوجب لمن حولهم أن يشاركوهم فرحتهم بهذا الحدث السعيد ، فيقول الفقيه مهنئاً : (إن أحقَّ ما انبسطَ فيه للتهنئة لسانٌ ، وتشرّفَ في ميادين معانيه بيانٌ وبنانٌ ، أملٌ رجى فتأبى زماناً، واستُدعى فلوى عِناناً ، وطاردته المنى فأتعبها حيناً ، وغازلته الهمم فأسعرها حنيناً ، ثم طلع غير مُرْتَقَبٍ ، وورد من صحبة المباهج في عسكرٍ لجب ، فكان كالمشير إلى ما بَعْدَه من مواكب الآمال ، والدليل على ما وراءه من كواكب الإقبال ، أو كالصبح افترَّتْ عن أنوار الشمس مباسِمُه والبرق تتابعت إثر وميضه غمائمه ، وفي هذه الجملة مادلّ على المولود المجدود، المؤذن بترادف الحظوظ ، وتضاعُف السُّعود، فياله نجم سعادةٍ ، تطلّعَ في أفق سيادةٍ..)(١) .

ومن يتأمل الرسالة لايخفى عليه ما فيها من معاني الفرح والبشر، فقد استطاع الفقيه أن يترجم فرحه وسروره بقدوم هذا المولود على أسرته ، كما استطاع أن يصور سعادة هذه الأسرة وفرحها بهذا الحدث السعيد ، مما يؤكد صدق المشاعر الأخوية لدى الفقيه الذي تفاعل مع الحدث بشكل واضح وجلي ، فلنسمع له يختم رسالته بحمد الله والثناء عليه الذي وهب لهم هذا المولود بعد طول الانتظار : (فالحمد لله على ما أتاحه من انثناء الأمل بعد جِماحة ، واختيال الجَذَلِ في حِلْية غُرَرِه وأوضاحه...)(٢) .

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق٢ / ص٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص٢٩٣ .

وبمثل هذا العمق من الاستبشار والفرح نقرأ للفقيه ذاته رسالة تهنئة أخرى بعثها إلى الفقيه أبي القاسم الهوزني يهنئه فيها بنجاته من نكبة حلت به استوجبت الشكر من الله سبحانه وتعالى الذي أنقذه منها : (فالحمد لله الذي أوشَكَ مَقْدَمَكَ ، وأعلى قَدَمك ، ورفع كلَّ مكرمة ومأثرةٍ عَلَمك ، وإياه تعالى أسألُ أن يهنيك ويهنئ فيك عارفة السلامة ، ويُبْقيك بعيدَ الصيت رفيع القدر في الظَّعْن والإقامة ..)(١) .

ومن شدة سعادة الفقيه لانقشاع الغُمة التي ألمت بإخيه تمنى لو استطاع أن يأتي إليه ليقدم التهنئة بنفسه ، ولكن لعائق مرضى ألم به استعاض بالرسالة عن قدومه شخصياً : (ولولا ترددي في عقابل رِبْعٍ لزمتْ جسمي شهوراً ، واتخذته ربعاً معموراً لما استنبتُ في التهنئة خطاباً ، ولحثثت نحوك ركاباً ...) (٢) .

ومن الأحداث المبهجة التي شارك فيها فقهاؤنا إخوانهم مهنئين إياهم عبر رسائل أدبية تقلُّدُ أحد الإخوان وظيفة أو خطة مهمة في سلطان الدولة .

ومن نماذج ذلك رسالة لعبدالله بن عبد البر يهنئ أحدهم وقد تقلد الوزارة مما بعث النشوة والفرح في قلوب محبيه ، فحمدوا الله على ذلك التشريف ؛ لأن الرجل كان أهلاً لتلك المكانة العالية وتمنى الكاتب أن يكون في ذلك نصرة للدين وحماية له ، فيقول عن هذا الحدث السعيد : (فانتشيت من فرح وطرب ، وبنيل مراد وأرب ، ودعوت الله أن يجعلها ولايةً ، تبلغ من السعد نهاية ، وتضاعف للدين حماية ، وقد تعيّن عليّ أن أهنئ بالوزارة ، بل هي المهنأة بمصيرها إليه ، وظهور رسمها عليه ، فهو المعدلُ لحدودها وسيرها ، والمحسِّنُ لوجوهها وصورها ، المبين لحجولها وغررها ..)(٣) .

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق٢ / ص٢٩٢.

(٢) المصدر السابق مج ١/ ق/٢ /ص ٢٩٢ .

(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٣ / ص٢١٧ .

ومن مثل هذا النوع من الرسائل رسالة لابن أبي الخصال يهنئ فيها عاملاً تقلد ولاية مما يدل على ثقة حكام الدولة به لما يتمتع به من مواصفات استحقت هذه الثقة ، يقول الفقيه في بعض هذه الرسالة التي تترجم ابتهاجه بتقلد هذا العامل للولاية : (فالحمد لله الذي أحى الأعمال منك بزادانها ، من بعد ما ضرب على آذانها ، فشول الفئ تُكسَعُ بأغبارِها(١) ، وعُلب الحَلب تملأ إلى أصبارها ؛ فهنيئا لراعي الأمة ، وكاشف الغمة ، بيمن سياستك ، وأمن حياطتك وحراستك ، وهنيئاً للأولياء عامة ، ولي بك خاصة ، ما أتقلده من إمامتك وأنا له بتجدد كرامتك ..) (٢) .

وعندما يؤدي المسلم فريضة الحج - وينعم الله عليه بالعودة إلى دياره سالماً ، نرى أهبة من المهنئين قد أنهالوا عليه يهنئونه بما أنعم الله عليه من إتمام هذه الفريضة ، وهذا أبو القاسم بن الجد يخاطب بعض من قدم من الحجاز مهنئاً ومباركاً ومعبراً عن بهجته لأدائه هذه الفريضة الموجبة على كل من استطاع من المسلمين : (كتبت وقد هزَّني وافدُ البشرى ، واستخفني رائد المسرَّة الكبرى ، بما سناه الله من قدومك محوط الجوانب والأرجاء ، منوط الفخار بذوائب الجوزاء ، محطوطَ الآثار في مواطن الرسل ومواطئ الأنبياء، فيا لها من حَجَّةً مبرورةً ما أتمَّ مناسكها ، وأوضحَ في مناهج البِّر مسالكها ..)(٣) .

إذن هذه بعض من صور التهاني عند فقهاء الأندلس ، وهي كما نلحظ متنوعة المحاور والأغراض ، فالفقهاء لم يتركوا حدثاً سعيداً يمرّ بأخوانهم وأصدقائهم ورجال دولهم إلا وشاركوهم فيه مهنئين ومباركين بعاطفة تزخر بالمحبة والأخوة وتحفل بالبهجة والسرور .

---

(١) تكسع : كسع الناقة بغبرها : ضرب ضرعها بالماء البارد .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٣ .

(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ٢٨٨ .

ب ـ التعازي :

وهي الوجهة الثانية المقابلة للتهاني ، ويظهر فيها ـ كما ظهر في النوع الأول ـ المشاركة الصادقة من قبل الفقهاء لإخوانهم الذين ألمت بهم مصائب الدنيا فافقدتهم أعز ما يملكون من الولد أو المال أو المكانة العالية المرموقة، فنرى رسائلهم ، وهي تفيض بصدق المشاعر الوجدانية ، يعبرون فيها عن موساة الإخوان ، والأخذ بأيديهم لعبور جسر الألم والحزن إلى باب الرضى والتسليم والقناعة بما كتبه الله على عباده .

ومن أمثلة هذا النوع من رسائل فقهائنا رسالة لأبي عمر الباجي يعزي فيها ابن أبي عامر في ابنه المعتز وقد أذهلته المصيبة قائلاً : (بأي لسان ـ أيدك الله ـ أخاطبك مذكّراً ، أو بأي مقالٍ ألاطفُك مصبّراً، وقد أذْهَلَتْني فَجأةُ الخطْبِ ، وتركتني طائَر القلب واللّب ...)(١) .

ويلجأ الكاتب إلى مواساة ابن أبي عامر بتذكيره أن الله سبحانه وتعالى قدقدر الأمور ولابد لبني الإنسان أن يمروا بما مرّ به ابنه من حتمية الموت ، لذلك علينا احتساب الأمر لله : (ونحن مأمور فينا، ومحكومٌ علينا ، يملكنا خيرالمالكين ، ويحكمُ فينا أعدل الحاكمين ، ولو شاء الله لم يَخْلُقْنا..)(٢).

وقد يضرب الفقهاء الأمثال بصبر بعض الشخصيات الإسلامية المشهورة عند فقدهم لابن أو عزيز عليهم تعزية وتسلية لإخوانهم المحزونين ، على نحو ما نجد في رسالة عبدالله بن عبدالبر يضرب فيها المثل بعروة بن الزبير في صبره واحتساب أمره لله حين علم بمقتل أحد أبنائه وتقطع بعض أعضائه ، فيقول ابن عبدالبر معزياً أحد الشخصيات المهمة في الدولة بوفاة (الحاجب عز الدولة) : « ومواعظِ التعزي جدير ، ومثلك أعدَّ للأمور أقرانها ،

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق٢ / ص١٨٨

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص١٨٩ .

وحمل على النفوس أحزانها ، ولم يُغرِبْ الدهرُ عليه ببدعٍ من نوائبه ، ولم يفجعه بما لم يحتسبه من مصائبِه ، ولم يتجاوز دَمْعَ العينِ حُزْنُ القلب ، إلى إحباط الأجر وإسخاطِ الربّ ، وإن كان اللّه قد سلبَ بعدله ، فقد وهب بفضلِه، وإن كان أخذ فقد أعطى ، وإن كان اخترم فقد أبقى ، وبهذا صدعَ عروة بن الزبير رضي الله عنه عندما مُنِي به في أحد أبنائه ، وبعض أعضائه ...)[١] .

ويذكّر الفقيه المحزون أن ابنه قد خرج مجاهداً في سبيل الله ، فهو يعد من الشهداء الفائزين برضوان الله ، وهذ مما يسعد النفس ولا يبكيها : (وذكرت أنه خرج من بيته مجاهداً ، وعن حمى الدين ذائداً، فقد وقع أجره على اللّه ، وفاز بكرامة الله ، وإذا فاز بالسعادة والشهادة وهو فَرَطك وشافعُك ، فهو لا محالةَ مغتبطك ونافعك ...) [٢] .

وفي آخر الرسالة يلجأ الفقيه إلى مدح المحزون والأطراء عليه بأنه أهل للقوة والصبر عند الملمات والشدائد ليساعده على تجاوز محنته : (وأنت الطود الموفي على كل هَضْبة ـ المعلّى على كل فرْحةٍ وكُرْبة ، وما بقيتَ وعوفيت فكلُّ خَطبٍ وإن جلّ جلل ، وكلٌّ صعب وإن أعضلَ فمحتمل ، فاللّه ياسيدي في نفسكِ العزيزة أن يكون فيها كامن رزءٍ يقدح ، أو أن يوهنَ منها باطنُ أسًى يكدح أو يفدح ، فأنت سداد كل مُلِمّ ، وسنا كل مظلم ، وأنا أضرب لك الأمثال ، وأعلم مع ذلك علم الحقيقة أن مصابك كبير ، ورُزْءك أليم خطير..)[٣] .

ويعزي أبو القاسم بن الجد أحد الإخوان وقد أصابه سهم الموت في امرأة لم يذكر الكاتب نوع قرابتها من المحزون ، فيتحدث الفقيه في مطلع

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ /ص ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ / ص٢٢٠ .

(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٣ / ص٢٢١ .

رسالته عن أحوال الدنيا وصروفها ونوائبها ، وأنها لم تترك أحداً يهنأ على الإطلاق وإنّما سرعان ما تخنقه بمنغصاتها ، وترشقه بنبل أرزائها فيقول : (محن الدنيا ـ وسَّعَ الله لاحتمالها ذَرْعَك ، وآنّس في ايحاشها ربعْك ـ ضروب، ولسان العِبَر بها خطيب ، ونوائبها أطوار وفنون ، ومصائبها أبكار وَعُونٌ، والمرء غرض لأخياف سهامها ، ومعرضٌ لاختلاف أحكامها ، فإن أخطأه منها صائب الحِمام ، وتخطَّاه واثب الاخترام ، رشَقَتْهُ بنبلِ أرزائها ، وطرقَتْهُ بِمُعْضلِ أدوائها ...)(١) .

ثم يمضي مذكراً المعزّى بالأجر الذي سيناله من صبره قائلاً : (وبجسيم عظيم المصاب ، وكرم الاحتساب يكون حُسْن الثواب ، ويُمْن المآب ـ فللرزايا قيمٌ وأثمان ، وللحسنات في موازنتها خفوفٌ ورجحان ، فلا تمكِّنْ من يد الجزع مقادك ، ولا تُسْكِن زفرة الأسَفِ فؤادَكَ ، واعتصم عند الصدمة الأولى بعروة الصبر الوثقى)(٢) .

وإذا كان الفقيه قد هنأ إخوانه حينما تنكشف عنهم غمامة الكربات وتنزاح ويخرجون بعون الله وفضله مما هم فيه ، فإنّه كذلك يعزيهم عندما تحل بهم النكبات ويفقدون مكانتهم التي كانوا عليها ، ومن ذلك رسالة لابن أبي الخصال وجهها إلى الوزير أبي محمد بن القاسم الفهري ، حين أصابته نكبة (أنبأت بتعذر الأوطار ، لذوي الأخطار ، وأعلنت بكساد الفضائل والمعالي ، واستئثار الوضيع على الماجد العالي ...) (٣) .

والفقيه يبدأ رسالته بعبارات من المديح يقصد بها التخفيف من ألم الوزير ، فهو في نظره شخص قوي مشهود له بالصبر عند المحن والملمات : (يلقي دهره غير مكترثٍ ، وينازلُهُ بصبرٍ غير مُنْتَكثٍ ، ويَبْسِمُ عند قُطُوبِهِ..)(٤).

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ /ص ٣١٦ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص٣١٧ .

(٣) قلائد العقيان٣/ص٥٢٧ .

(٤) المصدر السابق ٣/ص٥٢٨ .

ويذكّر الفقيه أخاه المنكوب بقرب الفرج وانكشاب الغمة : (فما هي إلاّ غَمْرَةٌ ، ثم تَنْجلي وخَطْرَةٌ يليها من الصُّنْع الجميل ما يلي ..) (١) .

جـ ـ : العتاب والاعتذار :

يعد هذا الموضوع من أرق الموضوعات الإخوانية التي تناولها فقهاؤنا ، ففيه تظهر شفافية عواطفهم وصدق مشاعرهم تجاه إخوانهم بشكل واضح وملموس لاتشوبه الشوائب .

وفقهاء الأندلس كانوا معروفين بإخلاصهم لأصدقائهم ، فإن حدث انشغال أحد الطرفين عن الآخر ، أو قصّر في حقوقه ، فإن ذلك يكون مدعاة للتساؤل والعتاب ، والإنسان عادة لايعاتب إلا من أحب فبالعتاب يظهر الود والحب ، ومما يؤكد ذلك قول ابن برد الأصغر في رسالة عاتب فيها أحد إخوانه : (وقد يخلص الودّ على العتب خلاص الذهب على السبك ، فأما إذا أعيد وأبدي ، وردّد وولي ، فإنه يفسد غرس الإخاء ، كما يفسدُ الزرعُ توالى الماء ..)(٢) .

وهذه حقيقة لايمكن انكارها أدلى بها ابن برد ، فالعتاب دليل المحبة ، وهذا أمر لاغبارعليه ولكن إذا زاد هذا العتاب عن حدّه وكثر تواليه ، فإنه ـ لامحالة ـ يعد مؤشراً علي فساد الودّ والعلاقة بين الأصدقاء ، وقد شبه الفقيه هذا الفساد بفساد الزرع الحي إذا توالى الماء عليه .

وقد أنشأ ابن برد رسالته السابقة في عتاب صديق له شعر بفتور محبته وبجفاء مسلكه معه مما جعل ابن برد في حيرة من أمره ، فأخذ يتساء ل عن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص٥٠٢ .

سبب هذه الجفوة قائلاً : (فليت شعري ما الذي أقسى مهجة ذلك الود ، وأذوى زهرة ذلك العهد ؛ عهدي بك وصلتُنا تَفْرق من اسم القطيعة ، ومودتنا تسمو عن صفة العتابِ ونسبةِ الجفاء ...)[١] .

ويكثر ابن برد من إلقاء الأسئلة على صديقة الذي أكثر هو بدوره من قوارع معاتبته دون ذنب أو جناية من ابن برد مما دفع بالفقيه أن يتخذ موقفاً صارماً من هذا الصديق المكثر عتابه ، فخيره بعدة اختيارات وضعها أمامه ؛ ليحدد موقفه معه ، وهذه الاختيارات توضح لنا أن العلاقة بين ابن برد وصديقه قد وصلت إلي مرحلة حرجة ، فما كان من ابن برد إلا أن قسا في ألفاظه حتى يعرف الصديق ماله وما عليه ، فيقول ابن برد في هذه الاختيارات : (وأنا الأن على طرف من إخائك معك ، فإما أن تدلي بحجة فأتنصّل عندك ، وإمّا أن تنبئَ بحقيقة فأسْتَديمَ خُلّتك ، وإما أن تأزَم على فأسِك فأقطع حبلي منك ...)[٢].

وثمة رسالة لعبدالله بن عبدالبر شبيهة برسالة ابن برد السابقة ، تألم فيها من عتاب صديق قد أغلظ القول فيها عليه، واستفز مشاعره الأخوية مما عكر عليه صفو حياته : (لما أشرفتُ عليه من صدرِ الكتاب الكريم ، أو قفتني منه على حفزَةِ عَتبٍ ، وخَزَتْ وخزَ الأشافي، ولدغتْ لدغَ الأفاعي ، فأمرّتِ الحلو ، وكدَّرَتِ الصفو ، وحزَّنتِ النفس ، وشرَّدَتِ الأنس ..)[٣]. وعلى الرغم من أن هذا الصديق قد أغلظ القول علي ابن عبدالبر فإن فقيهنا لم يبادله الأسلوب نفسه ، إنما نراه يرجع تغير صديقه وما بدر منه إلى عادة الأيام التي لايؤمن صفوها : (وهذه عادةُ الأيام يجئُ كدرها جُمَلاً ، وصَفْوها لُمعاً، واللّهُ المستعانُ على ما يجيئني منك وأنا ذاهل، ويطرقني وأنا غافل)[٤].

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ١ /ص ٥٠١ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص٥٠٢ .

(٣) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ / ص١٩٦.

(٤) المصدر السابق .

وإذا قصر فقهاؤنا في حقوق إخوانهم نراهم يعترفون بذلك ، ويقدمون الاعتذار مصحوباً بتوضيح سبب هذا التقصير الذي نجم عنه معاتبة إخوانهم لهم .

ومن ذلك رسالة لابن أبي الخصال يرد فيها على أحد الأصدقاء المعاتبين له على قلة مراسلته له ، وعلى أمور سعى بها ساع إليه كذباً وزوراً ، فأظهر من خلال جوابه الود والمحبة لصديقه ، وبيّن له عظم مكانته في نفسه ، وهي مكانة لايغيرها الزمان ، مستقرة في سويداء الفؤاد ، فيبدأ رسالته بقول ينبع من نهر الحكمة والتعقل ، فالود الذي بين الأصدقاء لايكون (بتزويق اللسان، ولاتنميق البنان ، ولا الشأن في رويّة مكيثة ، ولا بديهة حثيثة ، ولا في أساطير في الصحف مبثوثة ، وإنما هو ما وقر في الفؤاد ، ورسخ في الاعتقاد، وثبت في مواطن الاعتداد ..)(١).

ويعلل الكاتب قلة مراسلته لصديقه المعاتب بقوله : (فمتى كان مني توقف في مطالعة أو إبطاء فيّ بما يجب له الإسراع من مراجعة ؟! فلهذا الشَّغبِ الدائم ، والشّغل القائم ، لا لما لعلّه يتوهم من إغفالٍ : بُعدي عنه جَلِيٌّ، وأنا - عَلِمَ اللّهُ - منه خَلِيّ) (٢).

ويشير الفقيه في نهاية رسالته إلى الساعي الذي سعى بأكاذيبه وافتراءاته بينة وبين صديقه ، فوصفه بأنه من نسل مسيلمة الكذاب فقال : (وأعلمني فلان مؤديه بالكلام الذي زُوّر، والأمر الذي نُسِبَ وصُوّر، وأنت - أعزك الله - تعلم منبع تلك الكذوب - ومسيلمة ذلك الإفك المنسوب ، فمن أفقه طلع ، ومن معدنه نبع ، فنزه سَمْعَكَ المَصُونَ عن افترائه ، « والله محيط من ورائه ») (٣).

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص ٧٣ .

(٢) المصدر السابق / ص٧٥ .

(٣) المصدر السابق .

د ـ الوصايا والشفاعات والوسائط :

وهي رسائل يعنى فيها كتّابها بمساعدة من حولهم من الإخوان والأصدقاء ، وكل من يلجأ إليهم ـ بعد الله ـ راغباً في العون والمساعدة بالتوسط بينهم وبين من يستطيع تحقيق رغباتهم ، وقضاء حوائجهم .

ولما كان يتمتع به فقهاء الأندلس ـ عصري الطوائف والمرابطين ـ من سمو المكانة وعلو المنزلة عند كثير من الولاة وعامة الناس ، فقد وجدنا من رسائلهم طائفة تعنى بمثل هذه الموضوعات والأغراض .

وممن احتفظت لهم المصادر بنماذج عديدة في مثل هذه الموضوعات الفقيه أبو القاسم بن الجد ، ومن ذلك رسالته التي يشفع فيها لأحد الأدباء أصيب بنكبة جراء الزحف النصراني على بلاده ، مما نجم عنه تردٍ في أحواله المادية ، فيشرح الفقيه حالة هذا الأديب ـ وما آل إليه لمن يريد منه مساعدته في محنته فيقول : (وفي علمك ما دُهِي به وطنُهُ من خطوب الزمن ، وضروب المحن ، وتقلّب عباد الوثن ، ودفعته الضرورة إلى استرفاد الأحرار ، والتكسُّب بالأشعار ، وهو ممن يتصرف في الصناعة بلسانٍ صنع ، ويأوي فيها إلى طبْع غير طَبع ..)(١).

ويمضي الفقيه في عرض حال الأديب وما مسه من الضر الذي اضطره التكسب بشعره ، وهذه صورة من صور أحوال فئة من المجتمع الأندلسي ـ إبان عصري الطوائف والمرابطين ـ حين تأثرت أحوالها الاجتماعية والمالية بسبب الزحف النصراني على بلادها ، فالرسالة تحمل في طياتها ومضمونها صورة رائعة للتراحم والتكافل الاجتماعي بين الأخوة في الدين ، فمن لم يستطع المساعدة بالمال فليساعد بالجاه والوساطة والشفاعة لدى من يستطيع المساعدة .

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص ٣٠٢ .

وعادة في مثل هذه الرسائل لانجد ذكراً لاسم المشفوع عنده أو مرتبته ، كما لانجد ذكراً لأسماء المشفوعين لهم ، وإن كان منهم من تربطه علاقة القرابة بالكاتب ، ولعل السر في ذلك عدم إحراج الطرفين بذكر كليهما .

ومن فقهاء الأندلس الذين اشتهروا بمثل هذه الرسائل ، فوجدنا لديه عدداً غير قليل منها الفقيه ابن أبي الخصال ، نمثل بذلك رسالة له إلى أحد الفقهاء القضاة يوصي فيها بصهره أبي جعفر بن سليمان الذي تعاقبت عليه أحداث الدنيا فيقول عن حاله : (وقد كان ـ أعزك الله ـ بثقل ظهره مفدوحاً ، وبنوائب دهره مفضوحاً ، لا يجد من العيش بلاغاً ، ولا يلقى لشكواه مساغاً ، فكيف به الآن وقد مدت الثأطة(١) بماء ، وكرّ التعقُّبُ منه على رمقٍ خافتٍ وذماء ؟ ولما بغتته هذه البديهة ، والحادثة الكريهة ، عوّل على الاستِسْرار ، وطوى كشحاً على الفرار ؛ فأشفقتُ لحاله ، ورحمتُ من تَنْعَطِفُ عليه القلوب القاسيةُ من أطفاله ، ورأيت له أن يتوجّه إليك ، ويُعيد أمرَهُ عليك ، ويُعلمك بما عنده من خسارة وجائِحَة ، وحُجّةٍ واضحة لائحة ...)(٢).

وله من أخرى يتوسط فيها لمؤذن عند أحد الفقهاء ؛ ليعتني به ، فهو من الذين (ورد فيهم الأثر المروي ، والخبر الواضح الجلي ـ وهم ـ وإن كانوا في الأُخرى أطول الناس أعناقاً ، فهم في الدنيا أضيق الناس أرزاقاً ، وأضعفهم أذماءً وأرماقاً ..)(٣).

ويمضي الفقيه في استثارة العواطف الدينية لدى المشفوع عنده من خلال وصفه لحالة المشفوع له ـ المؤذن ـ فيقول عنه : (ولولا أمعاؤه لما طال نداؤه ودعاؤه ؛ وقد تقحّم نحوك لفح الهجير ، وألقى بيد المستغيث المستجير ، ولغيره زكاة جَمال وجِمال ، وله فضلةُ جاهٍ أو مالٍ ، ووراءه عيال ، وأمُّ عيال ..)(٤).

---

(١) الثأطة : الحمأة أو الطين .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال / ص٩١ .

(٣) المصدر السابق / ص٤٥٠ .

(٤) المصدر السابق /ص ٤٥٢ .

وبهذا يتبين لنا المدى الذي ساهمت فيه رسائل الفقهاء في موضوع الشفاعات والوساطات والوصايا في إعطاء بعض الملامح لأحوال المجتمع الأندلسي ـ إبان عصري الطرائف والمرابطين ـ كما تبين لنا أخلاقيات هؤلاء الفقهاء ، وحبهم للخير والسعي له ، وتقديمه لكل من يحتاج إليه من إخوانهم المنكوبين ، ولاغرابة في ذلك فهم من علية القوم علماً وخلقاً ـ رحمهم الله رحمة واسعة .

هـ ـ المدح والثناء والشكر :

مدح الفقهاء إخوانهم بصفات مكرورة تقليدية اشتهر بها أدباء عصرهم، فهم يمدحون أخلاقيات الممدوح وفضائله العلمية ، ويمدحون الحامل للآداب والعلوم ، ومنهم من يمدح الأدباء الذين عرفت كتاباتهم بالأساليب البيانية والخصائص البلاغية .

ونبدأ شواهدنا بذكر فصول قصار في مدح الإخاء لابن برد الأصغر يمدح فيها أحد الأخوة ، وقد تحلى بالكثير من الصفات الأخلاقية الإسلامية. كنصرة الأخ ، وإغاثته وقت الشدة ، ونجدته ومساعدته وقت الفاقة والحاجة، واسدائه النصيحة من باب أن المؤمن مرآة لأخيه ، وحسن عشرته للجار، وكرمه المنقطع النظير إلى غير ذلك من الصفات التي تحمل المعاني الإسلامية والخلق الكريمة التي حث عليها ديننا الإسلامي ، فلنقرأ له بعضاً من هذه الفصول في قوله :

(ناصري إذا تكاثرت الخطوب عليّ ، ومجيري إذا أثخنت الأيام جانبي.

ـ هو ذخري المُعدّ ، وركني الأشد ، وسلاحي الأحد .

ـ خزانة سر لا إقليد لها ، ولا للصوص حيلة فيها .

ـ أراؤه كالمرائي إذا جليت ، والسيوف إذا انتضيت .

ـ يحسن عشرة الجار ، ويسئ عشرة الدرهم والدينار) (١).

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص٥٠٤

ويمدح الفقيه ممدوحه حينما يراه يتبع المنهج الإسلامي ويتوفر على العلم الغزير ، وهذا ما رآه أبو القاسم بن الجد في أحد الفقهاء ، فقال عنه وعن علمه الذي سطعت أنواره : (أما وأحاديثُ فضلكِ صحيحةُ الإسنادِ ، وأدلة سروركَ مزلّة العنادِ ، ومطالب علمك وفهمك ساطعةُ الأنوارِ ، ومناهجُ هديك وسعيك واضحة الصوى والمنار ...) (١).

ويبين الفقيه سبب إعجابه بهذا الفقيه وأنه محب لمصاحبته ومجالسته ، فقال : (ولم أزل أولع برائق صفاتك والتمس سبب معرفتك ، حرصاً على التجمل بخلتك ، ورغبة في التيمن بصلتك ، ؛ لأنك ـ والله يبقيك ـ أحق من احتذى على مثاله ، واقتدى بصالح أعماله ، واستقيت آثار البرِّ من مواقع خطاه ، وانتسخت أخبار الزهد والقصد من صحائف هداه ..)(٢).

ولاشك أن ثقافة الصديق المتنوعة ، ومعرفته الواسعة من أهم ما يميزه عن غيره ، ولهذا نجد الفقيه يأخذ في مدحه من هذا المنطلق ، متمنياً لو يجالس ممدوحه ليكون على مقربة منه يقول أبو القاسم بن الجد في مثل هؤلاء الإخوان ، (إذا أعددت ـ أعزك الله ـ أعيان الزمان ، وأفاضل الإخوان ، ثنيتُ عليك خنصري ، وطمحت إليك ببصري ، وطرتُ في جوك ووقعت ، وانحططت في شعبك وربعت ؛ لأنك ـ والله يبقيك ـ حامل آداب ومعارف ، ولابس من خلع الفضل مطارف ...)(٣).

ويمدح عبدالله بن عبدالبر شخصاً بمقدرته البلاغية والبيانية ، فقال مادحاً أساليبه البيانية المستخدمة في إحدى رسائله الموجهة للفقيه : (فوجدته قد أخذ بطرفي الآداب ، واكتست عليه حلّة الإيجاز والإسهاب ،

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٣٠٥ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص٣٠٥ .

(٣) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ /ص ٢٩٩.

فطردت ميـاه البـراعـة من فـروع منثـورة ، وعـبق نسـيم البـلاغـة من مـسلكه وكافوره ..)[١].

وأخيراً نختم شواهدنا برساله لابن أبي الخصال راجع فيها الفقيه ابن العربي وذكر في مطلعها طرفاً من صفات هذا الفقيه الجليل ، وهي في مجملها صفات تجمل معاني إسلامية حث عليها الشرع ورغب فيها منها أنه : (يلمّ الإخوان على شعث ، وينبعثُ إلى صلتهم كل منبعث ، ويغفرُ عوراء الصديق ، ويأذن لعذرة أذن التصديق ، ولا يلزم الضعيف ذنب المطيق ، ويرتفع جلاله عن الطن ، ولا يكدّر معروفه بالمنّ) [٢].

* * *

---

(١) المصدر السابق مج ١/ ق٣/ص٢١٤ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال / ص١٨٤ .

٢)- الرسائل الديوانية :

ويقصد بها : (كل المراسلات والمخاطبات والوثائق وغيرها من ضروب الإنشاء ذات الطابع الرسمي التي تدخل في باب من أبواب ترتيب الحكم ، وتنظيم المملكة ، وضبط شؤون الإدارة ، ومراسلة الأطراف التي يكون التعامل معها على وجه من الوجوه داخل البلاد وخارجها جزءاً من النشاط السياسي)[١].

وإذا بحثنا عن الأغراض أو المحاور التي تحدث عنها فقهاء الأندلس في مثل هذا النوع من الرسائل وجدنا رسائل المبايعات ، ومواثيق الأمان ، ورسائل تحمل التهاني وتقدم التعازي والشكر ، وهذه ما يمكن أن نطلق عليها براسائل الود والأخوة بين الحكام ، ورسائل تخاطب الثائرين على الحكام ، وهناك الرسائل الإعلامية ، والرسائل التي تجيب على ما يصل من الأعداء من رسائل .

أ ـ المبايعات و مواثيق الآمان :

ونستهل شواهدنا بنموذج من رسائل المبايعات للفقيه ابن برد الأصغر الذي كتب رسالة مبايعة ظهر فيها الشروط التي اشترطها المبايع علي المبايع له ، وهي في مجملها تحمل المعاني الإسلامية التي تحث علي السمع والطاعة، والمؤازرة والنصرة ، والنصيحة في السر والعلانية . ومع أن هذه البيعة كانت بيعة رضىً واختيار ، إلاّ أن المبايع يقسم المبايع له على الوفاء والإخلاص والقيام بشروط بيعته (بالله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والقائم على كل نفسٍ بما كسبت ، ويعطيه على ذلك كله ذمّة الله وذمّة محمد رسوله ...)[٢].

---

(١) النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري مضا مينه يأشكاله ١/ص٢٠٨ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص٤٩٨ .

أضف إلى ذلك شروطاً أخرى اشترطها المبايع حالما ينقض المبايع له بيعته ، أو يخون عهده ، ويغدر بمن وثق به ، وهي شروط تتسم بالصعوبة والعسر والتكلف ، فلنسمع له قوله في هذه الشروط بأسلوب فيه شيء من التهديد : (ومتى خلعت ربقة بختر أو غدرٍ ، أو طويت كشحاً على نكث أو حنث ، فعليك المشي إلى بيت الله الحرام ببطحاء مكة من مستقرك ثلاثين حِجَّة ، نذراً واجباً لايقبلُ الله تعالى إلاّ الوفاء به ، وكلّ زوجة لك مهيرةٍ ، أو تنكحها إلى ثلاثينَ سنةً ، فطالقٌ تحتك طلاقَ الحَرج ثلاثاً . وكل أمةٍ أو غرة أو عبد لك أو تملكه فأحرار لوجه الله العظيم ، وكل مال لك صامت أو ناطقٍ أو تملكُه إلى ثلاثين سنةً غير عَشرةِ دنانير أو قدرَها فصدقَةٌ على الفقراءِ والمساكين ، وقد برئَ اللّـهُ تعالى منك ورسولُهُ وملائكتُهُ)(١).

ومهما يكن من أمر المبايعة وما فيها من شدة وحزم ، فلا يخفى على القارئ موهبة ابن برد في قدرته على صوغها واستعانته الواضحة بالمصطلحات الفقهيه والشرعية في صوغ أفكاره ومعانيه (٢).

وللفقيه نفسه رسالة أخرى في إعطاء الأمان ، كتبها على لسان أحد الحكام ، لفئة خرجت عليه وعصت أمره ، ثم عادت تطلب الأمان منه والعفو والصفح عما بدر منها ، فكان لهم ما أرادوا ، غير أن الأمر لم يكن بهذه السهولة المتوقعة ، فقد أظهر الكاتب من خلال هذه الرسالة حزم الحاكم وشدته في قبول الأمان حتى لايعودوا لتكرار فعلتهم السابقة ، فيقول ابن برد في ذلك : (أما بعد : فإنكم سألتم الأمان أوان تلمّظت السيوف إليكم ، وحامت المنايا عليكم ، وهَمّتْ حظائر الخذلانِ أن تُفرِج لنا عنكم ،

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق١ /ص٤٩٩ .

(٢) حازم عبدالله خضر ، النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين /ص٢١٦ .

وأيدي العصيان أن تُتحفنا بكم ، ولو كلنا لكم بِصاعكُمْ ، ولم نرعَ فيكم ذمةَ اصطناعكُم ، لضاق عنكم مَلْبَسُ الغُفْران ، ولم ينسدل عليكم ستر الأمان ..) (١).

ب ـ مخاطبة الثائرين :

ونمثل لهذا النوع بنموذجين أحدهما لابن برد الأصغر في عصر ملوك الطوائف ، والآخر لأبي القاسم بن الجد في العصر المرابطي .

ففي الرسالة الأولى يخاطب ابن برد فئة من المتمردين الخارجين على أمر أحد الأمراء ، فيبدأ رسالته بالحث على إخماد نار الفتنة والتمرد ، والرجوع إلى العقل وتحكيمه : (فقد آن أن تُوقظوا سواهيَ العقول ، وأن تريحوا عوازبَ الأحلامِ ، فَتَسُلُّوا السخائم ، وتُغْمِدوا الصَّوارِم ، وتعيدوا السهام في كنائنها ، وتَقِفوا الأسنَّةَ في مراكزِها ، وتُسلموا الخيول في مرابضها ..) (٢).

ويصرح الفقيه بعد ذلك بأسلوب التهديد والوعيد لهذه الفئة إن لم تثب إلى رشدها : (أما والله لتجرَعُنَّ الخُطْبان ، ولتقرعُنَّ الأسنان ، ولتُحَاوِلُنَّ الأَوْبَةَ ولا مآب لكم ، والتوبةَ ولا قبُولَ منكم) (٣). وهذا هو الأسلوب الأنجع لكل من يحاول شق عصا الجماعة ، وتشتيت أبناء الأمة الواحدة .

وإذا رأينا ابن برد في رسالته السابقة يستخدم أسلوب التهديد والوعيد، فإن ابن الجد في رسالته التالية التي أنشأها على لسان أمير المسلمين علي ابن يوسف يظهر عكس هذا الأسلوب ، فالكاتب يخاطب أهل غرناطة الثائرين على واليهم بأسلوب يتسم بالهدوء وسعة الصدر ، لما بدر منهم في إلحاحهم

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص٥٠٠ .

(٢) المصدر السابق.مج ١ / ق ١ /ص ٤٩٨ .

(٣) المصدر السابق.

على تغيير هذا الوالي ، فيناقشهم ويحثهم على الالتزام بعدة أمور عسى أن يكون فيها الخير والصلاح لهم . إذ يقول : (فإذا وصلَ إليكم خطابُنا هذا فاتركوا مُتَابعةَ الهوى ، واسلكوا معه الطريقة المثلى ، ودعوا التَّنَافُسَ على حُطامِ الدُّنيا ، وليُقْبِلْ كُلُّ واحدٍ منْكم على ما يَعْنيه ولا يشْتَغل بما يُنْصِبُهُ ويُعنِّيه ، ولابد لكلِّ عَملٍ من أَجَلٍ ، ولكُلِّ ولايةٍ من غايةٍ ، ولن يسبق شيء إناه، وإذا أراد الله أمراً سنّاه ، ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّلَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾)(١).

ومما تقدم يلحظ اختلاف الطابع الأسلوبي للرسالتين ذواتي المضمون الواحد ، ففي الأولى يستخدم ـ كما أشرنا ـ ابن برد أسلوب الحزم والشدة والتهديد مع الثائرين ، وذلك أمر طبعي ، فقد كثر في عصر ملوك الطوائف خروج المتمردين والثائرين على حكامهم ، فإذ لم يضع الحكام حداً لهذا التصرف الأرعن سقطت ممالكهم الواحدة تلو الأخرى ، بينما نجد العكس في العصر المرابطي ، فالأمور فيه أهدأ من سابقه ، لذلك استعمل ابن الجد في رسالته أسلوب المناقشة والاقناع حتى يرضى الأهالي بقبول من ولي عليهم ، فقد يكون فيه الخير لهم وهم لايعلمون ، وهذا منزع ديني واضح ، إذ لايجوز شق عصا المسلمين ، وأن يسلموا ولو تولى عليهم عبد حبشي ما لم يأمرهم بمعصية .

جـ ـ رسالة تعبر عن الود والأخوة بين الحكام :

وهي أشبه ما تكون بالرسالة الإخوانية التي يكتبها الأدباء ويتبادلونها فيما بينهم ، ولكنها خاصة ـ هنا ـ بطبقة الحكام ، ولهذا أفردت بالبحث .

ومن أمثلة هذه الرسائل رسالة لأبي عمر الباجي على لسان المقتدر بن هود يشكر فيها ابن ذي النون ؛ لإطلاقه سراح الأديب ابن غصن الحجاري

---

(١) قلائد العقيان ٢/ص٣٢٣ .

من السجن ، وقد ترجمت الرسالة معاني الشكر والعرفان بالجميل اللذين يحملهما المقتدر بن هود للأمير ابن ذي النون ، فلنقرأ له بعضاً من كلمات الشكر بقلم الفقيه أبي عمر الباجي : (وإن كثير الشكر ليقلُّ في جَنْب ما أسديتَ ، وبالغَهُ ليقصِّرُ عن الغاية التي لها تَصَدَّيْتَ ؛ لأنك ضَمِنْتَ حياةَ نفس ، ونشرت دفينَ رمسٍ ، فكأنك أحييت جميع الورى ، ونشرت كلَّ مستودع في الثرى ، وأنَّى يقاوم هذا الصنيعُ ، ولو تظاهر على فرضه الجميع ، وعند الله كفاءُ ما أوليت من جميل الفعل ، وجزاءُ ما أتيتَ في سبيل الفَضْل)(١).

وننتقل إلى رسالة أخرى تترجم معاني الود والإخاء بين حكام عصر الطوائف ، وهذه الرسالة من صنع عبدالله بن عبد البر كتبها على لسان ابن مجاهد يهنئ فيها الأمير ابن صمادح لزفافه من ابنته - ابنة الأمير ابن مجاهد - فيبارك له هذا الزفاف الميمون الذي جمع شملهما وانتظم به سلكهما.

وقد استطاع الفقيه من خلالها أن يترجم مشاعر ابن مجاهد الأبوية الذي فرح بهذا الزفاف وبتوصيته للأمير ابن صمادح على ابنته قرة عينه بكل اقتدار ، فقال : (وأنا أسألُ الله في متوجهها ومُنقلبها الرعاية الموصولة بك ، والكفايةَ المعهودة منك ، حتى يفئ عليها ظلك ، ويبوِّئها مَثْوى الحفاية محلُّك ..) (٢).

ولا ينسى الفقيه أن يثني على الأمير ابن صمادح بأنه أهل للكرم ، وتحمل الأمانة ، وحسن تطبيق الشريعة الإسلامية : (وما زفَّتْ إلا إلى كريم

---

(١) الذخيرة مج ١ /ق ٢ / ١٩٤ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ / ١٢٧ .

يحملها محمل الأمانة ، ويقضي فيها حق الديانة ، ويرعى لها انقطاعها عن أهلها ، واغترابها عن ملأها ومنشأها ..) (١).

وهذا مما يطمئن قلب والدها عليها ، فهي في كنف رجل كريم ، سوف يرعى حق الله فيها ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

ويستشهد الفقيه بأقوال الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة يذكر فيها الأمير ابن صمادح بطريقة غير مباشرة بمراعاة حقوق النسب وإكرام الزوجة : (ولنا في رسول الله عليه السلام أسوة حسنة ، وفيما قاله في مثل هذه قدوةٌ يقتدي به ، وسنةٌ يحتذي عليها ، إذ تلا قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بشراً فَجَعَلَهُ نَسباً وصِهراً ﴾ ، وقال عليه السلام : (إنما فاطمةُ بضعةٌ مني ، فمن أكرمها فقد أكرمني ، ومن أهانها فقد أهانني) ، اللهم بارك لها وبارك عليها)(٢).

وعند ما يطلب الحكام المشورة من بعضهم في أمورهم السياسية ، فهذا دليل على قوة العلاقة بينهم وصدق الروابط الأخوية ، فهذا المعتضد بن عباد يرسل رسالة بقلم عبدالله بن عبدالبر إلى ابن هود يطلب فيه المشورة واسداء النصيحة في كيفية التصرف مع حكام قرطبة الذين يناصبونه العداء ، وقد صبر عليهم كثيراً فيطلب منه الرأي ، وهو على ثقةٍ بحكمه راضٍ بإنصافه : (من اعتقدك ـ أعزك الله ـ عماداً له وظهيراً ، ورآك عتاداً وذخيراً ، طالعك بحاله وأمره ، وأطلعك على حلْوِه ومرِّه ، وخرج إليك عن سرِّهِ وجهرِهِ ، وناجاك بمختلجات صدره ، ومعتلجاتِ فكره ، مستريحاً إلى النجوى ، بالغاً عذر نفسه في الشكوى ، واثقاً بقضائِكَ الفصْلِ فيما يوردُهُ ، عالماً بحكمك العَدْلِ

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٣ / ص١٢٧ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٣ /ص ١٢٨ .

في ما يعدده ، راضياً بانصافك في ما يُقَدِّرة لديك ويَمُهَدُهُ ، والله لا يعدمني الاستظارَ برأيك أعشو إليه سراجاً ..)(١).

د - رسائل إعلامية :

وهي رسائل تصدر من الحكام بغرض إشهار أمر لأشخاص يهمهم معرفة هذا الأمر ، فمن أمثلة ذلك رسالة لعبدالله بن عبدالبر علي لسان المعتضد بن عباد يعلم فيها ابن أبي عامر بتعيينه لولي عهد جديد بدلاً من ابنه إسماعيل الذي قتله بيده بعدما اكتشف خيانته وغدره له .

ويظهر في الرسالة تحسر المعتضد وألمه لغدر ابنه له وهو الذي رعاه حق الرعاية ، وجعله ولياً لعهده دوناً عن بقية إخوته الآخرين ، غير أن هذا الابن لم تنفع معه المعاملة الطيبة فاتفق مع حثالته الغادرة ليستولى علي ملك أبيه ، فاكتشف الأب أمره ، فعزم علي قتله بعد أن عفا عنه في أمور كثيرة استحق فيها السجن أو القتل ، والرسالة توضح لقارئها صورة عقوق الابن لأبيه ، حيث شرح الفقيه أفعال الابن إسماعيل الدنيئة التي استحق عليها القتل ، وكان ذلك في رسالة مطولة ختمها الفقيه بإعلام ابن أبي عامر بنبأ تعيين الأمير محمد بن المعتضد ولياً جديداً للعهد بدلاً من الابن المقتول : (وقد استجلبتُ من الغرب ابني محمداً ، ملتزَم شُكرِكَ ومعظّم قدرك - وفقه الله - لأقعدهُ مقعَده ، وأسدّ به مسدَّه ، وأرجو أن يكون أوطأ أكنافاً وجوانب ، وأجمل آراء ومذاهب ، وأحمد أخلاقاً وضرائبَ ، واللّهَ أسأل الخيرَ في ما آتى وأذرُ ، وأقدِّم وأؤخِّر . نفثتُ - ياسيدي - نفثه مصدور ، وأطلتُ في الشرح والتفسير، خروجاً إليك عن هذا الخطب الخطير ، والملمِّ الكبير ، وهو خبرٌ فيه معتبر ..)(٢).

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٣ / ص١٣٥ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ / ص١٤٢ .

ويشتد الصراع في عصر ملوك الطوائف فنرى دائرة الغدر تتسع ؛ لتشمل أيضاً غدر الأخ بأخيه ، مما أدى إلى انعدام العلاقات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، فكل شخص يريد أن يأخذ مكان سابقه ، وإن لم يكن له الحق فيه ، فهذا الأمير ابن مجاهد يبايعه والده علي الملك في حضرته وحضرة أخيه حسن الذي كتم الأمر في نفسه وأظهر البيعة لأخيه حتى حانت الفرصة فانقلب عليه هو ومن اشتركوا في الأمر معه ، فيصور ابن مجاهد لابن أبي عامر فعلة أخيه الشنعاء بقلم الكاتب ابن عبد البر قائلاً : (فأجمعوا أيديهم والقضاءُ أمْلَكُ ، وأزمعوا كيدهم والقدر يضحك ، وتوخوا صدري من صلاة الجمعة ، فوافوني قد انسربتُ في كلّه الأمنِ ، ونمت في حِجر حُسْنِ الظنّ ، فما استيقظتُ إلاّ لصفح صفائحهم تُصلَتُ عليّ ، ولا انتبهت إلاّ لضوء رماحهم تُشْرعُ إليّ ..)(١). غير أن الله تعالى خيب مبتغاهم ، فأنجا ابن مجاهد من الموت المحتم .

ويختم الفقيه رسالته بتحسر ابن مجاهد على أخيه الذي شاطره النعيم، وقاسمه العيش الرغيد ، غير أن المكر السيء لايحيق إلاّ بأهله : (ونادمته النعمةُ فاعتلّ ، ومسَّهُ الخيرُ فمنع ، وغرَّتهُ الأماني فانخدع ، حتى ذاق وبال أمره (﴿ وَلاَ يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ ﴾)(٢).

وهذه رسالة تبين تمسك أمراء المرابطين بالدين الإسلامي والدفاع عن حوزته بالجهاد في سبيل الله ، وهذه الرسالة من إنشاء ابن أبي الخصال كتبها على لسان الأمير على بن يوسف يخبر فيها أهالي الأندلس بما عزم عليه من الخروج لمقاتلة العدو في عقر داره جهاداً في سبيل الله ، ودفاعاً عن

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق٣ /ص١٧٠ .

(٢) الذخيرة مج ١/ ق٣ /ص١٧١ .

بيضة الأراضي الإسلامية ، فيطلب من الأهلي الإكثار من الدعاء ورفع أكف الضراعة إلى الله ، بأن ينصر الله المسلمين على أعدائهم ، وطلب الأمير عليّ مؤشر حقيقي على إيمانه بأهمية الدعاء ، فلنقرأ له قوله بقلم ابن أبي الخصال : (فإنّا نعتقد اعتقاد يقين ، بقول رب العالمين ، في كتابه المبين لرسوله الأمين ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُم رَبِّي لَوْلاَ دُعَاَؤُكُمْ ﴾. إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء بخالص الثناء من أنفع الأشياء ، وأنجع الدواء فيما أعضل من الأدواء ..) (١).

هـ ـ رسائل الجدل الديني :

ومن ذلك رسالة أبي الوليد الباجي في الرد على رسالة الراهب الفرنسي الذي بعث إلى المقتدر بن هود يدعوه إلى النصرانية .

فجاء الرد من أبي الوليد في رسالة طويلة أخذ الفقيه فيها يناقش الراهب ويعارض دعواه مبيناً لهم ماهم عليه من جهل وضلال ، فما عيسى ابن مريم عليه السلام إلاّ (بشرٌ مخلوقٌ ، وعبدٌ مربوبٌ ، لا يعدد عن دلائل الحدوثِ من الحركةِ ، والسّكون ، والزّوالِ ، والانتقالِ ، والتغيير من حالٍ إلى حال ..)(٢).

ويمضي الفقيه في مناقشة ذلك الراهب فيما يعتقد به هو وقومه، مناقشة تظهر فيها سعه إطلاع الفقيه وتمكنه من العلوم الشرعية والفقهية ، وعلى معرفة مذهب هؤلاء القوم وما هم فيه من تخبط وضلال . كما يظهر في الرسالة قوة الأدلة والبراهين التي ذكرها الفقيه ليحاج بها الراهب وما يدعو

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٦٠٦ .

(٢) رسائل أندلسية ، تحقيق : د. فوزي سعد عيسى ، الطبعة الأولى ، الناشر (الأسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٩م) ص ٢٢٦ .

إليه ، فلنقرأ له قوله مثلاً : (ومن أغرب ما تأتون به قولُكم : إنَّه بذلَ دَمه في خلاصِ العباد ، وكيف يكون للرِّب دمٌ ، والدّمُ من الأجسادِ المحدثة المخلوقة، ولو حرَّرتم الكلام لزعمتم أنه دمُ الناسوت دون اللَّاهوتِ ، وللزمكم أن تقولوا : إن المصلوبَ هو النَّاسوتُ دون ابن الله - تعالى - لكنكم حققَّتم أنَّ إلهكم صلُب ومات ، وهذه صفة لا تصحُّ إلاّ على مُحْدَثٍ مخلوقٍ ..)[1].

وهكذا يمضي في مناقشته للراهب بما يدحض دعواه ، وفي ختام الرسالة يدعو الكاتب الراهب إلى النجاة من سخط الله ، وذلك بالدخول في الدين الإسلامي واتباع سنة نبينا محمد ﷺ قائلاً له : (وإنك أيها الراهب الذي نحرصُ على تخليصك من الضَّلالةِ إن سمعَت نُصْحنا لك ، وأطعتنا فيما أمرناك وردتَ الآخرة في جُملتِنا من أتباع محمد - عليه السلام - النبي المكرّم، فتسعد بشفاعتهِ ، وتشرب من حوضهِ ، وتسكن الجَّنة معه ..) [2].

* * *

---

(١) رسائل أندلسية/ ص٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق / ص٢٤٢ .

٣) ـ الرسائل الدينية :

وهي عند فقهائنا رسائل متنوعة الأغراض حيث إنها استوعبت بمضونها الإسلامي كل ما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى من التقرب إليه واجتناب كل ما يسبب غضبه وسخطه ، فشملت رسائلهم التحميد والتسبيح والثناء على الله بما هو أهل له ، وما يعتري المسلم من مشاعر الشوق لزيارة الحرمين الشريفين لأداء بعض الفرائض الدينية فيهما ، والحث على طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه من خلال الوعظ والإرشاد وابداء النصيحة ، والحض على مجابهة الأعداء وقتالهم وتصوير ما فعلوه بالديار الإسلامية الأندلسية لايقاظ الهمم حتى تقاتل العدو الذي خرب ديار المسلمين .

أ ـ التحميد والتسبيح والثناء على الله :

ونبدأ شواهدنا بنصوص التحميد والتسبيح والثناء على الله ، وهي عند فقهائنا إما فصول مستقلة ، كما عند ابن برد الأصغر ، وإما في مقدمات لبعض رسائلهم أو مؤلفاتهم ، وهي كثيرة لايمكن إحصاؤها وحصرها ، فنشرع أولاً بفصول التحميد والتسبيح عند ابن برد ، وهي فصول فريدة لم نجد لها مثيلاً عند غيره من كتاب عصره ، يمجد فيها الفقيه المولى سبحانه وتعالى ، ويقدسه على نعمه الوافرة التي يعجز الإنسان عن عدها ، يقول في بعض منها : (فصل : الحمدلله الذي علا وقهر ، وبطن وظهر وبحكمته قدر وأمر ، وبعدله قدّم وآخر .

فصل : الحمد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان علّمه البيان ، المحجوب عن الأبصار ، والفائت إحاطة الأفكار ، تعالى في الحجب العلا ، واطّلع على النجوى ـ وعلم السر وأخفى ـ خلق الخلق للفناء ، ثم يعيدهم للبقاء)(١).

---

(١)الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص٤٩١ .

وفصول الحمد عند ابن برد تصل إلى أحد عشر فصلاً ، كلها تدور حول حمد لله والثناء عليه ، بشكر آلائه وأنعمه ـ كما أنها تصور في ثناياها قدرة الله في كونه فهو الخالق ، المدبر ، المحيي والمميت ، فارج الهم ، وكاشف الغم ، مؤلف القلوب ، وجامع الأهواء ، وناصر الدين على الأعداء .

وهذه الفصول (لايبعد أن تكون مقدمات لرسائل في موضوعات مختلفة رفعت من تلك الرسائل ووضعت وحدها والذي يدفع إلى هذا الظن تنوع الموضوعات واختلاف الأساليب وميل عدد منها إلى التمهيد لموضوع معين ..)(٢).

وننتقل إلى النوع الثاني من النصوص التي وجدنا فيها تحميدات للفقهاء، وهي تتمثل في مقدمات رسائلهم أو مؤلفاتهم ، وهي كثيرة ومتعددة ، والأمر ليس مقصوراً على الفقهاء ، بل تعداه إلى غيرهم من الكتاب والأدباء ، فهي سمة للنثر الإسلامي ، وإن كنا نرى أن المؤلفات هي التي تلازمها مثل هذه المقدمات أكثر من الرسائل ، ولكثرة مثل هذه المقدمات عند فقهائنا ـ كما أسلفنا ـ فإنا سنكتفي بالإشارة إلى بعض منها ؛ لنذلل على مدى تعلق فقهائنا بالله سبحانه وتعالى طالبين عونه وبركته في كل عمل يقومون به ، وتطبيقاً لقوله ﷺ : (كل أمر ذي بال لايبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر) .

وإذا نظرنا في هذه المقدمات وجدناها تختلف في حجمها بين القصر والطول على حسب الموضوع المراد معالجته ، فمثلا مقدمة ابن حزم في رسالته (في مداوة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل) نجد المقدمة عنده قصيرة ومختصرة ، لطول الموضوع الذي يتناوله فيقول في هذه المقدمة (الحمد لله على عظيم مننه ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده وخاتم

---

(١) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ، ص ٩٤ .

أنبيائه ورسله وسلم تسليماً كثيراً ، وأبرأ إليه تعالى من الحول والقوة ، وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره ، ويخلص في الأخرى من كل هول وضيق)(١).

بينما نجد المقدمات في مثل هذا النوع تميزت بالطول في رسائل ابن أبي الخصال ، وهي تركز على حمد الله وشكره الذي أنعم عليهم بنعمة الإيمان ، وأنزل الفرقان على عبده محمد ﷺ الذي بلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، فجمع له ما بين المشرق والمغرب ، فيقول في رسالته التي تتحدث عن (إجازة مقرئ) : (الحمد لله الذي هدانا لفضيلة حمده - وحَدَانا إلى تمجيده بمجده ، وأنزلَ الفُرقَانَ على عَبدِه ، واختصَّهُ ببلاغِ رسالاتِهِ وَعَهْدِه، وقَلَّده التَّحذير من وَعيدِه ، والتَّرغيب في وَعْدِه ، فصَدَعَ بأمْرِه وانتهى إلى حدّه ، ودعا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى سبيل ربه ، وأطلَعَ الإيمانَ من مطلعِه وأهبَّهُ من مهبِّه ، وقام دونَهُ بصَادقِ طَعْنِه وضربِهِ ، وظاهرَ في إظهارِه بين حاليْ سلْمه وحَرْبِه ، إلى أن ذوى له ما بين شرقه وغربه)(٢).

ومن مقدمات مؤلفاتهم نذكر بعضاً من مقدمة ابن عبد البر في مؤلفه (بهجة المجالس) حيث يقول فيها : (أما بعد : فإن أولى ما ابتدئ به كتاب، وافتتح به خطاب ، حمد الله علي جزيل آلائهِ ، وشُكْرِه لجَميلِ بلائه ، ثم الصلاة على خاتم أنبيائه وعاقب رسله ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وسلام عليهم في العالمين وبركاته ، والحمد لله الذي هدانا للإسلام ، وفضلنا على جميع الأنام ، وجعلنا من أمة نبيه عليه الصلاة والسلام) (٣).

وللفقيه أبي بكر محمد الطرطوشي مقدمة أدبية في صدر كتابه (سراج الملوك) تنضوي على حمد مؤلفها لله العلي القدير ، ويلحظ تأثر المؤلف بآي

---

(١) رسائل ابن حزم ١/ ص٣٣٣ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص ١٩٥ .

(٣) بهجة المجالس ق ١ / مج١ / ص ٣٥ .

الذكر الحكيم ، فيقول في بعض من هذه المقدمة : (الحمد لله الذي لم يزل ولايزال ، وهو الكبير المتعال ، خالق الأعيان والآثار، ومكور النهارعلي الليل، والليل علي النهار، العالم بالخفيات وما تنطوي عليه الأرضون والسموات)(١).

ويكتفي أبو القاسم محمد الكلاعي في كتابه (إحكام صنعة الكلام) بمقدمة قصيرة يحمدالله فيها، ثم يصلي على نبيّه المصطفى قائلاً : (الحمد لله الذي إذا أراد أمراً انفرج بابُه ، واتفقت أسبابه ، والصلاة والسلام علي محمدٍ خيرته ، وعلى أبرار عترته وسلم تسليماً) (٢).

وهكذا تنوعت مقدمات فقهائنا التي اشتملت على حمد الله والثناء عليه من حيث الطول والقصر والتوسط ، غير أنها اتفقت على اتخاذ المنهج الإسلامي سبيلاً فيها فهي تعتمد على الاقتباس من القرآن الكريم - والاستعانة ببعض مفرداته ؛ لتكوين جمل عباراتهم - وهذا الأمر يشترك فيه الفقهاء وغيرهم، فـ (باب افتتاح المؤلفات والكتب بمقدمات الحمد باب واسع قديم بالنسبة لتاريخ النثر العربي على اختلاف موضوعاته وأساليبه)(٣).

ب - الفرائض الإسلامية وتأديتها في الأماكن المقدسة :

ومن الرسائل الدينية رسائل عبر فيها أصحابها الفقهاء عن مشاعرهم الدينية ورغبتهم في زيارة الحرمين الشريفين ، لتأدية فريضة الحج والعمرة والصلاة فيهما - والتشرف بزيارة مسجد رسول الله ﷺ والسلام عليه .

ومن تلك الرسائل رسالة لأبي القاسم بن الجد أنشأها علي لسان من صدر عن بيت الله الحرام وزيارة مسجد نبيه عليه الصلاة والسلام ، يعبر

---

(١) سراج الملوك /ص ٢ .

(٢) إحكام صنعة الكلام /ص ٢٩ .

(٣) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين / ص٩٥ .

فيها عن مشاعره بعد زيارته للنبي عليه السلام في مسجده - وما ملأه هذا المنظر من هيبة وجلال في نفسه ، وازدياد محبة لشخصه الكريم ﷺ - فيقول عن هذه المشاعر الجياشة : (ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة ، وقد ملأتْ هيبتُكَ ومحبتُكَ أرجاء فكري ، وفضاء صدري ، وغشيني من نور برهانك ما بهر بي ، وعمر قلبي ..) [١].

ثم يعرض الفقيه مشاعر هذه الشخصية بعد مغادرتها مسجد رسول الله وعودتها إلى ديارها وما اعتراها من الحزن والأسف لبعدها عن هذا المكان الطاهر الشريف : (لحقني من الأسف لبعد مَزارك ، والحنين إلى شَرفِ جوارك ، ما أودع جوانحي التهاباً ، وأوسع جوارحي اضطراباً ، وأشعر أملي عَوْداً إلى محلّك المعظم وإياباً ، وكيف لا أحنّ إلى قربك ، وأتهالك في حبِّك ، وأعفِّرُ خدي في مقدَّسِ تُرْبك ..) [٢].

ومن رسائل فقهائنا التي تصور شوق صاحبها المضطرم لأداء فريضة الحج وزيارة الروضة المحمدية الشريفة رسالة لابن أبي الخصال مضمنها روحاً إيمانية عميقة ، ومبدياً أسفه وحزنه على عدم زيارته لتلك الديار المقدسة : (وكيف لا أقضي حزناً ، ولا أرسل دموع الوجد والتلهف مزناً : أم كيف ألذّ حياةً ، وأؤمل نجاةً ؛ ولم أعبر إلى زيارتك لجةً ، ولا موماةً ، ولا أخطرتُ في قصدك نفساً أنت مُنْقذُها ومُحْييها ، ولا مَثلتُ بمعاهدِك المشَهّدةِ ، ومشاهدك المطهّرةِ أُحيّيها ، ولانزلتُ عن الكور كرامة للبقعة المقدسةِ التي ثَوَيْتَ فيها)[٣].

ويبتهل الفقيه إلى الله عز وجل بأن يشرفه بقضاء الفريضة وزيارة الأماكن المقدسة بدعاء يشع منه الحرارة الإيمانية وصدق الرغبة في تأدية

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٢٨٧

(٢) المصدر السابق .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال /ص ٣٦٥ .

مافرضه الله على الأمة الإسلامية : (اللهم شَرِّفْني بِقَضَاءِ الفَرِيضة - ومَضاءٍ في تلك الأرضِ الأريضة - اللهم لاتَحْرِمْني طيب طَيْبَة ، وانخْ هذه الشّيبة بباب بني شَيْبه ، واغسِلْها هناك من ذُنوبها وخطاياها ..)[١]

جـ - الوعظ والإرشاد والوصايا :

وغرض الفقهاء من هذه الرسائل النصح والتوجيه ، ومحاولة تعديل الأنماط السلوكية لدى الفرد والمجتمع بجعلها نابعة من التعاليم الإسلامية .

ويلحظ على مثل هذا النوع من رسائل فقهاء الأندلس تميزها بالإيجاز والاختصار والتركيز على الموضوع المراد تناوله حتى لايشعر القارئ بالملل أو السأم - كما أنها كغيرها من الرسائل الدينية تتكئ على الاقتباس من مصدري الشريعة الإسلامية ، وجعلهما منطلقاً لرسائلهم .

ومن أبرز هذه الرسائل رسالة لابن برد الأصغر يحث فيها المسلمين على فعل كل ما يرضي المولى سبحانه وتعالى ، ويحذر من كل ما يستوجب غضبه وسخطه ، إذ يقول : (إن أفضلَ ما تناجى المسلمون به ، ووجهوا بصائرهم إليه ، وصححوا نياتِهم فيه ، ولم يَلْوِهِم لاوٍ عنه ، ولا لَفَتَهُمْ لافتٌ دونه، ما قَرَّبَ من رضي الله ، وأبعد من سُخطِهِ ، وعُمِلَ فيه بأمره ، واحتسبَ فيه خلافةُ رسولِه في أُمّته ..)[٢].

ويحذر ابن حزم في رسالته (التلخيص لوجوه التخليص) المسلمين من إبليس وأتباعه وينصحهم بعدم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن في ذلك مغضبة للرب ، فيقول : (فخذوا حذركم من إبليس وأتباعه في هذا الباب ، ولاتدعوا الأمر بالمعروف وإن قصرتم في بعضه ، ولاتدعوا النهي عن

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٣٦٧ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص٤٩٧ .

منكر وإن كنتم تواقعون بعضه ، وعلموا الخير وإن كنتم لاتأتونه كله ، واعترفوا بينكم وبين ربكم بما تعملونه بخلاف ما تعلمونه ، واستغفروا الله تعالى منه دون أن تعلنوا بذكر فاحشة وقعت منكم ..) (١).

وهكذا يمضي ابن حزم في نصحه ووعظه وإرشاداته التي لو اتبعها المسلمون في أي زمان ؛ لكسبوا رضي الله سبحانه وتعالى عنهم ، واستحقوا بها جنات النعيم .

والفقرات الوعظية عند ابن حزم عديدة ومتنوعة ، وهي مبثوثة في رسائله صاغها الفقيه بطريقة أدبية بفقرات قصار ، وعبارات مختصرة مقيدة .

ويعظ أبو بكر الطرطوشي الملوك حاثاً إياهم على تقوى الله والتمسك بالتعاليم الإسلامية ومحذراً إياهم من الغرور والتكبر وعدم الالتفات إلى مظالم الشعب ؛ لأن في ذلك غضب الله ، ونذير شؤم بفساد ملكهم ، ويضرب مثلاً بنبي الله سليمان عليه السلام وما آتاه الله من النعيم والملك العظيم ، ومع أن هذا المُلْك الذي لم يؤت لغيره لم يشعر قط بالغرور أو التعالي ، فقد علم أن هذا المُلْك ابتلاء من الله ؛ ليعلم أيشكر أم يكفر ، يقول الطرطوشي في ذلك مخاطباً الملوك داعياً إياهم للتأمل في قصة سيدنا سليمان : (تأملْ بعقلكَ هل آتاكَ اللَّهُ من الدنيا ما أتى سليمانَ بن داود عليهما السلام حيث أتاه ملك جميع الدنيا والأنس والجن والطير والوحش « والريحُ تَجْري بأمرِهِ رخاء حيث أصاب » ، ثم زاده الله ما هو أعظم منها فقال تعالى : ﴿ هذا عطاؤُنا فامننْ أو امسكْ بغير حساب ﴾ ، فو الله ماعدّها نعمة كما عددتموها، ولاحسبها رفعة ومنزلة كما حسبتموها ، بل قال عند ذلك : « هذا من فضل

---

(١) رسائل ابن حزم ٣ /ص١٨٠.

ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر » ، وهذا فصل الخطاب لمن تدبر أن يقول له ربه في معرض المنة ، « هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب » ، ثم خاف سليمان عليه السلام أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم هذا ..) (١).

أما عن وصايا فقهاء الأندلس فهي لاتبعد عما في وعظهم ، فهم عادة ما يوصون المسلمين بتقوى الله ، ومخافته في السر والعلن ، وابتغاء مرضاته ، ففي ذلك التجارة الرابحة في الدنيا والآخرة ، يقول ابن أبي الخصال في وصيته للمقرئين : (عليكم بتَقْوى الله ، فهي نظام مماتكم ومَحْيَاكم ، وقوامُ دينكم ودنياكم ، والتّجارة الرابحة التي تُشْرون ، والغاية الطّامحةُ التي إليها تَجْرُون ، وتأدّبُوا بأدب الله تعالى فيما يُتلى وتتلون ، ﴿ ولا تولوا عنه وأنتُم ُمعرِضون ﴾ ، ﴿ ولا تكُونوا كالَّذِينَ قالوا سَمِعْنَا وَهمْ لاَيَسْمَعُونَ ﴾)(٢).

ويوصي ابن العربي في كتابه (قانون التأويل) طلابه بعدة وصايا دينية علمية منها : (فاحفظ لسانك عن الكذب ، واعلمْ أنَّه المعبِّر عنك ، المعبُر لك عن طريقِ العلم ، ورأس العمل ، وفيه خصلَةٌ واحدةٌ هي الصدق ، وفيه نحو من عشرين آفةَ أمهاتها أربعٌ هي : الكذبُ ، والغيبةُ ، والمراءُ ، والمزاحُ ، وبكفِّك عن هذه الأربعة يهون عليك الكفّ عن باقيها ..) (٣).

كما يوصي طلابه - أيضا - بتحري الألفاظ الصحيحة لأحاديث الرسول ﷺ عند روايتها : فإن التزموا بذلك فقد تيسر لهم بتوفيق الله فتح (أبواب الرحمة ، وجرت على لسانك ينابيع الحكمة ، وقرب لك امتثال ما بقي عليك من المأمورات ، ويسر عليك اجتناب سائر المنهيات ، ودعيت عظيماً في ملكوت الأرض والسموات ..) (٤).

---

(١) سراج الملوك /ص ٦ .
(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص٢٠٥ .
(٣) قانون التأويل / ص ٣٨٣ .
(٤) المصدر السابق / ص٣٩٢ .

د ـ الجهاد :

شارك فقهاء الأندلس إخوانهم الكتّاب في تصوير الأحداث التي مرت بالشعب الأندلسي ـ إبان عصري الطوائف والمربطين ـ وما أنزله الأعداء بهم من ضروب الاعتداء والتنكيل وبديارهم من التدمير والخراب .

وإذا رجعنا إلى رسائلهم وجدناها متنوعة الأغراض عديدة المحاور ، فمنها ما يحمل لهجة التحريض وحث الحكام والمسلمين على قتال هؤلاء الأعداء الغاشمين ، فهي دعوة صريحة منهم إلي المسلمين بأن يرفعوا لواء الجهاد في سبيل الله واسترجاع ما سلبه الأعداء من بلادهم ، ومنها مايصور أحوال مسلمي البلاد المنكوبة ، وما أصابهم من هلع وخوف جراء ما فعله العدو بهم وبديارهم ، ومنها ما يعطي صورة لما آلت إليه بيوت الله بعد أن عاث فيها الأعداء خراباً وتدميراً وحولوها إلى كنائس لهم ، وأماكن لعباداتهم الخاصة ، فيترحم الكتاب على حال الإسلام والمسلمين فيها .

كما نجد لدى فقهاء الأندلس رسائل تقابل النوع السابق ، وهي التي تصور الفرح والبهجة بانتصار المسلمين على الأعداء وبعودة المدن والحصون والقلاع المسلوبة إلى حظيرة الإسلام والمسلمين .

ونستعرض شواهدنا أولاً بما يتعلق بالنوع الأول من خلال رسالة لأبي حفص الهوزني خاطب فيها المعتضد بن عباد يحضه على الجهاد واسترجاع مدينة (بربشتر) التي سقطت في يد الروم سنة ٤٥٦هـ فضيقوا على سكانها الخناق ، وأذاقوهم الويل ، ولما أحس الهوزني وغيره بفداحة هذا الخطب قرروا التصدي لهذا العدوان ، فأطلقوا ألسنتهم شعراً ونثراً يستصرخون ولاة المسلمين ويحضونهم على الإسراع بتجهيز الجيوش لإنقاذ ما يمكن انقاذه من هذه البلاد المفجوعة ، لذلك وجه أبو حفص الهوزني رسالته إلى المعتضد بن

عباد الذي أمل فيه الخير والنجدة في الوقوف في وجه العدو الغاشم ، فاستفتح رسالته بأبيات من الشعر بيّن فيها فداحة الخطب وتفاقمه على أهالي مدينة (بربشتر) ، راجياً من المعتضد أن يلتفت إلى جوابه ولو لساعة ، ففيه يظهر الداء الذي أصاب الإسلام والمسلمين في تلك المدينة ، وفيه أيضاً الدواء الناجع المتمثل في الجهاد وتوحيد كلمة المسلمين .

ثم يمضي شارحاً أحوال المسلمين في (بربشتر) رغبة التأثير في نفس المعتضد ، ليثأر ويأخذ بحق المسلمين هناك ، فيقول : (وكتابي عن حالة يشيب لشهودها مَفْرِقُ الوليد ، كما يغبرُّ لورودها وجه الصعيد ، بَدْؤها ينسفُ الطريفَ والتالد، ويستأصل الوليدَ والوالدَ ، تَذرُ النساءَ أيامي ، والأطفال يتامى) (١).

ويقول في فصل آخر : (كأنَّ الجميع في رَقْدة أهلِ الكهف ، أو على وعدٍ صادق من الصّرفِ والكشف ، وأنى لمثلها بالدفاع عن الحريم ، ولما نمتثل أدب العزيز الحكيم في قوله : ﴿ ولَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنّ اللَّهَ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾) (٢).

وبعد استعراضه لصورة العذاب التي لقيها أهالي (بربشتر) يمضي مخاطباً المعتضد في جرأة طالباً منه رفع لواء الجهاد ، فيقول : (فانتهزْ فرصتها فقد بان من غيرك العجزُ ، وطبق مضاربها فكأن قد أَمْكنَك الحزّ، ولا غرو أن يُسْتَمطر الغمامُ في الجدب ، ويُسْتَصْحَب الحسام في الحرب ، فالسّهامُ تطيشُ فتختلف ، والرماحُ تلينُ وتنقصف ..) (٣).

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٨٤ .

(٢) المصدر السابق .

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص ٨٥ .

ويلحظ أن الفقيه قد استخدم أسلوب المدح في خطابه السابق ، كما استخدم ذلك في أبياته الشعرية التي تعالج الموضوع ذاته - وكانت رغبة الكاتب في ذلك هي إغراء الممدوح والتأثير عليه ؛ ليقوم بإنقاذ المدينة المنوبة بعد أن عجز غيره عن هذا الشرف .

ويكتب عبدالله بن عبدالبر رسالة طويلة على ألسنة أهالي (بربشتر) يصف فيها حال المسلمين وما آلوا إليه من سوء الحال ، ولطول هذه الرسالة التي تشرح معاناة المسلمين هناك نجد ابن بسام يقتطف منها فصولاً ، ومن هذه الفصول نسمع صرخة مدوية أطلقها الأهالي يستغيثون فيها بولاة المسلمين طالبين النجدة وانقاذهم من الكرب العظيم الذي هم فيه : (أما بعد: حرسكم اللهُ بعينه التي لا تنام ، فإنّا خاطبناكم مستنفرين وكاتبناكم مستغيثين ، وأجفاننا قَرْحى ، وأكبادُنا حرّى ، ونفوسنا منطبقةٌ ، وقلوبنا محترقةٌ ، على حين نشرَ الكفر جناحيه ، وأبدى الشرك ناجذيه ، واستطار شَرَرُ الشرِّ ، ومسَّنا وأهلَنا الضُّرّ ..)(١).

ويصور الفقيه المأساة وما فعله العدو الشرس بالمسلمين ، فيقول على ألسنة الأهالي : (وهتك ستر الحُرم المحجيات ، والبناتِ المخدَّرات ، وماتكشّف من تلك العوراتِ المستَّرات ، فلو رأيتم - معشَر المسلمين - إخوانكم في الدين ، وقد غلبوا على الأموال والأهلين واستحكمتْ فيهم السيوفُ ، واستولت عليهم الحتوف ، واثخنتهم الجراح ، وعبثتْ بهم زُرْقُ الرِّماح ، وقد كثر الضجيج والعويل والنياح ، ودماؤُهُم على أقدامهم تسيل ، سيلَ المطرِ بكلِّ سبيل ..)(٢).

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ / ص١٧٤ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٣ /ص ١٧٥.

ويبلغ الألم ذروته عندما يصف الفقيه حال بيوت الله في تلك المدينة وقد حولها الأعداء إلى كنائس ، فلم يعد يُسْمع فيها صوت الحق : (وما ظنّكُم - معشر المسلمين - وقد رأيتم الجوامعَ والصوامعَ بعد تلاوة القرآن ، وحلاوة الأذان ، مطبقةً بالشرك والبهتان ، مشحونةً بالنَّواقيسِ والصُّلبان ، عوضاً من شيعةِ الرَّحمن ، والأئمة والمتدينون ، والقَومَةُ والمؤذّنون ، يجرُّهُم الأعلاج كما تجرُّ الذبائح إلى الذابح ، يُكبّون على وجوههم في المساجدِ صاغرين ..)(١).

فيا لها من مأساة عظيمة صورها الفقيه بمداد من قلب يتقطر حزناً وأسفاً على المسلمين هناك ، لقد وضع الفقيه يده على الجرح ؛ ليحرك القلوب الغيورة على الإسلام والمسلمين ، فيستنهض الهمم ، ويستثير العزائم ، معلناً الجهاد ضد من عاث في أرض (بربشتر) فساداً وخراباً .

ولا شك أن الفقيه ابن عبد البر أجاد كثيراً حينما جعل رسالته على ألسنة الأهالي ، فذلك أبلغ في التأثير على من يقرأ هذه الرسالة .

ويلحظ أن الفقيه لم يوجه رسالته لشخص بعينه كما فعل سابقه ، بل نراه يوجه خطابه لعامة المسلمين ، ويتضح ذلك في استخدامه لكلمة (معشر المسلمين) في كل فصل من فصول رسالته . مما يؤكد على فداحة الخطب وحاجة الأهالي هناك إلى توحيد كلمة المسلمين والمبادرة السريعة لانقاذهم .

ولا ريب في أن هاتين الرسالتين السابقتين كان لهما أبلغ التأثير في قلوب ولاة المسلمين ، فقد نهض أحمد بن هود الملقب بالمقتدر بالله ، بعد أن شعر أنه فرط في (بربشتر) وتخاذل أمام العدو فجهز جيشاً مكوناً من

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ / ص١٧٧ .

رجاله ورجال عباد واتجهوا جميعاً إلى تلك المدينة المنكوبة ليفكوا حصارها وينقذوها من أنياب الأعداء ، فكان لهم ما أرادوا بعون الله ، حيث انتصروا على العدو فعادت (بربشتر) إلى خظيرة الإسلام مرة أخرى(١).

وحينما ننتقل إلى العصر المرابطي نرى الدولة قد تطبعت بطابع الدين الإسلامي والتزمت بأوامره وتعاليمه فلم يكن لأمرائها همٌّ إلاّ الجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعداء الدين ، ولم يعرف عنهم التخاذل أو التردد أمام الأعداء ، فهذا ابن أبي الخصال يكتب رسالة يوجهها إلي أهالي الأندلس علي لسان أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ؛ ليعلمهم بما عزم عليه الأمير من الجهاد في سبيل الله ضد العدو في عقر داره ، ويطلب منهم التضرع إلى الله برفع الأكف بالدعاء بأن ينصر الله المسلمين على الأعداء ، وعليهم أن يتحروا أوقات إجابة الدعاء ؛ لأن (الدعاء إذا وافقَ إجابةً يمضي حيث يَنْبُو الحديد المذرَّب ، ويَكْبُو العَديدُ المتَهيِّب ، ولِذَلِكُم ما رأينا مُخاطَبَتَكُم مُستنفرين دُعاء كم وأدعية من وراءكم من خيار المسلمين وصالحي المؤمنين ؛ لأنْ يَمُدّنا اللّهُ بِالنَّصر والتَّمكين والملائكةِ المؤمنين ، ويَقْطَع بكلٍّ من يُريد القطع بنا عن حماية الدين ..)(٢).

ومما يؤكد إيمان هؤلاء الأمراء وإخلاصهم في الجهاد في سبيل الله ما بدا على الأمير عليّ من الغضب حالما سمع بهزيمة فرقة من جيوشه في إحدى معاركها أمام العدو ، فقد ظهرت غيرته الدينية بكل وضوح ، حيث كتب ابن أبي الخصال رسالة على لسانه وجهها إلى هذه الفرقة المهزومة يوبخها فيها على تخادلها وتراجعها أمام العدو ، وينعتها بأوصاف ويخاطبها بأسلوب أقرب ما يكون من أسلوب الهجاء فمن ذلك قوله : (يا أذلّ من

---

(١) انظر خبر استرجاع مدينة بربشتر في الذخيرة مج ١ / ق ٣ / ص١٨٩ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص ٦٠٦ .

الحضيضِ المعبَّدِ الموطوء ، ويا أعداءَ أنفسِهم الأمَّارة بالسوء ، ويا خافضي أبصار المؤمنين بالخَبَر الممقوتِ عنهم المشنوء ، ويا من يجبُ على المسلمين اجتنابُهم كاجتنابِ البَعيرِ الجرب المهنوء ..)(١).

ومن يتأمل الرسالة يلحظ فيها غضب كاتبها ، وذلك يظهر في ألفاظه التي احتد فيها كثيراً في مخاطبته لهؤلاء العسكر ، وهذا نابع من غيرته الإسلامية على الإسلام والمسلمين ورغبته العارمة في انتصارهم على الأعداء .

ولما تغلب العدو على جزيرة مَيُورقَةَ (٢) كتب الفقيه أبو محمد عبدالحق بن عطية رسالة خاطب فيها أحد زعماء الدولة المرابطية يشرح له ما فعله العدو بها آملاً العون والمساعدة منه في إنقاذ إخوانهم المسلمين في ذلك المكان ، فيقول واصفاً حاله عند وصول هذا النبأ المفجع إليه : (وإنّي - أقرّ اللّهُ عَيْنَك - لأتردّدُ وقد قَصّرَ عن تَمَلْمُلي السليم ، وأتجلَّدُ وفي نفسي المُقْعَدُ المقيم بهذا الصَّادم الهادم ، والنَّبَأِ القاصم ، الذي أطْفَأَ نُورَ الحياةِ وأخبَاهُ ، وأوجبَ أن يُنادي كُلَّ مؤمنٍ واحرّ قلباه ..)(٣).

ويصف حال الإسلام والمسلمين فيها قائلاً : (فيا لله لما كان فيها من إعلان تَوحيدٍ عاد همساً ، ويوم إيمانٍ آض أمْساً ، وبارقة كُفر طَلَعَتْ شَمْساً ، وصباح شَرْعٍ أظلم بدياجي الشِّرك وأمسى ، ونجوم أصبح حرمُها مُنْتهباً ، وفرَّقَتْها يُد الغَلَبة أيدي سَبَا ، ولخفرات أذالَ الشِّركُ صِبَاهَا ، ولإخوةٍ عفَّرَ منهُم القتلُ سواعدَ وجباها ، ومزَّقَهُم السّيفُ كُلَّ ممزّق ..)(٤).

---

(١) رسائل ومقامات أندلسسية ، تحقيق فوزي سعد عيسى ، الناشر (الأسكندرية : منشأة المعارف) ، ص ١١٣ .

(٢) مَيُرقة : هي جزيرة في البحر الزقاقي في شرقي الأندلس . انظر الروض المعطار / ص٥٦٧ .

(٣) قلائد العقيان ٣/ص٦٦٧ .

(٤) المصدر السابق .

ثم يختم الفقيه رقعته بأبيات من الشعر يوجهها إلي أمير المسلمين يعلن فيها تعلق آمال المسلمين وطموحاتهم فيه ، لإنقاذ تلك الجزيرة من براثين الشرك والكفر ، فيقول في مطلع قصيدته :(١).

ونحو أميرث المسلمينَ تطامحتْ نواظرُ آمالٍ وأيدى رغائبِ

من النَّاسِ تَسْتَدْعي حَفيظةَ عَدْلهِ لِصَدمةِ خطبٍ في مَيُورقَ ناصبِ

وبمقابل هذه الرسائل التي تصور مأساة بعض البلدان والمدن الأندلسية نجد رسائل أخرى تصور فرح المسلمين واستبشارهم حال انتصارهم على الأعداء واسترجا ع ما سلب من أيديهم ، فأخذ كتابها يهنئون ولاة المسلمين ، والأمة الإسلامية على هذا النصرالمؤزر الذي حققه الله للإسلام والمسلمين في كل مكان ، ومما كتبه فقهاؤنا في هذا الجانب فصلا من قطعة احتفظ فيها ابن بسام في كتابه (الذخيرة) لأبي عبيد البكري يهنئ فيها المعتمد بن عباد بالفتح الذي كان سنة ٤٧٩هـ ، ويقصد به الانتصار الذي حدث بعد موقعة الزلاقة ، فيبدأ أبو عبيد قطعته بإسقاط ألفاظ المديح والإطراء على المعتمد مقرونة بالدعاء له فقال : (أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر الجميل ، ذي الأيادي الغرِّ ، والنِّعم الزهر ، وهنأ ما منحه من فتحٍ ونصر ، واعتلاء وقهر ..) (٢). فيا له من فتح أسعد تغر الدهر، وصفع به وجه الشرك، فتواري العدو هارباً من قوة المسلمين : (فتوحٌ أضحكتْ مبسمَ الدهر ، وسفرت عن صفحة البشر، وردّت ماضي العمر، وأكبَتْ واري الكفر، وهزّت أعطافَ الأيام طرباً ، وسقت أقداح السرور نخباً ، وثنتْ آمال الشرك كذباً ، وطوت أحشاءَ الطاغية رهباً ...)(٣).

---

(١) المصدر السابق الجزء نفسه / ص ٦٦٨ .

(١) الذخيرة مج ١/ ق ٢ / ص٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق .

ويبرز الفقيه ابتهاج الدين الإسلامي بهذا الانتصار حيث قال : (فغدا الدين جديداً ، والإسلام سعيداً ، والزمان حميداً ، وعمود الدين قائماً ، وكتابُ اللّهِ حاكماً ، ودعوةُ الإيمانِ منصورة ، وعينُ الملك قريرة ..)(١).

وهذا غاية ما كان يطمح إليه الكاتب الفقيه من أن يعود للإسلام سابق عهده من القوة والغلبة والتمكين ، فيختم رسالته بحمد الله محقق النصر ، وناصر الدين بقوله : (فلله الحمد والإبداع والإلهام ، وله المنّة وعلينا متابعة الشكر والدوام ..) (٢).

ويهنئ ابن أبي الخصال أحد ولاة المرابطين القواد على حملته الناجحة في ديار العدو ، فيبدأ بحمد الله الذي نصر جنده ، وهزم الأعداء وحده ، فيقول : (والحمد لله على ما كتب له من جلالةِ الآثارِ ، وبُعْد الصِّيتِ في الأنجاد والأغوار ، وهو بفضلهِ يسموبه إلى أشرفِ الأخطارِ ، ويُخْدِمُ همَّتَه العَلِيَّةَ نوافذَ الأقدارِ ، فهو الكفيلُ بقواصِي الأوطار ...)(٣).

ثم يعبر عن فرح النفوس المسلمة وابتهاجها لهذا النصر ، فيقول : (ومن الله أستوهبُ المعونة على شُكرهِ ، والنهوضَ بلوازمِ أمرهِ ، والنفوسُ مستشرِفَة ، وليومِ ورودهِ الحميد معترفة ..) (٤).

ومن خلال ما تقدم يتبين جلياً ما تنطق به هذه النماذج وما تحمله من طابع إسلامي ، وشعور بالعزة والأنفة العربية والإسلامية التي تأبى الظلم والذلة من أعداء الإسلام ، فترى أصحاب هذه الرسائل يسعون جاهدين

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص٢٣٧ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال / ص٥٤ .

(٤) المصدر السابق.

يحثون أبناء الإسلام على النفير والجهاد ، مستنهضين الهمم الإسلامية لأخذ الثأر من الأعداء المتربصين بالإسلام والمسلمين الدوائر، عليهم دائرة السوء .

وبذلك تنتهي النماذج المتعلقة بالرسائل الدينية ، وهي بلاشك تحمل في مضمونها كثيراً من المعاني الإسلامية فقد ارتبطت ارتباطاً قوياً بالدين الإسلامي وتعاليمه ، فهي عبارة عن رسائل يحمد فيها منشؤوها وكاتبوها المولى سبحانه وتعالى على نعمه التي لاتعد ولاتحصى ، كما أنها تعبر عن مشاعر جياشة راغبة في تأدية فرائض الله في الحرمين المقدسين في الديار المقدسة ، مبينة لحزن من لم يستطع الذهاب إلي تلك الديار المعظمة ، ومنها رسائل تحث على إتباع السلوك الإسلامي القويم والبعد عن كل ما يشين الأخلاق ويبعد عن المولى سبحانه وتعالى .

وأخيراً عالجت بعض الرسائل الدينية غرض الجهاد في سبيل الله ؛ لرفع راية الدين الإسلامي خفاقة ولصدّ هجوم الأعداء المتكرر على بلادهم الأندلسية.



٤)- الرسائل الوصفية :

وفيها يصور الفقهاء جوانب عديدة تتصل بالحياة الأندلسية ، فإذا كانت الحياة الطبيعية في الأندلس قد استهوت الفقهاء ، فنظموا فيها الشعر مصورين ما لفت نظرهم من جوانب الروعة والجمال والبهاء ، فإن ذلك لم يمنعهم من أن يصوروها - كذلك - عبر رسائلهم النثرية ، يبدون فيها إعجابهم بمخلوقات الله في كونه ، وقدرته العظيمة على الإبداع والتصوير ، فجاءت رسائلهم متنوعة متعددة الأغراض ، كوصفهم للطبيعة الخلابة وما فيها من جمال المنظر ، والخضرة النضرة ، وكوصفهم لليل وهالته السوداء ، وقد التحف بنجومه المتلألئة البراقة ، وكوصفهم للقلم والمداد والكتاب أدوات الأديب التي يستخدمها في كتاباته ، وكوصفهم للحروب والمعارك وما تخلفه من دمار وخراب ، وبعض الأدوات المستخدمة فيها ، وكوصفهم - أيضاً - لرحلاتهم التي يقومون بها من مكان لآخر ، إلى غير ذلك من جوانب حياتهم الطبيعية والاجتماعية .

ونستهل الشواهد بنموذج لأبي عمر الباجي يصف فيه غيثا نزل بعد طول قحط أصاب أرضهم ، فيبدأ رسالته (بتقرير القواعد المعروفة في العقيدة الإسلامية والتي تتعلق بحكمة الله تعالى وتصرفه في الكون ، إذ لايحصل شيء إلاّ بقضاءوقدر وبحكمة بالغة قد لا يدركها البشر ، فإذا انقطع الغيث وحل الجدب فحكمة ينبغي أن يلتفت الناس إليها)(١).

فيقول في ذلك أبو عمر الباجي : (إن لله تعالى قضايا واقعة بالعدل ، وعطايا جامعةً للفضل ، ومنحاً يبسطها إذا شاء إنعاماً وترفيها ، ويقبضها إذا أراد إلهاماً وتنبيهاً ، ويجعلها لقومٍ صلاحاً وخيراً ، ولآخرين فساداً

---

(١) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين /ص ٢٥٦ .

وضيراً ، ﴿ وهو الذي يُنَزِّلُ الغيثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنِطُوا وينشُر رَحْمَتَهُ وهو الوليُّ الحميد ﴾)(١).

ثم ينتقل ليصور القحط وأثره على الإنسان والنبات قائلاً : (وإنّه كان من امتساك السقيا وتوقّف الحيا ، ما رِيعَ به الآمنُ ، واستُطِيرَ به السَّاكن، ورجفت الأكبادُ فزعاً ، وذُهِلَت الألبابُ جَزعاً ، وأذكتْ ذُكاءُ حَرَّها ، ومَنَعتِ السماءُ دَرّها ، واكتست الرياض غُبْرَة بعد خُضْرَةٍ ولبست شحوباً بعد نَضْرة ..)(٢). إلا أن هذا الأمر لم يدم بفضل الله ومنِّه على عباده فهو الرؤوف الرحيم ، إذ نزل الغيث ، وانتعشت الأرض ببركة الله ، فأصبحت الأرض مخضرة بعد موتها (ثم نشرَ تعالى رحمته ، وبسط نعمتَهُ وأتاح منّتَهُ، وأزاح محْنَتَهُ ، فبعث الرياحَ لواقح ، وأرسل الغمامَ سوافحَ ، بماء دَفَقٍ ، ورواءٍ غَدَقٍ من سماءٍ طَبَقٍ ، استهل جفنها فدمع ، وسمح دمعها فهمع ، وصاب وبلها فنقع ، فاستوفت الأرض ريًّا ، واستكملتِ من نباتها أثاثاً ورئياً ..)(٣).

فلا يخفى على متأمل الرسالة ما فيها من المعاني الإسلامية العميقة ، فكل ما يحدث في هذه الكون من تدبير المولى سبحانه وتعالى ، وما يأتي من جدب أو قحط على الناس ، فهو ابتلاء من رب العالمين ، وما يأتي من مطر وخير فهو نعمة من الله يسبغها على من يشاء من عباده .

ويستأثر منظر الربيع وتفتح كمائم الأزهار بألباب الأندلسيين ، فيأخذون الأزهار ، ويعقدون لها المجالس ؛ لتتحاور فيما بينها ، وتتشاور في أمرها لمن تعطى حق الزعامة والرئاسة عليها ، فيظهر فيها ألواناً من المفاخرات

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

واستعراض الخصائص التي تميز كل نوع من أنواع الأنوار والأزهار عن غيرها إلى أن يصلوا إلى نهاية الجلسة المعقودة فينطق بالحكم باختيار أحدها للزعامة والرئاسة لما وهبه الله من المميزات التي تفوق بها على غيره ، ومن أشهر من كتب في مثل هذا النوع من الرسائل الفقيه ابن برد الأصغر ، فقد كتب رسالة إلى أبي الوليد بن جهور مستعرضاً فيها جلسة ظريفة ، ومحاكمة طريفة ، فذكر (أن صنوفاً من الرياحين ، وأجناساً من أنوار البساتين ، جمعها في بعض الأزمنة خاطرٌ خطرَ بنفوسها ، وهاجسٌ هجسَ في ضمائرها ، لم يكن لها بدٌّ من التفاوض فيه والتحاور من أجله والتناصف...) (١).

فقام نوع فيها فأثنى على الله تعالى : (الذي خلق المخلوقات ، وذرأ البريَّاتِ ، باينَ بين أشكالها وصفاتِها ، وباعد بين منحها وأعطياتها ، فجعل عبداً وملكاً ، وخلق قبيحاً وحسناً ، فضَّلَ بعضاً على بعض حتى اعتدل بعدلهٍ الكلُّ ، واتَّسَقَ على لطف قدرته الجميع ، فجعل لكلٍّ واحد منها جمالاً في صورته ، ورقةً في محاسنه ، واعتدالاً في قدِّه ، وعبقاً في نسيمه ..)(٢).

ومع كل هذه المميزات وما تحلوا به من الحسنات ، إلاّ أنه لابد من الاعتراف لأحدهم بالفضل والاحفية : (ولم نعلم أنّ فينا من له المزّيةُ علينا ، ومن هو أولى بالرئاسة منا ، وهو الورد الذي إن بذلنا الإنصاف من أنفسنا ولم نَسْبَحْ في بَحرِ عمانا ، ولم نَمِلْ مع هوانا ، دنّا له ، ودعونا إليه ، فمن لقيه منا حيَّاه بالمُلْكِ ..) (٣).

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص١٢٧ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص١٢٨.

ثم يمضي ذاكراً السبب في اختيارهم للورد : (فهو الأكرم حسباً، والأشرفُ زمناً ، إنْ فُقِد عَيْنُه لم يُفقد أثره ، أو غاب شخصه لم يَغِبْ عَرْفُهُ، وهو أحمر ، والحمرة لون الدم ، والدم صديقُ الروح ، وهو كالياقوت المنضَّدِ، في أطباقِ الزبرجد ، وعليها فرائد العسجد ..)(١).

ومن ثم تعترف كل الأنواع الأخرى للورد بالسيادة وبأحقيته للزعامة ، فتقوم مبايعة له ومهنئة بعد أن وقفت على عيوبها التي أخرتها عن الورد .

ثم يختم الفقيه رسالته بما توصل إليه المجلس ، وما سجل فيه وثيقة اعتراف لسيادة الورد على جميع أنوار الزهور ، فتقول في هذا الاعتراف : (هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر، وضروبُ الزهر ، وسميُّها وشتويّها، وربيعيّها وقيظيّها ، حيث ما نجمت من وهادٍ أو ربوةٍ ، وتفتحتْ من فرارةٍ أو حديقة ، عند ما راجعت من بصائرها ، وألهمت من مراشدها، واعترفت بما سلف من هفواتها ، وأعطت للورد قيادها ، وملَّكَتْهُ أمرها، وعرفت أنه أميرها المقدّم لخصاله فيها ، والمؤمّر لسوابقه عليها..) (٢).

ولا شك أن في هذه الرسالة من المعاني الإسلامية ما لايمكن إخفاؤها، فالفقيه يستعرض قدرة الله في مخلوقاته ، وما جعل بينها من التباين والاختلافات مع ما يميز كل نوع عن غيره ، وإن كانت كلها تتفق في الجمال والبهاء ، فالأزهار والأوراد فيها من الجمال ما لايمكن انكاره ، فهي متنوعة الأشكال ، مختلفة الألوان ، متفرقة الروائح ، ولكل إنسان في هذه الحياة نوع من الأزهار يميل إليه كل حسب شخصيته وميوله ، كما أن اعتراف الأزهار بعيوبها أمر جميل لو طبقه بنو الإنسان لعرف كل شخص عيوبه وقدراته، ورحم الله من عرف حده فوقف عنده .

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص١٣٠ .

ويستهوى الليل وهالته السوداء وما فيه من نجوم متلألئة أنظار فقهائنا ، فيكتب ابن برد الأصغر في (فصول في الاستزارة) عن فضل الزيارة في الليل وفيها يصف الليل بقوله : (الزيارة في الليل أخفى ، وبالزائر والمزور أحفى ، وقد سدل حجابُه ، ووقع غرابه ، وترقعت نجومه بغيومه ، وتلفعت كواكبه بسحائبه ..) [١].

ويصف ابن أبي الخصال ليلة باردة مرت عليه في رسالة ردّ بها على ابن بسام الذي طلب منه بعضاً من شعره ، فاعتذر منه ابن أبي الخصال فيما سيكتبه له ، فهو يخط ما خطه من هذه الرسالة في ليلة شديدة البرودة، ويمضي في تصوير هذه الليلة ، بوصف رائع أخاذ ، إذ يقول في مطلع وصفه:
(وعذري إليك - أعزك الله - في أني خططتُ والنّوم مغازل ، والقرّ منازل، والريحُ تلعبُ بالسراجِ ، وتصول عليه صولة الحجّاج ، فطوراً تسدد سناً، وتارة تحركه لساناً ، وآونة تطويه حباباً ..)[٢].

ويمضي في وصف تلك الليلة مستفيداً من قدرته البلاغية في إيراد الصور والتشبيهات ، فلنقرأ له قوله في تشبيه الليل بالزنجي : (والليل زنجي الأديم ، تبريُّ النجوم ، قد جللّنا ساجُه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال للحظة ، ولا تعارف إلا بلفظة ..)[٣].

ويصور حال الكلب وقد لسعه البرد القارس : (والكلبُ قد صافحُ خيشومُهُ ذنبَه ، وأنكر البيت وطنبه ، والتوى التواء الحُباب ، واستدارَ استدارة الحَباب ، وجَلدَه الجليد، وضربه الضريب ، وصعد أنفاسه الصعيد،

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ١ /ص٥٠٢ .

(٢) المصدر السابق مج ٢ / ق ٣ / ص٧٩٢ .

(٣) المصدر السابق.

فحماهُ مباح ، ولاهريرَ ولا نباح ، والنارُ كالصديق أو كالرحيق ، وكلاهما عنقاءُ مُغرب ، أو نجمٌ مُغرّب ..)(١).

كما يصف فقهاؤنا رحلاتهم وما مرّ بهم من الصعوبات في سفرهم ، فهذا ابن العربي يصف لنا رحلاته التي قام بها بغية طلب العلم ، فيصف خروجه من الأندلس قائلاً : (فخرجنا مكرمين ، أو قل مكرهين ، آمنين وإن شئت خائفين ، وفررت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من العالمين ..) (٢).

كما يصف في موضع آخر بعض المتاعب التي واجهته أثناء رحلته وهو ومن معه في خضم البحر ، وقد كادت أمواجه تغرقهم ، مما جعلهم يشعرون بدنو الأجل : (فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطبٍ طويل إلى بيوت بني كعب من سُليم ، ونحن من السَّغَبِ على عَطَبٍ ، ومن العُرْيِ في أقْبَح زيٍّ ، قد قذفَ البَحْرُ زِقَاقَ زَيْتٍ مَزَّقت الحِجَارَةُ هَيْئَتَها، ودسَمَت الأدهانُ وبَرَها وجِلْدَتَها فاحْتَزَمْنَاها أُزُراً ، واشْتَمَلْنَاها لفِفاً ، تَمُجُّنَا الأبْصَارُ ، وتَخْذُلُنَا الأنْصَارُ ..) (٣).

هذا ما آلف إليه حال ابن العربي ومن معه في هذه الرحلة العصيبة ، ومع ذلك لم يتراجع ابن العربي عن سيره في طلب العلم والارتحال من أجله ؛ لأن مقصده الأسنى من هذه الرحلات هو معرفة الله ، فلنستمع إليه يقول : (وكنت إبَّانَ طلبي في الأقْطارِ ، ودَرْسي آناء اللَّيْل والنَّهَارِ - ولقائي أولي البصائر والأبْصَار ، لا أمل لي إلاّ التّشوُّفُ إلى المقصدِ الأسنى ، المُنْتحَى في كل معنى ، وهو معرفةُ اللهِ تعالى ..) (٤).

---

(١) الذخيرة مج ٢ / ق ٣ /ص٧٩٢ .

(٢) قانون التأويل / ص٧٧ .

(٣) المصدر السابق /ص٨٥ .

(٤) المصدر السابق /ص١١٧ .

وإذا كان ابن العربي اكتفى في وصفه لرحلته البحرية السابقة بأن ذكر حالهم بعد الخروج منها ، فإن ابن أبي الخصال عند وصفه لرحلته البحرية المتجهة إلى الجزيرة الخضراء ، أخذ يصف فيها المصاعب التي واجهها وصفاً بارعاً ، جعل القارئ يتعايش معه في هذه الرحلة لما فيها من الانفعالات الوجدانية المختلفة . ففي بداية الرحلة كان البحر هادئاً ، تسير فيه السفينة ، وهي مطمئنة تغري راكبيها بالتمتع فيها والتغزل بما يشاهدونه من جمال البحر وروعة النسائم ، فيقول في ذلك الكاتب : (فجرينا ونفح الريح نسيم - ووجه البحر وسيم - وراحة الريح تصافح عُبَابَهُ مصافحة الخل، وتطوى حبابُه طيّ السجل ، وتحوك من لجه أبرادا، وتصوغ من حُبُكه أزراداً كأنما توشم في أديم رقشاً أو تفتح في فصوص نقشاً ، فتراه مثل الفرند على سيوف الهند ..) [١].

وينتقل بعدها ليصور أحوال من على السفينة : (فمن صارخٍ بتلاوة القرآن ، يطيب له مالا يطيب الماء للظمآن ، ومن مخبر بما سمع ورأى ، حيث اغترب ونأى ..)[٢].

إلا أن البحر لا يعرف الأمان ، ولا بد لكل من يركبه أن يجرب غدره وثوران أمواجه ، وبالذات إذا كانت الرحلة طويلة ، ولقد جرب ابن أبي الخصال هذا الثوران في تلك الرحلة ، فيقول واصفاً ما حدث من تغير البحر : (فلما توسدنا ثبج البحر ، وسرنا منه بين السحر والنحر ، صحت الريح من سكرها ، وهبّتْ من وكرها ، فسمعتُ من دويّ البحر زفيراً ، ومن حبال الشاني صفيراً ، ورأينا البحر قد أربد واضطرب ، كأنه بكاس الجنون قد شرب ..) [٣].

---

(١) رسائل أندلسية / ص٦٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

إذن فما حال من على السفينة في هذه اللحظات الحرجة يا ترى ؟!

(قد نبتت من القلق أمكنتُنا ، وخرستْ من الفرق ألسنتنا ، والرش يكتنفنا من القلق من كل جانب ، ويسيل من أثوابنا سيل المذانب ، ثم لانطيق نفضه ، ولانستطيع رفضه ، كأنما غشينا من الرعب سَدَرٌ ، ومس أعضاء نا خدَرٌ ، المِعَدُ تهيجُ بمرّتها ، وتموج بدرتها، فشمِمْنا ريح الموت ، وظننا بالتلف والفوت ...)(١).

وهكذا عمّ القلق أرجاء السفينة ، وظن من عليها الهلاك والموت إلى أن أتى أمر الله وفرجه فأخرجهم مما هم فيه (حتى انتهينا إلى كنف الجون وصرنا منه في كنفٍ وصون ، وهدأ البحر ما استشرى فتنادينا بالبشرى ، ثم وافينا الجزيرة الخضراء ، واقتضينا من السلامة النعمة الغضراء ، فحق لنا عتاق الرقاب ، وصيام الأحقاب ..) (٢).

وهكذانجا الفقيه ومن معه بفضل الله ومنته ، فما أن وصلوا إلى الجزيرة الخضراء ، حتى نراهم يترجمون شكرهم له بأن أخذوا على أنفسهم بعتق الرقاب والصيام لوجه الله ، حمداً وشكراً على سلامتهم من الغرق .

ولاشك أن الفقيه قد أجاد في تصويره لهذه الرحلة كما أجاد في تصويره للعواطف الإنسانية وتقلباتها بين الشعور بالأمان، والشعور بالخوف من الموت والهلاك. فأشعرنا وكأننا معه في هذه الرحلة وعلى متن تلك السفينة.

ويصف أبو الطاهر السرقسطي البحر في إحدى مقاماته ، فيذكر أن فيه نعماً متعددة أنعم الله بها علي بني البشر ، ، وفيه - أيضاً - عِبَرٌ وعظات لمن

(١) رسائل أندلسية /ص٦٩ .

(٢) المصدر السابق .

شاء أن يعتبر ، فيقول : (وإن لهذا البحر خبراً ، وإن به لآياتٍ وعِبَراً، إلى مَرَافِقَ ومَنَافِعَ ، ومَتَالِع من الرِّزْق ومَدَافِعَ ، فمن لُؤلؤٍ ومَرْجانٍ ، وقاطفٍ من ثمرةٍ وجان ، يَجُود بالنَّفسِ الرَّطْبِ ، ويقذفُ بما يُزْري على السَّرَقِ والعَطب ، قد منّ الله به على عبَاده ، حين سخَّره وقدَّم ذكرُه تارة وأخرَّهُ ، وجعلهُ مظنَّةً لابتغاء خَيْرِه ومكاناً ، وزاد به عبَادهُ تَوْسعَةً وإمكاناً ، وصَيَّر ماءَهُ الطَّهُورُ ومَيْتَتَهُ الحَلالَ ، ورَفَعَ عن راكبِه العيَّ والكلاَلَ ، فالمرءُ فيه أبداً مُعْتَبِرٌ ، وعلى لأوائه مُصْطَبِرٌ ..)(١).

ومن موضوعات المنشآت الوصفية عند فقهائنا الأندلسيين - كذلك - وصفهم لأدوات الكتابة من قلم ومداد وكتاب ، وذلك لتعلقهم بهذه الأدوات التي تعد من صميم عملهم ، ومن هذا الوصف فقرات قصار لابن برد الأصغر ، وصف فيها الأدوات مستفيداً بما ورد في القرآن الكريم بشأنها ، فيقول في بعض هذه الفقرات : (الكتاب من حلية الملائكة ، قال تعالى : ﴿ كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ .

- المداد كالبحر، والقلم كالغواص، واللفظ كالجوهر، والقرطاس كالسلك.

- ما أعجب شأن القلم ، يشرب ظلمة ، ويلفظ نوراً ..)(٢).

ومن شدة تعلق الفقيه بأدوات الكتابة نراه يعقد مناظرة بين السيف والقلم ، يفاخر فيها كل منهما بما وهبه الله من مميزات ، وأنه أفضل من الثاني ، ويستشهد في مفاخرة القلم بقسم الله تعالى به في معرض كتابه الحكيم ، فيقول : القلم (ها ، الله أكبر أيُّها المسائل بدءاً يَعْقل لسانك ، ويحيّرُ جنانك ، وبديهة تملأ سمعك ، وتضيّق ذرعك ، خير الأقوال الحق ،

---

(١) المقامات اللزومية /ص ٦٨ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ١ /ص ٤٩٥ .

وأحمدُ السجايا الصدق ، والأفضلُ من فضَّله اللهُ عز وجل في تنزيله ، مُقسماً به لرسوله ، فقال : (﴿ ن . وَالقَلمِ وَمَا يَسْطُرُون ﴾ ، وقال : ﴿ اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكرُم الذي علّم بالقلم ﴾ ، فجلّ من مُقسمٍ ، وعزَّ من قَسم..)(١).

وهكذا يمضي الفقيه في عرض مفاخرات القلم على السيف إلى أن يكثر من تعارضهما (ولم ينثن أحد الصّارمين كهاماً ، ولا ارتدَّ أحد العارضين جهاماً..)(٢).

فيبادر إلى السلم ، وعقد لواءه ، وبذلك ينتهي الحوار بينهما بكتابة عقد يكتبه القلم لما له من القدرة على ذلك أكثر من السيف ، فيسجل العقد نثراً وشعراً ، يلزم فيهما ألا يفاخر أحدهما على الآخر ، أو يفضل أحدهما على الآخر ، فهما الموصلان للعلى لكل من حملهما معاً .

فالقلم رمز للعلم والتقدم والتطور ، والسيف رمز للقوة والشجاعة والحماية ، غير أن الرسالة يلحظ فيها ميل صاحبها إلى أرباب القلم ، فقد بدأ رسالته بالقلم وختمها بالقلم ، ولا غرابة في ذلك إذ أن الفقيه من أصحاب القلم ، فلا عجب إذا دافع عنه .

وتسترعي الحروب أنظار فقهائنا وما تخلفه من دمار وخراب ، فيتأثرون لذلك ، ويصفون مآسيها رغبة تنفير النفوس منها ، يقول في ذلك ابن برد : (إن الحرب متكلةُ النفوس ، مَتْلَفةُ للأموال مجلبة للندامة في العواقب ، تلذُّ مباديها للأشرار ، وتُنْحي كَلاكِلَ عاقبتها على الأخيار ، وقلما يقدحُ شُعَلَها، ويغلي مرجلها ، إلاّ فراش الشر وذبّان الطمع ، ممن لايَحْفِلُ بعار، ولايستحيى من فرار ، فإنْ هلك لم يُفْقد ، وإن نجا لم يُحْمد ..) (٣).

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص٥٢٤ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ١ / ص٥٢٧.

(٣) المصدر السابق مج ١ / ق ١ /ص٤٩٧ .

وتناول ابن برد السابق يكشف عن نفسية الفقيه ، فهي نفسية مسالمة تكره الحروب ، وتعشق السلم ، لذلك أعطانا صورة بشعة للحروب ، وما ينجم عنها من دمار وخراب قتل ، كي يبتعد الناس عنها ، ويلجأوا إلى السلم وعقد الصلح .

ويصف أبو الفضل جعفر الأعلم أحد الأدوات المستخدمة في الحرب ، وهو الرمح بقوله في عبارة قصيرة : (مطّرد الكعوب ، صحيح اتصال الغالب والمغلوب ، أخ ينوب كلّما استنيب ويصيب)(١).

كما نجده يصف الفرس فيدعونا إلى التأمل فيه بقوله : (انظر إليه سليم الأديم ، كريم القديم ، كأنما نشأ بين الغبراء واليحموم ، نجم إذا بدا، ودهم إذا عدا ، يستقبل بغزال ، ويستدبر برال ..) (٢).

ثم ينتقل لوصف سرجه فيقول : (بزه جياد ، ومركب أجواد ، جميل الظاهر، رحيب ما بين القادمة والآخر ، كأنما قدّ من الخدود أديمه ، واختص بإتقان الحُبك تقويمه)(٣).

ويصف لجاماً رآه فأعجبه منظره ، فقال فيه : (متناسب الأشلاء صريح الانتماء ، إلى ثريا السماء ، فكلّه نكال وسائره جمال) (٤).

وهكذا يتبين لنا مدى قدرة فقهاء الأندلس على وصف جوانب حياتهم وما شاهدوه في بيئتهم في قالب نثري جميل ، احتوى على بدائعهم الوصفية وقدراتهم الرائعة على رسم خطوط فنية تضفي الإشراقة والجمال على اللوحة الحقيقية .

---

(١) النفخ ٤ / ص٣٥ .

(٢) المصدر السابق الجزء نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

كما لا يخفى ما في رسائلهم من الصور الإيمانية والمعاني الإسلامية التي تدعو إلى التأمل الواعي في مخلوقات الله في كونه من خلال تصويرهم لهذه المخلوقات وإخراجها بالصورة الجميلة مما يجعلنا نعود مرة أخرى لمشاهدة وتأمل هذه المناظر ، ثم نسبّح الله على حسن صنيعه وجمال نظامه.

‹‹‹ ›››

٥)- رسائل الإجازة:

وهي رسائل تكتب من العلماء والشيوخ فحواها إعطاء إجازه (شهادة) لشخص تعلم على أيديهم وقد استحق هذه الإجازة ، واستحق الإذن برواية ما تعلم على شيخه في مجلسه الخاص .

فالإجازة عبارة عن تقرير أو (شهادة) تعطى للطلاب بعد اجتيازهم لفترة الدرس والاختبارات . كما أنها تعني إباحة الشيخ أو العالم لأحد طلابه بأن يخبر بكل ما سمعه عنه للناس ، أو أن يكتب ما ألفه العالم في رقعة خاصة بالطالب ، وذلك إذا رآه أهلاً لذلك ، إلا أن مثل هذا النوع من الإجازات لم يصل منها ما يثرى كتبنا ، فمن ذكر أن فلاناً أجازه العالم الفلاني لم يذكر صيغة إجازته له ، بل نراه يكتفي بذكر الأسماء وما رواه عنه من كتب متفرقة العلوم ، ومن يقرأ فهرسة ابن خير الإشبيلي ، أو الصلة لابن بشكوال كمثالين سيتأكد له ما قلناه آنفاً إلا أن هذا لاينفي وجود أمثلة لهذه الإجازات مدرجة في رسائل أصحابها - وإن كانت قليلة - ومن ذلك نص رسالة إجازة لمقرئ كتبها الفقيه ابن أبي الخصال ليجيز فيها هذا المقرئ .

فيبدأ رسالته بالحمد والثناء على المولى سبحانه وتعالى وبيان قدرته في كونه ، ثم يذكر النبي المصطفى مصلياً عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعدها يبدأ نص الإجازة بقوله : (قال فلان) ، ثم يعيد حمده لله الذي منّ

عليه بحفظ كتاب الله وحسن التمهر فيه قائلاً : (وأمجده تمجيداً على ما منّ به من نعمة الإيمان ، والتمهر في القرآن ، والتبحر من أجله في اللسان، بتعليل يرقُّ و معنًى جليل يدقُّ ، وتصريف يعتاص ويُشقّ ..)[1].

ثم يبين طريقته في حفظ كتاب الله ، فيقول : (حتى اكتحلتُ أوار الأرق واستشعرت صدار الفرق، واستأنستُ بالوحشة وسكنت إلى العزلة والوحدة، طبقاً للإتقان والتجويد ، ورمياً إلى الغرض البعيد ، أرتاح للشغوف والفرْق ، وأنتجع العلم انتجاع البرق ، وأنظم بين طرفي الغرب والشرق ، فقلَّ إمام مذكور إلا وقد شُدَّ إليه ، لي كور ، وتهاداني نحوه رواحٌ وبكور ..) [2].

ثم يمضي بعد ذلك ليتحدث عن القرآن الكريم وفضله على الإسلام والمسلمين ، وعلى كل من اهتم به حفظاً وتلاوةً وتعليماً .

وبعدها يخاطب الفقيه طلاب العلم وحافظي كتاب الله ويوصيهم بعدّة وصايا تحمل في طياتها الخير الكثير لمن وعاها وعمل بها، فلنقرأ له قوله منها: (عليكم بتقوى الله ، فهو نظام مماتكم ومحياكم ، وقوام دينكم ودنياكم، والتجارة الرابحة التي تشرون ، والغاية الطامحة التي إليها تجرون وتأدبوا بآداب الله تعالى فيما يتلى عليكم وتتلون ..) [3].

ثم يختم رسالته بإعطائه الإجازة للمقرئ بناءً على طلبه ؛ ولأنه أتم ما طلبه منه شيخه ، فيقول في نهاية إجازته لهذا المقرئ : (وحبّ أن يلحق نُظراءه ، ويتميز بالتقديم ممن وراءه ؛ وأن أنصب له الإجازة لواءه ؛ وأُدُلَّ عليه، وأشير بالأصابع إليه ؛ اقتداءً بالسلف الصالح ، وتنبيهاً علي المصالح،

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص١٩٨ .

(٢) المصدر السابق / ص١٩٩ .

(٣) المصدر السابق /ص ٢٠٥ .

ودفعاً لهمته ، ووفاءً بذمته ، وإلحاقاً بذلك لمن تخلف وأبطأ ، وتحضيضاً لمن قصّر ونأنأ .

فالحميّةُ تبعثُ القرائح ، والغادي يحثُّ الرائح ، والعاشي يهيجُ الآبي ، والماضي يجرِّئُ النابي . أنهضنا الله وإياه بما أخذ علينا من إصرٍ ، وأوزعنا شكر نعمه التي لاتُدرك بعدٍّ ولا حصر ، ولا أخلى كتابه العظيم من إعزاز ونصر) (١) .

<<< >>>

٦)- الزرزوريات :

وهي رسائل ابتكرها الأدباء الأندلسيون وتبادلوها فيما بينهم ، تحمل الطرافة والتندر والفكاهة في مضمونها . أصلها رسالة للوزير أبي الحسين ابن سراج - فيما نعلم - خاطب فيها - كما يقول ابن بسام - بعض أهل العصر برقعة يشفع لرجل يعرف بالزريزير(٢). استعار له ما لدى الطائر الزرزور من ريش وفراخ وطيران فلنسمع له قوله في بعض من هذه الرسالة : (ويصل به - وصل الله علوَّكَ ، وكبتَ عدوَّك - شخصٌ من الطيورِ يعرف بالزريزير ، أقام لدينا أيام التحسير ، وزمانَ التبلُّغ بالشكير ، فلما وافى ريشه ، ونَبَتْ بأفراخِهِ عُشُوشُه ، أرمع عنا قطوعاً ، وعلى ذلك الأفقِ اللدن تدلياً ووقوعاً ..)(٣).

ويبدو أن هذه الرسالة نالت إعجاب أدباء الأندلس لما فيها من استعارات وتشبيهات وطرافة ، فأخذوا في محاكاتها ومعارضتها ، ومن هؤلاء الفقيه ابن الجد ، و الفقيه ابن أبي الخصال .

---

(١) المصدر السابق / ص٢٢١ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص٣٤٧ .

(٣) المصدر السابق .

أما ابن الجد فقد أنشأ عدة رسائل تحمل الموضوع نفسه عارض بها ابن سراج في رسالته السابقة الذكر ، ومن هذه الرسائل نمثل برسالة في الزرزور يقول في بعض منها : (لئن سمي بالزريزير لقد صُغِّر للتكبير ، كما قيل « حُرَيقيص » ، وسقْطُهُ يحرقُ الحَرج ، و « دويهية » ، وهي تلتهم الأرواح والمهج ، ومعلومٌ أنَّ هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فَهْمِ التلقين ، وحُسْنِ اليقين ، فإذا عُلِّم الكلام لهج بالتسبيح ، ولم ينطلقْ لسانُهُ بالقبيح ، ثم تراه كالنصيح ، ويدعو إلى الخير بلسان فصيح ..) (١).

وما أن يصل الموضوع إلى ابن أبي الخصال حتى نراه يتفنن ويبدع فيه، فيحول الرسالة إلى خطبة الخطيب فيها هو (الزرزور) نفسه ، فيبدأ بالحمد والثناء على الله ، ثم الصلاة على سيد البشر محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ثم أخذ الزرزور يعلن بعد أن بلغ من الكبر عتياً عن تخليه عن هذا اللقب الذي لم يعد يليق به ، فيقول : (وما أقبح بمن جاوز الستين ، وأوهنضتْ الأيَّامُ حبل عمره المتين ، وقطعتْ أو كادت منه الوتين ، وأن يُوسَمَ على ساعته من الكِبَرِ بزُور ، أو يلقَّب بزرزور .

لاسيَّما من أدرج القرآن بين جنبيه ، وأرهفتِ الحكم من جانبيه ، وشهد كل نادي خيرٍ ، وأنصت له الجِلَّةُ كأن على رؤوسهم الطير ، ولما اشتعل الرأس شيباً ، وأظهرت الأيام منه غيباً ، رأيت تَقَلُّدَ هذا اللَّقب عَيْباً ، وأجمعتُ عنه إلى غيره انتقالاً وقدمت بين يدي رفضه مقالاً ؛ ليبلغ الشاهدُ الغائب ، والداني العازبَ ، والطالع الغاربَ ..) (٢).

ثم يعلن لقبه الجديد ألا وهو لقب (الهدهد) ، واختياره لهذا اللقب يرجع إلى ما للهدهد من فضائل ، فقد كان رسولَ سليمان عليه السلام ، ومخبره

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص٣٤٨ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال / ص٢٣٨ .

بنبأ سبأ ، وانكاره لما هم عليه من عبادة للشمس ، ثم يردف بقصيدة يذكر فيها فضائل الهدهد ، وبعدها يعلن لقبه الجديد ، فلنقرأ له قوله : فارقتكم زرزور إيقاعٍ وإطراب ، وطلعتُ عليكم هدهد إبداعٍ وإغراب ..)(١).

وبذلك يخرج ابن أبي الخصال بالزرزور عن مواطن الهزل والضحك إلى مواطن الجدة .

وفي رسالة أخرى لابن أبي الخصال في الموضوع نفسه نجد فيها أن الفقيه جعل (الزرزور) هو المتحدث وألصق به بعض صفات أبطال المقامات ، فهو يستخدم أسلوب الوعظ ، فيحث الناس على الانفاق فاستمع له يقول : (أما إنّ الحديث شُجون ، والعيش مُجون ، والمذاهِبُ تتشعَّبُ ، ورُبَّ جدٍّ ساقهُ اللَّعب ، واللُّهي للّهاة كالتسبيح بالسهاة ، تلك تستفتح مقفلاً ، وهذه تستدرك مغفلاً ، وإن أنطقني نوالكم نطقتُ ، وإنْ صدقني إحسانكم صدقت ، فَحُلَّ لساني ، واحللْ عقدةً من لساني ، رحم الله الأنصار ، أين الواحد الذي لايعدله الألف ، والصُّرَّةُ تعجزُ عنها الكف ؟!)(٢).

وهو مثلهم - أي أبطال المقامات - إذ يمزج بين الشعر والنثر مظهراً براعة في هذين الفنيين (٣).

وبهذا نأتي إلي نهاية إيرادنا الشواهد على رسائل فقهاء الأندلس - عصري الطوائف والمرابطين - التي تبين لنا من خلالها تنوعها وتعدد أغراضها وتمكن كتّابها من معالجة موضوعاتهم بما يتوافق ، وعلومهم الشرعية والفقهية التي أفادوا منها أيما إفادة ، إذا اتضحت معالمها وظهر تأثيرها في جلّ رسائلهم ، فهم لايفتأون يقتبسون من القرآن الكريم ، أو الأحاديث النبوية الشريفة .

<<< >>>

---

(١) المصدر السابق / ص٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق / ص٣٣٦ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين /ص٢٩٩ .

ثانياً : الخطب :

كانت الخطابة من أبرز الفنون النثرية عند الأندلسيين إبان عصري الطوائف والمرابطين ، فقد صوروا بها أحوال المجتمع الأندلسي المسلم ، في ذينيك العصرين - من الناحية الدينية والاجتماعية والسياسية ، فلم يدعوا موضوعاً يتعلق بهذه النواحي إلاّ وتناولوه عن طريق المشافهة والإلقاء ، وكان للخطيب عندهم مكانة ملحوظة مرعية ، فهو الذي يلقي الخطبة من يوم الجمعة في كل أسبوع ، وفي العيدين من كل سنة عيد الفطر وعيد الأضحى ، فنراهم يتصدرون المنابر في مساجد الأندلس وجوامعها المتعددة يلقون خطبهم على مسامع المسلمين متسلحين بكل ما وهبهم الله به من حس الخطابة ، وطلاقة اللسان ، والقدرة على إقناع المستمعين واستمالتهم للغرض الذي يتحدثون عنه .

وإذا ما ألقينا نظرة في كتب التراجم التي عنيت بتراجم شخصيات عصري الطوائف والمرابطين ، فإننا سنجد عدداً ليس بالهين ممن حظي بشرف الإمامة والخطابة في مساجد الأندلس وجوامعها خلال ذينيك العصرين ، ولنأخذ على ذلك أمثلة لبعض تلك الشخصيات ممن ترجم لهم ابن بشكوال في كتابه (الصلة) ، فهذا عبدالواحد بن محمد موهب التيجيبي القبْرى (ت ٤٥٦هـ) ذكر ابن بشكوال أنه تقلد الصلات والخطبة والأحكام بمدينة بلنسية ، وذكر أن الحميدي قال فيه : إنه فقيه محدث أديب ، خطيب شاعر (١). وهناك خُلف بن إبراهيم المقرئ (ت٥١١هـ)، قدم إلى الأقراء والخطبة بالمسجد الجامع بقرطبة و (كان ثقة صدوقاً حسن الخطبة ، بليغ المو عظة ، فصيح اللسان ، حسن البيان ..)(٢)، وعبد الرحمن ابن عبدالله بن

---

(١) الصلة ١/ص٣٦٥ .

(١) المصدر السابق ١/ص١٧١ .

منتيل الأنصاري (ت ٥١٥هـ) ، كان خطيباً ببلده «سرقسطة» ، أديباً شاعراً..)[1]. وشريح بن محمد بن شريح الرعيني المقرئ (ت٥٣٩هـ) خطيب إشبيلية (كان من جلة المقرئين ، معدوداً في الأدباء والمحدّثين ، خطيباً بليغاً ..) [2].

وغيرهم كثير ممن ترجم لهم صاحب (الصلة) واحتفظ بذكرهم في كتابه .

وبذلك يظهر لنا أن الأندلس - إبان عصري الطوائف والمرابطين - قد عرفت خطباء مبرزين ، لازالت المصادر تحتفظ بذكرهم رغم ضياع أكثر آثارهم [3].

ومن فقهاء الأندلس - في هذه الفترة - الذين وصلتنا بعض خطبهم الفقيه ابن أبي الخصال ، فقد وصلنا له عدة نماذج من خطبه .

وإذا نظرنا في خطبه وجد أنها مطبوعة بالطابع الديني من حيث موضوعاتها ، واعتمادها على مصدري الشريعة الإسلامية في كل مسألة تثار فيها .

وخطب ابن أبي الخصال لا تختلف في منهجها وأغراضها عن خطب غيره من خطباء الأندلس أو قل خطباء الدول الإسلامية بعامة ، فهي تبدأ بمقدمة تؤكد على وحدانية الله بعرض بعض من آياته في الكون ومعجزاته التي لايستطيع أحد الإتيان بمثلها ، كما تقوم بعرض لأنعمه التي تفضل بها على عباده مما يستوجب الشكر عليها ، وأن يتوجه العباد بعباداتهم إليه وحده ، فلنسمع ذلك في إحدى مقدمات خطب ابن أبي الخصال يقول فيها : (الحمدُ للَّهِ ذي الصِّفاتِ العَليّة ، والهباتِ السَّنية ، والسَّمَوَاتِ الْمَبْنّية،

---

(١) المصدر السابق ١/ص٣٣١ .

(٢) المصدر السابق ١/ص٢٢٩ .

(٣) فنون النثر بالأندلس في ظل المرابطين / ص٢١٢ .

والأَرْضِ المدْحيّة ، الآخذ على الأرواح كل ثنيّة ، والمسلّط على الحياة والحيوانات يد المنية ، يُعِزُّ ويُذِلُّ ، ويهدي مضنْ يشاءُ ويَضِلُّ ، وليس شيء عن قدره وقُدرته يَدِقُّ ولا يَجِلّ ..)[١].

وبعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهل له يمضي الخطيب في ذكر الرسول ﷺ بالصلاة عليه وذكر بعض من مناقبه ومعجزاته التي تفضل الله بها عليه دوناً عن غيره من البشر .

العرض : وفيه يدخل الخطيب في الموضوع المراد التحدث عنه وعرضه في الخطبة ، وعادة ما يستخدم الخطيب في بداية عرضه لبعض الألفاظ التي تشد انتباه السامعين إليه لبيان أهمية ما يتحدث عنه ، ومن هذه الألفاظ : (أيها الناس ، أيها الإنسان ، أيها السامع ، أيها المؤمن ..) .

وموضوعات خطب ابن أبي الخصال موضوعات دينية ـ كما قلنا ـ تحث على كل ما يصل الإنسان المسلم بربه ، ويقوي علاقته بمولاه ، نحو الحض على قيام الليل ، والجهاد في سبيل الله ، وتقديم الشكر لله إزاء كربه ألمت بالمسلمين ثم أفرجها الله نحو نزول الغيث بعد طول القحط . ولنعط مثلاً على هذه الأغراض بخطبته التي حض فيها المسلمين على قيام الليل ، وذلك بنفض لحاف النوم عن أعينهم ، ونبذ الكسل عن أبدانهم ؛ ليغتنموا فرصة الهدوء النفسي في ظلمات الليل البهيم ويتقربوا إلى الله الذي ينزل إلى السماء الدنيا كل الليلة يستمع فيها إلى دعاء عباده ، فيقول في ذلك الخطيب مخاطباً الناس: (ألا مُناجي لمولاه " ألا هاجرٌ لكراه ؟ ألا حامد عند الصَّباح لسُراه ؟ ألا مُبدِّدَ لعبَراته ؟ ألا مردِّدَ لحسراته ؟ ألا مصعّدٌ لزفراته ؟ أما والله ما عنفَ بكم المالكُ ، ولاَ بَعُدت عليكم في ابتغاء رضوانه وفضله المسالك ، ولا يهلك عليه إلاّ الحائن الهالك ، ألم يأتكم في صحيح الأثر عن سيد البشر صلوات

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٥٣٤ .

الله عليه وعلي آله أعداد الرياح والمطر والنجم والشجر أنه قال : «ينزل الله تبارك وتعالى إلي السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يَدْعُوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يسألني فأُعطيه ؟ من ذا الذي يستغفِرُني فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر ») (١).

ويكثر الخطيب ابن أبي الخصال من إلقاء أسئلته بغرض التنبيه والتذكير ، وتذكير الناس باليوم الأكبر يوم الوقوف بين يدي الله تعالى ويتساءل : (فماذا قدمتم للمقام الهائل ؟ وما الذي أعددتم من جواب السائل، وقد ذَهِلْتُمْ عن الأبناء والحلائل ، إن كتمتم خذلتكم الجوانحُ ، أو أنكرتم أقرّتِ الجوارح ، وواجهتكُمْ من صُحفكم الفضائح ، وساورتكم الأراقم مما كتب الكاتب ورقم الرّاقم ، وناديتم وسيئاتكم ينتظمها ويتقصّاها : ((يا ويلتنا ما لِهَذَا الْكِتَابِ لايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا)) (٢).

الخاتمة : وفيها يختم الخطيب خطبته ـ كما هو متعارف عليه في الخطب الإسلامية ـ بالدعاء له ولجميع المسلمين ، فيقول الخطيب ابن أبي الخصال من الخطبة نفسها : (جعلنا اللّهُ وإيّاكم ممن حَسُنَ قبوله واستعدادُه، ومالَ إلى الذّكر فُؤادهُ ، ووَرِيَتْ بالحكمةِ البالغةِ والموعظَةِ الحَسَنَةِ زنادُه...)(٣).

هذا وقد وصلتنا خطب للفقيه أبي الطاهر السرقسطي ضمن مقاماته لم يلتزم فيها المنهج الذي ألفناه في خطب ابن أبي الخصال السابقة من حيث المقدمة ثم العرض ثم الخاتمة ، بل نجد أن بطل المقامة (أبا حبيب) يتزيّ بزيّ الخطيب الواعظ ، بغية الاستجداء والتكسب ، فيعظ الناس ويحذرهم من الدنيا وغرورها ، ويذكر بسوء المنقلب ، ويحثهم على تقوى الله تعالى وشكر

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال / ص٥٣٨ .
(٢) المصدر السابق / ص٥٣٩ .
(٣) المصدر السابق / ص٥٤٠ .

أنعمه بالإنفاق والصدقة ، فلنقرأ له قوله في إحدى مقاماته الوعظية ينادي الناس ويقول : (أيها الناس : ما استديمت النِّعمُ بمثل الشُّكرِ، ولا تُوقِّيت النِّقمُ بأوفى من الذِّكْرِ ، وإنَّ الَّذي أَرَى بَيْنَكُمْ من النُّحُولِ ، أَشَدَّ ممَّا أَلمَّ من الْمُحُولِ ، وما تأكَّدَ من الإِحَنِ أَعْدَى منَ الْمِحَنِ ، فطهِّروا الْجُيُوبَ ، وَاخْلصُوا الْغُيُوبَ ، وارْفَعُوا الظَّنَّ والرَّيْبَ ، وَإِلاّ يُذْهِبَ عَنْكُمْ بركَةَ الأَنْواء ، وفيمَ التَّدَابرُ وَالبَغْضَاءُ ، وهلاَّ الصَّفْحَ والإغْضَاءُ ، تأمَّلُوا الأُمَمَ السَّوَالِفَ ، وَتَوَقَّعُوا الْمَهَالِكَ وَالْمَتَالِفَ ...)[١].

فهذه صورة من صور الوعظ عند السرقسطي في مقاماته ، وعنده غيرها كثير ، وإن كانت صورة الوعظ هذه قد جاءت عنده على لسان أبي حبيب الذي اتخذ من هذه الصورة ؛ ليتملق ويخدع الناس رغبة الحصول على المال ، فهذا لاينفي أن يكون السرقسطي ابتغى من وراء ذلك غاية ، وهذه الغاية هي إصلاح الناس مما أصابهم من إنحرافات ، وذلك بوعظهم وإرجاعهم إلى جادة الطريق المستقيم .

* * *

---

(١) المقامات اللزومية / ص٤٨ .

ثالثاً : المقامات :

من أهم الفنون النثرية الأدبية ذات الجذور المشرقية الأصل التي انتقلت إلى بلاد الأندلس ، وكان لها أثرها الواضح في نفوس كتاب الأندلس (المقامات) . وكان من أبرز المقاميين الذين برزت مقاماتهم ونالت إعجاب الأدباء الأندلسيين بديع الزمان الهمذاني ، وأبو محمد القاسم الحريري من المشرق ، حيث أتيح لمقاماتهم الذيوع والانتشار في البلاد الأندلسية ، مما أدى إلى تأثر الأدباء بها هناك إبان عصري الطوائف والمرابطين .

والبديع قد أنشأ مقاماته أواخر القرن الرابع الهجري ، ولجودة مقاماته لحنا سرعة انتشارها في البلاد المشرقية ، ولم تصل إلى العقد الثالث من القرن الخامس الهجري - أو ربما قبل ذلك - إلاّ ورأينا المقامة البديعية ذائعة الصيت في البلاد الأندلسية [١].

ولشدة إعجاب الأدباء الأندلسيين بها وجدناهم يقومون بمعارضتها كما عارضها من قبل أدباء المشرق ، وكانت هذه المعارضات إما عن طريق رسائل أو مقامات يحذون حذوها . ومن أبرز الكتّاب الأندلسيين الذين عارضوا بديع الزمان الهمذاني في مقاماته ابن شهيد ، فقد أنشأ رسالة في الحلواء[٢]عارض بها مقامة بديع الزمان الهمذاني المساة بالبغدادية ، والأديب محمد ابن شرف القيرواني الذي عارض بمقاماته (البديع في بابه، وصبَّ فيها على قالبه) [٣]. وأبو المغيرة عبدالوهاب بن حزم الذي عرضت عليه رسالة بديع الزمان الهمذاني في الغلام الذي خطب إليه وده فعارضها بقطعة أخرى[٤].

---

(١) أ. د/ حسن عبدالكريم الوراكلي ، المقامة الأندلسية دراسة ونصوص (الرباط : المناهل ١٩٩٣م) ص ١٩ .

(٢) أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي / يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ٢/ص٤٧ .

(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٤ / ص١٩٦ .

(٤) المصدر السابق مج ١ / ق ١ /ص١٤٠

والأمر لم يقف عند الأندلسيين بمعارضة أو محاكاة بديع الزمان في مقاماته ، بل وجدنا عدداً من الكتّاب يشيدون بأسلوب بديع الزمان ويظهرون إعجابهم به ، فنراهم يدافعون عنه ، ويقفون ضد كل من حاول الحطَّ من قدره الأدبي أو بأسلوبه البديعي في تفضيل كتّاب آخرين عليه .

ويكفي أن نطالع رسالة عبدالله بن أبي الخصال في الرد علي ابن القاسم الفهري في تفضيله لأبي إسحاق الصابي علي بديع الزمان الهمذاني؛ ليظهر لنا وبتصور واضح مدى إعجاب ابن أبي الخصال بالبديع وبأسلوبه من خلال تعصبه له ودفاعه الحار عنه ، وهذا ما سنشير إليه في المنشآت النقدية لتراث الفقهاء فيما بعد . كما سنشير إلى إعجاب أبي القاسم محمد بن عبدالغفور للبديع وكتاباته ورأيه فيه عبر كتابه (إحكام صنعة الكلام) .

ويلي مقامات بديع الزمان بقرن ونيف - تظهرلنا - مقامات الحريري لأبي محمد القاسم الحريري ، فينصرف كثير من الكتّاب الأندلسيين عن المقامات البديعية إلي الحريرية . وقد ظهرت طائفة من الكتّاب والأدباء الأندلسيين اهتمت بمقامات الحريري ، فأخذت ترويها وتشرحها وتعارضها ، ويرجع هذا الإقبال وهذا الاهتمام إلى موافقة هذه المقامات بأسلوبها المزخرف الموشي، وما تشتمل عليه من كلام العرب ولغاتها وأمثالها ، وما تضمنته من شعر، وألغاز نحوية ، ولغوية أذواق الأدباء الأندلسيين الذين يطمحون لمثل هذه الأساليب المتنوعة والممزوجة في قالب فني واحد (١).

كما أن الأمر لم يقف عند حدود الرواية والشرح والمعارضة ، فقد امتد تأثير الحريري (إلى طائفة أخرى قلدته في أسلوبه وفي بعض أغراض مقاماته دون التقيد بمعارضتها الكلية) (٢).

---

(١) انظر إلى المقامة الأندلسية دراسة ونصوص / ص٣٠ .

(٢) المرجع السابق / ص٥١ .

وإذا بحثنا في تراث فقهاء الأندلس النثري عن هذا الفن وجدنا - فيما وصلنا - شخصيتين تأثرتا بمقامات الحريري فقامتا بمعارضتها والنسج علي منوالها . والشخصية الأولى هي شخصية الفقيه أبي الطاهر محمد السرقسطي، فقد وصلنا منه أثراً أدبياً كاملاً في هذا الفن سماه بـ «المقامات اللزومية»(١) احتوت على خمسين مقامة على غرار مقامات الحريري . وفيها يظهر التأثر الواضح بالحريري وببديع الزمان الهمذاني منشئ هذا الفن من قبله ، كما يظهر فيها تأثر السرقسطي بأبي العلاء المعري فيما ابتدعه من أسلوب اللزوم في الشعر والنثر ، وبذلك يتبيّن لنا أن السرقسطي لم يقصد من وراء مقاماته اللزومية معارضة الحريري بقدر ما كان يرمي إلى مجاراته مع مجارات الهمذاني ، وأبي العلاء المعري (٢).

ويلحظ في المقامات اللزومية أن مؤلفها لم يضع عنواناً لكل مقامة من مقاماته ، بل وجدنا بعضها يحمل عنواناً ، وبعضها - وهو الأكثر - لايحمل عنواناً . ومن المقامات التي حملت عنواناً خاصاً بها المقامة السابعة ، وهي (البحرية) سماها بذلك الاسم ؛ لأنها تعالج موضوع البحر ومخاطره ، والمقامة الثلاثون (مقامة الشعراء) سميت بهذا الاسم ؛ لأنها تدور حول الشعر والشعراء ، وسمي المقامة السابعة عشره (بالمقامة المرصعة) ؛ لأنها تقوم على المحسن البديعي (الترصيع) ، والمقامة الحادية والأربعون تحمل عنوان (المقامة البربرية) ؛ لوقوع أحداثها في البربر ، وهناك (المقامة الهمزية) و (المقامة البائية) ؛ لبناء فواصل سجعاتها على الهمزة والباء .

أما عن شخصيات السرقسطي التي تقوم عليها مقاماته فهما شخصيتان رئيسيتان على نحو المقامة المشرقية ، فالشخصية الأولى هي

---

(١) المقامات اللزومية للسرقسطي ، وهي من تحقيق : أ . د/ حسن عبدالكريم الوراكلي .

(٢) المقامة الأندلسية دراسة ونصوص /ص ٤ .

شخصية السائب بن تمام ، وهو (الراوي) ، وقد يستعين برواية آخر يروي عن السائب بن تمام ، وهذا الراوية هو المنذر بن حمام ، والشخصية الثانية هي شخصية الشيخ أبي حبيب ، وهو (البطل) الذي نراه يتزي ويتلون بعدة ألوان في عدة شخصيات ؛ ليخدع الناس ويأخذ منهم ما يريد من المال، فتارة نراه واعظاً ، وتارة طبيباً ، وأخرى نراه يتقنع بقناع مشعوذ ويجوب بهذه الصور المتعددة أرجاء البلاد المشرقية والمغربية رغبة الاستجداء والكدية . فلنقرأ له وهو يرتدي برداء الواعظ يعظ في إحدى المقامات المسافرين أن يشكروا الله تعالى ، وأن يفكروا في أنعمه ، فيقول : (ألا فاشكروا اللَّهَ شكراً وصلُوا ثناءً عليه وذِكْراً ، وأجيلُوا في أَنْعُمِه الأفكارَ ، واقطَعُوا في حَمده العَشيَّ والأبكارَ، كم قَائلٍ منكم لما حامَ عليه الحِمَامُ ، ولم يَكُنْ له منْ دُونه وَرَاءٌ ولا أَمَامٌ ، للَّه عليّ نَذْرٌ ، لاسَعةَ فيه ولا عُذْرَ ، ومَشَقّةُ صِيَامٍ ، وعبَادَةُ قيَامٍ ، فَلَمَّا انكشَفَتْ عَنْهُ الضَّرَاءُ ، وغَازَلَتْهُ السَّرَاءُ ؛ طوى كشْحاً على ما التزَمَ ، واستقالَ فيما عليه اعتزَم ، كلاَّ ؛ إنَّهُ منَ الْخَالقِ لقَريبٌ ، وإِنَّهُ مما كسَبَ غداً لحريبٌ ، يُسْأَلُ عن الفَتيلِ والنَّقيرِ ، وَالْجَليلِ وَالْحَقيرِ، وعَنْ زَكَاته أَيْنَ وَضَعَهَا ، وَعَنْ أَخْلاَفِ دنياهُ كَيْفَ ارْتَضَعَهَا ...)(١).

وبعد أن تنهال عليه الأعطيات يغادر الشيخ أبو حبيب مكانه ويستعين بالسائب بن تمام ؛ ليعاونه فيما أصابه من مال ، فيذهب به إلى حسانٍ (ذوات قَتَار ودُخَّانٍ ، فبادَرَتْهُ ذواتُ خيلاَنٍ ، كالمها أو الغزلانِ ، فَمَزَّقْنَ عَنْهُ تلْكَ الأَخْلاَقَ ، وكشفن عمَّا جَلَبَ منْ أعْلاَقٍ ، وفَدَيْنَهُ بالأمَّهَاتِ وَالآبَاءِ ، وطرحْنَ عَنْهُ بشقِّه الأَعْرَاضِ والإبَاءِ ..)(٢).

---

(١) المقامات اللزومية / ص٥٨ .

(٢) المصدر السابق /ص ٦٠ .

فيتعرف عليه السائب بن تمام ويتعجب من حاله قائلاً : (أبا حبيبٍ ، أمن الوَعْظ إلى النّعْظ ، ومِنَ الْكَوْرِ إلى الْحَوْرِ، أَيْنَ مِنْكَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، والمُبْدِيءُ والمُعِيدُ ؟ ...) (١).

ثم تختتم المقامة بأبيات من الشعر يطرحها الشيخ أبو حبيب يعطي فيها نظرته وتصوره في الحياة .

ومن يطالع مقامات السرقسطي يلحظ فيها سعة ثقافته وتنوعها فقد شملت مختلف المجالات وخاصة اللغوية، والنحوية ، والأدبية منها .

أما الفقيه الثاني الذي عارض الحريري في مقاماته ، فهو الفقيه ابن أبي الخصال ، فقد أنشأ مقامة عارض بها مقامة الحريري المسماة بـ (التفليسية) ، وقد اتخذ فيها الكاتب الحارث بن الهمام رواية مقامات الحريري رواية لمقامته ، وأبا زيدالسروجي بطل المقامات نفسها بطلاً لمقامته.

أما أحداث مقامته فهي تدور في بلدة (خناصرة) إحدى بلدان الشام(٢) حيث يرى الرواية فيها الشيخ أبا زيد ، وقد تحلقت حوله جماعة من الناس ، ورفع (صوتاً جَهْورياً ، ونَضْنَض لساناً عبقرياً ، بكلامٍ عذب المُجاجة، خسرواني الدّيباجة ، يكتنفهُ السَّداد ، ويأذنُ له الجماد ..)(٣).

كل ذلك من أجل أن يستدر أموال الناس فيحثهم على العطاء شكراً لله الذي أنزل عليهم الغيث فاسمعه يقول : (قد شكرتم قولاً فاشكروا طوْلاً ، وأثنيتم لفظاً فاثنُوا لدى البِرَّ والصلّة لَحْظاً ، وبادِرُوا بالحسنات قبل فَوْتها ، وانظروا إلي رحمة الله كيف يُحيي الأرضَ بعد موتِها ، ألا واثِقٌ بالخلف ؟ ألا مُقْتَدٍ بالسلف ؟ ألا يدٌ تطُول ؟ ألا حرٌّ ينول ؟ ألا معط من يسار ؟ ألا مواسٍ من قُصَارٍ؟ ألا مُؤثِرٌ من إقتار ؟ ...)(٤).

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الروض المعطار / ص٢٢٢ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال / ص٤٢٢ .

(٤) المصدر السابق / ص ٤٢٣ .

ويمضي أبو زيد في استدراره للناس والناس يستمطرونه بوابل من الأموال ، وهو (يَتلقَّفُ ولا يتَوقَّفُ ، ويلتقطُ ما يسقطُ ، ويدَّخر ولا يؤخِّر، ويصطفي ما يعتفي ، ويحتوي ولا يجتوي ، ويلتوي طوراً ثم يستوي)(١).

فما أن يفرغ السروجي من ادخار المال الذي حصل عليه بطريقة الاستجداء والكدية حتى أخذ الحارث يتبعه في سيره ، حتى كاد الشيخ أن يصيبه بسهم ، إلا أنه عرفه وأخذ يقول : (إنّك لابن همام منذ الليلة) (٢).

وهكذا تتابع الأحداث إلى أن نصل إلى نهاية المقامة ، فنجد أنها ختمت بأبيات من الشعر قالها أبو زيد السروجي بناءً علي رغبة الرواية ؛ليصور فيها الوقت الممتع الذي قضياه مع بعضهما في الحان ، ولتكون بها خاتمة لقاءهما، وبذلك تنتهي مقامة ابن أبي الخصال .

ومن خلال المقامة السابقة يتبيّن لنا أنه لم يضع عنواناً لمقامته التي عارض بها المقامة (التفليسية) للحريري ، كما أنه انتقل في مقامته إلى عدة أماكن قام بوصفها وبوصف ما حدث لروايته وبطله فيها . وكأن ابن أبي الخصال لم يقصد إلى المعارضة ، بل إلى المجاراة كما قام بذلك من قبلة السرقسطي في مقاماته اللزومية .

* * *

---

(١) المصدر السابق / ص٤٢٥ .

(٢) المصدر السابق / ص٥٣٠ .

. النثر الفني التأليفي :

وهو الذي ترسل به بعض المؤلفين في وضع كتب عالجوا فيها الموضوعات الأدبية ، أو التاريخية ، أو الدينية ، أو الفكرية .

وبما أن الحالة الأدبية والثقافية إبان عصري الطوائف والمرابطين كانتا على درجة عالية من التقدم والتطور بسبب رعاية أمراء ذينيك العصرين لها ولأصحابها الأدباء ، فقد ظهرت بعض المؤلفات المتنوعة الأغراض مصوغة في أسلوب فني شائق منعاً للملل والسأم عن نفس القارئ ، كما أن أصحاب هذه المؤلفات إذا نظرنا إلى حياتهم العلمية وجدنا أنهم جمعوا في تحصيلهم العلمي بين علوم الأدب والعلوم الأخرى ، فبالإضافة إلى إتقانهم العلوم الشرعية والفقهية نجد لهم عناية واضحة بالمجال الأدبي ، وقد اتضح ذلك من خلال منشآتهم الشعرية والنثرية التي استعرضنا نماذج منها. وطالما أن لهم هذا الاهتمام الكبير بالأدب ، فحري إذاً أن تلحظ هذه السمة في مؤلفاتهم الأدبية وغير الأدبية .

ومؤلفات فقهائنا التي يمكن أن تدخل تحت هذا النوع كثيرة ومتنوعة ، ومن أهم ما يميزها اعتماد الفقهاء فيها علي الأساليب التي تضفي على المؤلف شيئاً من الإبداع الأدبي والجمال التعبيري ، ومن هذه المؤلفات مايندرج تحت الذاتية وبيان ما فيها من الجوانب العاطفية والفكرية مثل (طوق الحمامة) لابن حزم .

وفي مجال الأخلاق والوعظ والإرشاد نجد عدة كتب منها : كتاب (بهجة المجالس ، وأنس المجالس) لابن عبد البر ، وكتاب (سراج الملوك) لأبي الوليد الطرطوشي .

وفي مجال الفقه والعلوم الشرعية نجد كتباً عديدةً لابن حزم منها : (الإحكام في أصول الأحكام) ، و (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ،

وكتب ابن عبدالبر نحو (التمهيد لما في المؤطأ من المعاني والأسانيد) ، وكتاب ابن العربي (قانون التأويل) وغير ذلك .

وفي مجال الترجمة نجد الحميدي في كتابه (جذوة المقتبس) ، وابن بشكوال وكتابه (الصلة) ، ومع تعدد هذه المؤلفات وتنوع موضوعاتها إلا أن السمة الأدبية هي القاسم المشترك الذي يربط بينها ، فلايكاد يخلو كتاب من هذه الكتب من المميزت الأدبية أو الخصائص الفنية الأدبية ، فيلحظ عليها عناية المؤلفين فيها بألفاظهم من حيث تزيينها وزخرفتها بأشكال الزخارف اللفظية ، ومن اهتمامهم بإيراد الصور البيانية المعبرة والمؤثرة .

ونعرض فيما يلي جملة من أساليب البيان وصوره الواردة في مؤلفات فقهائنا ذات الموضوعات المختلفة ، وقد كتبت بأسلوب نثري جميل يحمل خصائص فنية وأدبية .

ومن ذلك كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم ، فقد اعتمد صاحبه فيه علي الأسلوب الأدبي ، فلنقرأ له وهو يحكي قصة حبه للجارية (نعم) ، وقد أخذ أولاً في وصفها بوصف اتضح فيه أسلوب ابن حزم الأدبي : (أني ألفت في أيام صباي ألفة المحبة ، جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غايةً في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مُسبلة الستر، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ..)[١].

ومن خلال الفقرة السابقة نجد أن سجع ابن حزم جاء (في موضعه طبيعياً وغير متكلف ، وجمله قصيرة ، ذات نغم موسيقي ..)[٢].

---

(١) طوق الحمامة /ص١٤٥ .

(٢) د . الطاهر أحمد مكي ، دراسات عن ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة) ، الطبعة الرابعة ، (القاهرة : دار المعارف ١٩٩٣م) ص ٣٢٦ .

ومن ذلك - أيضا - (سراج الملوك) لأبي الوليد الطرطوشي ، فنأخذ مثالاً على ذلك قوله في الباب الأول في مواعظ الملوك يذكرهم بالملوك السابقين وما الذي حدث لهم ولأملاكهم من الفناء والزوال قائلاً لهم : (أين الأمم الماضية ؟ أين الملوك السالفة ؟ أين القرون الخالية ؟ أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان؟ أين الذين اغتروا بالأجناد والسلطان ؟ أين أصحاب السطوة والولايات أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات ؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر؟..)(١).

وهكذا يكثر الطرطوشي من أسلوب الاستفهام رغبة التنبيه والتذكير بما حدث للأمم السابقة وللملوك السالفين ، وهو يسير على منوال كتاب عصره في استخدامه للسجع والإكثار منه .

وفي مجال العلوم الدينية يظهر لنا كتاب (قانون التأويل) لابن العربي ، وقد ظهر فيه أسلوب صاحبه الأدبي المرتكز على الاقتباس من القرآن الكريم ، فلنستمع له وهو يقول في « ذكر أقسام حال النفس » : (وَقسَّمَ اللهُ - تعالى - حالَ النَّفْسِ قسْماً به يتَبَيّنُ أمْرُهَا ، وتَزيدُ المَعْرِفَةُ بها ، ويدُلّ على وجودِ رَبِّهَا وصِفَاته ، وحِكْمَته في أَحْكَامه ، وذلك على ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ لثلاثَة أَحْوالٍ : أمارةٌ بالسُّوءِ ، ولوّامَةٌ ، ومُطْمَئِنَّةٌ)(٢).

وفي مجال الحديث عن الأخلاق ومحاولة السمو بها نجد كتاب (بهجة المجالس) لابن عبدالبر وقد سلك فيه الفقيه مسلك غيره في اصطباغ كتابه بالصبغة الأدبية ، فهو مكثر لايراده للشواهد الشعرية سواء من نظمه أم من نظم غيره ، أما من ناحية السجع وغيره من المحسنات البلاغية البديعية فهي قليلة لاتقارن بما سبق ، وذلك لأنّ الفقيه اعتمد في كتابه أن يورد في كل بابٍ

---

(١) سراج الملوك /ص ٧ .

(٢) قانون التأويل / ص١٥٨ .

آيةً من القرآن الكريم إن تيسر ذلك ، وحديث من أحاديث الرسول ﷺ ، إن تيسر ذلك أيضا ، ثم يورد أقوالاً لبعض الصحابة أو الحكماء مما يمكن أن يستشهد بأقوالهم في الباب المراد الحديث عنه ، ويأتي - كذلك - بنماذج من الشواهد الشعرية ، فالكتاب عبارة عن مختارات من الأقوال ، وأقوال ابن عبد البر فيه غير كثيرة، بيد أن مقدمته للكتاب يتضح فيها أسلوبه الأدبي فيقول : (إن أولى ما عني به الطالب ، ورغب فيه الرّاغب ، وصرف إليه العاقل همه، وأكد فيه عزمه ، بعد الوقوف على معاني السنن والكتاب ، مطالعة الآداب ، وما اشتملت عليه وجوه الصواب من أنواع الحكم التي تحيي النفس والقلب، وتشحذ الذهن واللّب ، وتبعث على المكارم ، وتنهي عن الدنايا والمحارم ، ولا شيء أنظم لشمل ذلك كله ، وأجمع لفنونه ، وأهدى إلى عيونه ، وأعقل لشارده ، وأثقف لنادرة من تقييد الأمثال السائرة ، والأبيات النادرة ، والفصول الشريفة ، والأخبار الظريفة من حكم الحكماء ، وكلام البلغاء العقلاء ..)[١].

أما بالنسبة لكتب التراجم مثل (جذوة المقتبس) للحميدي ، و (الصلة) لابن بشكوال ، فإن بدا عليها الطابع الأدبي ، إلا أن عنايتها (بصور البيان والبديع وغيرها مما يتعلق بزخرفة الكلام لاترتقي إلى درجة أساليب ابن بسام وابن خاقان ، وقد يعود ذلك إلى اختصار الترجمة)[٢].

فالحميدي وابن بشكوال قد لاتتجاوز تراجمهما لبعض الشخصيات أحياناً السطرين ،وقد تزيد إلى أن تصل إلى الصفحة أو نصفها ، فهي تتسم بالإيجاز والاختصار ، وهما - أي الحميدي وابن بشكوال - لايشغلان كثيراً بوصف الشخصية أو الثناء عليها كما يفعل ابن بسام في (الذخيرة) ، أو ابن خاقان في (قلائد العقيان) .

---

(١) بهجة المجالس ١/ص٣٥ .

(٢) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين / ص٥٥٣ .

ومن نماذج تراجم الحميدي وابن بشكوال التي يتبيّن فيها الأسلوب الأدبي لمن قام بالترجمة لهم ، ترجمة الحميدي لأسلم بن عبدالعزيز بن هاشم بن الجعد يقول عنه الحميدي بأسلوب مسجع (وكان جليلاً من القضاة ، ثقة من الرواة ..)(١).

ويقول ابن بشكوال عن خلف بن إبراهيم المقرئ واصفاً إياه بألفاظ يظهر فيها السجع غير المتكلف : (وكان ثقةً صدوقاً حسن الخطبة ، بليغ الموعظة، فصيح اللسان ، حسن البيان ، جميل المنظر والملبس ، مليح الخبر ، فكه المجلس ..) (٢).

وما قيل عن هذين الكتابين يقال ـ كذلك ـ عن كتاب (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم ، فيندر أن نجد فيه شيئاً من السجع أوبعض الزخارف اللفظية الأخرى ، غير أن هذا لا ينفي وجود إشارات أو لمحات تدل على تأثر مؤلفها بالأدب وخصائصه الفنية ، ونضرب مثالاً على ذلك بقول ابن حزم في نسب عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف : (ولد عبدالله بن عبدالمطلب : رسول الله وسيد ولد آدم الذي فرض الله طاعته علي جميع الإنس والجن ، واتخذه خليلاً وكليماً ، وختم به الأنبياء والرسل ، وبملته الملل ..)(٣).

ويقول عن إبراهيم ولد النبي محمد ﷺ : (مات صغيراً لم يستكمل عامين ، في حياة النبي عليه السلام ، وأمّ إبراهيم هذا : مارية القبطيّة ، أهداها إليه المقوقس النصراني صاحب الأسكندرية)(٤).

وعلى ذلك سار فقهاء الأندلس في مؤلفاتهم المتعددة الموضوعات والأغراض ، فقَلَمُهم الأدبي لم يضب عن الموضوعات غير الأدبية ، بل نرى

---

(١) جذوة المقتبس / ١٧٣ .

(٢) الصلة ١٧١/١ .

(٣) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، الطبعة الرابعة ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة : دار المعارف)/ ص ١٥ .

(٤) المصدر السابق / ص١٥ .

أثر هذا القلم وهذه الروح الأدبية متجلياً واضحاً وإن تفاوت في إبراز ملامحه بين السطوع وبين الإخفات .

وبالإنتهاء من الحديث عن النثر الفني التأليفي ، ينتهي الحديث عن المنشآت النثرية لفقهاء عصرى الطوائف والمرابطين ، والذي تبين لنا من خلال الشواهد التي وردت فيه شمول هذا التراث واحتواؤه لجميع الأغراض المتناولة إبان ذينيك العصرين ، وقدرة الفقهاء على مواكبة معاصريهم الكتاب في معالجة فنون النثر الأدبي بشكل لافت للأنظار كماً وكيفاً ، ويتضح ذلك في كثرة رسائلهم وتنوعها ، ولايعد ما ورد فيها جميع نتاجهم ، بل هو جزء اكتفى به لاعطاءٍ لمحات عن مساهمة الفقهاء في تقدم هذا الفن النثري مع معاصريهم . وقد قسمت هذه الرسائل بحسب أغراضها أو موضوعاتها ، فكان منها الإخوانية التي غلب عليها طابع الإخوة ، فهي عبارة عن رسائل كتبت لتسجل علاقة الفقهاء بمن حولهم من الإخوان والأصدقاء ، أو من الذين أصابتهم كوارث الزمان فأعطت بذلك صورة صادقة للعلاقات الاجتماعية لعصري الطوائف والمرابطين مع ما يكتنف هذه العلاقة من محبة وحب مشاركة تحلى بها الفقهاء .

كم أعطى فقهاء الأندلس في رسائلهم الديوانية عرضاً مهماً للأحوال السياسية والعلاقات التي تربط بين الحكام مع بعضهم ، وهي علاقات في مجملها تتمتع بالروح الإسلامية ، كما أنها أعطت صورة لعلاقة الساسة مع عامة الشعب الخارجين منهم وبينت موقف الحكام من هؤلاء المتمردين .

وفي الرسائل الدينية سجل الفقهاء مشاعرهم الدينية تجاه خالقهم المولى سبحانه وتعالى ، فسبحوه وحمدوه وأثنَوْا عليه لما وهبهم من نعمة الإيمان ونعمه الأخرى التي لاتعدّ ولاتحصى ، كما أبدَوْا مشاعرهم تجاه الأراضي المقدسة وتشوقهم لأداء ما فرضه الله عليهم فيهما ، وفي مثل هذا النوع من

الرسائل عالج الفقهاء ـ كذلك ـ بعض أنماط السلوك المخالفة للشرع التي تحدث من قبل المسلمين ، وذلك بوعظهم وإرشادهم ؛ لاتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ، كما حث فقهاؤنا ـ عبر هذه الرسائل ـ المسلمين على الجهاد ونصرة الدين الإسلامي ورفع الظلم على إخوانهم في البلاد المسلوبة على أيدي الأعداء.

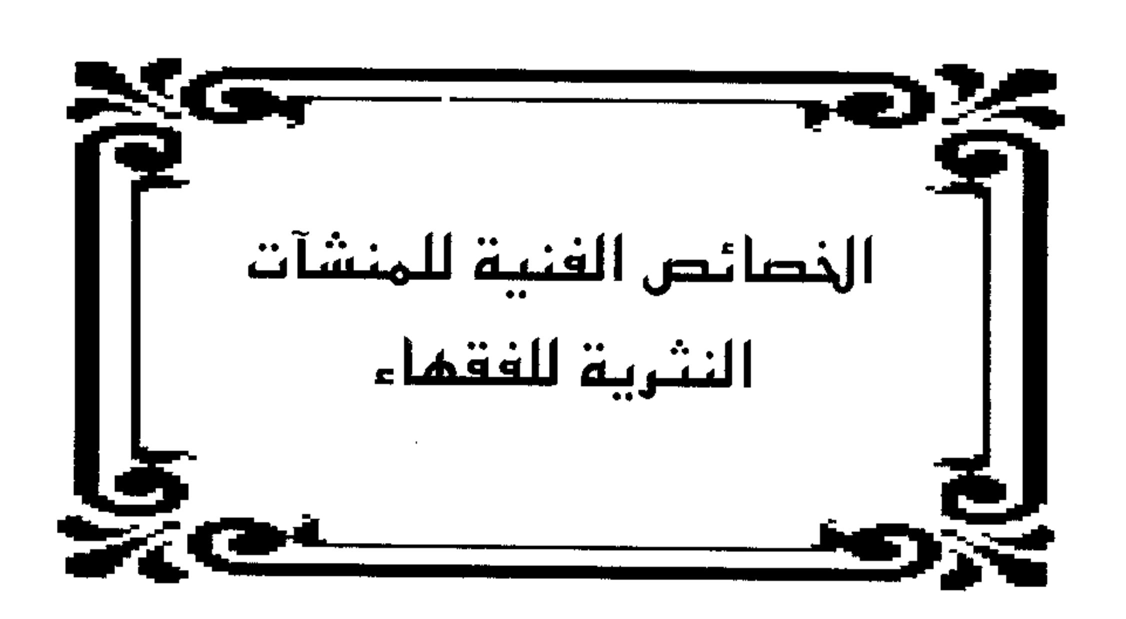
ومن خلال الرسائل الوصفية أظهر لنا الفقهاء مقدرتهم التصويرية في تصوير بعض جوانب الحياة الأندلسية ، كوصفهم للطبيعة وما فيها من المفاتن الربانية ، ووصفهم للرحلات التي قاموا بها وما حدث لهم من المصاعب والأهوال التي صادفتهم ، مع وصفهم للأحوال النفسية أثناء شعورها بالخطر وحتمية الهلاك والموت ، ووصفهم لما في البحر من أنعم ، وما به من عظات وعبر ، ووصفهم للحروب وما تخلفه من دمار وخراب ، ووصف بعض الأدوات المستخدمة فيها ؛ لتكتمل الصورة الحربية .

وفي النوع الثاني من منشآت الفقهاء النثرية تحدثنا عن الخطب ، فوجدنا أنهم عالجوا بها كل ما يقرب إلى المولى القدير ـ سبحانه وتعالى ـ من قيامٍ لليل ، أو جهاد في سبيل الله ، أو بترك كل ما يخالف أوامر الله تعالى ، فأخذت خطبهم أسلوب الوعظ والإرشاد والتذكير والتنبيه مع الاستكثار من الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

ومن خلال حديثنا عن المقامات في تراث الفقهاء تبين لنا مدى تأثرهم بمقامات بديع الزمان الهمذاني ، ومقامات الحريري ، وبالأخص المقامات الحريرية ، كما تبيّن لنا أنهم عندما قاموا بكتابة مقامات على غرار مقامات الحريري ، لم يقصدوا من ورائها فقط معارضتها ، بل أرادوا مجاراتها وعرض قدراتهم اللغوية والأدبية التي لاتقل عن المشارقة .

وبالحديث عن الأعمال النثرية لفقهاء عصري الطوائف والمرابطين تكشف لنا مع تعدد موضوعاتها وخروج أغلبها عن المجالات الأدبية أن الطابع الأدبي لايخلو منها ، مما يؤكد على قدرة أصحابها الأدبية بصياغة مفرداته وجمله بأشكال زخرفية تتآلف مع المعنى لتكسبه الرونق والجمال ، وإن كانت سمة السجع هي السمة البارزة في كتابات الفقهاء النثرية ، إلا أن ذلك كله أتى مقبولاً مستساغاً لا غلو فيه ولا إغراق .





الخصائص الفنية للمنشآت النثرية للفقهاء

حتى تكتمل دراسة هذا الفصل فلا بد من أن نلقي ضوءاً حول النصوص النثرية لفقهاء الأندلس - عصري الطوائف والمرابطين - ودراستها من الوجهة الفنية وما تتمتع به من خصائص وسمات .

فإذا أمعنا النظر في ما تركه لنا الفقهاء من منشآت نثرية وجدنا أنها تتميز بخصائص فنية تشابه إلى حد كبير خصائص نثر معاصريهم من الأدباء . لذلك سنتناول في هذه الدراسة الحديث عن بناء تركيب القطعة النثرية ، من حيث مطلعها وختامها ، ومن حيث استخدامها للجمل الدعائية ، والجمل المعترضة ، وتمازج الشعر بالنثر ، والاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وتضمين الشعر والأمثال ، واستخدام المصطلحات الدينية .

كما ستتناول الدراسة الحديث عن الصور البيانية ، وعن آلياتها ، ومصادرها لدى الفقيه ، وستبيّن الألوان البديعية والزخارف اللفظية التي استخدمها الفقهاء لتوشية وتنميق كتاباتهم النثرية نحو السجع ، والجناس، والطباق ، والمقابلة .

أولا : بناء القطعة النثرية :

- البدء والختام :

من خلال عرضنا للشواهد النثرية للفقهاء - إبان عصري الطوائف والمرابطين - وجدنا أن رسائلهم المتنوعة قلما تستفتح بالحمد والصلاة على رسول الله ﷺ ، حيث نجدهم يدخلون في الموضوع مباشرة مثل غيرهم من الأدباء المعاصرين لهم ، ولم نجد مثل هذه الافتتاحيات إلا في رسائلهم الدينية نحو فصول الحمد التي وجدناها عند ابن برد الأصغر ، ونحو رسائل ابن حزم ، ونمثل لذلك بمطلع رسالته (في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق

والزهد في الرذائل) ، يقول في مطلعها : (الحمد لله على عظيم منته ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده وخاتم أنبيائه ورسله وسلم تسليماً كثيراً...)(١).

ونجد مثل هذه الافتتاحيات في رسائل ابن أبي الخصال الدينية ، وإذا نظرنا في رسالته في إجازة مقرئ (٢) ، نجد أنها بالقياس إلى افتتاحية ابن حزم السابقة تمتاز بالطول ، وهي بذلك تعطي إشارة على أن افتتاحيات الحمد لدى رسائل الفقهاء الدينية تتفاوت بين الطول والقصر .

وقد يعود السبب في خلو الرسائل الأخرى من مثل هذه الافتتاحيات أن أغلب من يستشهدون برسائل الفقهاء في المصادر الأدبية الأندلسية يسقطون هذه المقدمات أو الافتتاحيات بغية الاختصار والدخول مباشرة في موضوع الرسالة على نحو ما وجدنا عند ابن بسام صاحب أكبر موسوعة أدبية أندلسية ، فهو دائماً يقتطف فصولاً من رسائل من يقوم بالترجمة لهم من الأدباء ، ولا يوردها جميعها . إذن فلا يستبعد أن يكون الفقهاء قد بدأوا مطالع رسائلهم بالحمد والصلاة على رسول الله ، فهم في موضع اجتماعي وعلمي يحتم عليهم فعل ذلك .

أما بالنسبة لخطبهم فهي كغيرها من الخطب الإسلامية تستفتح بالحمد والثناء على الله بما هو أهل له ، ثم الصلاة على رسول الله ، فهذا الاستفتاح هو عماد الخطبة ، نمثل على ذلك بقول ابن أبي الخصال في مطلع خطبته في الشكر على نزول الغيث بعد اتصال القحط :

(الحَمْدُ للَّه الَّذي لايكشفُ السّوءَ سِواه ، ولا يَدْعو المضْطرُّ إلاّ إيّاه ، نُنْزلُ فقرنا بغناه ، ونَعوذُ من سخطه برضاه ونَسْتَغْفرُهُ لذنوبنا ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الْذنُوبَ إلاّ اللّه ﴾ ، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاّ اللّهُ ، وَحْدَهُ لاَشَريكَ لَهُ إلَهاً عَلاَ

---

(١) رسائل ابن حزم ١/ص٣٣٢ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص١٩٥.

وَاقْتَدر ، وأوردَ عبادَه وأصْدَر ، وبَسَطَ الرِّزْقَ وقَـدَّر، وَأَشْـهَدُ أَنّ مُـحَمَّداً عَـبْدُهُ ورَسُولُهُ الَّذِي بَشَّرَ وَأَنْذَرَ ، وَرَغَّبَ وَحَذَّر ..)[١].

كما نجد مثل هذه المقدمات الدينية في مطالع مؤلفاتهم النثرية ، وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه من البحث ، كما أشرنا إلى تنوع هذه المقدمات واختلافها من حيث طولها .

وأما بشأن المقامات فهي تستفتح بحديث الرواة ، فالسرقسطي يبدأ مقاماته بحديث راويته السائب بن تمام ، وأحياناً يستعين برواية آخر يروى عن السائب بن تمام ، وهذا الراوية هو (المنذر بن حُمام) .

ويبدأ ابن أبي الخصال مقامته التي عارض بها إحدى مقامات الحريري بحديث لراويته الحارث بن همام ، وقد يستفتح الفقهاء نثرهم ببعض من الأبيات الشعرية ، وذلك يتضح في الرسائل ، نحو الرسالة التي كتبها عمر الهوزني للمعتضد بن عباد يحضه فيها على الجهاد في سبيل الله ، وقد استفتحها بأبيات له تحمل مضمون الحث على الجهاد [٢]. وكالرسالة الإخوانية للفقيه ابن أبي الخصال التي وجهها إلى أحد أصدقائه[٣]. غير أن بقية نثرهم من خطب ومقامات ومؤلفات نثرية تكاد تخلو من مثل هذه المقدمات الشعرية .

أما عن ختام نثرهم فهو شبيه بمقدماتهم ، قد تختم بالصلاة على رسوله الله ، وقد تختم ببعض من الأبيات الشعرية ، وذلك يتبين في الرسائل، وفي خطبهم ومؤلفاتهم النثرية نجد أنهم يختمونها بحمد الله والثناء عليه، الذي أتمّ عليهم إنهاء مؤلفهم ، ثم الصلاة علي رسول الله صلي الله عليه وسلم .

---

(١) المصدر السابق / ص٢٧٢ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص١٥٠ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال /ص٤٤٨ .

أما عن المقامات فمقامات السرقطسي نجد أنها تنتهي في الغالب طارحة بعدين رمزيين ، وهما : (الرمز الاجتماعي : حينما ينكشف خداع الشيخ أبي حبيب ويتمزق الوجه الكاذب للسائب بن تمام بفراره بعد فوزه بما يريد .

الرمز الأدبي : حينما تنتهي المقامة بأبيات شعرية يتركها الشيخ تتضمن أراءه في طباع البشر ، ومواعظه وحكمه عن غير الزمان وأحوال الأيام)(١).

ومقامة ابن أبي الخصال تنتهي بأبيات شعرية تركها الشيخ أبو زيد السروجي للراوية الحارث بن همام يثني فيها عليه وعلى أخوته الصادقة (٢).

● الجمل الدعائية والمعترضة :

مما يميز النثر الأندلسي ـ عصري الطوائف والمرابطين ـ كثرة الجمل الدعائية والمعترضة في رسائله وبما أن الفقهاء عاصروا أدباء هذه الفترة فلاشك أنهم تأثروا بهم في كتاباتهم ، فلحظنا وجود هذه الجمل في رسائلهم، فوجدناها تكثر في الرسائل الإجوانية ، والديوانية ، وتقل في الوصفية ، والدينية ، فعلى حسب طبيعة الموضوع تكثر هذه الجمل أو تقل .

ومن الشواهد على وجودها في الرسائل الإخوانية قول أبي عمر الباجي في جوابه على كتاب عتاب وصله من أحد الأصدقاء : (المودّات ـ أعزك الله ـ إنما تثبت دلائلها ، وتصحُّ مخايلها بمضمرات الفؤاد ، لا بمزورات المداد ..)(٣).

ومن الرسائل الديوانية قول عبدالله بن عبدالبر على لسان المعتضد إلي ابن هود يطلب مشورته في شأن حكام قرطبة ، فيقول مستخدماً بعض

---

(١) فنون النثر بالأندلس في ظل المرابطين /ص١٥٠ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال /ص٤٤٨ .

(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص١٩٢ .

الجمل المعترضة التي تحمل معنى الدعاء : (من اعتقدك - أعزك الله - عماداً له وظهيراً ، ورآك عتاداً وذخيراً ، طالعك بحاله وأمره ، وأطلعك على حلوه ومره ...)[١].

ونجد مثل هذه الجمل ، ولكن بقلة في بعض الرسائل الدينية وخاصة التي تحمل مضمون الوعظ والإرشاد نحو رسائل ابن حزم ، ونمثل على ذلك بقوله في رسالة « التلخيص لوجوه التخليص » : (واعلموا - رحمنا الله وإياكم - أنَّ اللَّهَ عز وجل ابتدأنا بمواهب خمس جليلة ، لايهلك على الله بعدهن إلا هالك ...)[٢].

وفي الرسائل التي تحض على الجهاد نرى مثل هذه الجمل - كذلك - ومن ذلك قول عبدالله بن عبدالبر على لسان أهالي (بربشتر) يصف فيها حالهم بعد دخول العدو عليهم ويستصرخ معاشر المسلمين ؛ ليهبوا لنجدتهم : (أما بعد : حرسكم الله بعينه التي لاتنام ، فإنّا خاطبناكم مستنفرين ، وكاتبناكم مستغثين ..)[٣]. ويكثر من استخدامه للجملة المعترضة (معشر المسلمين) ؛ لتؤكد على حتمية الجهاد ويشعرهم بأهميته لإنقاذ أهالي (بربشتر) إخوانهم في الإسلام والوطن .

كما نجد مثل هذه الجمل في خطبهم ، فهي تخاطب معاشر المسلمين وتدعوهم إلى تعديل ما انحرف من أنماطهم السلوكية والعودة إلى تعاليم الدين الإسلامي ، ومن ذلك قول ابن أبي الخصال في خطبة حض فيها على الجهاد : (اللِّسَانُ - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - يَجُورُ وَيَعْدِلُ ، والناطق يُحرِّف كثيراً ويُبَدّل:

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ /ص١٣٥

(٢) رسائل ابن حزم ٣/ص١٥١ .

(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٣ /ص١٨٤ .

فاتركُوا النَّاطقَ للصَّامت ، والمتحرِّكَ للسَّاكن السَّاكت ، وسَلَوا منازلكم عن عُمَّارها ، ومنازهكم عن زوّارها ..)[١]. أما المقامات والمؤلفات النثرية فتكاد تخلو من هذه الجمل .

● تمازج الشعر بالنثر :

ومما يلفت النظر في نثر فقهاء الأندلس ترصيعه بالشعر منعاً لتسرب الملل إلى النفوس ، وليظهر الفقهاء مقدرتهم وبراعتهم في تحلية رقاعهم النثرية بالشعر ، كما يقوم بذلك معاصروهم من الأدباء ، وعند النظر في هذا الشعر نجد أن منه ما هو من نظم الفقهاء أنفسهم ، ومنه ما يأتي به الفقهاء كاستشهاد من شعراء آخرين ، وغالباً ما يكون من شعراء المشرق .

أما من حيث مواقع الأبيات من القطعة النثرية ، فهي مختلفة فقد نجدها في مطلع الرسالة ، أو في ثنايا القطعة ، أو في ختامها ، وهي متنوعة من حيث الحجم ، فقد تكون بيتاً ، أو عدة أبيات ، وقد تطول هذه الأبيات كما يتضح عند ابن أبي الخصال في بعض رسائله[٢].

وتعد الرسائل الإخوانية من أكثر الرسائل تلويناً وترصيعاً بالشعر من قبل الفقهاء ، ثم يأتي بعدها الرسائل الديوانية ، ثم الوصفية . ويقل مثل هذا التلون في الرسائل الدينية ، حيث لانجدها إلا في الرسائل التي تتشوق إلى زيادة الحرمين الشريفين ، وماعدا ذلك فقليل نادر .

وإذا أتينا بالشواهد والأمثلة على ذلك فسيطول بنا الحديث لذلك سنكتفي بشاهدين من الرسائل ، ومن ذلك قول ابن الجد في رسالة كتبها إلى الوزير الفقيه أبي القاسم الهوزني يعزيه في أخيه ويستشهد فيها ببيتين لأبي فراس الحمداني ، يقول فيهما :[٣]

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص٥٢٤ .

(٢) ينظر كمثال في رسالته في الزرزور/ ص ٣٣٣ .

(٣) الذخيرة مج ١ / ق ٢ / ص٣١٤ ، وينظر في ديوان أبي فراس الحمداني ، الطبعة الأولى ، شرح وتقديم : عباس عبدالستار ، (بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م)، ص ٦٣ .

لابـد من فـقـدٍ ومن فـاقــد
هَيهاتَ ما في النَّاس من خالدِ
كن المُعَــزَّى لا المُعَزِّي بـه
إنْ كان لابُــدٌ من الواحــدِ

والشاهد الثاني لابن برد الأصغر وقد ختم رسالته في المفاخرة بين القلم والسيف بأبيات من نظمه ، يقول في بعض منها :(١)

قد آن للسـيف ألاّ يفـضل القلما
مذ سُخِّرا لفتًى حاز العُلى بهما
إن يُجتنى المجد غضّاً من كمائمه
فإنّما يُجتنى من بعض غرسهما
ما جـاريا أمـلاً فوافـيا أمـداً
إلاّ وكانت خِصالُ السّبق بينـهما

كما نجد هذا التلون وبكثرة في المقامات ، وتقل في الخطب وفي المؤلفات النثرية ، ماعدا المؤلفات التي لها علاقتها بالأدب ، فلاغرو أن نجد مثل هذا التلون من الإبداعات والشواهد الشعرية ممزوجة بالنثر ، وخير دليل على ذلك كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم ، وكذلك الشأن في المؤلفات التي لها علاقة بالوعظ والإرشاد ، نحو كتاب (سراج الملوك) لأبي الوليد الطرطوشي ، نجد فيه عدداً من الأبيات الشعرية ، وكذلك كتاب (بهجة المجالس) لابن عبدالبر الذي يتحدث عن الأخلاق ومحاولة السمو بها .

● الاقتباس والتضمين :

لا شك أن لثقافة الفقهاء الشرعية أثراً كبيراً في كتاباتهم النثرية ، فنراهم يوظفون القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة لخدمة ترسلاتهم النثرية من خلال اقتباسهم من هذين المصدرين العظيمين ، فلا تكاد تخلو

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ١ /ص٥٢٨ .

خطبة ، أو مقامة ، أو مؤلف نثري من الاقتباس من هذين المصدرين الأساسيين للعقيدة الإسلامية .

والشواهد على ذلك كثيرة لايمكن احصاؤها ، غير أن هذه الاستشهادات أخذت أشكالاً متنوعة منها الإشارة إلى الاستشهاد بالألفاظ ، نحو قول أبي عمر الباجي في القطعة الوصفية التي وصف فيها غيثاً نزل بعد طول قحط: (ثم نشر تعالى رحمته ، وبسطَ نَعْمتَهُ وأتاح مِنتهُ ، وأزاحَ مِحْنتَهُ ، فبعثَ الرياحَ لواقحَ ، وأرسل الغمامَ سوافح ، بماء دَفَقٍ ، ورِواءٍ غَدَقٍ ، من سماء طبقٍ ، استهلَّ جَفْنُها فَدَمَعَ ، وسمح دمعُها فهمع ..)(١).

ففي هذا القول إشارة لفظية إلى قوله تعالى : ﴿ وأَرْسَلنا الرِّياحُ لواقحَ فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكُموه وما أنتم بخازنين ﴾ (٢).

وكقول ابن أبي الخصال في إحدى رسائله التي يتشوق فيها لزيارة الحرمين الشريفين ، فيذكر مناقب المصطفى محمد ﷺ قائلاً : (فظهرت أسرارُه الكامنةُ ، وأدتهُ إليه صلوات الله عليه الطاهرة آمنة ، الذي جُعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت له الغنائم وكانت حجراً محجوراً ، ونُصِرَ بالرُّعب سنين وشُهوراً وأوتي جوامعُ الْكَلِم ، فانتظمت لفظتُه سُطوراً، وبُعث إلى الأحمرِ والأسودِ فَضْلاً كان لَهُ مَذْخُوراً...) (٣).

ففي هذا القول إيماءات إلى بعض من الأحاديث النبوية الشريفة فقوله : (الذي جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ..) إلخ . فيه إشارة إلي قوله ﷺ : (أعطيتُ خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقولهن فخراً ، بعثت إلى الناس كافةً الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ، ولم

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص١٩٦ .

(٢) سورة الحجر، آية : ٢٢

(٣) رسائل ابن أبي الخصال /ص٣٦٣ .

تحل لأحد من قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فاخرتها لأمتي فهي لمن لايشرك بالله شيئاً)[١].

وقوله : (وأوتي جوامع الكلم) فيه إشارة إلى قوله ﷺ : (أنا محمد النبي الأمي ، ـ قالها ثلاث مرات ـ ، ولانبي بعدي أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه)[٢].

وكما في قول السرقسطي في إحدى مقاماته : (قال : فَتَأَمَّلْتُهُ فإذا شَيْخُنَا أبو حبيبٍ ، فقلتُ : أهلاً بك من حميمٍ حَبيبٍ ، وكما مَحَضْتُ الصَّفَاءَ، وبَذَلْتُ الوفاءَ ، هلاّ أزلتَ الخَفَاءَ ، ومَنَحتَ الشِّفاءَ ، وَمَتَّعْتَ بِالعِرْفَانِ ، وقد عَلِمْتَ أنَّ كُلَّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)[٣].

فقوله : (وقد علمتَ أن كل من عليها فانٍ) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [٤].

وقد يتم الاستشهاد بذكر الاقتباس نصاً ، وهذا كثير في نثر فقهاء الأندلس ، ونمثل لذلك برسالة لعبدالله بن عبدالبر في التعزية يعزي فيها المظفر بن الأفطس في أبيه المنصور ، فيقول : (ومثل مولاي الرئيس الأجل تلقى هذا الخطب الذي يهد الجبال ، ويقطع الآمال ، وندبَ إليه من استجزال الذخر ، فهو القائل تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٥]، وأنت في نافذ فهمك وثاقب علمك لا تبصّر ، بل تذكر..)[٦].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ص٣٠١ .

(٢) المصدر السابق ٢/ص١٧٢ .

(٣) المقامات اللزومية /ص٤٥٦ .

(٤) سورة الرحمن ، آية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) سورة الزمر ، آية : ١٠

(٦) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص٢٢٤ .

وقد يمهد الفقيه لذكر الآية الكريمة بعبارات ، ومن ذلك قول الفقيه أبي الوليد الباجي في رسالته ذات الجدل الديني مع الراهب الفرنسي : (ونرجو أن الله - تعالى - يُنجيك بالإسلام منها ، ويبعدك بالانتقال إلى دين محمد - عليه السلام - عنها ، وإن الله - تعالى أنار قلوبَ جماعة المسلمين بالإسلام، وأعَزّنا به وأكرمنا باتباع محمد ﷺ ورضينا به ، وخصنا بالقرآن الكريم : ﴿ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديهِ ولا من خَلْفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾[١]، أفضل الكتب والخاتِم لها ، والحاكِم عليها ، والمصدّق لها . تضمَّنَ علم الأولين والآخرين ، وأنار قلوبَ المؤمنين بالحق المبين ، نحمدالله على ما خصنا به ، وهدانا له ، ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾[٢])[٣].

وكقول ابن أبي الخصال في خطبته في الشكر على نزول الغيث بعد اتصال القحط : (وكُلّ ربوةٍ قد ﴿ أخذتْ زُخْرفَها وازَّيَّنَتْ ﴾[٤]، من آياتِ اللّهِ ما بَيَّنَتْ ، كما تتوَّجَ في إيوانِهِ كِسْرى ، واستَقْبَلَتْهُ وفودُهُ تُتْرى ..)[٥].

ونجد كذلك الاقتباس من مصدري الشريعة في مؤلفات الفقهاء النثرية المتنوعة الأغراض ، وهكذا يتبين لنا حرص الفقيه الأندلسي على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وعلى الاستشهاد منهما كلما أتيحت له الفرصة .

كما يلحظ في نثر فقهاء الأندلس تضمينهم للأشعار والأمثال ، وقد أشرنا إلى تضمين الأشعار في معرض حديثنا عن تمازج الشعر بنثر الفقهاء . وذكرنا أن هذا الشعر قد يكون من نظم الفقهاء ، وقد يكون استشهاداً من غيرهم ، وهذا الاستشهاد ، وهو ما نقصد به (التضمين) ؛ لأنهم يضمنون أبيات غيرهم إلى نثرهم .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٤٣ .

(٣) رسائل أندلسية . ٢٢٨

(٤) سورة يونس ، آية : ٢٤ .

(٥) رسائل ابن أبي الخصال /ص٢٨٠ .

وتضمين الفقهاء للأمثال في ترسلاتهم النثرية يؤكد على سعة اطلاع الفقهاء وتنوع ثقافتهم وارتباطهم الوثيق بموروثهم الأدبي القديم ، والشواهد على ذلك كثيرة ومتنوعة . من ذلك قول ابن برد الأصغر في رسالته التي فاخر فيها بين السيف والقلم : (فقال السيف : ياالله ! استنت الفِصالُ حتى القرعى، وربَّ صَلَفٍ تحت الرّاعدة ، لقد تحاول امتداداً بباع قصيرة ، وانتفاضاً بجناح كسيرة ..)[1]. فقوله : (استنت الفصال حتى القرعى[2]، وربَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ [3]...) ، مثالين استشهد بهما الكاتب وضمنهما رسالته .

ويقول عبدالله بن عبدالبر في إحدى رسائله في الجهاد التي أنشأها علي لسان أهل (بربشتر) : (والمرء كثير بأخيه ، وإلى أمه يلجأ اللهفانُ، وإلى الصوارمِ تفزعُ الأقرانُ ، والسعيدُ من وعظَ بغيره..)[4]. فقوله (والسعيد من وعظ بغيره) مثلٌ [5].

ويكثر تضمين الأمثال في المقامات ، وكأنها تقوم أو ترتكز عليها ، ومن ينظر في مقامات السرقسطي اللزومية ، ومقامة ابن أبي الخصال ليجد فيهما الكثير ، نمثل على ذلك بقول السرقسطي في إحدى مقاماته : (فقلت : أبا حبيب ، أمن الوعظ إلى النّعْط ، ومن الكور إلى الحور ؟ أين منك الوعد والوعيد ، والمبدئ والمعيد ؟)[6].

وقوله : (ومن الكور إلى الحور) إشارة إلى المثل القائل : الحور بعد الكور[7].

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ١ /ص٥٢٥ .

(٢) استنت الفصال : أي أخذت في سنن واحد من المرح والنشاط ، حتى نشطت القرعى لنشاطها ، والقرعى : قرح يظهر في أعناق الفصلان فتسحب في التراب لتبرأ .
انظر : فصل المقال في شرح كتاب الأمثال / ص٤٠٢ .

(٣) الصلف : قلة النزل والخير . الراعدة : هي السحابة ذات الرعد . يضرب هذا المثل للرجل يكثر الكلام والمدح لنفسه ولا خير عنده . انظر فصل المقال/ ص ٤٣٠ .

(٤) الذخيرة مج ١ / ق ٣ /ص١٧٥ .

(٥) فصل المقال / ص٣٢٧ .

(٦) المقامات اللزومية / ص٦٠ .

(٧) فصل المقال / ص١٧٥ .

ونجد الاستعانة بالأمثال في الخطب - كذلك - ونمثل على ذلك بقول ابن أبي الخصال في خطبته التي حض فيها على قيام الليل : (ألا مناجي لمولاه ؟ ألا هاجرٌ لكراه ؟ ألا حامد عند الصباح لسراه ؟ ألا مُبَدِّدَ لِعَبَرَاتِهِ ؟ ألا مُرَدِّدَ لِحَسْرَاتِهِ ؟ ...)(١).

فقوله : (ألا حامدٌ عند الصباح لسراه ؟) فيه إشارة إلى المثل المعروف: (عند الصباح يحمد القوم السرى)(٢).

● استخدام المصطلحات الدينية :

ويستخدم الفقهاء في نثرهم الأدبي بعضاً من المصطلحات الدينية التي تنم عن تأثرهم بما تلقنوه من علوم شرعية ، ومن ذلك قول ابن برد في فصل المبايعة(٣). وكقول أبي القاسم بن الجد في إحدى رسائله الإخوانية الموجهة إلى أحد الفقهاء يصف فيها أحاديثه بقوله : (أمّا وأحاديثُ فضلِكَ صحيحةُ الإسنادِ ، وأدلةُ سرورِكَ مزلة العنادِ ، ومطالب علمك وفهمك ساطعة الأنوار، ومناهج هديك وسعيك واضحة الصوى والمنار ..)(٤).

فلايخفى على القارئ تأثر الكاتب ببعض المصطلحات الدينية ، ونقصد بها مصطلحات الأحاديث ، ويستخدم ابن أبي الخصال بعض مصطلحات علوم القرآن ، وبالذات مصطلحات القراءات القرآنية ، وذلك في قوله من رسالته في إجازة مقرئ : (ثم إنَّ فُلانَ بنَ فُلانٍ لما أُشرب محبَّةَ العلم وفُؤادُهُ، وتوالى إليّ تكرارُه وتَرْدادُه ، واجْتهدَ في الطَّلبِ فأثْمَرَ اجْتهادُه ، وألفيتُه فَطناً لَقناً، ومُجيداً للتِّلاوة مُتْقناً ، وسَبَرْتُه في المُتشَابِه المُؤْتلف ، والعَويص المُخْتلف فوجدْتُه حافظاً لما استودعتُه ، لافظاً كما أُسمعتُ وأَسْمَعتُه ، لايخرِم ولا يعدِل

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص٥٣٨ .

(٢) فصل المقال / ص٢٥٤ .

(٣) انظر هذا الفصل في الذخيرة مج ١ / ق ١ /ص٤٩٩ .

(٤) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص٣٠٥ .

ولايحرِّفُ ولايبدِّل ، صَنَعَ اللِّسانِ ، مُشرِفاً على ذُروةِ الإحسانِ ، إنْ حقّق حرفاً دمّثه ووطّأه ، أو اختلسهُ فكأنّما أخطأه ، أو تناوله بالرَّوْمِ والإشمام ألَمّ أحْسَنَ الإلمام ، ولم يبخس قِسْماً مِنَ الأقْسَامِ ..)(١).

ثانياً : استعمال الصور البيانية :

ومما يسترعي النظر نثر فقهاء الأندلس اشتماله على ألوان من الصور البيانية التي تضفي على العمل النثري الجمال والإشراق ، وتبث فيه الروعة مما يجعله مستحسناً مقبولاً عند القراء .

وإذا نظرنا إلى هذه الصور البيانية وجدنا أن الفقهاء استمدوها من عدة مصادر من أهمها : موروثهم القديم من خلال اطلاعهم عليه ، ومن بيئتهم الثرة التي تنعم بالجمال والخضرة ، ومن خلال أفاقهم الخيالية الجانحة .

فمن الصور البيانية التي اكتسبها الفقهاء من مورثهم الأدبي القديم قول أبي القاسم بن الجد يصف أثر المطرفي أرض الأندلس : (فكأن صنعاء قد نشرت على بسيطها بساطاً مفوفاً ، وأهدت إليها من زخارف بزِّها ومطارف وشيها ألطافاً وتحفاً ..)(٢).

فهذه صورة قديمة استقاها الفقيه من قراءاته في الأدب العربي القديم، فمدينة صنعاء مشهورة بأقمشتها وبسطها الزاهية الألوان ، وقد استعار كثير من الأدباء هذه الصورة ؛ ليصوروا بها أثر المطر وما يعقبه من اخضرار الأرض وحسن منظرها فشبهوها بالبسط اليمانية .

ومن تشبيهاتهم النابعة من بيئتهم الطبيعية قول ابن برد الأصغر في (فصول الاستزادة)، إذ نلحظ فيها صوراً بيانية متلاحقة ، فلنسمع له قوله:

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص٢٢٠ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص٢٩٠ .

(اليومُ يوم بكت أمطارهُ ، وضحكت أزهاره وتقنعت شمسه ، وتعطر نسيمه، وعندنا بليل هزج ، وساقٍ غنج ...)[١].

ونحو قول عبدالله بن عبدالبر يمدح كاتباً بالبراعة والبلاغة الأدبية ، فيقول مستفيداً من الطبيعة الخلابة من حوله ؛ ليصف براعة هذا الكاتب : (فوجدتُهُ قد أخذ بطرفي الآداب ، واكتست عليه حلة الإيجاز والإسهاب ، فاطّردت مياهُ البراعةِ من فروع منثوره ، وعبق نسيمُ البلاغةِ من مسكة وكافوره ..)[٢].

ويلعب الخيال دوره في نثر فقهاء الأندلس ، فيحلق بهم نحو الأفق ، فينسجون من خيوطه لوحات فنية رائعة ، ونمثل على ذلك بالجلسة الخيالية التي عقدها ابن برد الأصغر للأزهار ؛ لتتحاور فيما بينها ، وتتشاور فيمن يستحق فيها الرئاسة عليها ، فيصور لنا المجلس وقد ضم (صنوفاً من الريحين وأجناساً من أنوار البساتين ..)[٣] اجتمعت ؛ لتعطي الزعامة لمن يستحقها ، فقام منهم قائم يتكلم ويتحدث كأنه من البشر ، والرياحين والأنوار تستمع له وتنصت ، فقال : (يا معشر الشجر ، وعامة الزهر ، إن الله تعالى اللطيف الخبير الذي خلق المخلوقات ، وذرأ البريات ، باين بين أشكالها وصفاتها وباعد بين منحها وأعطياتها..)[٤].

ويمضي في كلامه إلى أن يصل مبتغاه ، وهو إعلان الزعامة للورد مع ذكر السبب في اختياره[٥]. ومن يقرأ هذه الرسالة لايخفى عليه ما تضمه من صور بيانية جُسدت فيها الرياحين والأزهار، وجعلتها تتحدث وتتشاور فيما بينها وتظهر محاسن بعضها، ثم تعترف بالفضل والأحقية للورد لما فيه من المميزات التي تفوق مميزات غيره .

---

(١) المصدر السابق مج ١ / ق ١ /ص٥٠٢ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٣ /ص٢١٤ .

(٣) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ /ص١٢٧ .

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ /ص١٢٨ .

وكذلك الحال بالنسبة لرسالته التي عقدها ابن برد في المفاخرة بين السيف والقلم ، فقد جسدهما وجعل كلا منهما يتحدث ويبرز فضائله .

ولايمكن أن نكتم إعجابنا بصور ابن أبي الخصال المتلاحقة في رسالته التي وجهها لابن بسام وصور فيها ليلة باردة لعبت ريحه بالسراج الذي يكتب تحته مما سبب في تحركه ، ومن ثم تعرج خط الكاتب لعدم تمكنه من الرؤية، فلنسمع له بعضاً من هذا الوصف وما يحمله من صور بيانية : (والريحُ تلعبُ بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجّاج ، فطوراً تسدده سناناً ، وتارة تحركه لساناً ، وآونة تطويه حَبابةً ، وأخرى تنشره ذؤابة ، وتقيمه إبرةَ لهب ، وتَعْطفُه بُرةَ ذهب ، أو حُمَةَ عقرب ، وتقوسَه حاجبَ فتاةٍ ذات غمزات ، وتتسلط على سليطه ، وتزيلُه عن خليطه ، وتخلّفه نجماً ، وتردُّهُ رجماً ..)[١].

ومن يتأمل هذه الصور يجد نفسه (أمام براعة فنية يهز جمالها نفوسنا هزاً ، فإذا بحثنا عن مسببات ذلك الإطراب لم نجد غير قدرة الكاتب على رصف التعابير الدقيقة ، في سيل من الزخارف اللفظية التي مردها إلى رصد كل حركة من حركات السراج ، وأداء الصور التي يكتسبها بمجموعة من التشبيهات المدحية بأجزاء شتى من الجمادات والمخلوقات : برة ذهب ، حمة عقرب ، حاجب فتاة ...)[٢].

ومن صور ابن أبي الخصال البيانية في الخطب نجد قوله في الحض على الجهاد وتنفير الناس من الدنيا التي يفكرون فيها ويتهافتون عليها تهافت الفراش على النار ، فيقول : (لاعتب لكم عليها ! قد أمّتكم جهاراً بأحجارها ، ولدغتكُمْ مراراً من أجْحارِها ، وعمَّتكم صغاراً بذحولها وأوتارها ، وأنتم - على ذلك - تتهافَتُون تهافُتَ الفَراش على حُطامِها ونَارِها...)[٣].

---

(١) المصدر السابق مج ٢ / ق ٣ /ص٧٩٢ .

(٢) النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ٢/ص٦٤٢ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال /ص٥٢٦ .

أمّا المقامات فمن غير شك أنها لاتخلو من مثل هذه الصور الجميلة ، ونمثل على ذلك بقول السرقسطي في مقامته عن الشعراء عندما ذكر رأيه في النابغة الذبياني ، فقال عنه : (جواد جرى في حلبة جياد ، فجروا إلى أمدٍ ، وما وردوا على وشلٍ ولا ثمد ..)(١).

ومن الآليات البيانية التي وجدناها في نثر فقهاء الأندلس (الكناية) ، والأمثلة على ذلك كثيرة منتشرة في نثر هؤلاء الفقهاء ، ونمثل ببعض الأمثلة كاستشهاد ؛ لوجود الكناية في نثرهم ، ومن ذلك قول ابن برد الأصغر في « فصول في الاستزارة » : (اليَومُ يوم بكت أمطاره ، وضحكت أزهاره ، وتقنعت شمسه ، وتعطر نسيمه ...)(٢).

فقوله : (بكت أمطاره) كناية عن كثرة المطر المتساقط من السماء ، وقوله : (وضحكت أزهاره) كناية عن تفتح الأزهار وانتشار أريجها الفواح ، وقوله : (تقنعت شمسة) كناية عن اختفاء الشمس ، وقوله : (تعطر نسيمه) كناية عن الأجواء العطرة التي تحيط بالكاتب .

كما نجد مثل هذه الكنايات وبكثرة في المقامات ، ونستشهد على ذلك بقول السرقسطي في مقامته الرابعة : (وإذا بقائمٍ يَقُصُّ القصَصَ والأَنْبَاء ، ويَحْملُ من الحَديثِ الكَلَّ والأعباءَ ، يَنْظِمُ تارة وينثر ، ويمرُّ هوناً في حديثِهِ ولايعثُرُ ، فملْتُ أتسمّعُ من نَشيدِهِ ، وأصغى إلى ترشيدِهِ ، وأنا أتَرَشَّفُ من مَقالِهِ الْعَذْبَ الزّلالَ ، وأجْتَني من حَديثِهِ السِّحْرَ الحَلالَ ..)(٣).

فلا يخفى ما في القول السابق من كنايات متعددة ، كما نجد هذه الكنايات في خطبهم وفي مؤلفاتهم النثرية ، ونمثل بما في خطبهم بما جاء في

---

(١) المقامات اللزومية /ص ٢٦٧ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ١ /ص٥٠٢ .

(٣) المقامات اللزومية / ص٤١ .

خطبة ابن أبي الخصال التي شكر فيها الله على نزول الغيث بعد اتصال القحط ، فقال مكنياً بألفاظ عن حالة الجدب التي أصابت أرضهم بقوله : (ولما لقحَتْ حَرْبَ الجَدْب عن حِيال ، وأشفَقَ رَبُّ الصَّريمَةِ والعِيال ، وتَنادى الجِيرَانُ للتّفَرُّقِ والزّيال ...)(١).

ثالثاً : المحسنات البديعية :

يعد استعمال المحسنات البديعية والزخارف اللفظية سمة ظاهرة في نثر أدباء الأندلس عصري الطوائف والمرابطين ، ومن غير شك أن الفقهاء تأثروا بهذه الظاهرة ، فأولوها الاهتمام والعناية بيد أن استعمالهم لمثل هذه الزخارف اللفظية التي قصدوا من وراءها توشية وتزويق قطعهم النثرية كانت في أغلبها عفوية غير متكلفة أو مبالغ فيها .

وعندما ننظر في هذه الزخارف اللفظية في نثر فقهاء الأندلس نجد أن أغلبها يندرج تحت السجع ، والجناس ، والطباق ، والمقابلة ، لذلك سنأتي على كل نوع من هذه الأنواع بنماذج وشواهد من نثرهم ؛ لنؤكد حرص الفقهاء على مواكبة أدباء العصر في كتاباتهم النثرية ، وأنهم لم يبعدوا عنهم كثيراً في مميزاتهم الكتابية .

- السجع :

إذا فتشنا في نثر الفقهاء عن السجع وجدناه يكاد يغطي جميع عبارتهم، فلا نجد رسالة ، أو خطبة أو مقامة تكاد تخلو منه ، غير أن حظ السجع في نثر الفقهاء يختلف مقداره باختلاف الموضوعات ، فيكثر في موضوعات ، ويقل في أخرى . ومن الموضوعات التي يكثر فيها الرسائل الإخوانية، والديوانية ، والدينية ، وأغلب رسائل الوصف، وفي المقامات ، والخطب . ويقل في بعض رسائل الوصف ، وفي المؤلفات النثرية .

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال /ص٢٧٣ .

فمن الرسائل الإخوانية التي نجد فيها السجع بكثرة ، ولكن دون مبالغة أو تكلف رسالة لأبي عمر الباجي في التعزية ، يقول في بعض منها : (كتابي عن نَفْسٍ مستطارة بلَوْعَتهَا ، وكبدٍ مُذابة بروعتها ، وعن قلبٍ شعارُهُ بَرْحُ الجوي ، وأعشاره نَهْبُ الأسى ، تفجّعاً لما فجعك ، واشتراكاً في عظيم المصاب معك ...)(١).

ومن أسجاعهم في المقامات نمثل بقول السرقسطي في إحدى مقامته : (حدث المنذر بن حمام ، قال : حدث السائب بن تمام ، قال : حللتُ بالزَّابِ، مُبْعَد الأهل والأحزاب ، فأَقَمْتُ من أَهْلِهَا بين قَوْمٍ قد استولتْ عليهم البداوةُ ، واستطَارَتْ بينَهُمْ العَداوَةُ ، وفَشَتْ فيهِمْ عُنْجُهيّةُ الأعْرَابِ ، وقسوةُ الصَّعَاليكِ والْخُرَّابِ)(٢).

ومن سجعهم في الخطب نمثل بقول ابن أبي الخصال في إحدى خطبه في عيد الأضحى : (أيها النَّاسُ ، ونفسي من نُفُوسكم أصدأ ، وبموعظتها قبل موعظتكم أبدأ ، رُبَّ غِرَّةٍ وضعها اللَّهُ تعالى للاهتبال ، ونعمةٍ تزن رواجح الجبال ، أعْرَضنا عنها - وهي عُرضةُ الإقبال ، ولم تحظَ منا بذكرٍ ولا جَرْت في بال ..)(٣).

ونجد السجع في بعض موضوعات الوصف يقل عما ألفناه سابقاً نمثل على ذلك برسالة ابن برد في تفضيل الورد فلنقرأ له قوله : (أن صنوفاً من الرياحين ، وأجناساً من أنوار البساتين ، جمعها في بعض الأزمنه خاطر خطر بنفوسها ، وهاجس هجس في ضمائرها ، لم يكن لها بدٌّ من التفاوض فيه والتحاور ، والتحاكم من أجله ، والتناصف ، وأجمعت على أن ما ثبت في ذلك من العهد ، ونفذ من الحلف ، ماضٍ على من غاب شخصه ، ولم يئن منها وقته ...)(٤).

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص١٩٠ .

(٢) المقامات اللزومية / ص١٤٨ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال /ص٥٦٦ .

(٤) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص١٢٧ .

كذلك يقل السجع في مؤلفات الفقهاء النثرية ، ونمثل على وجودها بما جاء في كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم ، إذ يقول في وصف جاريته «نعم» : (عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ...)(١).

- الجناس :

ومن الزخارف اللفظية التي أعتنى بها الفقهاء في نثرهم (الجناس) ، وحين ننظر في النصوص النثرية التي وصلتنا من هؤلاء الفقهاء ؛ نجد أنها لاتخلو من صور الجناس ، سواء في الرسائل ، أو الخطب ، أو المقامات ، بيد أن هذه الصور لاتوازي السجع في كثرته ، ونمثل على بعض من هذه الصور وحضورها في نثر الفقهاء بقول ابن الجد في إحدى رسائله الإخوانية يهنئ أحدهم بمولود جديد : (إن أحق ما انبسط فيه للتهنئة لسان ، وتشرف ميادين معانيه بيان وبنان ، أمل رجي فتأبى زماناً ، واستدعي فلوى عناناً ، وطاردته المنى فأتعبها حيناً ، وغازلته الهمم فأسعرها حنيناً ..)(٢).

فالجناس يقع بين (بيان - بنان)، و (زماناً - عناناً) ، و (حيناً - حنيناً) .

ومن صور الجناس في المقامات نمثل بقول ابن أبي الخصال في مقامته التي عارض بها الحريري : (فبينا نحن بخُناصرة إذ نشأتْ بحريّة فجعلت تسحُّ ولا تشحُّ ، وطفقتْ تُريقُ ولاتَستْفيق ، وتثجم ولاتنجم ...)(٣).

فالجناس واقع بين (تسحُّ - تشحُّ) و (تريق - تستفيق) و (تثجم - تنجم) .

---

(١) طوق الحمامة / ص١٤٥ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص٢٩٢ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال /ص٤٢١ .

ونجد الجناس ـ كذلك في خطبهم فلنستمع لابن أبي الخصال في خطبته التي حض فيها على قيام الليل ، يقول : (أيها النّاسَ ، لا حُجّةَ بعد الرُّسُل ، ولا حَيْرَةَ مع وضوح السُّبل ، أَمْثالٌ مَضْرُوبَةٌ ، وأعلامٌ منصُوبةٌ ، وأيَّامٌ محسوبةٌ ، وغَايَاتٌ مطلوبةٌ ، وآجالٌ مكتُوبَةٌ ..)(١).

ويقل الجناس في مؤلفات الفقهاء النثرية ، فنجده عفوياً غير مبالغ فيه. ومن صور الجناس ما وجدناه في كتب الوعظ نحو كتاب (سراج الملوك) لأبي الوليد الطرطوشي ، فلنقرأ له قوله : (أين أصحاب السطوة والولايات ؟ أين الذين خفقت على رؤسهم الألوية والرايات ؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر ؟ ..)(٢).

ـ الطباق والمقابلة :

ومن الزخارف اللفظية التي استعملها فقهاء الأندلس في نثرهم ؛ ليحسنوا به كتاباتهم (الطباق) : وهو (الجمع بين الشيء وضده في الكلام)(٣) ، والمقابلة : وهي : (إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة)(٤).

وعندما نستعرض نصوص الفقهاء النثرية نجد حضور هذين اللونين من الزخارف اللفظية جلية واضحة ، والشواهد على ذلك كثيرة متنوعة نأخذ منها أمثلة على ذلك بقول عبدالله بن عبد البر في إحدى رسائله الديوانية التي شرح فيها مقتل المعتضد بن عباد لابنه إسماعيل : (والنُّفوسُ قد تطيبُ ثم تخبث ، لقرين يصلح أو يفسد ، وخليط يغوى أو يُرْشِدُ)(٥).

---

(١) المصدر السابق / ص٥٣٧ .

(٢) سراج الملوك / ص٧ .

(٣) كتاب الصناعتين / ص٣٣٩ .

(٤) المصدر السابق /ص ١٧١ .

(٥) الذخيرة مج ١ / ق ٣ /ص١٣٩ .

فالطباق يتضح بين (تطيب - تخبث)، و (يصلح - يفسد) ، و (يغوي - يرشد) .

ومن أمثلة الطباق عند ابن الجد قوله في إحدى الرسائل الإخوانية : (وقد يجتنى - أعزك الله - من شجرة المساءة ثمرُ المسرة ، ويجتلى وجه المحبوب غبَّ المكروه مشرق الأسرَّة ، وربما تجهَّم القدر وضميرُهُ مبتسم..)(١).

فالطباق واقع بين (المساءة - المسرة) ، و (المحبوب - المكروه) ، و (تجهم - مبتسم) .

ويكثر المحسِّن البديعي (الطباق) في المقامات ، ومن ذلك قول السرقسطي في مقامته الأولى : (حدث المنذر بن حُمام ، قال : حدث السائب بن تمام ، قال : إني لفي بعض البلاد ، وقد أقويت من الطريف والتلاد، أستافُ الأَرْض ، وأذرُع الطُّولَ والْعَرْضَ ، أَفْتِلُ الدَّهْرَ في الذّرْوَةِ والغاربِ ، وأرقبُ منه كُلَّ شارقٍ أو غاربٍ ...)(٢).

ويظهر الطباق في قوله : (الطريف - التلاد) ، و (الطول - العرض) ، و (شارق - غارب) .

كما نجد الطباق في خطبهم ، وفي مؤلفاتهم النثرية ، بيد أنه يقل في الثاني ، فمما وجدناه في خطبهم ما ورد في خطبة ابن أبي الخصال في الحض على قيام الليل ، إذ يقول : (وسيئة بحالِها وحسنَةٌ بعشر أمثالِها، وحرامٌ وراءه عذاب ، وحلالٌ إزاءه ثوابٌ ...)(٣).

ومما وجدناه - وبقلة - في مؤلفاتهم النثرية قول ابن عبدالبر في كتابه (بهجة المجالس) في مقدمته : (فإن أولى ما عني به الطالب ورغب فيه

---

(١) المصدر السابق مج١ / ق٢ / ص ٢٩١ .

(٢) المقامات اللزومية /ص ١٧ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال /ص٥٣٧ .

الراغب ، وصرف إليه العاقل همه ، وأكد فيه عزمه بعد الوقوف علي معاني السنن والكتاب ، ومطالعة فنون الآداب ، وما اشتملت عليه وجوه الصواب ، من أنواع الحكم التي تحيي النفس والقلب و وتشحذ الذهن واللّب ، وتبعث على المكارم ، وتنهى عن الدنايا والمحارم...)(١).

كذلك إذا نظرنا إلى النصوص النثرية لفقهاء الأندلس وجدناه يحتوي على اللون البديعي (المقابلة) . ومن الشواهد على ذلك قول أبي عمر الباجي في وصف غيث نزل بعد القحط : (استهل جفنها فدمع ، وسمح دمعها فهمع، وصاب وبلها فنقع ، فاستوفت الأرض ريّا ، واستكملت من نباتها أثاثاً ورئياً ، فزينةُ الأرضِ مشهورة ، وحُلّةُ الزّهرِ منثورة ، ومِنّةُ الرّبّ موفورة ، والقلوب ناعمةٌ بعد بؤسها ، والوجوه ضاحكةٌ بعد عبوسها ، وآثار الجزع ممحوّة ، وسورُ الشكر متلوّة ...)(٢).

وكقول ابن الجد على لسان من صدر من بيت الله الحرام : (صلوات الله على خاتم الرسل ، وناهج السبل ، وناسخ جميع الملل ...)(٣).

وهكذا يتبين لنا من خلال الدراسة السابقة أن الفقهاء لم يختلفوا عن غيرهم من أدباء عصرهم - عصري الطوائف والمرابطين - في اشتمال نثرهم على الخصائص الفنية التي تعارف عليها أدباء عصرهم وانتهجوه في نثرهم، من حيث بناء القطعة النثرية واشتمالها على الجمل الدعائية والمعترضة، وتمازجها بالشعر ، واستشهادها بالقرآن الكريم والأديث النبوية، واستخدامها لبعض المصطلحات الدينية وتضمينها للأمثال العربية التي تدل

---

(١) بهجة المجالس ١ / ١ / ص٣٥ .

(٢) الذخيرة مج ١ / ق ٢ /ص١٩٦ .

(٣) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ /ص٢٨٦ .

على سعة اطلاع هؤلاء الفقهاء . كما احتوى نثر هؤلاء الفقهاء على عدد من الصور البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات قد أشرنا إلى بعض منها.

وأخيراً استوعب نثر الفقهاء الزخارف اللفظية التي قصدوا بها تنميق وتزويق أعمالهم النثرية ، وإن كانت هذه الزخارف لم تصل إلى حد الصنعة أو التكلف إلاّ قليلاً .



الفصل الثالث

المنشآت النقدية في تراث الفقهاء

أ - تمهيد :

لاشك أن الحركة النقدية في الأندلس - إبّان عصري الطوائف والمرابطين - قد تأثرت كثيراً بتطور الشعر والنقد، كما تأثرت بالنهضة النقدية الكبرى في بلاد المشرق ، فلم يعد النقد مجرد آراء انطباعية تقوم على التذوق الشخصي كما في نقد العلماء لبعض الأخطاء اللغوية أو النحوية عند تصدرهم لتدريس طلبتهم الشعر ، بل نراه انتحى منحًى مغايراً عما ألفناه ، وسلك منهجاً علمياً قائماً على النقد العلمي ، مما أدى إلي تنشيط الحركة النقدية في الأندلس وتطويرها ، ومن ثم الخروج بها عن الدائرة الإنطباعية التذوقية الضيقة التي كانت تتمحور فيها . وقد تضافرت عدة عوامل للمضي بالحركة النقدية نحو آفاق التطور والازدهار كي تواكب النهضة النقدية في المشرق آنذاك ، ومن أهم هذه العوامل تشجيع حكام ذينك العصرين على العلم والكتابة والتأليف ، والأتيان بكل ماهو جديد يخدم نهضة العلم وتطوره ، كما أن توافر الكتب المشرقية من أدبية ونقدية قد ساهم في إذكاء تلك الحركة، إذْ أتيح لنقاد الأندلس الاطلاع عليها والإفادة منها ، ومن ثم المشاركة في ابداء رأيهم فيما وصل إليهم من أراء وأحكام نقدية حول شعراء المشرق ، أضف إلى ذلك الجرأة التي كان يتحلى بها الناقد الأندلسي فلم تقتصر أحكامه النقدية على أدباء بيئته ، بل شملت أدباء المشرق والمغرب على حد سواء وعلى الرغم من هذا كله فإن النقد في الأندلس لم يصل إلى الذروة التي وصل إليها في المشرق ؛ وذلك لأن النقد في المشرق كان محوره الصراع بين التيارين القديم والمحدَث . فكان هناك من يتزعم التيار القديم في اتباع طريقة القدماء في الشعر ويدافع عن رواده ، وهناك من يقف مع التيار المحدث ويدافع عنه وعن سالكيه ، وحسبنا ما وصل إلينا من كتب مشرقية سجلت الأراء والخصومات حول هذين التيارين ، وتعصب كل فريق لأصحاب هذين الاتجاهين على نحو ما دار من خصومات حول أبي تمام والبحتري ، وما عقد من موازنات بينهما

، أو حول شاعرية أحد الشعراء كالمتنبي ، فكان من أبرز هذه الكتب التي تناولت هذه الشخصيات وتصدت للخصومات كتاب (أخبار أبي تمام وأخبار البحتري) للصولي ، وكتاب (الموازنة) للآمدي ، وكتاب (الوساطة) لعبدالعزيز الجرجاني .

وقد عرف الأدب الأندلسي هذين الاتجاهين ، غير أنه لم يحدث تصادم كبير بينهما ، ولم تدر حولهما معارك حامية ، كما رأينا ذلك في المشرق ، وإنما (سار التياران متوازنين دون صراع ، حتى لتجدهما معاً في شعر الشاعر الواحد)(١).

ولذلك لم نجد عندالنقاد الأندلسين التعصب الذي وجدناه عند المشارقة لشاعر أو أديب دون غيره ، غير أن الناقد الأندلسي في بداية تلك الفترة شعر برغبته في الدفاع عن أدباء بلاده بذكر محاسنهم ، وإظهار فضائلهم الأدبية ، وأن منهم من لايقل أهمية ومكانة عن أدباء المشرق ، فكان من هؤلاء النقاد الذين تصدوا للدفاع عن أدب الأندلس وأدبائها ابنُ حزمٍ ، وابن شهيد، والحميديّ .

دافع ابن حزم عن أدباء الأندلس في رسالة له وازن فيها بينهم وبين أدباء المشرق ، فلنقرأ له قوله في ابن دراج القسطلي كمثال عن دفاعه: (ولو لم يكن لنا من فحولة الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد ، وحبيب ، والمتنبي ..)(٢).

أما ابن شهيد فله كتاب في هذا المجال لم يصل إلينا ، وقد وجدنا نتفاً مما فيه منثورة في بطون كتب التراجم الأدبية مثل (جذوة المقتبس)

---

(١) د . رحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العربي ، الطبعة الخامسة (بيروت : دار الثقافة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨١مـ) ص ٤٧٤ .

(٢) رسائل ابن حزم / رسالة فضل الأندلس وذكر رجالها ٢/ص١٨٧ .

للحميدي ، وهذا الكتاب هو (حانوت عطار) لم يدخر فيه - مؤلفه - وسعاً لجلاء حقيقة الأدب الأندلسي ، إمّا بالترجمة للأدباء بإظهار فضلهم ، وإمّا بالموازنة مع نظرائهم من المشارقة [1]. ونمثل بما جاء في ترجمة « محمد بن وهيب الكاتب » في (جذوة المقتبس ، حيث نقل الحميدي عنه أنه (من أهل الأدب والبلاغة والشعر ، ذكره أبو عامر بن شهيد) [2].

وفي ترجمة عبدالرحمن بن أبي الفهد أبي المطرف ذكر الحميدي رأي ابن شهيد في هذا الأديب ، فقال : (كان من أبصر الناس بمحاسن الشعر، وأشدهم انتقاداً له ، وشعره بلطائف غرائبه وبدائع رقائقه يروق ، وهو غزير المادة ، واسع الصدر، حتى أنه لم يكد يبقى شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضة وناقضة ، وفي كل ذلك تراه مثل الجواد ، إذا استولى علي الأحد لايني ولا يقصِّر ، وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام فأعجب)[3].

وقد ضمن الحميدي كتابه السالف الذكر عدداً من تراجم أدباء الأندلس مورداً رأيه في أدبهم ، أو رأي بعض النقاد ، وكثيراً ما يستشهد بآراء شيخه ابن حزم ، على نحو ما استشهد برأيه في ترجمته لابن دراج القسطلي ، إذ يقول : (سمعت أبا محمد علي بن أحمد ، وكان عالماً بنقد الشعر ، يقول : لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أُبعد . وقال مرة أخرى : لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج لما تأخر عن شأو « حبيب » و« المتنبي »)[4].

---

(١) د/ مصطفى عليان / تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، الطبعة الأولى ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) ص ٨٦ .

(٢) جذوة المقتبس /ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق / ص٢٧٧ .

(٤) المصدر السابق / ص١١٣ .

وكأخذه رأي ابن حزم في أحمد بن أفلج ، إذ قال : إن أبا محمد علي ابن أحمد قال له عنه : (قد رأيته وكان محدثاً ، أديباً ، شاعراً..)[١].

ولا شك أن هذا الدفاع من قبل هؤلاء الأدباء والنقاد والمؤلفين قد ساهم في تنشيط حركة النقد الأدبي في الأندلس . والحقّ أن لابن حزم وابن شهيد أثراً ملحوظاً في تنشيط هذه الحركة منذ بداياتها إبّان القرن الخامس الهجري .

وبذلك فتحا الأبواب لمن أراد المشاركة بتعقب طريقهما ، فاتسعت دائرة النقد في الأندلس بعد ذلك ، فلم يعد الأمر يقتصر علي الدفاع عن الأدب لأندلسي فقد ، بل أصبح النقاد يشاركون في إبداء رأيهم في الأدباء المشارقة وفي نتاجهم ، وذلك بعدة طرق منها : التصدى للدواوين الشعرية لهم ، ومحاولة شرحها من عدة نواحٍ ، لغوياً ونحوياً ، وعروضياً ، مع عرض ملحوظاتهم في هذه الدواوين من الناحية البلاغية ، ونجد ذلك في شرح ابن الأفليلي لديوان المتنبي ، وهو كتاب قال عنه ابن حزم بأنه (حسن جداً)[٢]، وشرح الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي على الشعراء الستة، وشرح ابن السيد البطليوسي علي سقط الزند للمعري ، وشرح أبي عبيد البكري لآمالي القالي ، إلى غير ذلك من الشروح التي كان لها أثرها البالغ في نهضة الحركة النقدية إبان عصري الطوائف والمرابطين .

كما أن هناك نقاداً اتجهوا إلي عقد الموازنات بين أدباء المشارقة بأبداء رأيهم حول أدبهم رغبة منهم في المشاركة فيما جرى من معارك وخصومات حولهم في المشرق . ومن ذلك فصل لابن شهيد عارض فيه رأي ابن الأفليلي عند تفضيله الجاحظ على سهل بن هارون ، وضرب فيهما العامة بينهما مابين الملائكة وصبيان الحرس ، فقال ابن شهيد في رده علي ذلك مفضلاً

---

(١) المصدر السابق /ص ١١٨.

(٢) رسائل ابن حزم ٢/ص١٨٢ .

سهل بن هارون : إن هذا من (الإنحاء العظيم علي سهل ، والأولى أن يسميا محسنين ، إلا أن سهلاً كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلف دواوين ، وقد يؤدي النظر إلي أنهما في طريقتين ، وكلاهما محسن في بابه ، إلا أنه لم ير أغبن من الجاحظ لنفسه ، إن كان واحد البلاغة في عصره ، فما باله لم يلتمس بها شرف المنزلة بشرف الصنعة ، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا بها ما بلغا ، وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما ؟ فلا يخلو في هذا إما أن يكون مقصراً عن الكتابة وجمع أدواتها ، أو يكون ساقط الهمة ، أو يكون إفراط جحوظ عينيه قعدبه عنها ، كما قصّر بي أنا فيها ثقل مسمعي ، وبأبي القاسم ورم أنفه)(١).

ومن الموازنات كذلك ما عقده أبو محمد عبدالله بن القاسم الفهري بين بديع الزمان الهمذاني وأبي إسحاق الصابي ، ثم تفضيله بديع الزمان ، وما ردّ به ابن أبي الخصال عليه من بعد في تفضيل الصابي علي بديع الزمان ، ومحاولة توضيح الخطأ الذي وقع فيه ابن القاسم (٢).

ولأبي القاسم الكلاعي كتاب أظهر فيه إعجابه بأبي الطيب المتنبي ، وذكر فيه معايب أبي تمام ، وهذا الكتاب هو (الانتصار لأبي الطيب) وهو مفقود لم يصل إلينا (٣).

ومن الآثار النقدية التي أسهم بها نقاد الأندلس في الحركة النقدية آنذاك ما كتبه بعضهم من مقامات عالجوا فيها الموضوع النقدي ، ونحو مقامة أبي حفص عمر بن الشهيد التي تحدث في بدايتها عن الكتابة ، وعن رأيه بمن اشتغل بها قائلاً في بعض منها : (إن صناعة الكتابة محنة من المحن ،

---

(١) الذخيرة مج ١/ق١/ص٢٤٣ .

(٢) انظر الرسالتين في رسائل ومقامات أندلسية /ص١٩٦ ، ص١٩٨ .

(٣) د . محمد بن شريفة / أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦) ص ١٩٢ .

ومهنة من المهن ، والسعيد من خدمت دولة إقالبه ، والشقي من كانت رأس ماله ، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه لم يدخلها في مناقبه ، ولاسيما وقد تناولها يد كثير من الشّوق ، وباعوها بيع الخلق ، فسلبوها تاج بهائها ، ورداء كبريائها ، وصيروها صناعةً يكاد الكريم لايعيرها لحظة ، ولا يفرغ في قالبها لفظة ..)(١).

فابن الشهيد يرى أن كثيراً من الكتّاب اشتغلوا بالكتابة وهم ليسوا لها بأهل ، فسلبوها وهجها وحرارتها ، ففقدت رداء كبريائها ، وهو إن لم يصرح بأسماء هؤلاء الكتاب فقد أبدى رأيه فيهم، وربّ إشارة أفصح من عبارة .

ومن المقامات النقدية ـ أيضاً ـ مقامة لأبي المطرف عبدالرحمن بن فتوح ، أقامها على المحاورة بينه وبين فتى لقيه بالمسجد الجامع بألمرية ، فدار بينهما حوارٌ أخذ فيه الفتى يطرح عليه عدة أسئلة حول منحى كثير من شعراء الأندلس المعاصرين لابن فتوح ، ومن ذلك سؤاله عن أي الشعراء الأندلسيين أعذبهم لفظاً وأرجحهم وزناً ؟ فيجب ابن فتوح بقوله : (الرقيق حاشية الظرف ، الأنيق ديباجة اللطف ، أبو حفص ابن برد قال : فمَنْ أقواهم إستعارات ، وأصحهم تشبيهات ؟ قلت : البحر العجاج ، والسراج الوهاج ، أبو، عامر ابن شهيد ، قال : فمن أذكرهم للأشعار وأنظمهم للأخبار ؟ قلت : الحلو الظريف ، البارع اللطيف ، أبو الوليد ابن زيدون ، قال : فمن أكلفهم بالبديع ، وأشغفهم بالتقسيم والتتبيع ؟ قلت : الراتع في روضة الحسب ، المستطيل بمرجة الأدب ، أبو بكر إبراهيم بن يحيى الطبني) (٢).

---

(١) الذخيرة مج ١/ق١/ص٤٧٤ .

(٢) المصدر السابق مج ٢/ ق١/ص٧٨٧ .

ولا تختلف مقامة أبي الطاهر السرقسطي في الشعر والشعراء عن مقامة ابن فتوح ، غير أن السرقسطي جعلها في شعراء المشرق ، مفتتحاً إيّاها بشعراء العصر الجاهلي ، ثم صدر الإسلام ، ثم الأموي ، ثم العباسي، ولم يكن لشعراء الأندلس فيها ذكر. (١)

وهذه المقامات وإن كان لها دور في الإسهام بالمضى قدماً إلى انهاض الحركة النقدية في الأندلس إلا أنها لم تتح إطلاق أحكامها بإسهاب وتفصيل لما قيدت به نفسها بالسجع .

وبالإضافة لهذه الرسائل وهذه المقامات نجد هناك آراء نقدية مبثوثة في ثنايا كتب الأدب واللغة والتراجم ، ألفت إبان ذينك العصرين ، ومن ذلك كتاب (الذخيرة) لابن بسام ، و (طبقات النحويين) للزّبيدي ، و (إحكام صنعة الكلام) لأبي القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي ، و (مطمح الأنفس) للوزير الفتح بن حاقان .

وهناك يجدر بنا أن نتساءل عن مساهمة فقهاء الأندلس آنذاك ، هل كانت لهم مشاركة في الدرس النقدي ؟ هل كان لهم إسهام في تنشيط الحركة النقدية ، ومحاولة المضي بها قدماً مع من حولهم من النقاد ؟

وإن كان الجواب بنعم فما صدى إسهام هؤلاء الفقهاء في الحركة النقدية الأندلسية ؟

كان للفقهاء الأندلسيين في العصرين مشاركة لايمكن أن نغض الطرف عنها في مجال النقدي الأدبي . فقد وصل إلينا شيء من آثارهم النقدية ، يمكننا تصنيفها إلى نوعين :

أ - أعمال نقدية كاملة .

ب - أعمال جزئية أو مبثوثة في كتب ليست نقدية .

---

(١) انظر المقامات اللزومية /ص٢٦٤ .

أ) أعمال نقدية كاملة :

عرفنا من هذه الأعمال عملين اثنين ، وصل إلينا أحدهما، والآخر يعد في المفقودات ، وهذا العملان من تصنيف الفقيه محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، فالأول الذي وصل إلينا هو (إحكام صنعة الكلام) ، والمفقود هو الذي أشرت إليه من قبل ، وهو كتاب (الانتصار لأبي الطيب) .

أما الأول فقد تناول فيه أبو القاسم عدّة أمور بلاغية ونقدية ، ويلحظ أن المؤلف قد قصر كتابه على فن النثر دون الشعر ، والعلة في ذلك ما ذكره في قوله : (وإنّما حصصت المنثور ؛ لأنّه الأصل الذي أمن العلماء ؛ لامتزاجه بطبائعهم - ذهاب اسمه فأغفلوه ؛ وضمن الفصحاء لغلبته على أذهانهم - بقاء وسمة فأهملوه ، ولم يحكموا قوانيه ، ولاحصروا أفانينه ، أما النظم ، فقرع تولّد منه ، ونور تطلع عنه ، فرأى العلماء خوفاً أن تتحيف الأزمان ما اختصّ به من القوافي والأوزان أن يعدُّوا سواكنه وحركاته ، ويحكموا قوانينه وصفاته ، ويلقبوا ذلك ألقاباً ، ويبوِّبوه أبواباً ، فلو نسأ الله في أجلهم إلى أن يسمعوا قول شاعر هذا الزمان :

فما شيء - وقد بالغتُ فيه - بأحوجَ للبيان من البيان

لآجروا النثر مجراه ، وحفظوا منه ما حفظناه ، ولكن أبى الله إلاّ أن يكون لكل زمان رجال ، وفي كل أوانٍ للعقل مجال)(١) .

والكلاعي ما وضع كتابه هذا إلا ليرد به على رجل لم يذكر اسمه عاب عليه أدبه وألحق به عدة تهم في أكثر من مجلس جمع بينهما. فكان من هذه التهم التي رد عليها المؤلف بردود موجزة ومختصرة :

١ - أن الكلاعي يميل إلى الغريب دون المستعمل في كتاباته .

٢ - أنه يكتب الإخوانيات ولا ينفذ في السلطانيات .

---

(١) إحكام صنعة الكلام / ص٣٩ .

٣ـ أنه لايستطيع أن يضاهي أبا العلاء المعري أو يجاريه .

٤ـ أنه لايقدر على مقابلة كل طبقة بما يشاكلها من اللفظ ويوافقها، ولايستطيع أن يخاطب كل فرقة بما يشاكلها من المعنى ويطابقها .

فرد أبو القاسم على التهمة الأولى بقوله : (إن القادر ـ أدام الله عزك ـ على الغريب يقدر على المستعمل ، وهذا يعضده القياس ، وأمر يقيم أوده البرهان ، آلا ترى أن كل من بني حائطاً في غاية النقش والتحسين يقدر على بنيانه مختصراً دون تزيين ؟ وليس كل من بناه مختصراً ، يجد تزيينه وتحسينه ميسّراً)(١).

وأتى بنموذجين بيّن فيهما مقدرته على استعمال الغريب والمستعمل معاً، إلاّ أنه يرى أن الألفاظ المستعملة لايستخدمها إلا من رغب في استراحة إعمال فكره .

وفي الرد على التهمة الثانية أنشأ أبو القاسم نموذجاً في السلطانيات ، ليظهر قدرته على الخوض في هذا الغرض ، وهذا النموذج عبارة عن استفتاح لكتاب صنعه الكلاعي علي مثال كتاب (السجع السلطاني) لأبي العلاء المعري (٢).

أما التهمة الثالثة فقد رد عليها الكلاعي بأن أنشأ رسالة عرفها برسالة (الساجعة والترغيب) عارض بها رسالة المعري المعروفة بـ (الصاهل والشاحج) ؛ ليوضح فيها كذلك مقدرته علي مناهضة المعري ومضاهاته(٣).

وأبو القاسم من أشد المعجبين بأدب المعري ، فبالإضافة لمعارضته لرسالة (الصاهل والشاحج) نجده يعارضه في كتابه (سقط الزند) بكتاب

---

(١) المصدر السابق /ص٣٠ .

(٢) المصدر السابق / ص٣٢ .

(٣) المصدر السابق / ص٣٤ .

سماه بـ (ثمرة الأدب)[١]، ويعارض خطبته (خطبة الفصيح) بـ (خطبة الإصلاح)[٢].

وقد ذكر المؤلف نماذج من هذه المعارضات أثبتها في كتابه (إحكام صنعة الكلام) .

وأما التهمة الرابعة وما يتصل بها من مشاكلة اللفظ والمعنى بما يشابهها فقد ردّ عليها بأن قام بتأليف هذه الرسالة التي ابتدعها في علم البلاغة والبيان ، وهو يقصد كتابه (إحكام صنعة الكلام) .

والموضوعات التي عالجها الكلاعي في هذا الكتاب موضوعات متنوعة في البلاغة والبيان تتخلّلها الآراء النقدية ، ومن أهم الموضوعات التي عالجها المؤلف في كتابه فصل عقده في فضل البيان ، وآخر في الترجيح بين المنظوم والمنثور ، وفي رتبة الخط ، وتسوية البطاقة ، وختمها ، وفي العنوان والاستفتاح ، وتحدث فيه كذلك عن ضروب الكلام والأسجاع ، وفي هذا الباب أهمية خاصة حيث إنه يتميز بشيء جديد يضاف إلي تاريخ النقد الأندلسي [٣].

فقد بحث في ضروب الكلام فوجدها علي فصول وأقسام منها: الترسيل، والتوقيع ، والخطبة ، والحكم المرتجلة ، والأمثال المرسلة، والمورَّى، والمعمى ، والمقامات ، والحكايات ، والتوثيق ، والتأليف .

وتأمل الأسجاع فوجدها على ضروب وأنواع منها ما يجب أن يسمى المنقاد ، وآخر المضارع ، وآخر يجب أن يسمى المُشكِل ، وقد أثبت ما ذكر في كتابه بالتفصيل ، والتبويب على التدريج والترتيب [٤].

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق /ص ٣٦

(٣) د . محمد رضوان الداية : تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، الطبعة الثانية ، (مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ص ٤١٢ .

(٤) إحكام صنعة الكلام /ص ١٠٢ .

وأبو القاسم يعد مبتكراً (في فصل الترسيل الذي قسمه إلي فصول ، ودرس فيه النثر العربي إلى زمانه فأحسن درسه وتبويبه واستخراج مدارسه، وألحق بكل مدرسة نثرية أعلامها وكتّابها ، وشعر هو بهذا الابتكار ، فأكد شخصيته في مطلع الفصل بعبارات مؤكدة)[١].

ويختم الكلاعي كتابه بفصل في قوانين الكتابة وآدابها يوضح فيه الآداب التي يجب أن يسلكها الكاتب في كتاباته .

ومن لفتات الكلاعي النقدية المسجلة في كتابه ما ورد في فصل (الترجيح بين المنظوم والمنثور) ففيه يعد مقارنة بين الشعر والنثر فيفضل النثر مع إعجابه الشديد بالشعر ، فيقول في ذلك : (ورأيي أن القريض قد تزيّن من الوزن والقافية بُحلة سابغةٍ ضافية صار بها أبدع مطالع ، وأصنع مقاطع ، وأبهر مياسم ، وأنور مباسم ، وأبرد أُصُلاً ، وأشرد مثلاً ، وأهز لعطف الكريم، وأفلَّ لِغرب اللئيم ، لكن النثر أسلم جانباً وأكرم حاملاً وطالباً)[٢].

ويتحكم في ترجيح أبي القاسم للنثر أطرديني وأخلاقية ، فهو يرى أن الشعر داعٍ لسوء الأدب ، وفساد المنقلب ، فيقول : (وقد قال رسول ﷺ : (لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً) ، ولم يقل كتابه ، ولا خطابه ؛ لأن الشعر داعٍ لسوء الأدب ، وفساد المنقلب ؛ لأنه ـ لضيقه وصعوبة طريقه ـ يحمل الشاعر على الغلوّ في الدين ، حتى يؤول إلى فساد اليقين ، ويحمله علي الكذب ، والكذب ليس من شيم المؤمنين)[٣].

كما أن من معايب الشعر عند الكلاعي (أنه قلما يجيده إلا مكتسب به، والدليل علي ذلك قولهم : اللُّهى تفتق اللَّهي ، وقولهم : بيع الشعر بالسِّعر، وقولهم : لسان الشاعر أرض لاتخرج الزهر حتى ينسكب المطر..)[٤].

---

(١) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس / ص٤١٧ .

(٢) إحكام صنعة الكلام / ص٤٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق /ص٤٥ .

وقد بالغ الكلاعي في قوله السابق ، فهناك الكثير من الشعراء المجيدين الذين تفتقت قرائحهم بأجود الشعر، ولم يكن للتكسب أو العطاء دور في ذلك .

ومن معايب الشعر عنده أيضاً (أنه يحمل الشاعر على خطاب الممدوح بالكاف ، ودعائه باسمه ونسبه إلى أمه ، وهذا كله من سوء الأدب، أو داعٍ إليه)(١).

وفي نظرة الكلاعي التربوية الدينية يرى أن من معايب الشعر ما فيه من الوزن الداعي للترنم ، والترنم من باب الغناء ، أما الكتابة فبعيدة عن هذا كله، سليمة مما يدعو إلى المهجور (٢).

وفي فصل(رتبه الخط ، وتسوية البطاقة ، وختمها) ينتقد الكلاعي من يختصر حروف ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، ويصلحها ويغير أشكالها، فيقول : إنها عنده مكروهة في الاستفتاح خاصة ؛ (لأنه روى عن الحسن أنه قال : (من كتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ؛ فحسنه أحسن الله إليه يوم القيامة . وإذا كان في تحسينه أجر، ففي حذفه وتغيير أشكاله وزر)(٣).

ويأخذ الكلاعي جانب المدافع عن الأندلس وكتابها ، كما فعل ابن حزم من قبل ، فيرد علي من أتهم أهل الأندلس بانحرافهم عن الصواب في تسوية بطاقة حرفت كلماتها ، فيذكر أنه جمعه مرّة مجلساً مع شخص طرأ إليهم من أهل العلم ، احتاج إلي تسوية بطاقة، فرماها لمن يسويها ، وذكر أن التحريف الذي فيها من جملة انحراف أهل الأندلس عن الصواب، وأنه لايعرف ببلدة ؛ لأنه لاوجه له ولا فائدة(٤)، فردّ عليه الكلاعي قائلاً : (أما الفائدة - أكرمك

---

(١) المصدر السابق / ص٤٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق / ص٥٦ .

(٤) المصدر السابق /ص٥٩ .

الله ـ فموجودة غير مفقودة ، وذلك : الصيانة ؛ لأن جوانب الكتاب تغطي بسبب ذلك التحريف عند الطيِّ ، فيكون ذلك أصون لها من الأنحاء ، وأحفظ لها من العفاء ، وأما ما ذكرته من انحراف أهل الأندلس ، فقول ليس بالصحيح ، وكلام يطير مع الريح، وإنّهم لأهل إتقان وخط ، وفهم وضبط، وقد ذكرنا منهم في هذه الرسالة طوائف ، ونبهنا على مفاخر جمة ومعارف)[١].

ويقف أبو القاسم موقفاً دينياً واضحاً في فصل (مكاتبة أهل الكفر) ، فيحذر من أن يجري الكتاب مكاتباتهم لأهل الكفر بما يجري مجرى المسلمين في المكاتبات ، وألا يسلكوا بهم مسلكهم في المخاطبات ، وألا يتعدى من كاتبهم في العنوان قوله : من فلان إلى فلان ، ثم يركب على هذا الترتيب ما شاكلَ من الألفاظ وساغ من المعاني ..)[٢].

ويأخذ الكلاعي على من يسمى الزوجة عندما تخرج من بيت أبيها وتحمل إلى بيت زوجها بالوديعة ، وذلك لأن الوديعة تسترد .

فعلق علي فصل أورده لأبي إسحاق الصابي كتبه لما نقل عز الدولة باختيار بنته المزوجة بعزة الدولة ابن تغلب إليه بالموصل ، فكتب أبو إسحاق قائلاً : (وقد توجه أبو النجم ، وهو الأمير على ما يلحظه ، الوفي بما يحفظه، يحمل الوديعة ..) [٣].

فأثنى عليه الكلاعي ؛ لأنه تخلص مما وقع فيه ابن ثوابة ، الذي نقده الفتح بن خاقان حين ذكر كلمة الوديعة للزوجة المنقولة إلي بيت زوجها، فقال فيه : (ما أقبح ما تفاءلت لامرأةٍ زفت إلى الملك بتسميتها «الوديعة» ، والوديعة مستردة ..)[٤].

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق /ص٩٣

(٣) المصدر السابق / ص ١٠٦

(٤) المصدر السابق /١٠٨ .

ويعلل الكلاعي تخلص الصابي بأنه جعل الزوجة وديعة بيد حاملها، لابيد المحمولة إليه (١). وينتقد الكلاعي الكاتب (ابن العميد) مع اعترافه بجودة بلاغته ، ولكنه أعطى أكثر مما يستحق ، كما يرى استمع إليه يقول : (وأما أبو الفضل بن العميد فكاتب بليغ مجيد ، ولكن مع هذا عُدِل به عن قومه، ونودي عليه بأكثر من سَومه ، فقالوا : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) (٢).

وأثبت في كتابه بعضاً من كلامه في وصف رمضان ، ويرى أنه وصف لايصدر مثله عن ضعفاء الولدان ، إذ يقول ابن العميد في بعض من هذا الوصف : (ويسمعني النُّعرة في قفا شهر رمضان ، ويعرض عليّ هلاله أخفى من السحر ، وأظلم من الهجر ، ويسلّط عليه الحَوْر بعد الكور، و يبعث عليه الأرضة ، ويهدى إليه السوس ، ويعزي به الدود ، ويبليه بالفار ، ويخترمه بالجراد ...)(٣).

فيعلق الكلاعي ناقداً : (إلى كثير من هذا الهذيان الذي يعلق الملك ويغيظ الملك ، ولو اقتصر على اليسير من هذا التطويل والتكرير ، لكان كلامه واقفاً بين أن يمجه السمع أو يقبله الطبع ، فكيف هذا مع معانٍ قلقة ، وألفاظٍ خَلِقه كالكتان والألوان ، والسوس ، والدود ، والفار ، والجراد ، والنمل ، والذر ، والأرضة وغير ذلك مما لم أرضه ؟) (٤).

كما انتقد الكلاعي الأديب الصاحب بن عباد مع إعجابه الشديد به حين أورد له نموذجاً في الاعتذار من هفوة الكأس ، وذلك في قوله : (ولما بلغت الحدّ الذي يوجبُ الحد ..)(٥).

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق / ص١١٩ .
(٣) المصدر السابق /ص ١٢٠.
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق / ص ١٢٣ .

فقال الكلاعي في هذه العبارة : (قوله : « حتى بلغت الحد الذي يوجب الحدّ » غلط : لأنه قصد السكر والحد يجب من قليل الخمر وكثيره ، سواء أسكر أو لم يسكر)(١).

ولتورع الكلاعي وتدينه ندم أن أثبت في كتابه فصلي الاستزارة والاعتذار من هفوة الكأس لابن عباد ، وكان الأولى أن يتنزه كتابه عنهما ، لما عرف عن الصاحب أنه (ممن أوثقته أيد البطالة في حباله الجهالة ، فكان معظم بضاعته أسجاعاً كأسجاع الكهان ، وقوافي يدفع بها في صدر البرهان)(٢).

ومن لمحات الكلاعي النقدية كذلك قوله في خطبة الفصيح لأبي العلاء المعري يمدحها ويبين سر إعجابه بها قائلاً : (ومن أطرف الخطب معنًى وأعذبها منحى ومبنى ، خطبة الفصيح لأبي العلاء ، وهي خطبة شريفة ، تشتمل على علم جمّ وأدب ، تضمّن لغات الفصيح لثعلب)(٣).

ويرخص الكلاعي لكتّاب الوثائق (أن يعدلوا في هذا الباب عن اللفظ المتحمّل والمعنى الملبّس المُشكل ، إلى ما وضحت ألفاظه ومعانيه ، ولم تمتر الأفكار على تباينها فيه)(٤).

كما يرخص لهم (أن يعقدوا علي الألفاظ المبتذلة واللغات المتداولة المستعملة ، مما يرخص لهم فيه التكرار ، والتوكيد ، والتطويل ، والترديد؛ لأن ذلك أبلغ في البيان ، وأيقظ لذي الغفلة والنسيان)(٥).

إلي غير ذلك مما رخصه الكلاعي ونصح الكتّاب بالقيام به في مكاتباتهم للوثائق ، وهي مما لايسمح بها في غيرها من الأغراض .

---

(١) المصدر السابق /ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق/ص١٧٨ .

(٤) المصدر السابق /ص ٢٠٦

(٥) المصدر السابق /ص ٢٠٧ .

وبهذا ننتهي من ذكر أبرز اللفتات النقدية التي أسهم بها أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي في كتابه (إحكام صنعة الكلام) ، وهي بلاشك لفتات لها أهميتها ودورها في التأثير في النقد الأدبي بالأندلس إبان العصر المرابطي ، والسير بها قدماً نحو التقدم والتطور ، كما لايخفى ما في هذه اللفتات والنظرات من تصورات دينية منبعها تأثر الفقيه الكلاعي بما تلقاه من علوم شرعية وفقهية ، واشتغاله بهما .

ب ـ أعمال نقدية جزئية :

ومن أصحاب هذه الأعمال الفقيه ابن حزم ، فقد كانت له آراء نقدية مبثوثة في كتبه الأدبية والدينية ويتخذ فيها مسلكين : الأول يتمثل في الدفاع عن الأندلس ، وعن تراثها الأدبي والفكري ، وعن رجالاتها . والثاني يُبَلْوِرُ نظرته الأخلاقية في الحكم على فنون الشعر . أضف إلى ذلك حديثه عن البلاغة ، وعن إعجاز القرآن الكريم .

أما المسلك الأول فيتضح في رسالته الدفاعية عن الأندلس التي ألفها في ذكر فضل الأندلس ، وذكر رجالها ، ففيها يصدر أحكامه الخاصة على بعض المؤلفات الأدبية الأندلسية ، فيقول في كتاب عبادة بن ماء السماء (في أخبار شعراء الأندلس) : (إنه كتاب حسن) ، وفي كتاب (الحدائق) لأبي عمر أحمد بن فرج ، الذي عارض به كتاب (الزهرة) لأبي بكر محمد بن داود : إنه بلغ الغاية ، وقد أحسن المؤلف اختياره للأشعار فأجاد حيث إنه لم يورد لغير الأندلسيين شيئاً ، فأتى كتابه فرداً في معناه ، وكذلك الشأن في كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) الذي جمعه أبو الحسن على بن محمد بن أبي الحسين الكاتب ، وقال عن كتاب شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الأفليلي لشعر المتنبي : إنه حسن جداً . (١)

---

(١) رسائل ابن حزم ٢/ ص ١٨٢ .

ويقرن ابن حزم الشاعر أ با الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي ـ أحد شعراء الأندلس القدامى ـ بالشاعرين الأمويين جرير والفرزدق ، فيقول فيه : (ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر ، لم نباه إلا جريراً والفرزدق ؛ لكونه في عصرهما)(١).

كما أن هذا الشاعر يجرى شعره علي مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين (٢).

ويقول عن ابن درّاج القسطلي وعن شعره :(ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلاّ أحمد بن درّاج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد ، وحبيب ، والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبدالملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن مطرف بن شخيص، وأحمد بن فرج ، وعبدالملك بن سعيد المرادي ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه، وحصان ممسوح الغرة)(٣).

ويثني ابن حزم علي الأديب ابن شهيد معاصره ، فيقول في شأنه : (ولنا من البلغاء أحمد بن عبدالملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا ، وهو حي بعد، لم يبلغ سن الاكتهال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقداراً يكاد ينطق فيه بلسان مركبٍ من لساني عمر وسهل) (٤).

ولا شك أن دفاع ابن حزم عن رجال الأندلس وتراثهم قد مهد الطريق أمام نقاد متأخرين اقتفوا أثره مما أثرى الحركة النقدية وطورّها .

---

(١) المصدر السابق ٢ /ص١٨٧ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ٢/ص١٨٨.

والمسلك الثاني لابن حزم في عرض آرائه النقدية يبلور لنا نظرته الأخلاقية في تقويم العمل الشعري ، وعنده أنّ من أراد تعلم الشعر وروايته ، فينبغي عليه أن يتجنب منه أربعة أضرب .

أولها : (الأغزال والرقيق ؛ لأنها تحث على الصبابة ، وتدعو إلى الفتنة، وتحض على الفتوة ، وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات ، وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق ، وتنهي عن الحقائق ، حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة ...)(١).

ثانيها : (الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب ، كشعر عنترة ، وعروة بن الورد ، وسعد بن ناشب ، وما هنالك ، فإن هذه الأشعار تثير النفوس ، وتهيج الطبيعة ، وتسهل علي المرء موارد التلف في غير حق ، وربما أدّته إلى هلاك نفسه في غير حق ، وإلى خسارة الأخرة مع إثارة الفتن ، وتهوين الجنايات ، والأحوال الشنيعة ، والشره إلى الظلم وسفك الدماء)(٢).

ثالثها : (أشعار التغرب ، و وصفات المفاوز والبيد والمهامة ، فإنها تسهل التحوّل والتغرب ، وتنشبُ المرء فيما ربّما صعب عليه التخلص منه بلا معنى)(٣).

ورابعها : (الهجاء ، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه من كناسي الحشوش ، والمعاناة لصنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة ، وتمزيق الأعراض ، وذكر العورات ، وانتهاك حرم الآباء والأمهات ، وفي هذا حلول الدمار في الدين والآخرة)(٤).

---

(١) المصدر السابق ٤/٦٧ .
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق ٤/ص ٧٨ .
(٤) المصدر السابق .

أما غرضا المدح والرثاء فقد وقف منهما موقفاً وسطاً ، فهو لاينهى عنهما نهياً تاماً ولا يحض عليهما ، وإنما هما عنده من المباح المكروه اسمع إليه يقول : (فأما إباحتهما ؛ فلأن فيهما ذكر فضائل الموت[١] والممدوح ، وأما كراهتنا لهما أكثر ما في هذين النوعين الكذب ، ولا خير في الكذب)[٢].

وهذه النظرة من ابن حزم لأغراض الشعر المتقدمة متأثره بمعارفه الشرعية ، فهو أحد فقهاء الأندلس الكبار ، ولديه من التجارب ما يجعله يرغب في تنشئة جيل صالح ينبذ الرذائل ، ويطمح إلى الفضائل والمحاسن، والناظر في هذه القيود يجد أن ابن حزم حين فرضها نظر فيها إلى اعتبارين ذاتي ، وديني . فالأول هو ما تجره هذه الضروب من الشعر على صاحبها، ومن يقرؤها من الفساد الخلقي والسلوكي ، كما أنها تفسد العلاقة ما بين الآخذ بها وبين أهله وذويه ومعاشريه .

أما الاعتبار الثاني ، وهو (الديني) ، فإن ابن حزم نظر فيه إلي ما تجره تلك الضروب من الأشعار من الفساد في الدين ، الذي يستوجب غضب الله وسخطه ، فكما أن المرء ينظر إلي مصلحته في هذه الدنيا (الاعتبار الذاتي) فعليه أيضاً أن ينظر إلي مصلحته في الآخرة (الاعتبار الديني)[٣]، وهذا ما أراد التنبيه إليه الفقيه ابن حزم .

وإذا كان ابن حزم ينتقد الآخرين ، فهو يخشى أن ينتقده أحد للفظة ذكرها في إحدى أبياته التي يقول فيها : [٤]

كأنّ النوى والعتبَ والهجرَ والرضى

قـرانٌ وأنـــدادٌ ونحــس وأســعدُ

---

(١) هكذا في رسالة ابن حزم . وربما قصد فضائل الميت .

(٢) رسائل ابن حزم ٤/ص٧٨ .

(٣) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس /ص٣١٣ .

(٤) طوق الحمامة /ص٣١ .

فقال : (ولا ينكرن عليّ منكر قولي « قران » فأهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين في درجة واحدة قرناً)(١).

ولابن حزم جهوده في البلاغة والإعجاز ، إذ أنشأ رسالة قصيرة في البلاغة عرفها فيها بقوله : (البلاغة ما فهمه العامي كفهم الخاصي ، وكان بلفظ ينتبه له العامي ؛ لأنه لاعهد له بمثله ، ويتنبه له الخاصي ؛ لأنه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه ، واستوعب المراد كله ، ولم يزد فيه ما ليس منه ، ولا حذف مما يحتاج من ذلك المطلوب شيئاً ، وقرب على المخاطب به فهمه ، ولوضوحه وتقريبه ما بعد ، وكثر من المعاني وسهل عليه حفظه ؛ لقصره وسهولة ألفاظه، وملاك ذلك الاختصار لمن يفهم ، والشرح لمن لايفهم ، وترك التكرار لمن قبل ولم يغضل وإدمان التكرار لمن لم يقبل أو غفل)(٢).

وفي تعريف ابن حزم السابق تحديد للأسلوب البليغ الذي لايخلو من دقة وجدة (فقد استوعب ابن حزم ما وضحه الجاحظ من كفاءة البليغ في إفهام العامة معاني الخاصة باعتماد اللغة السهلة مع مراعاة الحال والمقام ، وزاد على ذلك شروطاً من الدقة المتناهية في التعبير عن المعنى بقدر لا يزيد ولاينقص ، وتركيزه وتقصيره ليسهل حفظه) (٣).

ويقسم ابن حزم البلاغة بعد ذلك إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها : ما يميل إلى الألفاظ المعهودة عند العامة كبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ .

والثاني يميل إلي الألفاظ غير المعهودة عنه العامة كبلاغة الحسن البصري وسهل بن هارون .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي ٤/ص٣٥٢ .

(٣) تيارات النقد الأدبي في الأندلس /ص٥٤٩ .

ثم يحدث بينهما قسم ثالث أخذ من كلا الوجهين ، كبلاغة صاحب ترجة كليلة ودمنة ، ثم بلاغة الناس تحت هذه الطوائف التي ذكرها[١]، ثم يدلي ابن حزم برأيه في الشعر ، فيرى أنه كذب إلا ما جاء مجيء الحكم والمواعظ ، ومدح النبي محمد ﷺ ، فلنقرأ له قوله في ذلك : (كل شيء يزينه الصدق إلاّ الساعي والشاعر ، فإن الصدق يشينها فحسبك بما تسمع ، وقال المتقدمون : الشعر كذب ، ولهذا منعه الله نبيه ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ، وأخبر تعالى أنهم يقولون مالا يفعلون[٢]. ونهى النبي ﷺ عن الإكثار منه[٣]. وإنّما ذلك لأنه كذب إلاّ ما خرج عن حدّ الشعر ، فجاء مجيء الحكم والمواعظ ومدح النبي ﷺ [٤] ، ثم يردف بتقسيم الشعر إلى ثلاثة أقسام يرجع إليها سائر الناس في أشعارهم ، وهذه الأقسام هي :

١) الصناعة ، وهي كما عرفها : (التأليف الجامع للاستعارة والإشارة، والتحليق علي المعاني والكتابة عنها ، وربُّ هذا الباب من المتقدمين زهير بن أبي سلمى ، ومن المحدثين حبيب بن أوس)[٥].

٢) الطبع ، وهو (ما لم يقع فيه تكلف ، وكان لفظه عامياً لا فضل فيه عن معناه ، حتى لو أردت التعبير عن ذلك المعنى بمنثور لم يأت بأسهل ولا أحصر من ذلك اللفظ ، وربُّ هذا الباب من المتقدمين جرير، ومن المحدثين الحسن)[٦].

---

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي ٤/ص٣٥٢ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ سورة الشعراء/ آية ٢٢٦ .

(٣) يشير إلي قول الرسول ﷺ : (لئن يمتلئ جوف رجل قيماً خير له من أن يمتلئ شعراً) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ص٣٠٢ .

(٤) رسائل ابن حزم ٤/ص٣٥٤ .

(٥) المصدر السابق ٤/ص٣٥٥ .

(٦) المصدر السابق .

٣) البراعة ، وهي (التصرف في دقيق المعاني وبعيدها ، والإكثار فيما لا عهد للناس بالقول فيه ، وإصابة التشبيه ، وتحسين المعنى اللطيف ، وربٌّ هذا الباب من المتقدمين امرؤ القيس الكندي ، ومن المتأخرين على بن العباس الرومي) (١).

أما عن إعجاز القرآن ، فقد فصَّل الفقيه ابن حزم رأيه في هذا الموضوع في كتابه الجدلي (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ، فذكر أن القرآن الكريم من المعجزات التي أنزلها المولي سبحانه وتعالى علي نبيه محمد ﷺ ، وقد فاق فيه نظم العرب وتحداهم به في أن يأتوا بمثله بيد أنهم عجزوا عن ذلك ، وقد اختلف أهل الكلام في مسألة إعجاز القرآن من أيّ جهة هو معجز، أمن جهة بلاغته ، أم من جهة إخباره بالغيبيات ، أم من جهة صرف العرب عن تحديه والإتيان بمثله .. إلي غير ذلك من الاختلافات التي جمعها ابن حزم في خمس مسائل ، ناقشها وأتى برأيه فيها مستشهداً بالأدلة والحجج والبراهين على رأيه . فيقول في المسألة الأولى : (قول روى عن الأشعري وهو أن المعجز الذي تحدّى الناس بالمجيئ بمثله هو الذي لم يزل مع الله تعالى ، ولم يفارقه قط ولا نزل إلينا ولا سمعناه)(٢).

فيرد ابن حزم قائلاً : إن هذا (علام في غاية النقصان والبطلان ، إذ من المحال أن يكلف أحد أن يجئ بمثل لما لم يعرفه قط ولا سمعه)(٣).

النحو الثاني : هل الإعجاز متمادٍ ، أم قد ارتفع بتمام الحجة في حياة رسول الله ﷺ (٤)، ثم يذكر ابن حزم من أخذ بهذين الوجهين من أهل الكلام، ثم يعقب ذلك بردة ، فيقول : (ومن قال بالوقف وأنّه ليس للعموم صيغة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن حزم / الفصل في الملك والأهواء والنحل ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار المعارف ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) جـ ٣ ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق جـ ٣/ص ١٦ .

ولا للظاهر ، فلا حجة هاهنا تقوم له على الطائفة المذكورة ، فصح أن الإعجاز باقٍ إلى يوم القيامة ، والحمد لله رب العالمين)[١]. وهذا هو رأي جمهور أهل الإسلام صاحبة القول الأول ، الذي أشار إليه ابن حزم .

النحو الثالث : هل الإعجاز في القرآن في نظمه أم في نصه من الأنذار بالغيوب ؟

فذكر أن بعض أهل الكلام قالوا : إن الإعجاز يكمن بما فيه من الأخبار بالغيوب ، وأن سائر أهل الإسلام قالوا : إن الإعجاز في كلا الأمرين في نظمه وما فيه من الأخبار بالغيوب ، وقد وافق ابن حزم سائر أهل الإسلام في ذلك ، فقال : (هذا هو الحق الذي ما خالفه ، فهو ضلال وبرهان ذلك قول الله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، فنص تعالى على أنهم لايأتون بمثل سُورَةٍ من سُوَرِهِ ، وأكثر سوره ليس فيها أخبار بغيب) [٢].

النحو الرابع : تحدث فيه عن وجه إعجاز القرآن ، أهو في كونه في أعلى مراتب البلاغة ، أم في منع الله الخلق من القدرة علي معارضته فقط . أي أن الله صرف عباده عن معارضته ؟

فذكر ابن حزم أقوال الطائفتين وصحح كل منهما ، ثم أردف ذلك بمناقشة كل طائفة مع حججها .

قالت الطائفة الأولى : إن لو كان الله منع معارضة القرآن فقط ؛ لوجب أن يكون أغث ما يمكن أن يكون من الكلام ، وتكون الحجة بذلك أبلغ [٣].
فناقشهم ابن حزم في حجتهم هذه مناقشة قوية تدل علي عقلية ليست بالهينة، حيث ردّ عليهم بثلاثة ردود ، وهي :

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق ٣/ص١٧ .
(٣) المصدر السابق .

١) أن قولهم لا برهان له ؛ (لأنه يعكس عليه قوله بنفسه فيقال له ، بل لو كان إعجازه لكونه في أعلى درج البلاغة كان حجة فيه ؛ لأن هذا يكون في كل من كان في أعلى طبقة ، وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود ، فهذا أقوى من شغبهم)[١].

٢) أن الله تعالى لايسأل عما يفعل ولا يقال له لم عجزت بهذا النظم دون غيره ؟ ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره ؟)[٢].

٣) أن في حجتهم هذه (لزمهم أن يقولوا هلا كان هذا الإعجاز في كلام يجمع اللغات ، فيستوى في معرفة إعجازه العرب والعجم)[٣]. أي هل هو للعرب أم أن العجم تفهه كالعرب ؟

ثم يناقش حجة هذه الطائفة في ذكرهم لقوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ كدلالة علي الإعجاز ، فيسألهم لماذ اختاروا هذه الآية بالذات دون غيرها إذا كان رأيهم أن القرآن بجميع آياته معجز ، أما أن رأيكم هذه الآية معجزة دون سائر الآيات ، فإن كان هذا رأيكم ، فهذا كفر لايقوله مسلم)[٤].

ثم يرى ابن حزم أن الإعجاز يكمن في منع الله تعالى الخلق من معارضتهم للقرآن ، فيقول : (فلو كان إعجاز القرآن ، لأنه في أعلى درج البلاغة ؛ لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون والجاحظ وشعر امرئ القيس ، ومعاذ الله من هذا ؛ لأن كل ما يسبق في طبقته لم يؤمن أن يأتي من يماثله ضروة فلا بد لهم من هذه الخطة ، أو من المصير إلي قولنا أن الله تعالى منع من معارضته فقط) [٥].

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ /ص١٨

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

النحو الخامس : يتساءل فيه عن مقدار المعجز من القرآن ، فيقول : إن الأشعرية ومن وافقها قالت : (إن المعجز إنما هو مقدار أقل سورة منه ، وهو ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ فصاعداً ، وإنّ ما دون ذلك ليس معجزاً ، واحتجوا في ذلك بقول الله تعالى : ﴿ قل فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، ولم يتحد تعالى بأقل من ذلك) [١].

أما رأي سائر أهل الإسلام ، فيرون (أن القرآن كله قليله وكثيره معجز)[٢]. وقد أيد ابن حزم هذا القول ، وقال : إنه هو الحق الذي لايجوز خلافه ؛ (لأنه تعالى لم يقل : إن ما دون السورة ليس معجزاً ، بل قد قال تعالى على أن يأتوا بمثل هذ ا القرآن ، ولا يختلف اثنان في أنّ كل شيء من القرآن قرآن ، فكل شيء من القرآن معجز)[٣].

ومن خلال دفا ع أبي الوليد الباجي عن الإسلام والرد على الرهب الفرنسي الذي دعا الملك المقتدر بن هود إلى النصرانية ، نجد أن أبا الوليد تطرق إلي إعجاز القرآن ، فذكر أن الله تعالى تحدى به العرب والعجم وجميع الأمم ، وقد كانت العرب آنذاك أهل فصاحة وبيان ، غير أنه لم يستطع أحد منهم أن يأتي بسورة من مثله ، مع أن ذلك أدى إلي خروجهم إلي الخلاف فيما بينهم ، (وسفك دمائهم ، وهتك أشعارهم ، وأخذ أموالهم ، والاستيلاء علي بلادهم وأموالهم ، وخروجهم من أوطانهم ، ومفارقتهم آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم ، وكان إتيانهم بسورة من مثله لو استطاعوا ذلك أسهل عليهم من تكليف الحرب ، والصبر علي ألم الجرح)[٤].

---

(١) المصدر السابق جـ ٣/ ٢٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) رسائل أندلسية/ص٢٣٩ .

(٥) المصدر السابق .

كما ذكر أبو الوليد أن (معجز القرآن باقٍ بين أظهرنا ، ودائم عندنا ، لاينقطع وقته ولاينقضى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين)(٥). وكأنه بذلك يؤيد ما ذهب إليه الفقيه ابن حزم من قبله في الرد على من زعم أن معجز القرآن ارتفع بتمام الحجة في حياة رسول الله ﷺ ، حيث قال : (فصح أن الإعجاز باقٍ إلي يوم القيامة)(١). وهذا هو رأي جمهور أهل الإسلام .

وكان لأحد كبار فقهاء عصر المرابطين ، وهو عبد الحق بن عطية المحاربي مشاركةٌ في موضوع إعجاز القرآن ضمنها مقدمة تفسيره (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ناقش فيها بعض الأقوال التي قيلت في إعجاز القرآن ، فمن قائل : إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفات الذات ، وأن العرب كلفت في ذلك ما لا يطاق ، ومن قائل : إن التحدي وقع في كتاب الله تعالى من الأنباء الصادقة والغيوب المسرودة (٢).

وعقب على هذين القولين بأنها (إنما يرى العجز فيهما من قد تقررت الشريعة ونبوّة محمد ﷺ في نفسه ، وأما من هو في ظلمة كفره ، فإنما يتحدى فيما يبين له - بينه وبين نفسه - عجزه عنه ، وأن البشر لا يأتي بمثله، ويتحقق مجيئه من قبل المتحدي)(٣).

ويذكر ابن عطية أن كفار العرب لم يمكنهم أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته مُتلقًّى من قبل محمد ﷺ ، فإذا تحديت فيه وعجزت عن الإتيان بمثله ، علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به ، إلا أن يخص الله تعالى من يشاء من عباده (٤).

(١) الفصل في الملل الأهواء والنحل/ص١٦ .

(٢) أبو محمد عبدالحق عطية الأزسي ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، الطبعة الأولى ، تحقيق الرّحالي الفاروق ، وعبدالله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد عبدالعال إبراهيم ، ومحمد الشافعي صادق العتابي ، (الدوحة ، ١٣٩٨هـ ١٩٧٧م) جـ ١ ص ٥٩ (مقدمة المؤلف) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

ثم ذكر أن هذا القول هو الذي عليه الجمهور الحذاق ، وهو الصحيح في نفسه .

وعقب برأيه قائلا : (إن التحدي إنّما وقع بنظمه ، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه ، ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كلِّه علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته ، أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلي آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ..)(١).

فلم نعلم أن إنساناً قد أحاط كل شيء قط ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة والبيان ، وبذلك يبطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن ، فلما جاء محمد ﷺ صُرفوا عن ذلك وعجزوا عنه (٢). وبذلك ينفي ابن عطية أن يكون إعجاز القرآن بالصَّرْفة (والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة واحد من المخلوقين(٣).

ثم يبين قصور البشر في أن من الفصحاء منهم من يصنع خطبة أو قصيدة فيأخذ في تنقيحها وتبدل ألفاظها حتى يرضى عنها ، غير أن كتاب الله لو نزعت منه لفظة ، ثم بحث عما هو أحسن منها في لسان العرب لم يوجد .

ثم أتى بقول الوليد بن المغيرة عند سماعه للقرآن الكريم كمثال على عدم استطاعة أيّ من البشر على الإتيان بمثله ، وذلك حين قال : (والله ما هو بالشعر ، ولا هو بالكهانة ، ولا بالجنون) ، فصح عنده أنه من عند الله ، إلا أن منهم من آمن ، ومنهم كفر وجحد ، حتى أظهر الله دينه ، ودخل جميعهم في الإسلام ، وقامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة، وفطنة المعارضة) (٤).

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق جـ ١/ ص ٦٠ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق جـ ١ / ص ٦١ .

ومن الفقهاء الذين تحدثوا عن البلاغة في مقدمة أحد كتبهم الفقيه الحميدي ، وذلك في كتابه (تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل) ، تحدث في بدء مقدمته عن البلاغة ، وذكر أن البلاغة قد تكلم الناس فيها كثيراً وأن معاني كلامهم متقاربة فيها ، غير أنه استحسن تعريف شيخه ابن حزم الذي أشرنا إليه سابقاً ، وقد علل هذا الاختيار (لكمال لفظه واستيعاب حدّه)(١).

ثم يذكر حدّ البيان بقوله أنه (كشف المعنى واحضاره للنفس حتى تدركه بسرعة لا غفلة معها)(٢)، غير أن الحميدي وجد في هذا التعريف تقصيراً ، إذ (كان أوعب لو قال انكشاف المعنى وحضوره للنفس)(٣).

وبعدها يقسم الحميدي البلاغة إلى ثلاثة أقسام ، وهذه الأقسام هي : بلاغة خطبيّة ، وتأليفية ، ورسائلية ، وقسمها بين جد وهزل ، فالخطبيّة جد محض ، والتأليفية ، وهي تقرب من الخطبية ، وهي تنقسم إلى قسمين جد وهزل ، والرسائلية ، وهي ثلاثة أقسام عنده ، سلطانية لاهزل فيها، أي هي جدية ، وإخوانية ، وتنقسم على جدٍّ وهزل ، ورقيق ، وهي رسائل المتغزلين ، وهي هزل محض (٤).

ثم أخذ بتعريف كل قسم من الأقسام الثلاثة السابقة ، فالخطابة : (هي القوة على إيراد الكلام في الدعاء إلى الأغراض ، ونصر ما قصد المتكلم نصره في محافل الجماعات ، ومحاضر الخواص والعوام بذهن حاضرٍ وجنان ثبتٍ ولسان جرئ وبديهة سريعة)(٥).

أما البلاغة التأليفية ، فهي : (القوة على شرح المستغلق وتقريب البعيد، وتصوير المقاصد ، وإيضاح الحجج على فرق ما بين الحق والباطل على حسب ما يريد المؤلف بيانه ، وتقسيم المعاني وبيان أوصاف الأشياء الموجودات)(٦).

---

(١) محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي ، تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل) مخطوط ، طبع بالتصوير عن مخطوطة أحمد الثالث ٢٣٥١ مكتبة طوب قابوس سراي استانبول /ص ٤ .

(٢) المصدر السابق /ص ٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق/ص٦ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق / ص ٧

والبلاغة الرسائلية ، هي (حُسن التوصُّل إلى استمالة المخاطب وتسهيل ما صعب على المراسل)(١).

ثم يتحدث الحميدي بعدها عن الفصاحة ، فيضع لها حدّاً ، ويذكر أن حد ها هو : (تخير الألفاظ المتمكنة من دقائق تصاريف المعاني التي لاتفرقها العامة ، ولا يخفى عليهم مع ذلك فهمها مع التوسع في اللغة ، وعدم اللحن والاجتراء على معرفة الأسماء المترادفة في اللغة)(٢٣).

وتشترك البلاغة والفصاحة عند الحميدي في القوة على إيراد المعاني الغامضة التي تصعب العبارة عنها على أكثر الناس فتجرهم بتلجلج تلك المعاني في أنفسهم ، ولا يستطيعون ترجمتها بألسنتهم (٣).

أما الفرق بين الفصاحة والبلاغة عند الحميدي ، فهو أن الفصاحة تنفرد عن البلاغة بالتصرف في اللغة ، والإشراف عليها ، أمّا البليغ فقد يقصر عن علم ذلك ويكتفي بالمستعمل من اللغة ، ولا يضّر ذلك بلاغته شيئاً ، وتنفرد البلاغة عن الفصاحة بالقوة على استيفاء جميع شُعب المعنى حتى لا يشذ شيء من أقسامه ووجوهه ، وقد لايكون الفصيح قادراً على ذلك ، ويكفي بإيراد المعاني الظاهرة ، وحمل الأقسام ولا يضّر ذلك فصاحته شيئاً (٤).

وبذكر الحميدي أن البليغ يحتاج إلى جميع العلوم، أما الفصيح قد يكون في الأغلب بدوياً إعرابياً لايقرأ ، ولا يكتب ولا طالع قطُّ شيئاً من العلوم(٥).

وبين أن البلاغة تختلف صورها باختلاف اللغات والأوقات ، ثم أشار إلى أن في البلاغة ألفاظا متغربة ، إذ كثر استعمالها لم تعد في البلاغة ، ولا استحسنت ، بل تمجها الأسماع لكثرة مرورها بها ، وهو بهذا القول

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق / ص ٨ .

(٤) المصدر السابق /ص ٩ .

(٥) المصدر السابق .

يحذر من الاستكثار من استعمال الألفاظ المستغربة من قبل البلغاء ، ومثل لذلك بما يستقبح من الكلمات ، ويستكره من الأدعيات ، وإن كانت صحيحة المباني جيدة المعاني ، وذلك إما لدخولها في التقعير برتبة حروفها وقلّة مشاكلة صنوفها ، وإمّا لاحتمالها ذلك معنيين وانقسامه إلي وجهين ، فيخاف فيه نقص في تقديم أو يتوهم منه انحطاط في تعظيم ، لذلك عابوا في الدعاء قول (متع الله بك) ، إذ هو مما يصلح للعسيف وذرى التصريف(١).

ثم يدلي بنصائحه في مخاطبة الناس وأنها لابدّ أن تكون علي قدر مراتبهم ، فيستقبح أن يخاطب العاميّ بما يخاطب الخاصي ، أو يكاتب التاجر بما يكاتب به الخليفة وبالضد ، وهكذا جميع المراتب على اختلافها لكلٍ في ذلك طريقة لايسلك إلاّ عليها ، وصوى لايهتدي إلاّ بها ، وإلا كان المتعرض لذلك متأرضاً للهزء بالمنحط عما خوطب به ، وقاصداً إلى الاستخفاف بقدر المرتفع عما كوتب به ، وهذا يُولد غير ما تقتضيه الصناعة من الاستحسان والتأنيس واستجلاب أهواء النفوس(٢).

ثم ينتقل المؤلف إلي بعض المصطلحات ؛ ليقوم بتعريفها، فيعرف الكتابة، والظرف ، والآداب ، والعلم .

فالكتابة عنده هي : (التصرف في معاني الخطاب ومقابلة كل طبقة بما يُؤثر في أنفسها ، ويستميل خواطرها مع جودة الخط ، فإن انضاف إلي ذلك سرعة الخاطر وقوة البديهة كان أتمّ لما تقتضيه الصناعة وتوجيه الرتبة)(٣).

وبعد هذا التعريف للكتابة نراه يعطي نصيحة يطالب فيها الكاتب بتحليه بعدد من أدوات العلم حتى لا يظهر نقصه .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق /ص١٠ .

(٣) المصدر السابق / ص١١ .

وينتقل إلى الظرف ويشير إلى أهميته وضروريته حيث لايمكن الاستغناء عنه في العربية ، فهو يجمع بين الملح وتحسين إيرادها في أوقاتها بذهن ذكي، ولفظ مصيب .

أما الأدب ، فهو : (المشاركة في الأصول والإكثار من الفنون والأخذ من كل معنًى والسلوك في كل أسلوب)(١). والعلم إنما هو (الانبساط في رواية ذلك العلم الذي يختص به العالم وذكره لما عنده من وثابة في أصول ذلك العلم ..)(٢).

وبعدها ينتقل المؤلف إلى باب (ذكر الآت الامتثال وما يحتاج إليه صناعة البيان) ، فيذكر أن من أراد الامتثال وسمابه طبعة إلى هذه الصناعة البلاغة فعليه أن يأخذ بنصيب من علم النحو ، وقد حدد له الحميدي المقدار في هذا العلم ، وهو بحيث ألا يقع في اللحن ، ويبعد عن صور لفظه قباحة الخطأ ، كما عليه أن يشرف من لغة العرب على ما يتسع به تصرفه ، ويزول عنه تكلفه ، ويقف على ما أمكنه من نوادر البلغاء قبله ، وصفاتهم للأمور وتصرفاتهم في طرقات المعاني ، وتوسعهم في الألفاظ ؛ لأن لمعرفته باتساع كلامهم ، واختلاف عباراتهم ؛ يقوى على إيراد المعاني وتصريف الألفاظ ، حتى إذا امتثل مثالاً أمكنه باتساعه في اللغة ومعرفته لوجوه الكلام ووقوفه على حقائق المعاني أن يصور المعنى الواحد ، والمثال الوارد في صور كثيرة مختلفة الألفاظ ، لاسيما إن كان له طبع ذكي ، وخاطر ، وفكر يغوص به على أصداف المعاني المفترقة حتى يجمعها ، ويستخرج دررها(٣).

ومن أتقن ذلك كله استطاع عند الحميدي أن يمتثل المنثور ، فيصرفه منظوماً ، ويمتثل المنظوم ، فيعده منثوراً ؛ لبعد ما بين مراتب تأليفهما،

---

(١) المصدر السابق/ ص١٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق /ص ١٣ .

فيخفى لهم عند العامة ، وأكثر الخاصة مكان ما أخذوا ، وربما أجادوا الأخذ وأحسنوا الامتثال بحكمة السبك ، وجودة الصوغ ، وإبداع التصوير، وحسن الزيادة ، وتوشيح المعنى بما يتصل به وينضاف إليه ، واستيفائه لجميع ما تشتمل أذيال ذلك العرض عليه ، حتى يكونوا أحق بذلك المعنى من السابق إليه (١).

ثم أشار إلي أن المطبوع إذا استطاع أن يصرف طبعه كيف شاء وانتفع بعلمه حيث أراد ، ولا يزال يندرج ، وأعانته قوى الطبع واستمد بمادة العلم ، فهو سير تقي من حضيض الامتثال والاقتداء إلي رفيع دراجات الاختراع والابتداء ، ولم يقترح عليه معنًى إلاّ لاح له وجه السلوك إليه.(٢)

ومن ثم يوصي الحميدي من ارتفعت به همته في هذه الصناعة إلى الازدياد منها والظهور فيها بما أوصى به أهلها من أن يراعي ألفاظه ، ويقارن بين كلماته ، وينظم أشتات معانيه على رتبها ؛ لأن للحروف أنساب وقرابات تبدو إليك في الكلمات ، فإذا جاور النسيبُ النسيبَ ، ومازج القريبُ القريبَ طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا رُكبت صور الكلام على ذلك النظام رافت المناظر ، وطابت المخابر .

كما يوصي بأن يختار مألوف النحو ويهرب عن قبيحة ، ولذلك قالوا : البليغ من تجنب الأغراب في الإعراب ، ومن لايتبع حوشي الكلام . كما ينبغي للكاتب البليغ أن يهتبل بالنظر في التوصل إلى حسن الابتداء ، وتوصّل اللفظ إلي بعد الانتهاء ، فإن لمبادئ المقدمات طرائق ، ولمقاطع المقالات مراتب عليه أن يراعيها ، فالمراعات لهما أوكد(٣).

---

(١) المصدر السابق/ ص١٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق / ص١٦ .

ثم يحذر الحميدي من أن يصدر البليغ كل غرض إلاّ إذا كان من نوعه، ومقدمة كل مقصد إلا من جنسه ؛ لتدل الأوائل على الأواخر، وتنتظم المبادئ بالثواني(١).

وينتقل الحميدي بعد ذلك إلى باب (ذكر الوصاة بالمداد والقلم والورق) . فيذكر في هذا الباب أهمية (الخط) ، فكما تختار الألفاظ العذبة المألوفة، والمعاني المونقة الموصوفة ؛ لتؤثر علي النفوس من طريق حاسة الأذن ، فكذلك الشأن في البيان في المخاطبة ، على البليغ أن يختار لبيانه من الخط الحسن الذي لا يتم إلا بأقلامٍ منتخبة ، وعلى رتب جميلة ، وفي صحائف مختارة، وبمداد رائق ؛ ليستجلب بذلك النفوس من جهة حاسة البصر ، كما استميلت باللفظ والمعنى من جهة حاسة السمع ، فتكون الاستمالة من الجهتين أوكد(٢).

ويلزم الحميدي الكاتب في أن ينظر في تحسين مداده وقلمه وصحيفته، كلزومه النظر في تحسين لفظه ومعناه ، إذ بعضها متعلق ببعض وما نقص منها ظهر عيبه في باقيها ، وربما اختلف كلها وبطلت بأسرها (٣).

ثم أخذ يذكر آداب الاعتناء والاهتمام بتهذيب الأقلام ؛ لأهمية ذلك في تحسين الخط على الورق ، ثم يذكر كيفية الكتابة ، وأنواع الخطوط ، وترتيب الحروف على أسطر الورق حتى تلقى الاستحسان لكل من رآها ، ثم ذكر بعضاً من وصاة أبي عامر الشهيدي في الوصاة بالمداد والورق وتحسين الخط كمثال ، وفيها يخاطب معشر الكتّاب بالاهتمام بأوراقهم وأقلامهم، فيقول في بعض منها : (إنما خطوطكم خلفاء ألسنتكم ، وخطباء عقولكم، فخذوا ما بالإبانة ، واجعلوا ما حسنه العبارة يكمل لكم أمركم ، ويتم بها صناعتكم ..)(٤).

---

(١) المصدر السابق / ص١٨ .
(٢) المصدر السابق / ص٢٠ .
(٣) المصدر السابق/ ص٢١ .
(٤) المصدر السابق / ص٢٦ .

وقد يرى بعضهم أن مقدمة الحميدي هذه التي صدرها كتابه (تسهيل السبيل إلي تعلم الترسيل) أنها لا تقدم جديداًمن رأي نقدي ، أو ملاحظة ذوقية خاصة ، فإن ما فيها هو من أراء المتقدمين عليه ، مشارقة وأندلسية [١]، إلاّ أنّ الحميدي إذا اعتمد في آرائه على بعض من تقدمه، فهذا لايعني قصوره ، وعدم ميله إلى الذوق النقدي ، بل علي العكس ، فيكفي أن الفقيه قد أشار إلي بعض اللمحات النقدية والبلاغية التي تساهم في رقي كتابات الكتّاب ، وهذا مؤشر على اهتمامات الفقيه الخارجية عن نطاق تخصصه الشرعي .

هذا ، ومن يطالع كتاب الحميدي (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس) يستطيع تصور إسهامه في الحركة النقدية عصرئذ ، وهذا الإسهام يتمثل في ترجمته لكثير من الشعراء ، ومن ثم إصدار أحكامه النقدية على نتاجهم في جمل موجزة ، توضح مشاركته في هذا المجال ، فهو يعنى بالجانب الفني في الحكم على شاعريتهم ، فنجده يقول عن عبد الملك بن أدريس الجزيري : إنه (عالم أديب ، شاعر كثير الشعر ، غزير المادة)[٢].

ويصف عبدالرحمن بن مهران بأنه (شاعر مطبوع)[٣].

ويقول عن ابن زيدون إنه (شاعر مقدم ، وبليغ مجوِّد، كثير الشعر، قبيح الهجاء)[٤].

وكذلك يقول في أحمد بن نعيم السلمي ، فهو (مشهور الشعر ، قبيح الهجاء)[٥].

---

(١) ينظر ما قاله الدكتور/ محمد رضوان الداية في مقدمة الحميدي في كتابه / تاريخ النقد الأدبي في الأندلس /ص ٣٣٧ .

(٢) جذوة المقتبس / ص٢٨٠ .

(٣) المصدر السابق /ص٢٧٨ .

(٤) المصدر السابق /ص ١٣٠ .

(٥) المصدر السابق /ص ١٤٨ .

وفي إبراهيم بن أدريس العلوي قال عنه : (حسن الشعر ، خبيث الهجاء)(١).

ويلفت نظره تنوُّع أساليب الشعراء الشعرية ، فيقول في محمد بن مطرف بن شخيص بأنه : (من أعيان الشعراء المتقدمين ، متصرفاً في القول، سالكاً في أساليب الجد والهزل) (٢).

وفي محمد بن مسعود البجاني ، يقول : (كان شاعراً مشهوراً منتجعاً للملوك كثير الشعر ، مليح الغزل ، طيب الهزل) (٣).

وفي ابن دراج القسطلي ، يقول : (وشعره كثير مجموع يدل على كلمه، وله طريقة في البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته) (٤).

ويهتم الحميدي في بعض تراجمه بالجانب الموسيقي للألفاظ الشعرية، فينتقد ابن هاني الأندلسي بقوله : (وهو كثير الشعر ، محسن مجود ، إلا أن قعقعة الألفاظ أغلب في شعره)(٥).

ويصف شعر علي بن عبد الغني الحصري بقوله : (شاعر أديب رخيم الشعر ، حديد الهجو)(٦).

أما الفقيه يوسف بن عبدالبر فمشاركته النقدية تتضح من خلال مقدمة الديوان الذي جمعه لأبي العتاهية ، فهو معجب بشعر هذا الشاعر لما فيه من المعاني الأيمانية المؤثرة حواها نظمه الرائق وطبعه الفائق، يقول ـ رحمه الله ـ في مقدمة هذا الديوان موضحاً سبب اختصاص شعر هذا الشاعر وجمعه

---

(١) المصدر السابق / ص١٥٢ .

(٢) المصدر السابق /ص ٩١ .

(٣) المصدر السابق / ص٩٢ .

(٤) المصدر السابق /ص ١١٠ .

(٥) المصدر السابق / ص٩٦ .

(٦) المصدر السابق /ص ٣١٤ .

دون غيره (والذي حملني علي اختصاص شعر هذا الشاعر دون غيره من الأكبار ، كثرة ما في شعره من ذكر التقوى ، وما يزهّد في الدنيا ، ويرغب في الأخرى . وهو في شعر غيره وجود في عدم ، وفيه أيضاً ضروب من الحكم ، قد احتوى عليها نظمه الرائق ، وقاده إليها طبعه الفائق ..)(١).

ثم يعرض ابن عبد البر لآراء بعض أئمة الشعر والنحو والفقه في شعر أبي العتاهية ، وهي آراء تقف في مجملها بجوار أبي العتاهية ، فالجميع يشهد له بالطبع والإحسان والتقدم في صناعة الشعر (٢).

ويقف ابن عبد البر مدافعاً عن أبي العتاهية فيما نسب إليه من تهمة الزندقة ، وأنه لا يؤمن بالبعث ، فقال : إن في هذا الكلام افتراء وكذباً على أبي العناهية : لأنه قد اطلع على شعره ، ولم يجد فيه شيئاً مما زعموا ، بل هو ذكر للتوحيد والبعث والإقرار بالجنة والنار ، والوعد والوعيد ، ويبرهن على ذلك بما سيورده في هذا الديوان المجموع من أشعاره في هذه الأغراض الدينية التي ترد على تلك المزاعم .

وتتضح شخصية ابن عبدالبر الناقدة من خلال استعراضه لآراء أئمة الشعر والنحو والفقه في شعر أبي العتاهية ، ومن خلال دفاعه عنه ، وإثبات زهده من خلال جمعه لأشعاره في هذا الموضوع .

ومن مشاركة الفقهاء الجزئية في المجال النقدي رسالة للفقيه أبي عبدالله ابن أبي الخصال رد بها على أبي محمد بن القاسم الفهري الذي عقد موازنة في إحدى رسائله بين أبي إسحاق الصابي ، وبديع الزمان الهمذاني ، وقد رجح فيها الهمذاني ، وقدمه على الصابي ، إذ يقول في ذلك (وإنّ أحقهما عندي بالتقويم ، وأحذقهما بعرى الأديم ، من سلمتْ مباني كلامه من

---

(١) يوسف عبدالله بن عبدالبر النمري ، أبو العتاهية أشعاره وأخباره ، تحقيق : د . شكري فيصل (دمشق : مكتبة الملاح) /ص ٢٧ .

(٢) المصدر السابق / ص٣٢ .

التكلف ، وكرمتْ معاني نظامه عن التعجرف ، والأعدل في الحكم عن الإقرار بالفضل ، لأبي الفضل ، في سماحة الطبع ، ورجاحة الوضع)(١).

فأثار هذا الرأي حفيظة ابن أبي الخصال فعقد العزم على الرد علي ابن القاسم برسالة مطوله بيّن فيها الخطأ الذي وقع فيه ابن القاسم ، وناقشه في آرائه ، ثم نقض ما وصل إليه ، ووصفه بأنه قد استقاد هواه عند حكمه على الصابي ، وتفضيل الهمذاني عليه ؛ لأن (الموازنة كالمبارزة ، إنما تكون بالوفاء ، ومقارعة الأكفاء بالأكفاء)(٢). فكيف له أن يوازن بين أبي الفضل وبين أبي إسحاق ، فأبو الفضل (وإن كان كما سمي بديعاً ، ولأخلاف البلاغة رضيعاً ، لايقاس بأبي إسحاق رأساً ، ولا يجعل له سلماً ولابأساً ؛ لأنهما وأن جمعهما أصل اللسان ، ومزاولة الإحسان ، كالثريا وسهيل لايلتقيان، ولايشتبهان فيما ينتقيان)(٣). وبعدها يدلي اين أبي الخصال بالحجج والشواهد التي استحق بها الصابي الزيادة عنده على أبي الفضل الهمذاني ، فيذكر مميزات الصابي التي من أهمها :

١) قوة قلمه الأدبي ، فهو (معين القول ، مُقْدمُ على الهول ، يصول صولة القرم في الشول ، إن غضب حسبت الناس غضابا (٤)، و رأيت السهول وعوراً وهضاباً، أو رضي أعاد المشيب شباباً، وفتحت السماء أبواباً(٥)...)(٦).

فالكلام ينقاد له ، والمعاني تأتيه طواعيه دون عناء أو مشقة .

---

(١) رسائل ومقامات أندلسية / ص١٩٧ .

(٢) المصدر السابق / ص٢٠١ .

(٣) المصدر السابق / ص٢٠٢ .

(٤) إشارة إلى بيت جرير :

إذا غضبتْ عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهُمُ غضابا

انظر ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب / تحقيق د . نعمان محمد أمين طه مج ٢/ ص ١٩٠.

(٥) فيه اقتباس من قوله تعالى : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ سورة النبأ / آية : ١٩ .

(٦) رسائل ومقامات أندلسية / ص٢٠٢ .

٢) مدافعته عن الخلافة الهاشمية فأقلامه (رضعت الهاشمية بلبانها ، وأدت إلى ربوةٍ ذات قرار ومعين من بيانها[١]. ونطقت فأقحمت الناطقين بلسانها ..)[٢].

٣) قدره الصابي في التصرف في فنون القول الشعري ، فإن (عزّى سلّى ، أو عاتب سرّى وجلّى ، وأمرَّ وأحلى ، أو مدح توج وحلّى ، أو قدح أخلق وأبلى ، أو عزَّ سوّل وأملى ..)[٣].

وهو فوق ذلك يسير علي طريقة العرب فأسلوبه كأسلوبهم ، فيقول : (وهو بعد على مهيع العرب ، وأسلوبها الأبعد والأقرب ، لا يحرم توفيقها ، ولايعدم على حالٍ طريقها)[٤]. وكأن ابن أبي الخصال في قوله هذا يشير إلى تفضيله لطريقة العرب والميل إاليها أكثر من طريقة المحدثين .

وهذه الطريقة التي سلكها الصابي لم يستطع عليها الهمذاني ، فيوجه بسؤاله إلي ابن القاسم ، قائلاً : (فما لك - أعزك الله - تقرنه بالصعب ، وتحاربه ، وقد رأى السليم ظفراً عالي الكعب .. ؟)[٥].

ثم يصدر حكمه علي أبي الفضل الهمذاني بوضعه في المرتبة الثانية بعد الصابي ، فيقول : (أما إنّ لأبي الفضل فضلاً يُرْعَى ، وهو - بعد أبي إسحاق - مرْعى ، ويدعى إثره أول من يُدْعَى ..)[٦].

ثم يمثل ابن أبي الخصال للموازنات الصحيحة التي تقوم على التماثل والتشابه بين الطرفين وهو الشيء الذي افتقرت إليه موازنه ابن القاسم، فمن

---

(١) فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمّه آية وأويناهما إلي ربوة ذات قرار ومعين ﴾ سورة المؤمنين / آية ٥٠ .

(٢) رسائل ومقامات أندلسية /ص٢٠٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق / ص٢٠٤ .

(٦) المصدر السابق /ص ٢٠٥ .

هذه الموازنات موازنة الثعالبي للصابي والصاحب بن عباد (فهناك رمي طود بطود ، وزوحم عوْدٌ بعود ، وصُكَّ صلْدٌ بصلد ، ووضع جَلْد بإزاء جَلْد ، وقُوِّم نفيس بنفيس ...)(١).

وذلك لـ (مزاولتهما لكل ما يقرب من الأغراض ويعزب ، يقع التمثيل والتعديل ، ويميل الناظر حيث يميل)(٢).

كما أن موازنة الآمدي بين حبيب والبحتري قد نالت رضاه ؛ لأن الآمدي وازن بين الشاعرين فيما اشتركا فيه ، فيقول : (وهذه موازنة الآمدي بين حبيب والبحتري ، إنما استنبطها من أثناء ما اشتركا فيه من يأسٍ ورجاء ، ومدح ورثاء ، وتشبيه وتشبيب ، وترغيب وترهيب ، ولولا ذلك لما اعتدلت الأوزان ، ولا وضع الميزان ، ولا تبينت الخفة ولا الرجحان)(٣). هذا وإن كان دفاع ابن أبي الخصال عن أحد كتّاب المشرق فهو لاينفي أن الفقيه قد ساهم في المجال النقدي ، وذلك بتسجيل رأيه ، ومناقضته لابن القاسم ، وبتفضيله للصابي ، الذي دافع عنه وعن أدبه ، مما جعله يستحق الصدارة والتقدم على الهمذاني .

ومن أعمال الفقهاء النقدية الجزئية مقامتان لأبي الطاهر السرقسطي الأولى في الشعر والشعراء ، والثانية في النظم والنثر .

أما مقامة الشعر والشعراء التي تحتل الثلاثين من مقاماته اللزومية فتتجلى فيها شخصية السرقسطي النقدية ، وذلك من خلال إصداره لبعض الأحكام علي شاعرية عدد من شعراد المشرق بدأهم بشعراء العصر الجاهلي، وهذه الأحكام وإن كانت قديمة متداولة أفادها السرقسطي من نقاد المشرق،

---

(١) المصدر السابق / ص٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق / ص٢٠٧ .

(٣) المصدر السابق .

وغيرهم ، فهي - في نظري - لاتلغي جهد السرقسطي المبذول ، بل على العكس، فإن ذلك يدل علي سعة اطلاع الفقيه علي ما يدور في الحركة النقدية، ومن ثم محاولته الخوض في هذا المجال وإبداء رأيه .

وقد أقام السرقسطي مقامته على المحاورة ، فالسائب بن تمام يسأل عن الشعراء ، والشيخ أبو حبيب يجيب علي السؤال مبدئاً رأيه فيه وفي شعره ، فأول شاعر سأل عنه السائب بن تمام أبا حبيب عند وقوفهما في وادي القريض الشاعر امرؤ القيس (فقلت : ما رأيك في الملك الضليل ؟ قال : « ذو التاج والإكليل ، نزيل المُعَلّى ، له القدح المُعلّى ، حندجٌ أبو الحارث ، لا كاسب، ولا حارث ، ولا خالف ولا وارث ، أبلغ في طلب الملك وأعذر ، بعدما قصّر وعذّر ، حسبك من حامل لواء ، وقائد أقيال وأذواء ، وقائل غير محتاج ، وفاتح علق من القول ورتاج ، وقد قيل : « بديء الشعر بكنده ، وختم بكنده » ، وكل يقول بما عنده)[١].

وهذه الأحكام في مجملها معروفة قديمة ، أخذها السرقسطي من نقاد المشرق ، ومن تراجم حياة الشاعر ، فامرؤ القيس معروف بأنه الملك الضليل، فرط في ملك أبيه بسبب سهوه ومجونه إلي أن قتل والده ، فأخذ يطلب ثأره ففشل ، ثم قتل ، وهو حامل لواء الشعراء إلى النار كما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن الشعراء الجاهليين الذين سأل عنهم السائب بن تمام طرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني ، وعنترة العبسي ، وعلقمة الفحل ، وفي ذكره أشار أبو حبيب إلى قصة احتكامه ، وامرئ القيس إلى أم جندب ، زوج امرئ القيس ، حيث حكمت لعلقمة على زوجها ، وهذه قصة مشهورة ، فقال في هذا الشأن : (ولله أم جندب ، فلقد رمته بأم جُندبٍ

---

(١) المقامات اللزومية /ص ٢٦٦ .

حكمت فشدّت علائقها وأحكمت ، ولم ترض بالبغاء ، فأسَّرت حسْواً في ارتغاء وما ضره التقليل ، وقد أتى دونه الضليل)[١].

ويذكر شعراء هذيل فيصف ألسنتهم بالفصاحة والبيان ، إذ يقول : (أرباب فصاحة وبيان ، وفتيان شراسة وليانٍ)[٢].

ثم سأله عن الأعشى ، فقال عنه : (عزيف خمَّار ، وحليف خمار ، ختم به الشعر في الجاهلية)[٣].

ثم ينتقل إلي شعراء صدر الإسلام ، فيتذاكر أمر حسان بن ثابت، فيلحظ إعجاب السرقسطي بشعره لما فيه من المعاني الإسلامية ، والدفاع عن الدين الإسلامي في بداياته ، فنقرأ له قوله فيه : (أكرم به من طاهر ندس، أيّد بروح القدس[٤]، طاول ونافح ، ودافع عن الدين وكافح ، فهو بالحسني فائز ، وللرضا حائز) .

ثم لبيد بن ربيعة ، والحطيئة الذي (بالغ في الهجاء وأشرف ، وأوفى على ذروة الشر وأشرف) ، غير أنه عنده (من الإحسان رغيب ، ومثل موضعه لايغيب)[٥].

ثم ذكر الراعي النمير ، وقرن بين الشاعرين جرير والفرزدق ، وذكر المقولة المعروفة فيهما (الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر).

ويمضي السائب بن تمام في السؤال عن الشعراء إلى أن يصل إلي سؤاله عن المولدين ، فيسأل عن بشار بن برد، فيغضب أبو حبيب ، ويقول له :

---

(١) المصدر السابق / ص٢٦٧ .

(٢) المصدر السابق /ص٢٦٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) إشارة إلى قوله ص لحسان بن ثابت : (اهجمهم وجبريل معك) ، انظر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (دار الفكر ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨١م) جـ ٧ ، ص ١٠٩ .

(٥) المقامات اللزومية / ٢٦٩ .

(ما أحوجك إلى معاذ ، تخلط النَّبْع بالغَربِ ، وتذكر العجم مع العرب ، دعني من المحول ، ولا تسألني إلاّ عن الفحول)[١].

فيصرّ السائب ويطلب من أبي حبيب أن يتسامح في ذكر المولد ، وفي طلبه هذا إشارة إلى النظرة المختلفة إلى المولدين في الأندلس ، وهي نظرة ليست مسيطرة ، فأثر الشعراء المحدثين عظيم فيهم[٢].

ويمضي السائب في سؤال أبي حبيب عن مسلم بن الوليد ، وأبي نواس الذي وصفه بأنه : (شغُل بالمجون والأكواس ، آثر المجون والأقداح ، فقصر الأوصاف والأمداح ، خلع علي الخمر إحسانه ، ووقف عليه لسانه ، وإلا فشأنه التبريز ، وكلامه الإبريز) [٣].

ثم يسأله عن الطائيَيْن أبي تمام والبحتري ، فيثني عليهما ويشهد لأبي تمام بالتقدم[٤].

كما سأله عن ابن الرومي الذي قرنه بالهجاء ، وأشار إلى تفاوت شعره بين الجودة والرداءة ، فقال في حقه : (أخو الهجاء الهيج ، عليٌّ ما عليٌّ، سافل وعليّ ، كثير ما أقول ، هو الشاعر ، ثم أرى أنه الصارخ الناعر ، يعلو عُلو النجم ، وينحط انحطاط الرجم)[٥].

وعن ابن المعتز وتشبيهاته ، يقول : (فتى بني العباس ، حسيب بنيه ، أطاعه التشبيه ، وكفاء حظاً وافراً ، ووجهاً سافراً)[٦].

ثم يمضي السرقسطي في عرض آرائه في الشعراء إلى أن يصل إلي أبي العلاء المعري ، فيمدح شعره ، ويغض من نثره ، فيقول : (سهم علوٍ

---

(١) المصدر السابق/ ص ٢٧٤ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس / ص ٣٥٦ .

(٣) المقامات اللزومية / ص٢٧٤ .

(٤) المصدر السابق / ص٢٧٥ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

وغلاء ، ولابسُ وشي وملاء ، خضع له النظم وخنع ، وأبى عليه النثر وامتنع ، فمات دونه أسفاً ، ولم يزل لمجاهله معتسفاً ، عالم جاهل ، وطاسم آهل ، وعلا وهبط ، ونقض ورق الغواية وخبط)[١].

وهذا رأي جرئ من قبل السرقسطي ، وهو كما يلحظ يختلف عن رأي أبي القاسم الكلاعي في أدب المعري ، الذي أبدى فيه إعجابه به حتى أنه عارضه في أكثر من رسالة .

ومما تقدم يتبين لنا أن الملاحظات النقدية التي أطلقها السرقسطي على الشعراء الذين استعرضهم في مقامته ، هي ملاحظات يسيرة معظمها جاء بها السرقسطي مما ثبت في كتب الأدب العام ، وممّا احتوته كتب التراجم والمختارات ، وتنوقل في أخبار الشعراء ، وشراح دواوينهم ، وكان جلّ اعتماد المؤلف في الحديث عن الشاعر على ما هو معروف من أخبار حياته وأقوال النقاد السابقين في شعره ، كقوله عن الفرزدق ينحت من صخر، وعن جرير يغرف من بحر ، وعن شاعرية الأعشى إذا طرب ، والنابغة إذا رهب[٢].

فهذا لا يعني انعدام ظهور آرائه الخاصة بالشعراء ، ومن ثم بروز شخصيته الناقدة ، فها هوذا يبدي إعجابه بشعر المعري دون نثره ، ويقول : إنه أبدع في النظم دون النثر الذي يرى أنه لم يطاوعه . كما أبدى رأيه في المولوين حيث استنكر سؤال السائب عنهم في شخص بشار بن برد . إلا أنه تسامح بعد ذلك ، بعد إلحاح السائب في معرفه رأيه فيهم .

وهذه الأراء تكشف لنا عن قدرة الفقيه النقدية ، حيث قام بالإفصاح عما يجول في خاطره تجاه هؤلاء الشعراء ، وإن قيد نفسه بالسجع الذي منعه من الاسترسال في أحكامه النقدية .

---

(١) المصدر السابق / ص٢٧٧ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس / ص٣٥٨ .

وللسرقسطي مقامة نقدية أخرى عرض فيها رأيه في النظم والشعر أقامها على الحوار والمناقشة بين ابني الشيخ السدوسي حبيب وغريب ، فجعل غريباً يسأل حبيباً عن أيهما أسبق الشعر أم النثر ؟ وأيهما أوقع في النفوس، وأشفى لغلة الصادي ، فيجيبه حبيب أن الأمر واضح ، ويصف الشعر بقوله : (ألم تر أنّ الشعر أصعب مرتقًى ، وأعرب منتقى ، وأبرعُ لفظاً ، وأسرع حفظاً ، وأوسع مجازاً ، وأنصع إيجازاً ...) (١).

وكأنه هنا يفضل الشعر علي النثر ، فيذكر الأسباب التي جعلت للشعر فضائله ، ومن هذه الأسباب : أنه أجرى على اللسان ، وأبعث على الطرب ، وأذهب للكرب ، كما أن الشعر - إلى ذلك - يشترك فيه العرب والعجم ، وإن كان العرب أحق به من العجم ؛ لكرم ألفاظها وعنايتهم البالغة به . كما أن الشاعر يستطيع أن يكون ناثراً بينما الناثر لايستطيع أن يكون شاعراً، (وقد حكم الأكابر والأعاظم أنه ما عجز عن النثر ناظمٌ ، وكم عجز في النظم ناثر، وأتى وجدُّه عاثر)(٢).

ثم أخذ يتحدث عن منزلة الشاعر والكاتب ، فقال : (وهيهات منزلة الشاعر والكاتب ، والجائزة ، والراتب ، هذا يقول على ساق ، ويقنع بغساق، وذا يقعد في وثير ، ويحُلُّ في أثير ، يطأ بساطاً ، وتردى له الأرض بساطاً، يسمو إليه الراتب ، والأملاك ، ويتقلد كما تتقلد القيود والأسلاك)(٣).

ثم أعقب ذلك بالحديث عن النثر فمدحه ، وفقال فيه : إنه (عنان يرسل، وبيان ينسل ، وزمامُ يملك ، وطريق يسلك ، حوض مورود ، وثوب مهرود، وحمى مستباح ، واغتباق واصطباح ..)(٤). فهو عنده طريق سهل ومسلك

---

(١) المقامات اللزومية /ص٣٧٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق/ ص٣٧٤ .

(٤) المصدر السابق/ ص٣٧٥ .

غير عسير به تطلب المطالب ، وتخدم به الرئاسة ، فالكتاب يستخدمونه لكتابة الأمور السلطانية والديوانية الخاصة بالدولة .

ثم يعاود الحديث عن الشعر ، ويحذر من الدعوة إليه ؛ لأنه السبب الذي من أجله سلب امرؤ القيس ملكه (وأوجب عليه هلكه)(١). وهنا يتحرك الشيخ أبو حبيب فيعلق على ما سمعه من ابنيه فيطلب منهما أن يتحريا الصدق ، وأن يتمهلا في أحكامهما علي النظم والنثر ، وذلك لأن الشعر (فحل عقيم وسفر مقيم ، ومبغّض مودود ، ومعذر مجدود ، علقته النفس عِلاقة ، وجعلته لآمالها سبباً وعلاقة ، وإن شابوه كذباً وميناً ، فقد أغضوا عليه عيناً ، وإنما حمده أوفر من ذمه ، وشهده أكثر من سمه ..)(٢).

أمّا النثر (فأنثى ولود ، وزندٌ لا كاب ولا صَلُود ، عين ثرّةٌ ، أم برّةٌ ، لـه موضع ومكانة وعزّةٌ واستكانه ...)(٣).

والسرقسطي في مقامته هذه يدعو إلى التوسط والاعتدال في قضية المفاضلة بين الشعر والنثر ، فنسمع له في آخر المقامة على لسان الشيخ أبي حبيب يدعو ابنيه لذلك ، ويطلب منهما ألا يفضلا ، قائلاً على قائل ، إلا بفضل فاضل ، فالإحسان ضروب ، وطلب منهما أن يأخذ في كل الأحوال بالأعدل الأقسط ، وأن يميلا إلى الأسهل والأبسط ، وألا يعدلا عن السواء الأوسط ، فإن ذلك من عزم الأمور (٤).

والسرقسطي هنا يختلف عن ابن شهيد الذي فضل النثر على الشعر مع حبه له ، كما فهم ذلك من رسالته (التوابع والزوابع) عندما التقى بالجنى

---

(١) المصدر السابق/ ص٣٧٦ .

(٢) المصدر السابق / ص٣٧٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق / ص ٣٧٨ .

زهير بن نمير ، فطلب منه أن يحدد له بمن يريد ، يلتقي أولاً بتوابع الخطباء أم بتوابع الشعراء ، فرد ابن شهيد قائلاً : (الخطباء أولى بالتقديم ، لكني إلى الشعراء أشوق)(١).

كما أن السرقسطي اختلف في رأيه مع أبي القاسم الكلاعي الذي فضل أيضاً النثر مع إعجابه بالشعر في فصل الترجيح بين المنظوم والمنثور في كتابه (إحكام صنعة الكلام) .

ولأبي بكر العربي تصوراته في الشعر واختلافه عن الكلام المنثور، يتضح ذلك في معرض دفاعه عن القرآن الكريم في كتابه (أحكام القرآن)، حيث ردّ على الذين حاولوا أن يجروا القرآن أو شيئاً منه على وزن من الأوزان الشعرية المعروفة ، مع أنه ظهر (عند الولي والعدو أنه ليس بشعر، وذلك قوله تعلى : ﴿ ومَا عَلّمْنَاهُ الشعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَه إنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾، وفي قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُون ﴾)(٢).

كما ذكر أن هناك جماعة من الملحدين قد استشهدوا بعدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة ، وأجروها على الأوزان الشعرية ، وقد ردّ عليهم بأنهم أهل جهل بالصناعة الشعرية ، فما ذكروه من كتاب الله الكريم وأحاديث رسوله ﷺ لا يمكن أن يكون فيه شيء من الأوزان الشعرية المعروفة . فمثلاً عند استشهادهم لقوله تعالى : ﴿ فلمّا تَوَفّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وقالوا : إن هذا من بحر المتقارب على ميزان قوله :

فأمّا تميم تميم بن مر

فألفاهم القوم رؤوساً نياما

---

(١) الذخيرة مج١/ق١/ص ٢٤٨ .

(٢) أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي الإشبيلي / أحكام القرآن ، الطبعة الأولى ، تحقيق على محمد البخاري (دار الفكر - ١٩٧٨هـ - ١٩٥٨م) ق ٤ / ص١٥٩٨ .

فردّ ابن العربي على هذا القول بما يثبت معرفته بأوزان الشعر واختلافه عن الكلام المنثور بقوله : (وهذا إنّما اعترض به الجاهلون بالصناعة ؛ لأن الذي يلائم هذا البيت من الآية قوله : فلما ... إلى قوله « كل » ، وإذا وقفنا عليه لم يتم الكلام ، وإذا أتممناه بقوله : (كل شيء شهيد) خرج عن وزن الشعر ، وزاد فيه ما يصير به عشرة أجزاء كلها على وزن فعولن ، وليس في بحور الشعر ما يخرج البيت منه عشرة أجزاء ، وإنما أكثره ثمانية) [١].

وهكذا أخذ ابن العربي يدحض مزاعم من حاول إجراء بعض آي الذكر الحكيم أو أقوال النبي ﷺ على الأوزان الشعرية المعروفة ؛ لينفوا إعجاز القرآن ، وأنه يجرى على ما يجرى عليه الشعر ، فأبدى ابن العربي مهارته في الردّ عليهم ، وفي إظهار ضعفهم في الصناعة الشعرية [٢]. فمعاذ الله أن يكون القرآن فيه شيء من الشعر ، أو أن يكون قول الرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - الذي لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى؛ مثلما زعم هؤلاء الملحدون .

والناظر في آثار فقهاء الأندلس - عصري الطوائف والمرابطين - في المجال النقدي ، يتبين له هيمنة النزعة الأخلاقية على آرائهم وأحكامهم النقدية، وذلك لأنهم نظروا إلى الشعر مرتبطاً بالدين ، فلم يفصلوا بينهما، بل سيروهما في خط واحد ، وأكدوا على ارتباطهما ، وإذا كانت هذه النظرة الأخلاقية تطالعنا عند غير واحد من المشتغلين بالنقد الأدبي الأندلسي، فبدهي أن تكون أجلى وأوضح عند الفقهاء ، وعلماء الشرع ممن شاركوا في حركة النقد الأدبي عصرئذ .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ق ٤ /ص ١٩٥٨ فمابعدها .

ويعد ابن حزم من الذين توسعوا في تناول قضية ربط الشعر بالدين ، وامتزج عنده الاتجاه الأخلاقي في النقد بقضايا الإصلاح الاجتماعي [(١)].

فهو يدعو لمن يريد رواية الشعر ألا يروي منه إلا الأشعار التي تنطوي على الحكم والمواعظ والخير كشعر حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنهم ، وكشعر صالح عبد القدوس ونحو ذلك ؛ لأنها نعم العون على تنبيه النفس [(٢)].

كما نجده يحذر من أربعة أضرب يجب الابتعاد عنها ، وقد أشرنا إليها في معرض حديثنا عن جهود ابن حزم النقدية ، وهذا التحذير كما هو واضح نابع من نزعة دينية تربوية ، ترغب في تنشئة أبناء المسلمين علي كل ما فيه الخير والصلاح لدنياهم وآخراهم ، وإن مارس ابن حزم غرض الغزل الذي نهى عنه مما يدل على عدم التزامه بالنقد الذي فرضه ، فإنه يكفي أنه لم يمارس الفاحش منه والمبتذل ، إنما جاء غزله عفيفاً يبعد عن كل ما يشين مكانة الفقيه .

إلاّ أنه يتعجب من رفضه لبعض الأشعار كشعر الحرب وشعر التغرب مع أن بعضهم يرى فيهما عكس ما رآه ابن حزم ، حيث إن شعر الحرب يبث في النفس الحماسة ، ومعاني البطولة والفروسية . ومن ثم الرغبة القوية في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، عندما يصيبها الضرر والأذى من الأعداء .

أما شعر التغرب فهو شعر يقرب النفس من وطنها ويجعلها في حنين دائم إلى مسكنها ، وفي هذا عكس لما رآه ابن حزم في هذين الغرضين .

ويتبع الحميدي تلميذ ابن حزم طريقة شيخه ، فهو يرفض في كتابه (جذوة المقتبس) إيراد أشعار الهجاء ، وخاصة ما كان قبيحاً منه ، وذلك من

---

(١) د محمد مريسي الحارثي ، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري (جدة : دار المدني ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩) ص ٩٤ .

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي جـ ٤ /ص ٦٧ .

خلال تراجمه ، فيقول عن اليحصبي : (ولليحصبي عندي أهاج قبيحة كرهتُ أن أوردها عنه)[١].

وهذا موقف ديني خلقي من الحميدي ، فقد كره رواية شعر الهجاء لمن ترجم له وإثبات ذلك من كتابه .

ونلمس النزعة الدينية والخلقية التي حث عليها ابن حزم في مقدمة ابن عبدالبر ، فهو لم يجمع شعر أبي العتاهية إلا لأنه (يعين أهل العقل والدين والتقوى ، ويبعثهم على الزهد في الدنيا ، ويذكرهم تفقد الفوت ، وما بعده من أمر الموت ، وما فيه من موعظة ، وتذكرة بالغة راسية ، عسى أن تلين بها القلوب القاسية ، فما أحوجها إلي ذلك مع غفلتها عما يراد منها ، وقساوتها واشتغالها عما خلقت له وإليه مصيرها ، وكان الأولى بها ادكارها وتذكيرها ، ولولا أني رجوت لنفسي ذلك ، ولمن طالعه وتدبيره كذلك ، وصرف النفس عن بعض هواها ، ونهاها عن غيها ومناها : لما جمعته ، لا وسمته وكتبته..)[٢].

ويلتزم أبو القاسم الكلاعي في كتابه (إحكام صنعة الكلام) الموقف ذاته الذي التزم به الفقهاء من قبله ، فهو مع إعجابه بالشعر ، إلا أنه يرى أن النثر أسلم جانباً ، وأكرم حاملاً وطالباً ويستشهد بقول الرسول ﷺ : (لئن يمتلئ جوف أحدكم قيماً خير له من أن يمتلئ شعراً) ، فلم يقل : كتابة ولا خطابة .

ونراه يوضح أسبابه في تفضيله للنثر على الشعر ، فالشعر عنده داعٍ لسوء الأدب ، وفساد المنقلب ، يحمل الشاعر علي الغلو في الدين ، كما يحمله علي الكذب ، والكذب ليس من شيم المؤمنين ، أضف إلي ذلك ما في الشعر من الوزن الداعي للترنم ، والترنم من باب الغناء ، وفي هذا مفسدة للدين .

---

(١) جنوة المقتبس /ص ٤٠٩ .

(٢) أبو العتاهية أشعاره وأخباره /ص ٢٦ .

وهكذا يتضح أن الموقف النقدي للفقهاء يتماثل ويتشابه ، فهو يسلك مسلكاً واحداً ، وينتهج المنهج الإسلامي ، فكان من نتائج هذا التصور الديني والخلقي أن وجدنا صدى هذا الالتزام عند كثير من نقاد الأندلس إبان عصري الطوائف والمرابطين ، كما أن هذا الالتزام جعلهم ينتقدون كثيرا من المعاني والألفاظ الفاسدة لأي شاعر كان .

فمقياس النقد الخلقي للفقهاء ساعد بلاشك في الرقي بالنقد والسمو بالأغراض الأدبية ، لذلك لايمكن التقليل من قدرة هذه الأعمال النقدية، وشأنها ، وما كان لها من أثر في إثراء حركة النقد الأدبي - إبان ذينك العصرين - مما لا تكتمل حلقة الدرس النقدي في الأندلس فيهما إلا باستجلاء إسهام الفقهاء ومشاركتهم النقدية .

ولعلي في الصفحات السابقة كشفتُ عن وعي الفقهاء بما يدور حولهم من نشاطٍ نقديٍّ ، بل وفيما يدور في المشرق ، فرغبوا في الإسهام فيه دفعاً بالحركة النقدية في الأندلس إلى طريق التطور والازدهار ، وكان ذلك بعدة طرق منها الدفاع عن أدباء الأندلس وإثبات أنهم لايقلون عن أدباء المشارقة، إن لم يفوقوهم ، ويتضح ذلك في رسالة ابن حزم في ذكر فضل الأندلس ورجالها ، كما أنهم شاركوا نقاد المشرق في عقدهم للموازنات بين شعرائهم وكتّابهم ؛ ليظهروا قدراتهم النقدية كما فعل ابن أبي الخصال عندما ردّ علي ابن القاسم الفهري ، الذي عقد موازنته القصيرة بين بديع الزمان الهمذاني وبين أبي إسحاق الصابي مفضلاً فيها بديع الزمان ، فناقشه ابن أبي الخصال ، وناقضه في رأيه مقدماً الصابي على بديع الزمان ، ذاكراً الأدلة والبراهين علي ذلك . وهذه الطريقة وجدناها أيضاً عند السرقسطي في مقامته في الشعر والشعراء ، التي أقامها علي المحاورة ؛ ليظهر فيها رأيه في عدد من شعراء المشرق .

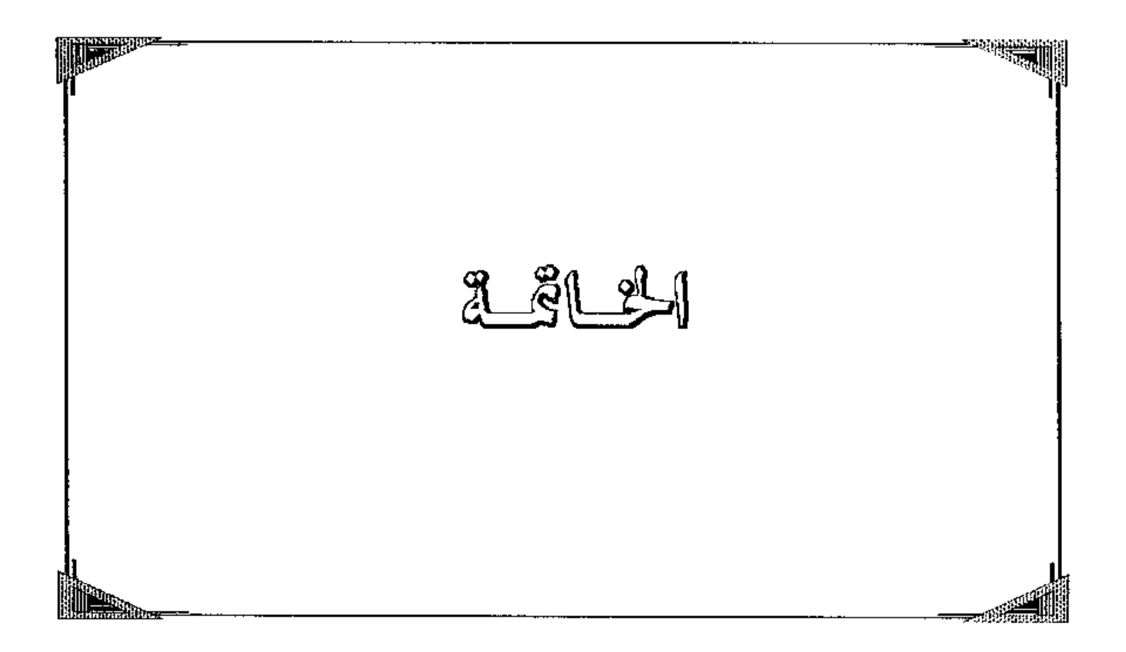
ومنهم من ساهم في الحركة النقدية بإبداء رأيه في بعض الشعراء الأندلسيين ، أو المشارقة بإطلاق أحكام نقدية قصيرة على أدبهم من خلال الترجمة لهم ، كما فعل الحميدي في كتابه (جذوة المقتبس) ، أو من خلال التحدث عنهم في مؤلفاتهم نحو ما وجدناه عند الكلاعي في كتابه (إحكام صنعة الكلام) ، ونحو ما وجدناه عند ابن عبدالبر في ديوان أبي العتاهية ، الذي بجمعه بعد أن أبدى فيه إعجابه بشعره .

ولعلي كذلك كشفتُ عن الخيط الذي انتظم فكر هؤلاء الفقهاء في أحكامهم النقدية ، وكان هذا الخيط هو المعيار الديني والخلقي الذي اتخذوه مقياساً نقدياً في أحكامهم .

كما وجدنا مشاركة للفقهاء في الكلام حول إعجاز القرآن الذي اختلف فيه العلماء فتحدث عن هذه القضية الفقيه ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ، فأظهر قدرته النقدية بالمناقشة والمجادلة والمحاجة، ووجدنا ذلك أيضاً عند الفقيه أبي الوليد الباجي في معرض ردّه عن دعوة الراهب الفرنسي للمقتدر بن هود للدخول في النصرانية ، وعند الفقيه ابن عطية المحاربي في مقدمة كتابه (المحرر الوجيز) .

كما لمسنا قدره الفقيه ابن العربي في معرفته للأوزان العروضية التي يقوم عليها الشعر ، والتي يفتقدها الكلام المنثور ، وذلك من خلال إثبات ضعف من حاول أن يجري بعض آي الذكر الحكيم ، وبعض الأحاديث النبوية مجرى الشعر في إقامتها على الأوزان العروضية المعروفة .




الخاتمة

والآن أخلص إلى تسجيل بعض نتائج هذا البحث الذي لا أدعي أن كل ما فيه يعد جديداً ، وإنّما هي صوًى وعلاماتُ مضيئة تلفت إليها نظر الدارسين والباحثين .

ويمكن تلخيص تلك الحصيلة من النتائج على النحو الآتي :

١ ـ في مدخل الرسالة الذي قسمته إلي قسمين (أولهما : الحياة الأدبية في ظل ملوك الطوائف والمرابطين ، وثانيهما : ثقافة الفقيه الأندلسي ومكوناتها) ، انتهيت إلي أن الأدب قد وجد أرضاً خصبة في هذين العصرين تمثلت في رعاية الأمراء ، وذوي النفوذ من قضاة ومشارين له واهتمامهم به .

وأفاد البحث بازدهار الأدب في عصر المرابطين ، ونفي التهمة التي ألصقت بذلك العصر في أنه عصر تخلف وانحطاط من الناحية الفكرية والأدبية ، وذلك لخشونة حكام المرابطين ، ولسيطرة الفقهاء على الدولة ، واستدل البحث على نشاط الحركة الأدبية عصرئذ ببروز عدد من الأسماء اللامعة من الأدباء ، أشير إليهم بالبنان عرفاناً بمقدرتهم الأدبية ، ولما قدموه من مساهمة ساعدت علي المضي بالحركة الأدبية أمثال : ابن خاقان ، وابن بسام ، وابن أبي الخصال ، وابن العربي ، وغيرهم كثر .

وفي حديثنا عن ثقافة الفقيه الأندلسي ومكوناتها كشفت الدراسة عن سعة ثقافة الفقيه وتنوعها، إذ لم تقتصر على العلوم الشرعية والفقهية مجال تخصصهم ، وإنما تعدت ذلك إلى المعارف الأدبية والإنسانية المتنوعة ، فكان من نتاج ذلك أن تمخضت عن هذه الثقافة مؤلفات عديدة مختلفة المشارب .

٢ ـ وفي الفصل الأول من الدراسة الذي خصصته للحديث عن (المنشآت الشعرية في تراث الفقهاء) بينت الدراسة جملة أمور ، منها :

- غزارة المادة الشعرية ، وتنوع الأغراض فيها ، فهم لم يتركوا غرضاً

إلاّ وتناولوه كغيرهم من شعراء عصرهم . بيد أن تناولهم لهذه الأغراض لوحظ فيها التأثر الواضح بما تلقوه واشتغلوا به من علوم شرعية وفقهية فنتج عن ذلك :

● السمو بغرض المديح من التكسب إلى الإشادة بالمعاني الإسلامية التي يتحلى بها الممدوح .

● قلة ما وصلنا من غرض الهجاء ، وإن كان أغلب ما جاء في هذا الغرض عندهم ما هو إلا تصوير لعيوب ومثالب المجتمع الذي كان يعيش فيه هؤلاء الفقهاء ، فرغبوا في إصلاح بعض الأنماط السلوكية التي كانت منتشرة في عصرهم .

● وضوح سمة العفاف والترفع عن الابتذال في غرض الغزل ، فلم نجد في شعر الفقهاء ما يخدش الحياء في غزلهم ، وإذا ما وجدنا بعضاً من الأبيات لهم من الغزل الحسي ، فمرد ذلك ـ كما عللنا ـ إلى الإحماض والترويح عن النفس ، ومشاركة غيرهم من شعراء عصرهم ، ولا علاقة لذلك بشخصية الفقهاء ، فقد صورت لنا كتب التراجم حياتهم ، وهي بعيدة كل البعد عما يخالف الشريعة الإسلامية رحمهم الله .

● مساهمة الفقهاء مع شعراء عصرهم في إعطاء صورة عن الحالة السياسية عصري الطوائف والمرابطين على نحو ما نجد في قصائدهم الجهادية ، حيث صوروا الضعف الذي دبَّ في صفوف ملوك الطوائف مما جعلهم يخضعون للأعداء المتربصين بهم بدفع الضرائب لهم مما أدى إلي استيلاء هؤلاء الأعداء على بعض مدن الأندلس والفتك بأهلها وتشريدهم.

كما صوروا قوة الدولة المرابطية واستنفار مسلمي الأندلس وطلبهم النجدة من زعيمهم الأمير يوسف بن تاشفين ، الذي لبى بدوره النداء وساعد الأندلسيين على هؤلاء الأعداء الغاشمين. فكان له وللمسلمين النصر المنشود.

● وفي الرثاء لم يبتعد الفقهاء في تناولهم لهذا الغرض عن غيرهم من الشعراء ، غير أن الفقهاء أقلوا من الندب ، وأكثروا من العزاء والتأبين فيه لإيمانهم الصادق بأن الموت سنة الله في كونه ، وأن من صبر فقد نال الجنة، كما وعده المولى سبحانه وتعالى قال : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾(١) .

● وفي غرض الوصف سجلت الدراسة دقة ملاحظة هؤلاء الفقهاء في تصويرهم لما حولهم من الطبيعة الصامتة والناطقة مما كشف عن عقلية واعية أخذت تكشف عبر التأمل الواعي مخلوقات الله ، وتنقلها لما فيه من الإبداع والجمال الرباني .

● قلة ما وصلنا من غرض الفخر ، فهو من أقل الفنون الشعرية تناولاً عند الفقهاء ، كما تبين اختلاف مضمون أبيات هذا الغرض عن مضمون الشعراء الأخرين ، إذ أن فخر الفقهاء كان يدور حول العلم والانتساب إلى أهل وآباء عرفوا بالعلم وحبه . أما ماعدا ذلك فليس هناك فخر لا بالآباء ولا بالأنساب ولا بالقبيلة .

● وفي غرضيْ الزهد والوعظ كشفت الدراسة عن أن هذين الغرضين من أقرب الأغراض الشعرية إلى شخصية الفقهاء فهما يمثلان الفقهاء ويصورانهم في تمسكهم بالعقيدة ، وفي رغبتهم الحقة في إصلاح ما انحرف وندّ من سلوك المجتمع من حولهم . لذلك جاءت أشعارهم فيهما صادقة تحمل مفاهيم إسلامية نشأ عليها هؤلاء الفقهاء .

● وفي غرض الإخوانيات أبانت الدراسة عن شخصية الفقهاء المحبة الودود لمن حولهم من الإخوان والأصدقاء .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٥٥ .

● ومن خلال دراسة الملامح الفنية لشعر فقهاء الأندلس سجلت الدراسة التشابه بين هذه الملامح وبين الملامح الفنية للشعراء الأندلسيين من غير الفقهاء .

٣ ـ واستخلصت من الفصل الثاني عن (المنشآت النثرية في تراث الفقهاء) :

● غزارة نتاجهم النثري وتنوعه .

● حِفْظَ كتب التراجم والأدب كمية لابأس بها من تراث الفقهاء النثري، مما يدلنا على أهمية هذا النتاج ومساهمته في المضي بالحركة الأدبية الإبداعية إبان عصري الطوائف والمرابطين ، فقد استطاع أن يعطينا صورة واضحة عن أحوال المجتمع الأندلسي من جميع جوانبه ، الاجتماعية، والسياسية، والدينية . وذلك من خلال الرسائل ، والخطب ، والمقامات والمؤلفات .

● كتابة الفقهاء في فن المقامات يكشف عن اهتمامهم بكل ما هو جديد يردُ عليهم من المشرق ، وإن كان عدد كبير من أدباء الأندلس قد عارضوا مقامات المشرقيين الممثلة في مقامات بديع الزمان والحريري ، فإن الفقهاء قاموا بذلك ، غير أنهم لم يقصدوا من ذلك المعارضة فقط ، بل أضافوا إلي ذلك مجاراتها ، واستعراض ثقافتهم اللغوية والأدبية .

● أما الدراسة المتعلقة بالملامح الفنية لنثر هؤلاء الفقهاء ، فقد أبانت عن أن نثرهم تميز بما تميز به نثر الكتاب في عصرهم من مميزات وخصائص أدبية وفنية .

٤ ـ وفي الفصل الثالث عن (المنشآت النقدية في تراث الفقهاء) سجلت الدراسة مقدرة هؤلاء الفقهاء النقدية وامتلاكهم فكراً نقدياً متميزاً مما كشفت

النصوص النقدية المبثوثة في مختلف مؤلفاتهم ، أو ما أفردوا به الدرس النقدي من كتبهم مثل : كتاب (إحكام صنعة الكلام) لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي .

● كما كشفت الدراسة عن الخيط الذي انتظم به أحكامهم النقدية وهو (المنزع الخلقي الديني) الذي يسمو بالأدب ويبعده عن الرذائل ، وكل ما يشين، وهذا ـ في الأغلب ـ سمة آثار نقاد الأندلس بعامة ، فقد عرفوا باتجاهم الخلقي في أحكامهم النقدية .

وبعد الانتهاء من فصول البحث يجدر بنا أن نعترف بأن فقهاء الأندلس لم يقفوا حجر عثرة أمام الحركة الأدبية بمستوييْها الإبداعي والنقدي ، بل على العكس فقد ساهم هؤلاء الفقهاء بنتاجهم الثر في المضي قدماً في حركتي الأدب والنقد .

كما يجدر بنا أن نشير إلى أن إسهام الفقهاء في هذه الحركة قد نال إعجاب الأدباء مَنْ حولهم ومَنْ بعدهم ، فلنقرأ لابن خاقان يقول في الفقيه أبي عمر الباجي : (لسانه اللؤلؤ المكنون ، ويُصرِّف من بدائعه الأنواع والفنون ، فلا يُجارى في ميدان إحسانٍ ، ولا يبارى في بلاغة يراعةٍ ولسان ..)[١] .

ويقول في الفقيه أبي عبيد البكري : (وأما الأدب ، فهو كان منْتهاه ، ومحلَّ سهاه ، وقُطْبَ مدارهِ ، وفلك تمامه وإبداره ، وكان كلُّ ملكٍ من ملوك الأندلس يتهاداه تهادى المقل للكرى ، والآذان للبشرى ..)[٢] .

---

(١) قلائد العقيان ١/ص٣٠٠

(٢) المصدر السابق ٣/ص٦١٥ .

ويقول ابن بسام عن الفقيه ابن برد الأصغر ، وعن أدبه أنه : (في وقته فلك البلاغة الدائر ، ومثلها السائر ، نفث فيها بسحره ، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره ، وله إليها طروق ، وفي عُروقها الصالحات عروق ..)[1] .

ويقول في الفقيه أبي القاسم بن الجد : (قريع وقتنا ، وواحد عصرنا، ممن استمرى أخلاف النظم والنثر ، قدرّتْ له بالبيان أو بالسحر ، فإن تكلم فأبو بحر ، أو نظم فكلثوم بن عمرو ..)[2] .

فهذه أمثلة من آراء أدباء الأندلس عصري الطوائف والمرابطين في نتاج فقهاء الأندلسي الأدبي ، وهذا غيض من فيض ، مما يكشف لنا عن اهتمام الفقهاء بالأدب الذي نتج عنه إعجاب الأدباء من حولهم .

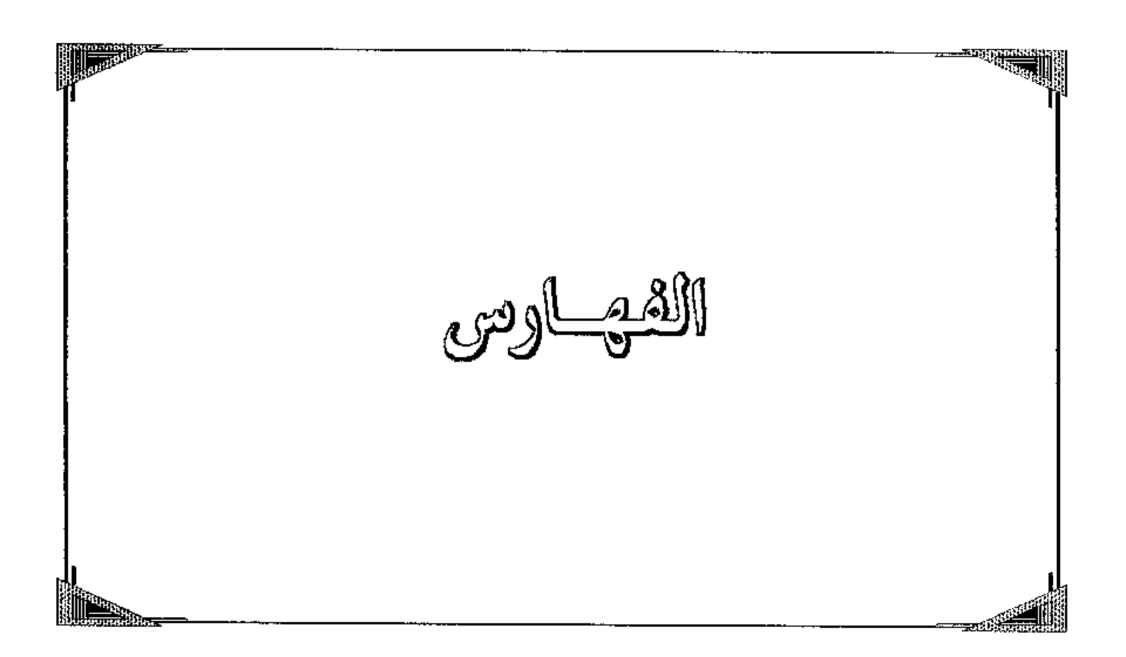
كما وجدنا مدائح لبعض من الشعراء قيلت في بعض هؤلاء الفقهاء مثل مدائح ابن صارة الشنتريني في الفقيهين : ابن حمدين وابن العربي ، مما يؤكد على اهتمام الفقهاء بالأدب وتشجيعهم عليه ، وأنهم لم يقفوا ضد هذه الحركة كما قد يظن بعضهم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) الذخيرة مج ١ / ق ١ / ص ٤٨٦ .

(٢) المصدر السابق مج ١ / ق ٢ / ص ٢٨٥ .


الفهارس

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- كتب الحديث الشريف

١ ـ الإمام أحمد بن حنبل :
مسنده ، (بيروت : الكتب الإسلامي ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م).

٢ ـ الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري :
صحيح البخاري ، (دار الفكر ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م)

٣ ـ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) :
سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح ، تحقيق : عبدالرحمن محمد عثمان ، (بيروت : دار الفكر ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) .

- كتب النقد والأدب والتاريخ :

١ ـ إسماعيل بن محمد الحميري الإشبيلي :
البديع في وصف الربيع ، الطبعة الأولى ، تحقيق : عبدالله عبدالرحمن عسيلان ، (جدة : دار المدني للطباعة والنشر ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م) .

٢ ـ أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (ت ٥٩٩هـ) :
بغية الملتمس في تارخ رجال أهل الأندلس ، الطبعة الأولى ، تحقيق : روحية عبد الرحمن السويفي ، (بيروت : دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) .

٣ ـ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان(ت ٦٨١هـ) :
وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، (بيروت دار صادر ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م) .

٤ ـ أحمد بن محمد المقري التلمسان (ت ١٠٤١هـ) :

- أزهار الرياض في أخبار عياض ، (الرباط : أحياء التراث الإسلامي ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م) .
- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : د . إحسا عباس ، (بيروت : دار صارد ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) .
٥ ـ د. إحسان عباس :
- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، الطبعة السادسة، (بيروت : دار الثقافة ١٩٨١م) .
تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، الطبعة السابعة ، (بيروت: دار الثقافة ١٩٨٥م) .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، الطبعة الخامسة ، (بيروت : دار الثقافة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨١م) .
٦ ـ اميليوغرسيه غومس :
- مع شعراء الأندلس والمتنبي ، الطبعة الخامسة ، تعريب د. الطاهر أحمد مكي .
- الشعر الأندلسي بحث في تطويره وخصائصه ، ترجمة : حسين مؤنس (القاهرة : مكتبة الخانجي ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م) .
٧ ـ إبراهيم أنيس :
موسيقي الشعر ، الطبعة السادسة، (مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨م)
٨ ـ آنخل جنثالث بالنثيا :
تاريخ الفكر الأندلسي ، الطبعة الأولى ، نقله عن الإسبانية د . حسين مؤنس ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م) .
٩ ـ د . أحمد مختار عمر :
علم الدلالة ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : عالم الكتب ١٩٩٢م) .
١٠ ـ إبراهيم علي العكش :
التربية والتعليم في الأندلس ، الطبعة الأولى ، (الأردن : دار عمار، دار الفيحاء ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) .

١١ ـ أحمد مختار العبادي :
في التاريخ العباسي والأندلسي ، (بيروت : دار النهضة العربية) .
١٢ ـ بسيم عبدالعظيم عبدالقادر إبراهيم :
شعر الأسر والسجن في الأندلس جمع وتحقيق ودراسة ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م) .
١٣ ـ د . جودت الركابي :
في الأدب الأندلسي ، (القاهرة : دار المعارف) .
١٤ ـ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ) :
كتاب الصناعتين ، الطبعة الأولى، تحقيق : د. مفيد قميحة ، (بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) .
١٥ ـ أ . د . حسن عبدالكريم الوراكلي :
ـ ابن صارة الشنتريني حياته وشعره،الطبعة الأولى١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
ـ أبو الطاهر السرقسطي حياته وآثاره ، دراسة مرقونة .
ـ تراث المغاربة في آثار الدراسين السعوديين « دراسة وبيلوجرافية » ، تحت الطبع في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض .
ـ المقامة الأندلسية دراسة ونصوص ، (الرباط : المناهل ١٩٩٣م) .
ـ مقالات في الشعر المغربي الحديث ، (الكويت :عالم الفكر ١٩٩١م).
١٦ ـ د . حكمت علي الأوسي :
الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، (القاهرة : مكتبة الخانجي) .
١٧ ـ د . حسن عبدالعال :
التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٧٨م) .
١٨ ـ د . حازم عبدالله خضر :
ـ ابن شهيد الأندلسي ، حياته وأدبه ، (بغداد : دار الحرية) .
ـ النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين .

١٩ ـ خلف بن عبدالملك بن بشكوال (ت٥٧٨هـ) ، الصلة ، الطبعة الثانية ، عني بنشره ، وصصحه ، وراجع أصله : السيد عزت العطار الحسيني ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) .

٢٠ ـ رينهرت دوزي :

المسلمون في الأندلس ، ترجمة وتعليق وتقديم : د . حسن حبشي ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م) .

٢١ ـ سيد قطب :

التصوير الفني في القرآن ، الطبعة التاسعة ، (القاهرة : دار المعارف) بدون تاريخ .

٢٢ ـ سعيد الأفغاني :

من أعلام التربية العربية ، المجلد الثاني ، التربية عند ابن حزم ، (الرياض : مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م) .

٢٣ ـ السيد أحمد عمارة :

شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، الطبعة الأولى ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م).

٢٤ ـ د . شوقي ضيف :

- عصر الدول الإمارات (الأندلس) ، (القاهرة : دار المعارف) .
- المدارس النحوية ، الطبعة الثالثة ، (القاهرة : دار المعارف) .

٢٥ ـ د . صلاح خالص :

إشبيلة في القرن الخامس الهجري ، (بيروت : دار الثقافة ١٩٦٥م) .

٢٦ ـ د . الطاهر أحمد مكي :

دراسات عن ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة) ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : دار المعارف ١٩٩٣م) .

٢٧ ـ أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت٤٢٩هـ) :

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالمجيد .

٢٨ ـ علي بن أحمد سعيد بن حزم (ت٤٥٦هـ) :
ـ طوق الحمامة في الألفة والألاف ، الطبعة الرابعة ، ضبط نصه وحرر هوامشة : د . الطاهر أحمد مكي . (القاهرة : دار المعارف ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) .
ـ رسائل ابن حزم الأندلسي ، الطبعة الثانية ، تحقيق : د. إحسان عباس ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٧م) .
ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الطبعة الثنية ، (بيروت : دار المعارف ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) .
ـ جمهرة أنساب العرب ، الطبعة الرابعة ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة : دار المعارف) .
٢٩ ـ عبدالله بن عبد العزيز بن محمد البكري (ت ٤٨٧هـ) :
فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، تحقيق : د . إحسان عباس ، ود. عبدالمجيد عابدين ، (بيروت : دار الأمانة ، مؤسسة الرسالة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م) .
٣٠ ـ أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) :
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق : د. إحسان عباس، (ليبيا، تونس : الدار العربية للكتاب ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) .
٣١ ـ أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية المحاربي (ت٥٤٦هـ) :
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، الطبعة الأولى ، تحقيق : الرّحال الفاروق ، وعبدالله بن إبراهيم الأنصار ، والسيد عبدالعالي السيد إبراهيم ، ومحمد الشافعي صادق العنابي ، (الدوحة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٧م) .
٣٢ ـ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية (ت ٦٣٣هـ) :
المطرب من أشعار أهل المغرب ، الطبعة الأولى ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، ود. حامد عبدالمجيد ، ود. أحمد أحمد بدوي ، مراجعة : د. طه حسين ، (القاهرة : وزارة التربية والتعليم ١٩٥٤م) .

٣٣ ـ علي بن موسى بن محمد عبدالملك بن سعيد (٩٨٥هـ) :
المغرب في حُلي المغرب ، الطبعة الثالثة ، تحقيق : د.شوقي ضيف ، (القاهرة : دار المعارف) .
٣٤ ـ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) :
ـ طبقات المفسرين ، الطبعة الأولى ، (بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) .
ـ طبقات الحفَّاظ ، الطبعة الأولى ، تحقيق : علي محمد عمر ، (القاهرة : مكتبة وهبة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م) .
٣٥ ـ عبدالرحمن بن محمد بن خلدون :
المقدمة ، (بيروت : دار الكتاب اللبناني ١٩٦٠م) .
٣٦ ـ د. عصمت عبداللطيف دندش :
أضواء جديدة على المرابطين ، الطبعة الأولى ، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٩١م) .
٣٧ ـ علي بن محمد :
النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله ، الطبعة الأولى ، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م) .
٣٨ ـ عبدالله الطيب :
المرشد إلي فهم أشعار العرب وصناعتها ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار الفكر ١٩٧٠م) .
٣٩ ـ عبدالله كنون :
ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي ، الطبعة الثالثة ، (بيروت : مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني) .
ـ أدب الفقهاء ، (بيروت : دار الكتاب اللبناني) .
٤٠ ـ الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي، المشهور بابن خاقان (ت٥٢٩هـ) :

- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، الطبعة الأولى ، تحقيق : محمد علي شوابكة ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) .
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، الطبعة الأولى ، تحقيق : د.حسين يوسف خربوش ، (عمّان : مكتبة المنار ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) .
٤١ - د . فوزي سعد عيسى :
- رسائل أندلسية ، الطبعة الأولى ، (الأسكندرية : منشأة المعارف ١٩٨٩م) .
- رسائل ومقامات أندلسية ، (الأسكندرية : منشأة المعارف) .
٤٢ - قدامة بن جعفر :
نقد الشعر ، الطبعة الثالثة ، تحقيق : كامل مصطفى ، (القاهرة : مكتبة الخانجي) .
٤٢ - كراتشكوفسكي :
الشعر العربي في الأندلس ، ترجمة وتعليق : د.محمد منير مرسي ، تقديم : د. أحمد هيكل ، (القاهرة : عالم الكتب) .
٤٣ - محمد بن أبي الخطاب القرشي :
جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، تحقيق : د . محمد علي الهاشمي ، (لجنة البحوث والتأليف) .
٤٤ - محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الحميدي الأزدي (ت٤٨٨هـ) :
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م) .
- تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل ، مخطوطة ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فراتكفورت ، (فرانكفورت : جمهورية ألمانيا الاتحادية) .
٤٥ - أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري (ت٥٢٠هـ) :
سراج الملوك، الطبعة الثانية، (القاهرة : دار الكتاب الإسلامي١٤١٢هـ).

٤٦ ـ أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي الإشبيلي (ت٥٣١هـ) :
إحكام صنعة الكلام ، الطبعة الثانية ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية،
(بيروت : عالم الكتب ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) .
٤٧ ـ أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله السرقسطي (ت٥٣٨هـ):
المقامات اللزومية ، تحقيق : أ. د. حسن عبدالكريم الوراكلي ، (الرباط :
منشورات عكاظ) .
٤٨ ـ محمد بن مسعود الغافقي (ت٥٤٠هـ) :
رسائل ابن أبي الخصال ،الطبعة الأولى ، تحقيق : د. محمد رضوان
الداية ، (دمشق : دار الفكر ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م) .
٤٩ ـ أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي المعافري الإشبيلي (ت٥٤٣هـ)
ـ قانون التأويل ، الطبعة الثانية ، تحقيق : محمد السليماني ، (بيروت :
دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م) .
ـ أحكام القرآن ، الطبعة الأولى ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، (دار
الفكر ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م).
٥٠ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت٥٧٥هـ) :
فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم
وأنواع المعارف ، الطبعة الثانية ، منشورات : (بيروت : المكتب
التجاري ، بغداد : مكتبة المثنى ، القاهرة : مكتبة الخانجي ١٣٨٢هـ ـ
١٩٦٣م) .
٥١ ـ محيي الدين عبدالواحد علي المركشي (ت٦٤٧هـ) :
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : محمد سعيد العريان،
(القاهرة : لجنة إحيا التراث الإسلامي) .
٥٢ ـ أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي المعروف بابن الآبار
(ت٦٥٨هـ) :
الحلة السيراء ، الطبعة الثانية ، تحقيق : د.حسين مؤنس ، (القاهرة :
دار المعارف ١٩٨٥م) .

٥٣ ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ) :
الجامع لأحكام القرآن ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ١٩٦٧م) .
٥٤ ـ لسان الدين محمد بن عبدالله بن سعيد بن الخطيب (ت٧٦٧هـ) :
الإحاطة في أخبار غرناطة ، الطبعة الثانية ، تحقيق : محمد عبدالله عنان ، (القاهرة : الشركة المصرية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م) .
٥٥ ـ محمد عبدالمنعم الحميري :
الروض المعطار في خبر الأقطار ، الطبعة الثانية ، تحقيق د . إحسان عباس ، (بيروت : مكتبة لبنان ١٩٨٤م) .
٥٦ ـ د . محمد إبراهيم البنا :
أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النحو ، الطبعة الأولى ، (تونس : دار أبو سلامة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) .
٥٧ ـ د . محمد رضوان الداية :
تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، الطبعة الأولى ، (مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) .
٥٨ ـ محمد عبدالمنعم خفاجي :
الأدب الأندلسي التطور والتجديد ، الطبعة الأولى ، (بيروت : دار الجيل ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م) .
٥٩ ـ محمد زكي العشماوي :
قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، (بيروت : دار النهضة العربية ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) .
٦٠ ـ د. محمد بن شريفة :
أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، الطبعة الأولى ، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦م) .
٦١ ـ د . محمد عبدالحميد عيسى :
تاريخ التعليم بالأندلس ، الطبعة الثانية ،(دار الفكر العربي ١٩٨٢م).

٦٢ ـ محمد المنتصر الريسوني :
الشعر النسوي في الأندلس ، (بيروت : دار مكتبة الحياة ١٩٧٨م) .
٦٣ـ د . محمد مجيد السعيد :
الشعر في عصر المرابطين والموحدين بالأندلس ، الطبعة الثانية ، (بيروت : الدار العربية للموسوعات ١٩٨٥م) .
٦٤ ـ د . محمد بن مريسي الحارثي :
الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري ، مطبوعات ناد مكة الثقافي الأدبي ، (جدة : دار المدني ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) .
٦٥ ـ د . مصطفى الزباخ :
فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين ، الطبعة الأولى ، (بيروت : الدار العالمية ١٩٨٧م) .
٦٦ ـ د. مصطفى عليان :
تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، الطبعة الأولى ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) .
٦٧ ـ د . مصطفى محمد الشكعة :
الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار العلم للملايين ١٩٩٥م) .
٦٨ ـ منجد مصطفى بهجت :
الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين ، الطبعة الأولي ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م) .
٦٩ ـ هنري بيريس :
الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، الطبعة الأولى ، ترجمة : د. الطاهر أحمد مكي ، (القاهرة : دار المعارف ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٧٠ ـ يوسف بن سليمان بن عيسى ، المعروف بالأعلم الشنتريني (ت ٤٢٦هـ) :
أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، الطبعة الأولى ، (بيروت : دار الآفاق الجدية ١٩٧٩م) .
٧١ ـ يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر(٤٦٣هـ) :
ـ جامع البيان وفضلة ، الطبعة الثانية ، قدم له الأستاذ : عبدالكريم الخطيب ، (القاهرة : دار الكتب الإسلامية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) .
ـ بهجة المجالس وأنس المجالس وشخذ الذاهن والهاجن ، الطبعة الثانية ، تحقيق : محمد مرسي الخولي ، (بيروت: دار الكتب العلمية).
ـ أبو العتاهية أشعاره وأخباره ، تحقيق : د.شكري فيصل ، (دمشق: مكتبة الملاّح) .
ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، تحقيق : أ . مصطفى أحمد العلوي ، أ. محمد عبدالكبير البكري ، (المغرب : وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م) .
٧٢ ـ أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرّومي البغدادي(ت٦٢٦هـ):
معجم البلدان ، (بيروت : دار صادر ١٩٩٥م) .

- الدواوين :

١ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الإلبيري (ت٤٦٠هـ) :
ديوانه ، الطبعة الثانية ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، (دار قيبة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) .
٢ ـ أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي (ت٤٦٣هـ) :
ديوانه ، الطبعة الثالثة ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، (القاهرة : ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م) .
٣ ـ أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ) :

- ديونــه : شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق : محمد عبده عزام ، (القاهرة : دار المعرف ١٩٦٤م) .
- ديوان الحماسة ، الطبعة الثانية ، شرح أحمد بن محمد بن الحسن ، نشره : أحمد أمين ، عبد السلام هارون ، (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م) .
٤ - جرير بن عطية الخطفي (ت ١١٤هـ) :
ديوانــه ، شرح محمد بن حبيب ، تحقيق : د. نعمان محمد أمين طه ، (القاهرة : دار المعارف) .
٥ - جرول بن أوس المعروف بالخطيئة :
- ديوان ، شرح ورواية ابن السكيت ، الطبعة الأولى ، تحقيق : د. نعمان محمد أمين طه ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) .
٦ - أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان (ت٣٥٧هـ) :
ديوانــه ، الطبعة الأولى ، شرح وتقديم : عباس عبدالستار، (بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م) .
٧ - عبدالجبار بن حمديس الصقلي (ت٥٢٧هـ) :
ديوانــه ، صححه وقدم له : د. إحسان عباس ، (بيروت : دار صادر).
٨ - كعب بن زهير بن أبي سلمى :
ديوانــه ، صنعة الإمام أبي سعيد الحسن السكري ، (القاهرة : الدار القومية ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م) .
٩ - لبيد بن ربيعة العامري (ت ٤١هـ) :
ديوانــه ، الطبعة الثانية ، حققه وقدم له : د. إحسان عباس ، (حكومة الكويت ١٩٨٤م) .
رابعاً : المجلات والدوريات :
١ - مجلة الحكمة ، المدنية المنورة ، العدد ١٦ جمادى الثانية عام ١٤١٩هـ)
٢ - جريدة البلاد السعودية ، ملحق التراث ، عدد ١٥٣٠٢ .

* * *

فهرس الموضوعات العام

الموضـــوع	**رقم الصفحة**

الموضـــوع	رقم الصفحة

* * *